

كاتي رايكس
Kathy Reichs

الإثنين

الأسود

رواية

الإثنين الأَسود



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

MONDAY MOURNING

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

SCRIBNER

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم - ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2004 by Temperance Brennan, L.P.

All rights reserved

Arabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الإثنين الأسود

كاتي رايكس

ترجمة
سعيد محمد الحسنية



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي
والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى
بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-173-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التتضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

شكر

أريد توجيه خالص شكري إلى داردين هود، مدير شركة تحاليل بيتا، لتقديره النصح لي بشأن طريقة تأريخ الكربون 14. أشكر و. آلان غورمان وجايمس ك. دبليو. لي، من كلية العلوم الجيولوجية في جامعة كوينز، كينغستون، أونتاريو. أشكر كذلك بريان بيرد من كلية الجيولوجيا في جامعة ويسكونسن، اللذين أعطياي معلومات قيّمة عن علم تحليل طبقات الصخور، ونظير السترونتيوم.

أشكر مايكل فينيغان، من كلية علوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) من جامعة ولاية كنساس، الذي قدّم لي شرحاً عن تحديد عمر العظام عن طريق الأشعة فوق البنفسجية. أشكر روبرت ب. ج. دوريون، الذي يعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي، والذي قدّم إليّ معلومات مهمة عن طريقة البحث عن ملكية العقارات في مونتريال. وأشكر السرجنت بيار مارينو، وهو شرطي خاص يعمل في الأمن العام، وهو الذي قادني في جولة على قصر العدل في مونتريال. أودّ أن أشكر أيضاً كلود بوتيل، الذي يعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي، وهو الذي أجاب عن أسئلة تتعلّق بعلم الأمراض والتشريح.

أعطاني ميشال أبيل كل ما بحوزته من معلومات تتعلّق باليهود. أشكر جيم جونو الذي دقّق بتفاصيل لا حصر لها.

قدّم لي بول رايكس النصح بشأن صلاحية الشاهد الخبير. أظهرت تعليقاته حول النص أنها ذات فائدة عظيمة لي، كالعادة.

أتاح لي مايكل فيليبس مشكوراً استخدام كلمات أغنية "الاثنين، الاثنين".

أدين بشكر وافر لجايمس وودوارد، وهو مستشار جامعة كارولينا الشمالية في مدينة شارلوت، وذلك لدعمه المستمر لأعمالي. أشكر أندريه لازون، رئيس قسم الخدمات، وكل زملائي العاملين في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي.

أشكر محررتي سوزان كيرك، ووكيلة أعمالي جينيفر والش، اللتين أظهرتا الكثير من الصبر، والتفهم، والمساندة الكلية، كعادتهما.

الإهداء

إلى ديبورا ماينر
شقيقتي الصغيرة.
عزيزي هاري.

شكراً على مساعدتكمما الدائمة

آه، يا صباح يوم الاثنين. لم تُنذرنِي
بمَسيأتي...

جون فيليبس،
ماماز وياياز

الفصل 1

الاثنين، الاثنين... ..

لا أستطيع الوثوق في ذلك اليوم... ..

تردد صوت إطلاق النار في أرجاء الطابق السفلي الضيق المساحة، في الوقت الذي كنت أردد فيه هذه الأغنية في ذهني. ارتفع بصري نحو الأعلى، بينما كانت أجزاء من العضلات، والعظام، والأحشاء الداخلية، تتطاير على الجدار الحجري، على مسافة ثلاث أقدام مني فقط.

بدا للحظة أن الجسم المشوه قد تسمّر على الجدار، لكنه ما لبث أن انزلق نزولاً تاركاً لطفة من الدماء والشعر.

شعرت بقطيرات دافئة على خدي، فأسرعت لإزالتها بظاهر قفاز يدي. استدرت وأنا ما زلت مقرصة في مكاني.

- "كفى!"

تقوس حاجبا الرقيب في التحري، لوك كلوديل، بحيث شكلاً حرف V. أنزل الرجل مسدسه من عيار تسعة مليترات، لكنه لم يضعه في غمده.

بدت كلمات كلوديل الفرنسية مجتزأة عند خروجها من أنفه، ما يعكس جذوره الجبلية: "جرذان! لا بد أنها من نسل الشيطان".

صرخت فيه: "يمكنك أن تقذفها بالحجارة".

- "كان ذلك اللعين كبيراً بما يكفي ليردها".

أتعبتني الساعات التي جلست فيها القرفصاء في مونتريال، في يوم الاثنين البارد والرطب هذا من شهر كانون الأول/ديسمبر. أوجعتني ركبتاي عندما أخذت وضعية الوقوف. كنت قد انتعلت جزمة في ذلك اليوم. سألته عندما استدرت نحوه: "أين شاربونيو؟"

- "يستجوب مالك المطعم، وأتمنى أن يوفّق في مهمته. أعرف أن مورون يمتلك معدّل ذكاء عالياً".

أشرت بيدي نحو أرض الغرفة خلفي، "هل المالك هو من اكتشف هذه؟"

- "لا، فالسمكري هو من اكتشفها".

- "وماذا كان يفعل السمكري في هذا القبر؟"

- "لاحظ ذلك العبقري وجود فجوة قرب الخزانة، فقرّر أن يقوم بالاستكشاف في الطابق السفلي كي يتعرّف على نظام أنابيب الصرف".

تذكّرت حالتي عندما نزلت مستخدمةً ذلك السلم المتداعي، فعجبت أن يخاطر أيّاً كان باستخدامه.

- "هل كانت العظام فوق الأرض؟"

- "يقول الرجل إنه تعرّث بشيء عالق بالأرض، هناك".

قرب كلوديل ذقنه من الحفرة القليلة العمق حيث يلتقي الجدار الجنوبي مع الأرض الترابية، ثم أكمل: "أخرج الرجل العظام، وأخذها للمالك. قام الاثنان بتفحص مجموعة التشريح الموجودة في المكتبة المحلية ليتأكّدا أنها عظام بشرية. حرصا على انتقاء كتاب مليء بالصور الملونة، لأنني أعتقد أنهما لا يجيدان القراءة".

أوشكت على طرح سؤال ثانٍ عندما قرّعت أصوات من فوقنا. تطلّعت وكلوديل متوقّعين أن نرى زميله.

رأينا رجلاً في ثياب رثة بدلاً من شاربونيو. كان الرجل يرتدي كنزة تصل إلى ركبتيه، وسروال جينز واسعاً، وحذاءً وسخاً أزرق اللون من ماركة نايك. تدلّت ضفائر شعر الرجل من الجهة السفلى للمنديل الأحمر الذي يلتفّ حول رأسه.

جثم الرجل في المدخل مصوباً نحو آلة تصوير من نوع كوداك، من تلك التي تستخدم لتصوير فيلم واحد فقط.

تضيق حاجبا كلوديل أكثر، بينما أصبح أنفه المعقوف أشدّ حمرةً. "تابرناك!" سمعت قرّعتين للكاميرا قبل أن ينحرف الرجل من مكانه.

وضع كلوديل مسدسه في غمده، وأمسك بالسياج الخشبي، ثم قال: "اقذفي الجردان بالحجارة إلى أن يعود أفراد قسم التحقيقات القضائية".

يُذكر أن قسم التحقيقات القضائية في كيبك يماثل جهاز استرداد مسرح الجريمة في الولايات المتحدة.

رأيت مؤخرة كلوديل وهو يحشر نفسه عبر الفتحة الضيقة المستطيلة الشكل، قبل أن يختفي. لم أذف حجراً واحداً مع أنني شعرت بدافع كي أفعل.

سمعت أصواتاً مكتومة في الطابق العلوي بالإضافة إلى أصوات الجزمات الثقيلة. لم يتردد في الطابق السفلي سوى صوت مولد الأنوار الكهربائية النقال. أمسكت أنفاسي وأصغيت إلى الأشباح المتحلقة حولي. لم أسمع صاصاً، ولا صريراً، ولم أسمع حتى أصوات الأرجل المتراكضة. أجريت مسحاً سريعاً للوضع، ولم ألاحظ أعيناً صغيرة مدوّرة، ولا ذيولاً عارية، أو محرشفة. ألا يحتمل أن تكون هذه المخلوقات التافهة تنظّم نفسها استعداداً لهجوم آخر؟

اتفقت مع كلوديل على شيء واحد: أستطيع العيش من دون القوارض، مع أنني أختلفت معه في طريقة مواجهته لهذه المشكلة. شعرت بالارتياح لكوني وحيداً لبعض الوقت، فاستطعت أن أعيد تركيزي على الصندوق المتعفن الموجود أمامي. يحمل الصندوق الكلمات التالية: منشط الدكتور إنرجي القوي. هل تشعر بإعياء شديد؟ الدكتور إنرجي يجعل عظامك تتحرك ويجعلك ترغب بالرقص.

لا تنطبق هذه الوصفة على هذه العظام بالذات أيها الدكتور!

حدقت بالمحتويات المرعبة لهذا الصندوق. لاحظت أن أحدهم قد نظّف بعض عظام هذا الهيكل العظمي، لكن معظمه بقي مغطى بطبقة من التراب. بدت السطوح الخارجية للعظام بلون كستنائي بسبب الإضاءة القوية الصادرة عن المصابيح المحمولة. شاهدت عظمة ترقوة، وعظام حوض، ولمحت جمجمة بشرية.

اللعة!

سأكرّر القول للمرة السادسة، فلعلّ في التكرار بعض النفع. بكرت يوماً واحداً بالمجيء من شارلوت إلى مونتريال كي أستعدّ للمثول أمام المحكمة يوم الثلاثاء. اتهم رجل بقتل زوجته وتقطيع أوصالها. سأقدم شهادتي بخصوص تحليل آثار المنشار التي أجريتها على جمجمة المرأة المسكينة. بدت القضية معقدة جداً، لذلك رغبت بمراجعة ملفها الذي أعدته. وجدت نفسي، بدلاً من ذلك، أحفر في الطابق السفلي لمطعم يقدم البييتزا.

حضر بيار لامانش إلى مكثبي في وقت مبكر من هذا الصباح. استطعت أن أحمّن سبب مجيئه إليّ ما إن أدركت مغزى نظراته. أبلغني رئيسي أن عظاماً وجدت في قبو مطعم البييتزا. استدعى مالك المطعم رجال الشرطة على الفور، وأسرعت الشرطة لاستدعاء الطبيب الشرعي، الذي استدعى بدوره رجال المختبر الطبي

القضائي. أرادني لامانش أن أتفحص العظام.

- "اليوم؟"

- "من فضلك".

- "لكنني سأمثل أمام المحكمة غداً".

- "هل ستمثلين في محاكمة بيتيت؟"

أومأت برأسي. قال لامانش بفرنسيته الدقيقة ذات اللهجة الباريسية: "يُحتمل أن تكون هذه بقايا عظام حيوانات، وعلى أية حال لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً".

أسرعت إلى تناول دفتر ملاحظاتي وسألته: "أين يقع المكان؟"

قرأ لامانش العنوان من ورقة كان يحملها في يده: "شارع القديسة كاترين، بعد عدة مبانٍ من وسط المدينة، شرقاً".

بدل العنوان على مركز شرطة مدينة مونتريال، حيث يعمل كلوديل. سببت فكرة العمل مع كلوديل إطلاق أول لعنة لي في هذا الصباح.

تتواجد عدة دوائر صغيرة للشرطة في المدينة الجزيرة، أي مونتريال، لكن الدائرتين الأهم لتطبيق القانون هما شرطة كيبيك، وشرطة مدينة مونتريال. تعمل شرطة كيبيك في المناطق المنعزلة، وفي البلدات التي تفتقد للمجالس البلدية. أما مراكز شرطة مدينة مونتريال، فتضم رجال شرطة المدينة. وتقع الجزيرة ضمن صلاحية مركز شرطة مدينة مونتريال.

يعمل لوك كلوديل، وميشال شاربونيو بصفتها تحرّيين في قسم الجرائم الكبرى التابع لمركز شرطة مدينة مونتريال. أما أنا فأعمل بصفة مختصة بعلوم الإنسان الشرعية لمقاطعة كيبيك. عملت مع هذين الشخصين على مدى السنوات الماضية. أستطيع القول إنني استمتعت بالعمل كثيراً مع شاربونيو، أما العمل مع زميله فكان بمثابة معاناة على الدوام. أعتزف أن لوك كلوديل هو رجل شرطة رائع إلا أنه يفتقد إلى الصبر، وهو يماثل فلاد إيمبايلر في حساسيته، وهو لا يكف عن السخرية من فائدة علوم الإنسان الشرعية. لكنه يبقى بالرغم من ذلك رجلاً متأنقاً شديد الروعة.

وجدت صندوق الدكتور إنرجي مليئاً بالعظام المبعثرة، وذلك عندما وصلت إلى هذا الطابق السفلي قبل ساعتين. افترضت أن مالك المطعم هو الذي جمع كل هذه العظام، ولعله فعل ذلك بمساعدة من ذلك السمكري التعيس، لكن بقي على كلوديل أن يعطيني بعض التفاصيل. اقتصررت مهمتي على تحديد ما إذا كانت هذه العظام هي عظام بشرية.

وجدتُ أنها عظام بشرية بالتأكيد. استتبع هذا الاكتشاف استنزال اللعنة الثانية في هذا الصباح. تحدّدت مهمتي التالية في تحديد ما إذا كانت هناك جثة ثانية تقع تحت أرضية القبو. بدأت عملي بثلاث تقنيات استكشافية. استتجت، بعد قيامي بتسليط الضوء الجانبي للمصباح على أرضية القبو، وجود عدة مناطق رخوة أو منخفضات، في سطح التراب. تفحصت هذه المنخفضات لأكتشف طبقة ملبدة تحت كل منخفض، وهو الأمر الذي يشير إلى وجود أشياء تحت السطح. أجريت حفراً اختبارياً فظهرت عظام بشرية.

إنها أنباء سيئة في ما يتعلّق بالمراجعة المتأنية لملف قضية بيتيت. شاركني كلٌّ من كلوديل وشاربونيو في استنزال اللعنات ثلاث، أو خمس مرات عندما أعطيتهما رأيي. أضاف الاثنان بضع كلمات تجديف للتأكيد.

استدعي قسم التحقيقات القضائية إلى المكان. وبدأت وحدة استعادة مسرح الجريمة عملها الروتيني، وأعدت الأنوار من أجل ذلك. التقطت الصور أيضاً، بينما انشغل كلوديل وشاربونيو في هذه الأثناء باستجواب المالك ومساعدته، وأحيط القبو بوحدة رادار تخترق أرضيته. أظهر جهاز الرادار الأرضي هذا بعض الأشياء الغربية في أرضية القبو. تواجدت هذه الأشياء على عمق أربع بوصات في كل منخفض، وبدا القبو خالياً لولاها.

تبرّع كلوديل بتأمين دوريات البحث عن الجردان بمسدسه شبه الآلي، وذلك أثناء استراحة رجال قسم التحقيقات القضائية، بينما شغلت نفسي بوضع شبكتين تتألف كل واحدة من أربعة مربعات. كنت قد فرغت من تثبيت آخر سلك في آخر عمود عندما استمتع كلوديل بلحظة بطولية مع الجردان.

ماذا بقي الآن؟ هل أنتظر عودة خبراء قسم التحقيقات القضائية؟

تماماً.

استفدت من أجهزة قسم التحقيقات القضائية لالتقاط صور وتسجيل شريط فيديو. فركت يديّ بعد ذلك كي أنشط الدورة الدموية فيهما واستبدلت قفازي، ثم جلست القرفصاء وبدأت بإزالة التراب من المربع الذي أعطيته الرقم أ - 1.

انتابني الشعور المعتاد بوجود جريمة ما أثناء انهماكي بالحفر. تسارع التوتر في داخلي، وشعرت بفضولٍ شديد. ماذا لو لم أجد شيئاً؟ وماذا لو وجدت شيئاً؟

شعرت بالقلق. ماذا لو حطمت شيئاً مهماً وأرسلته إلى العدم؟ فكّرت بحفريات أخرى، وبوفياتٍ أخرى. فكّرت بذلك القديس المكرّس في كنيسة المحترقة. وتذكّرت

ذلك المراهق المقطوع الرأس في كوخ صاحب الدراجة، وكذلك أولئك المدمنين على المخدرات الذين أردتهم رصاصات اخترقت أجسادهم، والذين شاهدتهم في قبر قرب ضفة النهر.

لا أعرف كم مضى على حفري للتراب عندما عاد فريق التحقيقات القضائية، لاحظت أن الرجل الأطول بينهم حمل كوباً من الستايروفوم. جهدتُ كي أتذكر اسمه. فكّرت بالجزر. إنه طويلٌ ورفيعٌ مثلُ الجزر تماماً. نجحتُ هذه الحيلة المساعدة للذاكرة. فالجزر يعني راسين باللغة الفرنسية. إنه رينيه راسين الرجل الجديد. سبق لي أن عملت معه لاستعادة عدة مسارح للجرائم. أمّا زميله الأقصر قاماً فيدعى بيار جيلبرت. عرفتُ هذا الرجل منذ عشر سنوات.

ارتشفتُ قهوتي الساخنة، وشرحت للرجلين ما فعلته أثناء غيابهما. طلبت من جيلبرت بعدها أن ينقل التراب ويصوره، بينما طلبت من راسين أن يقوم بالغربة. عدنا إلى الشبكة.

انتهيت من المربع الذي يحمل الرقم أ - 1 بعدما حفرت فيه بعمق ثلاث بوصات، ثم انتقلتُ إلى المربع ب - 1. وعندما انتهيت منهما انتقلتُ إلى المربعين ج - 1 و د - 1.

لم نجد شيئاً غير التراب.

حسناً! أظهر جهاز الرادار المخترق للأرض وجود شيء غير عادي ابتداءً من عمق أربع بوصات تحت السطح.

تابعت الحفر. شعرت بخدرٍ في أصابعي، وأحسستُ بالجليد يخترق عظامي. فقدتُ إحساسي بالوقت.

استمرّ جيلبرت بنقل دلوٍ إثر دلوٍ من التراب الذي استخرجته من شبكتي، ووضعها في الغريال. انهمك راسين بالغربة. وانشغل جيلبرت أيضاً بأخذ الصور بين حين وآخر. انتهيت من إفراغ التراب من الشبكة الأولى على عمق ثلاث بوصات، ثم عدت إلى المربع رقم أ - 1. رحلتُ أحفر التراب حتى عمق ست بوصات، أي كما فعلت من قبل.

لم أكد أنتهي من محاولتي الثانية في المربع ب - 1 حتى لاحظتُ تغييراً في لون التراب. طلبت من جيلبرت أن يعدل لي وضع المصباح. تسببت النظرة الأولى بتسارع شديد في نبضات قلبي. "تجحنا أخيراً".

تساءل جيلبرت: "تجئنا بماذا؟"

مررت طرف المالح حول الحافة الخارجية للبقعة التي تقع داخل المربع ب - 1.

قال راسين ملاحظاً: "يبدو لون التراب أغمق هنا".

أجبتة شارحةً السبب: "يشير التبع إلى عملية تحلل".

نظر التقنيان نحوي بذهول.

أشرت إلى المربعين ج - 1 ود - 1 وقلت: "يتجه شخص ما، أو شيء ما جنوباً

تحت ذلك المكان".

سألني جيلبرت: "أتريدان إبلاغ كلوديل؟"

- "دعه يمضي يومه".

بعد مضي أربع ساعات شعرت بالجليد يغزو أصابعي. ارتجفت بشدة داخل سترتي المقلنسة غير القابلة للاختراق، والتي تبقى صالحة حتى أربعين درجة مئوية تحت الصفر، برغم وضعي لوشاح حول رقبتني، وبرغم القلنسوة الصوفية التي أعتمرها على رأسي.

جال جيلبرت في أرجاء القبو ليأخذ صوراً من زوايا مختلفة، بالإضافة إلى التقاطه صوراً بالفيديو، لكن راسين بقي يراقب واضعاً يديه تحت إبطيه طلباً للدفاء، رغم أنه كان يرتدي القفازات. بدا الرجلان مرتاحين في بذلتيهما القطبيتين.

وقف رجلا البوليس السريان، كلوديل وشاربونيو جنباً إلى جنب في وضع الاستعداد وقد شبك كل منهما يديه. ارتدى كل من الرجلين معطفاً صوفياً أسود اللون وقفازات جلدية سوداء اللون، لكن وجهيهما لم يعبرا عن الحبور أبداً.

توزعت بضعة جردان مبيّنة عند أسفل الجدران.

لاحظت أن الحفرة التي استخدمها السمكري والمنخفضين، كانت مفتوحة كلها على عمق قدمين. وجدت بعض العظام المبعثرة في تلك الحفرة، والتي لا بد أن السمكري وصاحب المطعم قد تركاها، لكن الأمر كان مختلفاً مع المنخفضين. لاحظت أن الهيكل العظمي الموجود تحت الشبكة الأولى هو في وضع جنيني. لم أجد أية ثياب حول ذلك الهيكل، ولم نجد أية مصنوعات من أي نوع كان في الغربال.

استنتجت أن الشخص الموجود تحت الشبكة الثانية كان مربوطاً قبل دفنه، وبدت كل الأجزاء تابعة لذلك الهيكل العظمي. نفضت آخر حبة تراب عن ذلك الهيكل

العظمي الموجود في الحفرة الثانية، ثم وضعت جانباً فرشاتي، ووقفت وأنا أضرب قدمي بالأرض كي أدفنهما.

بدا صوت شاربونييو أجش نتيجة البرد حينما قال: "هل هذه بطانية؟"

أجبتة: "يبدو لي كأنها مصنوعة من الجلد".

لكز الرجل صندوق الدكتور إنرجي بإيهامه.

- "هل هذا كل ما بقي من ذلك الرجل المديني في الصندوق؟"

وُلد الرقيب ميشال شاربونييو في شيكوتيمي، وهي بلدة تبعد مسيرة ست ساعات عن مونتريال باتجاه أعالي نهر سان لورنس، وتقع في منطقة تدعى ساغناي. أمضى ميشال عدة سنوات وهو يعمل في حقول النفط الموجودة في تكساس الغربية، وذلك قبل انضمامه إلى مركز شرطة التحقيقات القضائية. اعتاد شاربونييو على مخاطبتي بلغتي الأم بسبب نشأته الأولى وسط رعاة البقر. لاحظت أن لغته الإنكليزية كانت جيدة بالرغم من استبداله بعض المقاطع بمقاطع أخرى، بالإضافة إلى النطق غير الصحيح تماماً لهذه المقاطع. لاحظت أيضاً كثرة استخدامه للكلمات العامية.

- "لنأمل ذلك".

انطلقت غيمة صغيرة من الرذاذ المتطاير من فم كلوديل: "أتأملين ذلك فعلاً؟"

- "أجل سيد كلوديل، أنا أمل ذلك".

زَمَ كلوديل شفتيه، لكنه لم ينبس ببنت شفة. انتهى جيلبرت من التقاط الصور للجنة المربوطة. جثوثٌ بعدها على ركبتي وسحبت طرف القطعة الجلدية، لكنها تمزقت. بدلت قفازاتي الصوفية الدافئة بقفازاتي الطبية، وانحنيت كي أبدأ بتحريك الطرف الظاهر من تلك القطعة. انفصلت الطبقة الخارجية بسهولة فرفعتها ثم طويبتها. انسلخت الطبقة الخارجية بالكامل لجهة اليسار، فبدأت بالعمل على الطبقة الداخلية. لاحظت أنه في بعض الأماكن التصقت الألياف بالهيكل العظمي. ارتجفت يداي نتيجة التوتر والعصبية، لكنني تمكّنت من انتزاع بعض الجلد المتعفن من العظمة التي التصقت عليها.

سألني راسين: "ما هي تلك المادة البيضاء؟"

- "إنها مادة لزجة".

ردّد الرجل من بعدي: "مادة لزجة".

لم أكن بمزاج يسمح لي بإعطاء درس في الكيمياء لكنني أجبتة: "تدعى شمع القيور، وهي مادة تتألف من الحوامض الدهنية والكالسيوم تتساق من العضلات، أو

هي الدهون التي تتعرض لتغيرات كيميائية. يحدث هذا الأمر عادةً بعد وقت طويل من دفن الجثة، أو تغطيسها في الماء".

- "لماذا لم تظهر هذه المادة في الهيكل العظمي الآخر؟"

- "لا أعرف".

سمعت كلوديل ينفخ الهواء من خلال شفتيه، لكنني تجاهلته. نجحت بفصل الطبقة الداخلية من الكفن ووضعها جانباً، وهكذا أصبح الهيكل العظمي ظاهراً بالكامل. بقيت الجمجمة سليمة بالرغم من الضرر الذي لحق بهذا الهيكل العظمي.

صرّح شاربونييو بما نعرفه جميعاً: "ثلاثة رؤوس لثلاثة أشخاص".

قال كلوديل: "هذا ما يبدو".

قلت: "اللعة".

بقي جيلبرت وراسين صامتين.

سأل شاربونييو: "أليكم فكرة عن هذه الأشياء الموجودة أمامنا أيتها الدكتورة؟" وقفت بسرعة بينما تبعثني ثمانية عيون عندما سرت نحو صندوق الدكتور إنرجي. بدأت بإفراغ قطع العظام واحدةً فواحدةً، ولاحظت من بينها نصفي حوض، ثم ظهرت الجمجمة. عبرت باتجاه الأخدود الأول، ركعت، ثم بدأت باستخراج هذه العظام وتفحصها.

يا إلهي!

أعدت العظام إلى مكانها ثم زحفت نحو الأخدود الثاني. انحنيتُ وبدأت بتفحص تلك الجمجمة. لا... ليس مجدداً. الضحايا المعهودة.

تفحصت النصف الأيمن للحوض. تكتفت الأنفاس أمام وجوه الحاضرين الخمسة. انتصبتُ واقفةً ونظفتُ التراب من عظام منطقة العانة.

شعرت ببرودة غريبة تنساب إلى صدري. إنهن ثلاث نساء أكبر قليلاً من فتيات.

الفصل 2

استيقظت صباح يوم الثلاثاء على نشرة الأحوال الجوية. عرفت عندها أنني سأواجه برداً قاتلاً. لم تكن موجة البرد هذه تشبه درجة الحرارة العادية المتدنية، التي اعتدنا عليها في شهر كانون الثاني/يناير في كارولينا الشمالية. إنني أتحدث هنا عن درجة حرارة أدنى من الصفر بكثير، ولعلها تقترب من برد المنطقة القطبية. أتحدث عن البرد الذي يقتلك إذا لم تواظب على الحركة.

أنسا أعشق مونتريال. أحبّ جبلها الذي يقلّ ارتفاعه قليلاً عن ثمانماية قدم، أحبّ ميناءها القديم، وإيطاليا الصغيرة، والحي الصيني، وقرية غاي، وناطحات السحاب المكوّنة من الفولاذ والزجاج في وسط المدينة، وأحبّ كذلك الأحياء المكتظة وممراتها وحجارتها الرمادية، بالإضافة إلى درج هذه الأحياء الحجرية الرائعة.

لا تكفّ مونتريال عن الصراع مع ذاتها، فهي مدينة محيرة. تتصارع في هذه المدينة الثقافتان الإنكليزية والفرنسية. ويتصارع الانفصاليون مع الاتحاديين. يتصارع كذلك الكاثوليك والبروتستانت. ويحارب القديم الجديد. إنني أجد هذه المدينة مدهشة، وأستمع فيها بالامبانادا، وبالفلافل، والبوتين، وكذلك بكونغ باو، ذلك المكان المتعدد الثقافات. أستمع أيضاً بحانة هيرلي الإيرلندية، وبالكاتسورا، والإكسبرس، وفايرمونت بايغل، وأستمع كذلك بتراتوريا تريستيفير.

اعتدت المشاركة بمهرجانات المدينة التي لا تنتهي: مهرجان الجاز الدولي، ومهرجان الطعام الدولي، ومهرجان السينما العالمي، ومهرجان تنوّق الحشرات الذي يقام في المكان المخصّص لحفظها. اعتدت أيضاً على زيارة المتاجر الموجودة في سانت كاترينا، والأسواق المقامة في الهواء الطلق الموجودة في جان - تالون وأتواتر، بالإضافة إلى محلات التحف المحاذية لنوتردام. تعودت أيضاً أن أزور المتاحف، وأن أتنزّه في الحدائق العامة. كما استمتعت بركوب الدراجة الهوائية في الممرات المحاذية لقناة لاشين. استمتعت في الواقع بكل هذه النشاطات.

لكنني لا أستمع أبداً بالمناخ الذي يسود في الفترة الممتدة ما بين شهري تشرين

الثاني/نوفمبر وحتى أيار/مايو .

أعترف أنني عشت في الجنوب لفترة طويلة جداً، ولهذا أكره أن أشعر بالجليد. أعترف أيضاً أنني أتمتع بالقليل من الصبر في ما يتعلّق بالثلج والجليد. يفرض علينا الجليد ارتداء الأحذية العالية الثقيلة، وكذلك الحفاظ على عصا التزلج، والبقاء في الفنادق المجهزة لمواجهة الجليد. أفضل، بدلاً من ذلك ارتداء السراويل القصيرة، وزوج من الصنادل، والمشي لمسافات طويلة.

يشاركني هرّي بيردي في هذا الرأي. يسارع هذا الهر إلى النهوض عندما أقف، ثم يتقوّس، ثم يسارع إلى العودة إلى دفء الأغطية. ابتسمت عندما راقبت جسمه يتكوّر ليصبح كرة مستديرة ومشدودة. إن بيردي هو شريك غرفتي الوحيد والمخلص. أقفلت منبه جهاز الراديو وقلت له: "أنا معك يا بيرد".

أصبحت الكرة المكوّنة من جسم هذا الهر مشدودة أكثر.

تطلّعت نحو أرقام الساعة في جهاز الراديو، فوجدت أنها تشير إلى الخامسة والنصف تماماً. نظرت من النافذة. ما زال الظلام حالكاً. اندفعت نحو الحمام.

جلست إلى طاولة مطبخي بعد مضي عشرين دقيقة، حيث كانت القهوة جاهزة في متناول يدي، وامتدّ أمامي أيضاً ملف قضية بيتيت.

كانت ماري راين بيتيت، التي تبلغ الثانية والأربعين من عمرها، أمّاً لثلاثة أولاد. عملت هذه المرأة في محلّ لبيع الخبز، لكنها اختفت قبل سنتين. مضت أربعة أشهر قبل اكتشاف جذع ماري راين المتحلل في كيس هوكي. وُضع هذا الكيس في كوخ تخزين يقع خلف منزل بيتيت، أما رأس ماري راين وأطرافها فقد أخفيت في حقائب مماثلة وضعت في مكان مجاور.

كشف البحث الذي أجري في الطابق السفلي لمنزل الضحية عن وجود مناشير حديدٍ ومناشير نجارين، وأنواع أخرى من المناشير القوية. أُجريت بعد ذلك تحليلاً على آثار عملية النشر الظاهرة على عظام ماري راين، وذلك بهدف تحديد ما إذا كانت قد نتجت عن أداة تترك أثراً تماثل تلك التي تتركها إحدى أدوات الزوج. اكتشفت أن هذا ينطبق على منشار الحديد الذي يستخدمه الزوج الذي سيمثل اليوم أمام المحكمة بتهمة قتل زوجته.

مرّت ساعتان، شربت خلالهما ثلاثة أكواب من القهوة. جمعت الصور والأوراق الخاصة بهذه القضية وأعدتُ تفحصُ مذكرة الإحضار للإدلاء بشهادتي. إنها مذكرة إحضار شخصية صادرة عن هيئة المحكمة الجنائية التابعة لمحكمة كيبيك، قصر العدل

في مونتريال، الحضور عند الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث من شهر كانون الأول/ديسمبر...

يا للروعة! إنها دعوة شخصية للإدلاء بالشهادة. إنها شخصية مثلما هي دعوات حضور جلسات تدقيق الضرائب، لكن من دون انتظار إعطاء الجواب بالموافقة. توجّهت إلى قاعة المحكمة.

انتعلت حذائي الطويل وتدفّرت بسترتي المقلّنة، وتناولت قفازي، وقبعتي، ووشاحي، ثم شغلت جهاز الإنذار، وانطلقت أخيراً نحو المرآب. يبدو أن هرتي يستمتع الآن بفطور مبكر.

اشتغل محرك سيارتي المازدا القديمة من المحاولة الأولى. يا للفال الحسن! انطلقت بسرعة من المرآب، واضطرت لاستخدام المكابح على الفور، ثم انطلقت في الممر الضيق مثل ولد يتزحلق في الطريق. اعتبرت هذا فالاً سيئاً.

إنها فترة الازدحام في الطرقات. ضاقت الشوارع بالسيارات التي شاهدها تسننثر الجليد تحت عجلاتها. تسببت شمس الصباح الباكر في جعل زجاج سيارتي الأمامي ضبابياً نتيجة حبيبات الملح المتناثرة فوقه. وجدت نفسي وأنا أقود سيارتي على غير هدى بالرغم من أنني شغلت المساحات، ومرذاذات المياه. ندمت كثيراً بعدما قطعت مسافة قليلة لأنني لم استخدم سيارة أجرة.

يُذكر أنه في أواخر القرن السادس عشر قدمت مجموعة من الهنود الأميركيين من موطنها في نيويورك لتستوطن قرية تدعى هوشيلاجا تقع ما بين جبل صغير ونهر كبير. تقع هذه القرية تحت آخر مجموعة كبيرة من الشلالات. وجاءت مجموعة من المرسلين والمغامرين الفرنسيين لتستوطن في هذه القرية في العام 1642. أطلق الفرنسيون اسم قرية ماري على هذا المركز المتقدم.

ازدهرت أحوال سكان قرية ماري مع مرور السنين، فشيّدوا المباني وعبدوا الشوارع. أخذت هذه القرية في ما بعد اسم الجبل القابع خلفها، أي جبل ريل، أما النهر نفسه فقد حمل اسم القديس لورنس.

أهلاً وسهلاً بالأوروبيين، ووداعاً أيتها الأمم القديمة.

تُعرف محمية هوشيلاجا - قرية ماري القديمة، الآن باسم مونتريال القديمة، وهي محبوبة جداً من قبل السياح. تزخر مونتريال القديمة بالجاذبية في امتدادها من النهر حتى المرتفعات، فمصاييح الغاز ما تزال منتصبّة على الأعمدة، وما زالت العربات التي تجرّها الخيول تتهادى في شوارعها، كما أنك تستطيع مشاهدة باعة

الأرصفة، ومقاهي الهواء الطلق. تنتصب أيضاً المباني المشيدة بالحجر الصلد، والتي سكنها المستعمرون ذات يوم، وكذلك تتواجد إسطبلات الخيول، والورش، والمستودعات التي تحولت إلى متاحف، بالإضافة إلى المحلات الصغيرة، والصالات الفنية، والمطاعم. ويلاحظ أن الشوارع الضيقة مرصوفة بالحجارة. ولا مكان هنا ليركن المرء سيارته في هذه الشوارع.

تمنيت مرة أخرى لو أنني استقلت سيارة أجرة. سارعتُ إلى إيقاف سيارتي في موقف للسيارات. انطلقت بعدها في شارع سان لوران باتجاه قصر العدل الذي يقع في المبنى رقم واحد في نوتردام. يقع المبنى في الطرف الشمالي للحي التاريخي. أحسست بالملح يفتت تحت قدمي، وبدأت أنفاسي تتجمد على وشاحي. بقيت الحرائم رابضةً عند مروري بالقرب منها، ولعلها فضلت الإحساس بالدفع الجماعي بدلاً من شعورها بالأمن الذي تستمده من الطيران.

فكرت أثناء المشي بالهياكل العظمية الموجودة في قبو مطعم البيئزا. هل سيثبت أن هذه العظام تعود للبنات المقتولات؟ تمنيت أن لا يكون الأمر كذلك، لكنني أعرف في قرارة نفسي أن هذا هو الواقع. فكرت أيضاً بماري راين، وشعرت بالأسى على حياة جرى اختصارها بحقد عميق. فكرت أيضاً بأولاد بيتيت الذين سجن والدهم لأنه قتل والدتهم. هل يستطيع هؤلاء الأولاد في يوم من الأيام أن ينسوا ما حدث لهم، أم أن ضرراً لا يمكن إصلاحه قد حدث لهم نتيجة الرعب الذي نزل بهم؟

تطلعت أثناء مروري على فرع ماك دونالد الذي يقع على الضفة الثانية من نهر سان لوران، أي مقابل قصر العدل. لاحظت أن المالكين وجهوا ضربة لنمط البناء الاستيطاني. أهمل هؤلاء الأقواس، وأكثروا من السقائف الزرقاء التي تظلل النوافذ. لم ينجحوا في تحسين المنظر العام، لكنهم حاولوا على أية حال.

لم يهتم المصممون الذين عملوا على بناء مبنى المحكمة الأساسي بالتناسق الهندسي. تشكل الطوابق الأرضية لهذا المبنى صالة مستطيلة الشكل. أحيطت هذه الصالة بقضبان معدنية سوداء اللون تتدلى فوق المنصة ذات الواجهة الزجاجية الموجودة تحتها. ترتفع الطوابق العلوية نحو السماء آخذة شكل مسلات من دون ملامح خاصة بها. يظهر هذا المبنى مع المباني المجاورة وكأنك وضعت سيارة هامر في تجمع سكني لطائفة الأمي الأميركية.

دخلت أخيراً مبنى قصر العدل المزدهم. شاهدت في الداخل خليطاً من السيدات المسنات اللواتي يرتدين معاطف فراء تصل حتى كواطنهن، والمراهقين الشبان الذين

ارتدوا ملابس فضفاضة جداً. شاهدت كذلك رجالاً يرتدون بذلات رسمية، ومحامين في أرديتهم السوداء. لاحظت أن بعض هؤلاء الأشخاص يقف في حالة انتظار، بينما بدأ آخرون في عجلة من أمرهم، لكنني لم أشاهد أشخاصاً من غير هؤلاء أو أولئك. شققتُ طريقي ما بين أحواض شتول الزينة، وأعمدة الإضاءة المنتصبة والمنتشرة بشكل عمودي، ثم وصلت إلى مجموعة من المصاعد المتواجدة في نهاية الرواق. جذبتني رائحة القهوة التي ملأت المكان والمنطقة من مقهى فيينا. فكّرت كثيراً في تناول رابع كوب لي من القهوة، لكنني استبعدت الفكرة.

بدأ المشهد في الطابق العلوي مماثلاً لذلك الذي في الأسفل، لكنني لاحظت أن الناس هنا قد دخلوا في لعبة الانتظار. جلس الناس على مقاعد معدنية طويلة مخزومة حمراء اللون، لكن أشخاصاً آخرين فضلوا الوقوف مستندين إلى الجدران، بينما أخذ آخرون بالتحدث هامسين مع بعضهم بعضاً. لاحظت أن عدة أشخاص تواجدوا في غرف الاجتماعات الصغيرة التي تملأ الرواق، وذلك من أجل التشاور مع موكليهم. لم يبدو لي أن أيّاً من هؤلاء كان سعيداً.

اخترت مقعداً أمام الغرفة ذات الرقم 401، وتناولت ملف قضية بيتيت من حقيبة يدي. خرجت لويز كلوتيه من غرفة المحكمة بعد مرور عشر دقائق. بدت لويز في السابعة عشرة من عمرها بشعرها الأشقر الطويل، ونظارتها الكبيرتين. لاحظت أن وجه كلوتيه كان متجهماً عندما أخبرتني: "ستكونين شاهديتي الأولى".

أجبتها: "أنا جاهزة".

- "ستكون شهادتك حاسمة جداً في هذه القضية".

تحركت أصابع كلوتيه لتتزع مشبكاً للأوراق. أرادت أن نلتقي في اليوم السابق، لكن مهمتي في قبو مطعم البيترزا منعت هذا اللقاء. لم تستطع محادثتنا الهاتفية منحها التحضير الكافي الذي تريده، لكنني حاولت طمأنتها.

- "لا أستطيع ربط العلامات التي ظهرت على عظام بيتيت مع ذلك المنشار الحديدي بالذات، لكنني أستطيع القول بكل ثقة إن هذه العلامات أحدثتها أداة مشابهة له".

أومأت كلوتيه: "هل هي علامات متشابهة؟"

أجبت موافقةً: "إنها متشابهة".

- "ستكون شهادتك حاسمة، لأن بيتيت ادعى في إفادته الأولية أنه لم يرَ ذلك المنشار أبداً. وستشهد محللة تعمل في مختبرك أنها أقدمت على نزع مقبض المنشار،

فوجدت آثاراً صغيرة من الدماء عالقةً في مكان أحد البراغي".
علمت هذه الأمور من محادثتنا الهاتفية التي جرت في الليلة السابقة. أخذت
كلوتيه بسرد دقائق قضية بيتيت من أجلها، ومن أجلي أنا أيضاً.
- "سيشهد أحد الخبراء المختصين بتحليل الحمض النووي، أن آثار الدماء هذه
تعود إلى بيتيت. ستربط هذه الشهادة ما بينه وبين المنشار".
علقتُ قائلةً: "وسأقوم أنا بإثبات علاقة المنشار مع الضحية".
أومأت كلوتيه: "يشدد هذا القاضي كثيراً على مسألة صلاحية الخبراء".
- "أليس القضاة كلهم كذلك؟"

ظهرت ملامح ابتسامة عصبية على محياها: "سيناديك حاجب المحكمة في
غضون خمس دقائق".

استغرق الأمر ما يقارب العشرين دقيقة.

يصعب وصف قاعة المحكمة بالحدائثة، لكن يمكن القول إنها نموذجية. أحيطت
الجدران بأقمشة رمادية اللون، وغطيت الأرضية بسجاد رمادي اللون، كما غطى
القماش الرمادي مقاعد الغرفة الطويلة. تظهر الألوان الوحيدة في هذه القاعة في
المسرح المركزي، أي داخل البوابات التي تفصل المتفرجين عن المعنيين الأساسيين،
أما مقاعد المحامين فقد كانت ذات أقمشة بالألوان الحمراء، الصفراء، والبنية. تذكرنا
هذه الألوان بألوان علمي كندا وكيبك ذات الألوان الزرقاء والحمراء والبيضاء.

امتألت مقاعد الجمهور بما يزيد عن عشرة أشخاص. تبعتني الأعين عندما
توجّهت نحو الممر الأوسط كي أقف على منصة الشهود. جلس القاضي في مواجهتي
إلى اليسار، بينما جلس المحلفون بمواجهتي مباشرة، وشاهدت السيد بيتيت جالساً إلى
يميني.

سبق لي وقدمت شهادتي عدة مرات في السابق، ووقفت بمواجهة رجال ونساء
متهمين بجرائم رهيبه مثل القتل، الاغتصاب، التعذيب، وتقطيع الأوصال. لم ينجح
المتهمون بإثارة تعاطفي تجاههم، ولم تكن هذه المرة استثناءً. بدا ريجان بيتيت رجلاً
عادياً، بل رجلاً جباناً. تخيلت أن هذا الرجل يُمكن أن يكون عمي فرانك.
أقسمت اليمين بمساعدة كاتب المحكمة. نهضت كلوتيه وبدأت باستجابتي من
أمام طاولة الادعاء.

- "صرّحي باسمك الكامل من فضلك".

- "تمبرانس ديسي برينان".

تحدثنا بواسطة مكبرات الصوت المتدلية من السقف، وكانت أصواتنا هي الوحيدة المسموعة في القاعة.

- "ما هي مهنتك؟"

- "أنا مختصة بعلم الإنسان الشرعي".

- "كم مضى عليك من الوقت وأنت تزاولين مهنتك؟"

- "ما يقارب العشرين سنة".

- "وأين تمارسين مهنتك؟"

- "أنا أستاذة جامعية متفرغة في جامعة كارولينا الشمالية في مدينة شارلوت.

وأنا عالمة بعلم الإنسان الشرعي لمقاطعة كيببوك، في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي الموجودة في مونتريال. أتولى أيضاً المنصب نفسه في ولاية كارولينا الشمالية عن طريق مكتب رئيس دائرة الطب الشرعي، في مركزه الكائن في شابل هيل".

- "هل أنت مواطنة أميركية؟"

- "نعم. أمتلك أيضاً رخصة عمل كندية. وأقسم وقتي ما بين مونتريال وشارلوت".

- "كيف تفسرين مسألة أن أميركية تحتل مركز العالم بعلم الإنسان الشرعي في مقاطعة كندية؟"

- "لا يوجد مواطن كندي يمتلك رخصة لمزاولة هذه المهنة، ويتكلم الفرنسية بطلاقة، في الوقت ذاته".

- "سنعود لاحقاً لمسألة الترخيص القانوني. هل لك من فضلك أن تصفي لنا مؤهلاتك العلمية؟"

- "أحمل درجة بكالوريوس في علم الإنسان من الجامعة الأميركية في واشنطن العاصمة، وأحمل درجتَي ماجستير ودكتوراه في علم الإنسان الإحيائي من جامعة نورث وسترن في إيفانستون، ولاية إلينوي".

تلقيت بعد ذلك سبلاً من الأسئلة المتعلقة بدراسات التخرج التي أنهيتها، وبمواضيع أطروحتي التي أعدتها لنيل درجة الدكتوراه، وعن أبحاثي، وعن المنح التي تلقيتها، وعن منشوراتي أيضاً. دارت هذه الأسئلة حول الأمكنة، والأوقات، والأشخاص الذين عملت معهم، والصحف التي كتبت فيها. وصلت لدرجة ظننت معها

أنها ستسألني عن لون ملابسي الداخلية التي ارتديتها يوم دافعت عن أطروحتي.

- "هل ألفتِ كتاباً، دكتورة برينان؟"

عددتها لها.

- "هل تنتمين إلى أية اتحادات مهنية؟"

عددتها لها.

- "هل توليت مناصب في إحدى هذه الاتحادات؟"

عددتها لها.

- "هل تمتلكين رخصةً من هيئة تنظيمية؟"

- "أنا مجازة من قبل المجلس الأميركي لعلم الإنسان الشرعي".

- "هل لك أن تصفي للمحكمة معنى ذلك من فضلك؟"

أسهبت هنا في وصف عملية تقديم الطلب، والامتحان، والسجل الأخلاقي، وشرحت كذلك أهمية المجالس التي تصدر التراخيص في عملية تقييم أهلية الذين يقدمون أنفسهم بوصفهم خبراء.

- "هل هناك من مجال آخر تمارسين فيه مهنتك، غير المختبرات الطبية

الشرعية الموجودة في كيبك، وكارولينا الشمالية؟"

- "عملتُ لصالح الأمم المتحدة، ولصالح المختبرات المركزية للتحقق من الهوية

التابعة للجيش الأميركي والموجودة في هونولولو، هاواي. عملت أيضاً بصفتي أستاذة في الأكاديمية التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي الموجودة في كوانتيكو، فيرجينيا. عملت أيضاً بصفتي أستاذة في الأكاديمية الكندية الملكية لتدريب رجال الشرطة الفرسان الموجودة في أوتاوا، أونتااريو، وأنا عضو في فريق الاستجابة للكوارث القومية وأقدم استشاراتي الخاصة للزبائن أحياناً".

جلس أعضاء هيئة المحلفين بسكون، إمّا نتيجة الدهشة، إمّا نتيجة استسلامهم

لغيبوبة مفاجئة. لاحظت أن محامي بيتيت لم يدون أية ملاحظات.

- "أخبرينا يا دكتورة برينان من فضلك ما هو عمل العالم بعلم الإنسان

الشرعي؟"

وجّهت هنا حديثي لهيئة المحلفين مباشرةً.

- "يختص علماء علم الإنسان الشرعي بالهيكل العظمي البشري. يتم استدعاؤنا،

أحياناً وليس دائماً، للفصل في هذه القضايا من قبل الأطباء الذين يفحصون الجثث بعد

الوفاة. تبرز أهمية خبرتنا عندما يصبح التشريح العادي، الذي يركّز على الأعضاء والأنسجة اللينة، عاجزاً عن فحص العظام، أو عندما تكون قدرته محدودة في هذا المجال. يتوجّب علينا هنا أن نجري فحوصاً لنجد أجوبة لأسئلة حاسمة".

- "ما هي أنواع هذه الأسئلة؟"

- "تركّز الأسئلة عادةً على هوية الضحية، وعلى طريقة الوفاة، والتشويه الحاصل بعد الوفاة، أو أية تشويهاً أخرى".

- "كيف يمكنك المساعدة بالأسئلة المتعلقة بهوية الضحية؟"

- "أستطيع عند تحليل البقايا العظمية أن أفتح سجلاً بيولوجياً يتضمّن عمر، وجنس، وعرق الضحية. وأستطيع في حالات محددة أن أقرن العلامات التشريحية الملحوظة عند شخص غير محدّد الهوية، مع علامات مشابهة لها يحملها فرد حي ومعروف الهوية عن طريق صور الأشعة السينية".

- "ألا تتمّ معظم عمليات تحديد الهوية باستخدام بصمات الأصابع، وسجلات الأسنان، أو الحمض النووي؟"

- "أجل، لكن إذا أردنا الاستفادة من المعلومات الطبية، أو تلك المتعلقة بالأسنان، يصبح من الضروري أولاً أن نقلّل عدد الاحتمالات المتعلقة بالنموذج الموضوع تحت الدراسة. ويستطيع ضابط التحقيق أن يراجع السجلات البيولوجية المتعلقة بالأشخاص المفقودين، وأن يضع قائمةً بالأسماء، ثم يستحصل على السجلات الإفرادية، وذلك بهدف مقارنتها مع المعطيات المتعلقة بالبقايا المكتشفة. إننا نقدم عادةً المستوى الأول من التحليلات المتعلقة بمجموعة البقايا المجهولة تماماً".

- "كيف يمكنك المساعدة في ما يتعلّق بالمسائل المتعلقة بطريقة الموت؟"

- "يستطيع علماء الإنسان الشرعيون إعادة رسم مسار الأحداث التي تسببت بصدمة معينة، وذلك عن طريق تحليل أنماط الكسور".

- "ما هو نوع الصدمات التي تقومين بفحصها عادةً، دكتورة برينان؟"

- "أفحص الطلقات النارية، والأدوات الحادة، وكذلك الأدوات غير الحادة. أفحص كذلك حالات الخنق. دعيني أركّز مجدداً على أن هذا النوع من الخبرات يُطلب فقط في الحالات التي تكون فيها الجثة في حالة غير طبيعية، إلى درجة يصعب معها الإجابة عن تلك المسائل بواسطة تفحص الأعضاء ذات الأنسجة اللينة فقط".

- "ماذا تعنين بعبارة حالة غير طبيعية؟"

- "أعني عندما تكون الجثة متحللة، أو محترقة، أو محنطة، أو في حالة وجود الهيكل العظمي فقط..."

- "هل يشمل ذلك تقطيع الأوصال؟"

- "نعم".

- "شكراً لك".

استعاد أفراد هيئة المحلفين نشاطهم، وتطلع ثلاثة منهم نحو بيون مفتوحة. لاحظت امرأة تجلس في الخلف وقد وضعت يدها على فمها.

- "هل سبق لك ونلت الأهلية من محاكم مقاطعة كيبيك، أو أماكن أخرى، لكي

تعملي بصفتك شاهدة مختصة في قضايا المحاكم الجنائية؟"

- "أجل. نلت هذه الأهلية عدة مرات".

التفتت كورتييه نحو القاضي.

- "إننا نقرّ، يا حضرة القاضي المبجل، أن الدكتورة تمبرانس برينان هي خبيرة

في حقل علم الإنسان الشرعي".

لم يصدر عن هيئة الدفاع أي اعتراض. انتهينا من الاستجواب.

انتهت كلوتيه من استجوابي عند الظهيرة. شعرت بانقباض في معدتي عندما

نهض محامي الدفاع. فكّرت أن الوقت قد حان الآن للأوقات الصعبة. اعتقدت أن

الدفاع سوف يعمد إلى تشويه مؤهلاتي، وسيشكك بي، حتى إنه قد يكون بذيئاً. لكن

برهن محامي بيتيت على أنه مهذب ولطيف. وانتهى كل شيء عند الساعة الخامسة.

تبين لي لاحقاً أن هذا الاستجواب ليس شيئاً مقارنةً مع الخطر الشديد الذي

سأواجهه أثناء معالجاتي للعظام الموجودة في قبو مطعم البيترز.

الفصل 3

خرجت من قاعة المحكمة فوجدت الظلام الدامس يخيم على المدينة. تراقصت الأنوار البيضاء في الأشجار المحيطة بشارع نوتردام. مرّت بقربي عربة خيل ذات سطح قابل للطي ومزينة بالأغطية والشراشيب الحمراء اللون، بالإضافة إلى غصن صنوبر. تطايرت حبيبات الثلج حول أنوار المصابيح الغازية.

عيد ميلاد سعيد يا مونتريال!

اصطفت السيارات وراء بعضها بعضاً من دون وجود مسافة تفصل واحدة عن الأخرى. انطلقت في سيري شمالاً في شارع سان لوران بينما كنت متوترة نتيجة وقوفي في منصة الشهود في المحكمة لوقت طويل.

بدأت أطرق بأصابعي على المقود، وتنقلت أفكارى ما بين موضوع وموضوع. شهادتي أمام المحكمة. الهياكل الموجودة في قبو مطعم البيترزا. ابنتي. الأمسية التي تنتظرني.

ماذا بقي من أشياء لم أقلها لهيئة المحلفين؟ وهل من الممكن تقديم شرح أكثر وضوحاً؟ هل فهموا؟ هل سيدينون ذلك المجرم النذل؟ ماذا سأكتشف في المختبر غداً؟ هل سيثبت أن الهياكل العظمية هي ما يجول في ذهني؟ وهل سيتصرف كلوديل بطريقته البغيضة المعهودة؟ ما هو الأمر الذي يحزن كاتي؟ أوحى لي في آخر مرة تحدثنا فيها بأن الأمور ليست على ما يرام في شارلوتس فيل. هل ستكمل ابنتي سنتها الدراسية الأخيرة في الجامعة، أم أنها ستعلن لي في ليلة عيد الميلاد أنها ستترك جامعة فرجينيا من دون الحصول على إجازتها؟ ماذا سأكتشف أثناء العشاء هذه الليلة؟ هل أن حبي الجديد على وشك التفكك؟ هل إن ما أشعر به هو الحب؟

سرت تحت بوابة التتین عندما وصلت إلى غوشيتيري، ودخلت إلى الحي الصيني. لاحظت أن المتاجر هناك على وشك أن تقفل أبوابها، أما العدد القليل جداً من المشاة فكانوا يسرعون الخطى باتجاه منازلهم، وقد غطوا وجوههم، وانحنوا قليلاً انقاءً للبرد.

بأخذ الحي الصيني طابع سوقٍ شرقي أيام الأحاد. تقدّم المطاعم في تلك الأيام الفول المدمس، وقيم أصحاب متاجر السمانة منصات خارجية لهم يعرضون فيها كل أنواع المنتوجات الفاخرة، والبيض المعلّب، والأسماك المجففة، والأعشاب الصينية. ويشهد هذا الحي رقصة التتين في أيام المهرجانات والأعياد، بالإضافة إلى استعراضات الفنون العسكرية، والألعاب النارية، أما باقي الأسبوع فهي مخصّصة للتجارة فقط.

عادت بي أفكاري إلى ابنتي مجدداً. تحبّ كاتي هذا المكان، وعندما تزور مونتريال فهي لا تتنازل في مسألة زيارة الحي الصيني.

تطلّعت باتجاه تقاطع سان لوران قبل أن أستدير إلى اليسار صوب شارع رينيه - لافيسك. شاهدت قلب المدينة مزينا بأبهى زينة لعيد الميلاد، كما هي الحال تماماً في شارع نوتردام. بقي شارع سان لوران، قلب المدينة، شرياناً تجارياً مهماً، مثلما كان تماماً قبل قرن من الزمان. لعبت هذه المنطقة دور نقطة الاستراحة بالنسبة لمجموعات المهاجرين التي تألفت بمعظمها من الإيرلنديين، والبرتغاليين، والإيطاليين، واليهود. جال هؤلاء، بغضّ النظر عن بلدانهم الأصلية أو انتماءاتهم العرقية، في الشوارع والجادات المحيطة بسان لوران.

مرّ رجلٌ أمام أنوار سيارتي عندما وقفت أمام إشارة السير في بيل. كان هذا الرجل طويلاً، متورّد الوجه، يميل لون شعره الذي تطاير بفعل الريح، إلى اللون الذهبي.

يا للصدمة الذهنية! إنه أندرو رايان، الملازم في قسم التحري في قسم الجرائم التابع لمركز شرطة كيبك. إنه أول رجلٍ واعدته منذ أن انهار زواجي الذي استمرّ عشرين عاماً. إنه أيضاً شريكي في أقصر علاقة غرامية شهدتها التاريخ. تسارعت وتيرة نبضات قلبي.

تتقاطع حياتنا المهنية أنا ورايان، فهو يعمل في قسم مكافحة الجرائم، بينما أعمل أنا في المشرحة. إنني أقوم بتحديد هوية الضحايا، بينما تنحصر مهمته في القبض على الجناة. عملنا معاً طيلة عقدٍ من الزمان في التقصي عن المغتصبين الجماعيين، وأفراد الطوائف الغريبة، وعن الدراجين المهوسين، وعن المضطربين عقلياً، وكذلك عن الأشخاص الذين يكرهون شركاء حياتهم بصورة خطيرة. سمعت قصصاً كثيرة عن ماضي رايان على مرّ السنين. سمعت عن شبابه الصاخب، وكذلك عن قصة انضمامه إلى الرجال الطيبين، وصعود نجمه مع رجال شرطة المقاطعة. سمعت كذلك قصصاً

عن حاضر رايان. لم يتتوَع جوهر هذه القصص كثيراً، لأنه ما زال لاعباً بارزاً. جربَ هذا الرجل مراراً أن يلعب معي. يعرف رايان أنني أتبع قاعدة صارمة تقضي بعدم الانشغال بأية علاقة غرامية داخل مكان العمل. لكن طريقة تفكير رايان تتاقضت مراراً مع طريقتي، بالإضافة إلى أنه يحبّ التحدي.

أصرَ رايان، لكنني وقفت بقوة في وجهه. بدا مثل قوة عاتية، لكنني كنت سداً منيعاً في وجهه. مضت سنتان منذ انفصالي عن زوجي بيتي، وكنت متأكدة من أنني لن أعود إليه. أحببت رايان بكل ذكائه وحساسيته وإثارته الشديدة أيضاً. مررت بفترة قاسية من الناحية العاطفية في غواتيمالا. حدث ذلك قبل أربعة أشهر. قرّرت إجراء تقييم للوضع. دعوت رايان للحضور إلى كارولينا الشمالية. جهّزت عندها أشياءً ضرورية، واشترت فستاناً مغرباً أسود اللون، وبدأت بالمغامرة.

أمضيت أسبوعاً كاملاً على الشاطئ بصحبة رايان، لكننا بالكاد شاهدنا المحيط، أو ذلك الفستان الأسود. شعرت بالتوتر في أعماقي في كل مرة فكّرت فيها برايان، وكذلك في ذلك الأسبوع الذي قضيته قرب الشاطئ. أود هنا أن أضيف بنداً جديداً إلى لائحة الإيجابيات المتعلقة به. سواء كان الرجل كندياً أم لا، فهو يبقى بالنسبة إلي ذلك البطل الأميركي في السرير.

بقينا سوية، هذا إن لم نكن شريكين، منذ شهر آب/أغسطس على الأقل. بقيت علاقتنا سرية، واحتفظنا بأمرها في ما بيننا فقط. بدت أوقاتنا التي أمضيها سوية مثل تلك المشاهد التقليدية التي تظهر في الأفلام الكوميدي الرومنسية. مشينا يداً بيد، وتحلقنا حول النيران التي أوقدناها بنفسينا، وتسايقنا فوق أوراق الشجر، وتنافسنا في السرير. إذاً لماذا ينتابني هذا الشعور الذي يوحى بحدوث خطب ما؟ دخلت إلى منطقة غاي، وفكّرت قليلاً بالمسألة.

تبادلت مع رايان محادثات هاتفية طويلة في أوقات متأخرة من الليلي، وذلك بعد عودته من كارولينا الشمالية إلى مونتريال. لاحظت أخيراً أن هذه المكالمات قد قلّت بشكل ملحوظ.

يا للروعة! ها أنا أقصد مونتريال في كل شهر.

بدا كل ذلك صحيحاً، لكن الصحيح أيضاً أنني لم أجمع برايان كثيراً خلال جولتي الأخيرة. ادّعى أنه مشغول كثيراً بعمله هذه الأيام، وشكّكت بادعائه هذا. شعرت وقتها بسعادة كبيرة، وتساءلت إذا ما كانت فانتتي بعض الدلائل، أو أنني أسأت تفسيرها. هل أن رايان يتعمد الابتعاد عني؟ هل أن الأمر برمته من نسج مخيلتي،

مثلما تفعل بطلات الأفلام الرومنسية؟

فتحت جهاز الراديو كي أبعّد تفكيري عن هذه المواضيع. تناهت إلى أسماعي الحان أغنية جفّ دموعك، التي يغنيها دانييل بيلانغر، عبر جهاز الراديو.

يا لها من نصيحة جاءت في وقتها يا دانييل!

ازدادت كثافة تساقط الثلوج، فشغلت مساحات الزجاج الأمامية وركّزت على قيادة السيارة.

اعتاد رايان تحضير وجبات الطعام، سواء تناولناها في شقته أم في شقتي. تبرّعت هذه الليلة بتحضير الطعام. إنني أطبخ جيداً، لكن ليس بصورة فطرية، لذلك أستعين بوصفات الطعام المكتوبة.

وصلت إلى المنزل عند السادسة، وأمضيت عدة دقائق مع بيردي، ثم تناولت الملف الذي أحتفظ فيه بالوصفات التي اقتطعتها من مجلة الغازيت. نجحت بالعثور على وصفة مناسبة بعد مرور خمس دقائق، وهي صدر دجاج مشوي مع صلصة الشمام. تتضمن الوصفة أيضاً الأرز، والتورتية، وسلطة الأريوغولا. تضمّنت اللائحة مكونات قليلة نسبياً، لذلك افترضت أنه لن يصعب عليّ تجميعها.

ارتديت سترتي المقلّنة وسرت باتجاه لا فابورغ سانت كاترين. لا يصعب على المرء أن يجد هناك الدجاج، والخضار، والأرز.

هل جرّبت ذات مرة تناول بطيخ الكرينشو في شهر كانون الأول/ديسمبر في القطب الشمالي؟

أجريت مناقشة قصيرة مع العامل المسؤول في المتجر قبل أن تُحلّ المشكلة، وأخيراً استغنيت عن الشمام.

انتهيت من تحضير الصلصة عند الساعة السابعة والرّبع، وكذلك بدأ الأرز بالغليان، كما أنني أنهيت خلط السلّطة. انساب صوت فرانك سيناترا من جهاز الأسطوانات المدمجة، كما أن عطر شانيل رقم خمسة كان يفوح مني.

جهّزت نفسي، وارتديت سروال جينز ضيقاً أحمر اللون، ورفعت شعري خلف أذنيّ بعد أن سرحته على طريقة ميغ رايان. أرسلت غرّة من شعري فوق جبّتي، ووضعت ظلالاً أرجوانية شاحبة على جفّتي. فقد أخبرتني كاتي أن العيون البندقية اللون تتسجم مع الظلال الأرجوانية الشاحبة. يا للرّوعة!

وصل رايان أخيراً عند الساعة السابعة والنصف وهو يحمل علبة من لحم الموط، وحلّية صغيرة، وعلبة بيضاء صغيرة من محل حلويات. شاهدت تورّد وجهه

من البرد، ولاحظت حبيبات الثلج الصغيرة على شعره وكتفيه.

انحنى رايان وقبّلني في فمي، ثم احتضنني بذراعيه. فاحت منه رائحة عطر الربيع الإيرلندي، وتمازج العطران. شدّني رايان إليه وقال: "تبدّين رائحة!"

- "شكراً لك".

بعد أن أفلتتني رايان، نزع سترته السمّية ورماها على الأريكة. اندفع بيردي متدحرجاً على السجادة قبل أن يخرج من الغرفة.

- "آسف. لم ألاحظ وجود ذلك الصغير".

- "سيتملّ ذلك".

سدّ رايان خذي بظاهر يده وهو يقول: "تبدّين رائحة بالفعل"

شعرت بانقباضات عدة في معدتي. "لا تبدو سيئاً أنت أيضاً حضرة التحري".

إنها الحقيقة، فرايان رجل طويل ونحيل، شعره ذهبي اللون، وعيناه زرقاوان إلى درجة لا تصنق. وقد ارتدى سروال جينز، وكنزة غالواي لهذه الليلة.

لقد تحدّرت من سلالة من المزارعين والصيادين الإيرلنديين، لذلك ليس من الغريب أن تسحرني العيون الزرقاء، وليست أنا السبب في ذلك، بل الحمض النووي الذي أحمله. سألته: "ماذا يوجد في تلك العلبة؟"

- "إنها مفاجأة لحضرة الطاهية".

تناول رايان علبة شراب ووضع الباقي في الثلاجة. رفع غطاء الوعاء الذي يحتوي على الصلصة وهو يقول: "إنها رائحة شهية".

اكتفيت بإجابته: "إنها صلصة الشّمَام. يصعب إيجاد الكرنشو في شهر كانون الأول/ديسمبر".

تحرك حاجبا رايان وتظاهر أنه يدخن سيجاراً: "هل أشتري لك شراباً أم كوكتيلاً يا حلوتي؟"

- "أريد تناول شرابي المعتاد"

ذهبت لأرى ما حلّ بالأرز، بينما استخرج رايان علبة كولا خاصة بالحمية من الثلاجة. تحركت زاويتي شفّتيه وهو يناولني العلبة.

- "من يزورك أكثر؟"

شعرت بالضياح قليلاً: "آسفة، من تقصد؟"

- "أقصد عملاء الشرطة أم المسؤولين؟"

جمدت يدي عندما رفعتها في الهواء، وعرفت عما يتحدث.

- "أين؟"

- "جريدة لوجورنال دي مونتريال".

- "اليوم؟"

أوما رايان: "إنها في منتصف الصفحة".

شعرت باشمئزاز: "أهي في الصفحة الأولى؟"

- "ستجدين الموضوع في الصفحة الرابعة عشرة مع الصور الملونة. ستحبين

زاوية التي التقطت منها الصور".

- "أية صور؟"

خطرت تلك الصورة في ذهني. إنها الصور التي التقطها الرجل الأسود النحيف

الذي يرتدي كنزة تصل إلى ركبتيه. تذكرت مدخل الحفرة، وتذكرت آلة التصوير.

أقدم ذلك القدر الصغير في مطعم البييتزا على بيع صورهِ الفوتوغرافية.

تعودت في ما مضى أن أرفض إعطاء مقابلات صحفية أثناء عملي على قضية

ما. اعتبر كثير من الصحفيين موقفي هذا نوعاً من الفظاظة. وصفني آخرون بعبارات

أكثر حدة. لم أكرث لكل ذلك، لأنني تعلمت على مرّ السنين أن التصريحات تشجع

على الاقتباسات المشوهة في نهاية الأمر، وتؤدي الاقتباسات المشوهة إلى المشاكل

بطريقة أو بأخرى. أضف إلى ذلك أنني لا أبدو جميلة في الصور أبداً.

تناول رايان علبة الكولا مني وسألني: "هل أستطيع أن أفتحها لك؟"

فتح رايان العلبة ثم ناولني إياها. وضعت العلبة على الطاولة، وأسرعت لفتح

باب الفرن، وقلت له: "لا بد أنك أحضرت نسخة منها".

- "سننقّصها بعد أن تُرفع السكاكين عن المائدة، وذلك لسلامة المشاركين في

العشاء".

أخبرت رايان عن يومي في المحكمة أثناء تناولنا للعشاء. قال لي: "تبدو المقالات

حسنة".

يمتلك رايان شبكة من المخبرين تبدو معها وكالة الاستخبارات المركزية شيئاً

تافهاً. يعرف هذا الرجل بتحركاتي قبل أن أخبره بها، وهذا الأمر يقلقني كثيراً.

جعلني استمتع رايان بصحيفة لوجورنال أشعر بالانزعاج.

- "تجاوزي هذا يا برينان. لا تفرطي بأخذ نفسك على محمل الجد".

ابتسمت: "أحقاً؟"

- "يعطيك النقاد أربعة نجوم".

أربعة فقط؟

- "فهمت".

- "يقولون إن بيتيت سيّدان".

لم أعلّق بأية كلمة، فغيّر رايان الموضوع: "أخبريني عن قضية مطعم البيتر".

سكبت المزيد من السلطة: "ألم تتناول لوجورنال القضية برمتها؟"

- "لاحظت أن التغطية مبهمة قليلاً. ناوليني هذه من فضلك".

ناولته الطبق الذي يحتوي على السلطة، وانشغلنا بتناول الأريغولا في الدقائق

الثلاث التالية. كسر رايان جدار الصمت عندما سألتني: "هل ستخبريني عن العظام

التي تعملين عليها؟"

التفت عيوننا، وبدا اهتمامه حقيقياً. استجبت لطلبه، لكني أبقيت عرضي موجزاً

قدر المستطاع. نهض رايان عندما انتهيت، ثم سحب من جيب سترته جزءاً من

الصحيفة.

لاحظت أن الصورتين قد أخذتا من الأعلى، ومن يمين المكان الذي كنت

متواجدة فيه. تظهرني الصورة الأولى وأنا أتكلّم مع كلوديل، وقد بان الغضب في

عيني. بدت كأني أظعن الهواء بإصبعي التي يغطّيها القفاز. فكرت أنني أستطيع أن

أضع عبارة هجوم امرأة جريئة كعنوان لهذه الصورة.

التقطت الصورة الثانية منظراً لهذه الجريئة وهي تدب على أطرافها الأربعة،

وتظهر اتجاه المؤخرة نحو الأعلى. سألتني رايان: "ألا تفكر عن طريقة حصول

لوجورنال على هاتين الصورتين؟"

- "حصلت عليها عن طريق ذلك المساعد القذر لمالك المطعم".

- "هل كلوديل هو من يتولّى هذه القضية؟"

تناولت بعض كسرات الخبز عن سطح الطاولة وأجبت: "نعم".

تقدّم رايان ووضع يده فوق يدي وسألني: "هل يزورك كلوديل كثيراً".

لم أجب عن هذا السؤال. وأوشك رايان على التكلم ثانية عندما رنّ هاتفه

الخليوي.

ضغظ قليلاً على يدي قبل أن يسحب الجهاز من حزامه ويتأكد من هوية

المتصل. اتجهت عيناه إلى الأعلى دلالة على الإحباط، أو الانزعاج، أو شيءٍ لم أستطع فهمه تماماً.

قال شارحاً: "عليّ الإجابة عن هذا الاتصال".

تراجع عن الطاولة ثم توجه نحو الصالة.

تمكنت من سماع تواتر هذه المكالمة أثناء انهماكي بنقل الصحون من الطاولة. لم

تكن الكلمات مفهومة، لكن إيقاعها أوحى بالاضطراب الذي شعر به رايان.

عاد إليّ الرجل في غضون لحظات قليلة قائلاً: "آسف يا فتاتي، يتعين عليّ

الانصراف".

وقفت مذهولة: "هل ستغادر؟"

- "يا له من عملٍ غير محمود".

- "لكنك لم تذوق الحلويات التي أحضرتها".

لم تتلاقَ العينان الزرقاوان مع عينيّ حين قال: "أنا آسف".

طبع رايان قبلةً عجلي على خدي. بقي كبير الطهارة وحيداً مع مفاجأته التي لم

يتذوقها أحد.

الفصل 4

استيقظت بمعنويات منخفضة من دون أن أعرف السبب.

هل يرجع ذلك إلى كوني وحيدة؟ أم يعود ذلك لكون الهر الكبير الأبيض اللون هو شريكى الوحيد في السرير؟ لم أخطئ كي أعيش على هذا النحو. صممت، أنا وبيتي أن نكبر معاً، وأن نرحل متزوجين عن هذا العالم.

استمرت هذه الرغبة إلى أن تقاسم زوجي الأبدي حياته الزوجية مع وكيلة بيع عقارات، لكن ابنتي كاتي تقول إن مسيرة الحياة تمضي مهما كانت الظروف.

بدا الطقس ملبدًا بالغيوم وعاصفًا في الخارج، ولم يكن يغري بالخروج على أية حال. أشارت عقارب الساعة إلى الساعة والسابعة وعشر دقائق. لم ألمح بيردي في أي مكان من المنزل.

نزعت ثياب نومي واستمتعت بحمام ساخن، ثم جففت شعري. دخل بيردي أثناء تنظيفي لأسناني. حييته، ثم ابتسمت لنفسي في المرأة، وتساءلت إن كان اليوم مناسباً لوضع بعض الظلال على عيني.

تذكرت بعدها ما حدث الليلة الفائتة. تذكرت انسحاب رايان المفاجئ، وتذكرت تلك النظرة في عينيه. حشرت فرشاة أسناني في شاحناتها الكهربائي، ثم توجهت إلى غرفة النوم وحدثت من خلال نافذتها المكسوة بالجليد. شاهدت أشكالاً لولبية متبلرة وأشكالاً هندسية صنعتها رقائق الثلج. بدت هذه الأشكال رقيقة وهشة للغاية.

هل تشبه هذه الأشكال الأوهام التي نسجتُها حول حياتي مع رايان؟ تساءلتُ مجدداً عما يحدث من حولي. تساءلتُ عن السبب الذي يجعلني أتصرف مثل تلك الشخصية الساخنة التي تظهر في أحد أفلام دوريس داي المضحكة. صرخت بصوت عالٍ: "سحقاً لهذا يا دوريس".

رفع بيردي رأسه باتجاهي، لكنه احتفظ بأفكاره لنفسه.

- "وسحقاً لك يا أندرو رايان".

تحتل مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي الطابقين العلويين من مبنى

ويلفريد ديروم. يقع هذا المبنى المصمم على شكل حرف T في ضاحية هوشلاغا ماسوناف، إلى الشرق تماماً من وسط المدينة. ويقع مكتب التحقيق في أسباب الوفيات المشتبه بها في الطابق الحادي عشر من المبنى، بينما تقع المشرحة في الطابق السفلي من هذا المبنى. وتحلّ شرطة كيبيك باقي أجزاء المبنى.

امتأ الطابق الثاني عشر برجال ونساء يرتدون المعاطف البيضاء. حيّاني بعضهم عندما مررت بطاقتي الأمنية داخل الآلة الموجودة في مدخل الرواق، وعندما مررتها بعد ذلك في الآلة الموجودة أمام الأبواب الزجاجية التي تفصل جناح الطب الشرعي عن بقية المبنى. رددت تحية الصباح وتابعت سيرتي نحو مكنتي، ولم أشعر أنني في مزاج التحدث مع أحد. تملكني شعور بالانزعاج نتيجة لقائي الليلة الماضية مع راين. اعتبرت أن ذلك اللقاء لم يتم.

يبدأ كل نهار عمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي باجتماع لفريق العمل المختص، مثلما يحدث في معظم المؤسسات المشابهة. لم أكد أنتهي من نزع ملابسني الخارجية حتى رنّ جرس الهاتف. سمعت صوت بيار لامانش على الطرف الآخر، وأوضح لي أن ليلته كانت حافلة، لذلك فهو مستعجل للبدء بالعمل.

لم أجد سوى لامانش، وجان بيليتيه جالسين في مكانيهما عندما دخلت إلى الغرفة. نفذ الاثنان نصف وقفة فور دخولي، وهو التقليد المتبع لتحية النساء عند دخولهن إلى الغرفة. بادرنى لامانش بالسؤال عن محاكمة بيتيت، فأجبت أنه أعقد أن الأمور سارت على ما يرام فيها.

- "وماذا عن مكشفات نهار الاثنين؟"

- "كل شيء على ما يرام، ما عدا أنه تبين لي أن ما وصفته بالعظام الحيوانية هي عظام بشرية في الواقع، وعدا حالة البرد التي أصابتنى."

سألني لامانش بفرنسيته السوربونية: "هل ستبدأين تحاليلك اليوم؟"

- "نعم".

لم أذكر له ما أعرفه سلفاً استناداً إلى فحصي السريع الذي أجرته في الطبقة السفلية للمطعم، لأنني أردت أن أتأكد من استنتاجاتي.

- "طلب مني التحري كلوديل أن أبلغك أنه أت إلى هنا اليوم عند الساعة الواحدة والنصف".

- "يتعين على التحري كلوديل أن ينتظر كثيراً، لأنني سأكون حينها بالكاد بدأت عملي".

سمعت هممة بيليتيه فتطلعت باتجاهه.

أمضى جان بيليتيه، وهو أدنى رتبة من لامانش، عقداً كاملاً من الزمن وهو يعمل في المختبر قبل أن يستلم لامانش منصبه. إنه رجلٌ قصيرُ القامة، لكنه مكنتز الجسم، غزا الشيب شعره غير الكثيف، أما الانفخات الظاهرة حول عينيه الصغيرتين فقد كانت كبيرة. أعرف أن بيليتيه كان مداوماً على قراءة جريدة الجورنال، لذا عرفت ما سيحدث عنه.

- "أجل".

تبدو أصابع بيليتيه صفراء على الدوام نتيجة نصف قرن أمضاها بتدخين سجائر غولواز. أشارت إحدى أصابعه نحوي وهو يقول: "أجل، إنها زاوية أكثر جاذبية، لأنها تُظهر عينيك الخضراوين الرائعتين".

جاء ردي الوحيد في تحريك عينيّ الخضراوين الرائعتين بحركة دائرية. جلست في مقعدي، وانضمّ إلينا في هذه اللحظة ناتالي أيرز، مارسيل مورين، وإميلي سانت أنجلو. تبادلنا تحية الصباح وعبارات الاطمئنان. أثنى بيليتيه على تسريحة شعر سانت أنجلو، وأوحت نظرتها أنها تفضل أن تُترك وشأنها، وكانت محقةً في ذلك. وزّع لامانش علينا لائحة عمل اليوم، ثم بدأ بمناقشة القضايا وتوزيع المهام. وُجد رجل يبلغ السابعة والأربعين من العمر مشنوقاً، ومتدلياً من عارضة خشبية في مرآب سيارته في لافال.

طعن شخص آخر يبلغ الرابعة والخمسين من العمر. طعنه ابنه إثر شجارٍ حدث بينهما حول السفائق المتبقية من وجبتهما. تبرّعت الوالدة بالاتصال بشرطة سان هايكينث.

حطّم مواطن من لونغويل سيارته، الرباعية الدفع، في حافة جليدية على طريق غاتينو الريفية. يُعتقد أن تناول الشراب لعب دوراً في هذا الحادث.

وُجد زوجان مجهولا الهوية مقتولين في منزل يقع في سان ليونارد، نتيجة جروحٍ أصيبت بها جراء طلقات نارية. أصيبت المرأة بطلقين ناريين، بينما أصيب الرجل بواحدٍ فقط. قضى ذلك الرجل بطلق ناري في حلقه. انطلقت الرصاصة من مسدس غلوغ من عيار تسعة ميليمترات.

طقّط طقم أسنان بيليتيه عندما قال: "إذا لم أستطع الحصول عليك، فلن يقدّر أي شخص على ذلك".

طفح صوت أيرز بالمرارة وهي تعلق: "القصة المعهودة!"

إنها محقة، لأننا رأينا هذا المشهد مراراً.

جاء في اللائحة أيضاً أن امرأة شابة قد وجدت ميتة في حانة للموسيقى في شارع جان طالون. ثارت شكوك بأن يكون سبب الوفاة هو جرعة مفرطة من المخدرات، والانخفاض الشديد بدرجة حرارتها.

أعطيت الهياكل العظمية، التي وجدت في الطابق السفلي من مطعم البيترز، الأرقام 38426، و38427، و38428 في اللائحة.

قال لامانش بنبرة استفهامية أكثر منها بيانية: "يشعر التحري كلوديل أن هذه الهياكل العظمية هي هياكل قديمة، ولعلها ذات قيمة تشريحية قليلة"

- "وكيف عرف السيد كلوديل ذلك؟"

عرفت أن هذا احتمال وارد، لكن ما أزعجني هو أن يعطي كلوديل رأياً في موضوع يُعتبر من خارج اختصاصه وخبرته.

- "إن السيد كلوديل هو رجل متعدد المواهب".

خلت ملامح بيليتيه من كل تعبير، إلا أنني لم أخدع. يعرف ذلك الطبيب المشروح العجوز مدى الحساسية القائمة بيني وبين كلوديل، لذلك يدأب على مضايقتي من هذه الناحية.

سألته: "هل سبق لكلوديل دراسة علم الآثار".

تقوس حاجبا بيليتيه نحو الأعلى: "يصرف السيد كلوديل ساعات طويلة على دراسة الآثار القديمة".

بقي الآخرون صامتين منتظرين نهاية الحديث.

تساءلت لماذا لا يفصح هذا الرجل عما يريد: "أحقاً؟"

- "يتفحص الرجل مهارته كل صباح".

أخفى لامانش تعابيره أيضاً: "شكراً يا دكتور بيليتيه. هل تستطيع من فضلك أن تتولى قضية الرجل المشنوق".

حصلت أيرز على قضية الطعن، ونالت سان أنجلو قضية حادث السيارة الرباعية الدفع، أما مورين فكانت حصتها قضية الانتحار والقتل. سجل لامانش على لائحته الحرفين الأولين من اسم الشخص الذي تولى كل قضية في المكان المناسب، أي "بي"، "أي"، "سا"، و"مو".

سجّل لامانش الحرفين الأولين "بر" مقابل ملفات عظام الطابق السفلي لمطعم البيترز، وهي التي تحمل الأرقام 38426، و38427، و38428.

لم يخصّ لامانش نفسه بأية عملية تشريح نظراً لأنه يتوقّع عقد اجتماع مطول للهيئة التي تراجع وفيات الأطفال الصغار في المقاطعة.

رجعت إلى مكنتي فور تفرّق شمل المجتمعين، لكن لامانش حضر إلى مكنتي بعد لحظات قليلة. أخبرني أن أحد التقنيين في مختبر التشريح اضطر للغياب بسبب إصابته بالالتهاب الشعبي. قال إن الأمور صعبة مع وجود خمسة عاملين فقط، وسألني إن كنت أمانع في أن أعمل لوحدي.

يا للروعة!

وضعت ثلاثة نماذج للقضايا على لوحتي، لكنني لاحظت توهج الضوء الأحمر في جهاز هاتقي.

شعرت بقليل من الارتعاش. هل هو راين؟

هيا، تغلّبي على هذا الشعور يا دوريس!

استجبت لهذا النداء، فأدخلت رقم صندوق بريدي وأرقام الشيفرة التابعة له.

صحفي من مجلة آلو الشرطة.

صحفي آخر من مجلة غازيت.

مراسل أخبار محطة سي. تي. في.

شعرت بالإحباط فأقدمت على إلغاء كل هذه الرسائل، وأسرعت إلى الغرفة التي تضمّ خزائن النساء. ارتديت ثياب الجراحين، ومشيت عبر ممر جانبي كي أستقلّ مصعداً منفرداً يصل ما بين مكتب السكرتيرة والمكتبة. خصّص هذا المصعد لمن يحملون تصريحاً خاصاً، وجّهز بثلاثة أزرار فقط تسمح بثلاثة أماكن للتوقف، وهي المختبرات، المحقق القضائي، والمشرفة. ضغطت على الزر الذي يحمل حرف م، ثم أغلقت الأبواب على الفور.

وصلت إلى الطابق السفلي ودخلت من باب يؤدي إلى ممر طويل وضيق يمتدّ على طول المبنى. تقع على يساري غرفة الأشعة السينية بالإضافة إلى أربعة أجنحة مخصّصة للتشريح، ثلاثة منها مجهزة بطاولات مفردة، أما الجناح الأخير فمجهز بطاولة مزدوجة. وتتواجد إلى الجهة اليمنى غرف تضمّ رفوفاً مخصّصة للتجفيف، ومراكز لأجهزة الكمبيوتر، بالإضافة إلى أحواض ذات عجلات، وعربات تستخدم

لنقل العينات إلى مختبرات الأنسجة، والأمراض، والسموم، والحمض النووي، والأسنان. وتتواجد هذه المختبرات في الطابق العلوي.

استطعت أن أشاهد أيرز ومورين من خلال نوافذ زجاجية صغيرة موجودة على أبواب الغرفتين الأولى والثانية. انهمكت المرأتان بفحوصهما الخارجية بمساعدة مصور تابع للشرطة، وتقنيّ تشريح. شاهدت في الغرفة الثالثة تقنياً ثالثاً ينهك بترتيب الأدوات المختبرية. سيساعد هذا التقني سانت أنجلو، أما أنا فسأعمل بمفردي. وسيصل كلوديل في غضون أقل من أربع ساعات. شعرت أن معنوياتي أخذت بالهبوط في كل لحظة، وخصوصاً أنها كانت كذلك منذ بداية النهار. تابعت سيرتي إلى الغرفة الرابعة. تتمتع هذه الغرفة بنظام تهوئة خاص من أجل إزالة الروائح الناتجة عن الجثث المتحللة، أو الغارقة، أو المحنطة، بالإضافة إلى روائح أخرى. وتمتلك الغرفة رقم أربعة بابين مزدوجين، مثل الغرف الأخرى، يؤديان إلى حجرة المشرحة. تصطف على جوانب هذه الحجرة مستوعبات مبردة تضم كل واحدة منها روفاً مزدوجة.

وضعت لوحتي على الطاولة الطويلة، ثم تناولت رداءً بلاستيكيًا من أحد الأدراج، وقفازات وقناع من درج آخر، وارتديتها كلها. أحضرت عربية معدنية صغيرة من الممر، ثم مررت بطريقة خلفية من الأبواب المزدوجة. بدأت التعداد.

وجدت ست بطاقات بيضاء، ولصيقة حمراء وحيدة. ست حالات سليمة وواحدة تظهر فيها الإصابة بفيروس الإيدز. أشرت بالأحرف الأولى على هذه البطاقات. حملت البطاقة الأولى الرقم 38426، أما الثانية فحملت الرقم 38427، بينما حملت الثالثة الرقم 38428. وحملت الرابعة عبارة عظام، والخامسة عبارة غير محدد، والسابعة عبارة عظام. وحملت البطاقة الأخيرة عبارة مجهول.

اعتدت أن أبدأ بالعمل بطريقة تسلسلية، إذ كنت أنتهي من فحص كل حالة بالكامل قبل الانتقال إلى الحالة التالية، لكنني اليوم أنتظر وصول التحري السعيد في الساعة الواحدة والنصف. استبقت قلة الصبر التي يتصف بها كلوديل، فقررت أن أتجاهل البروتوكول، وأن أجري تقييماً سريعاً للعمر والجنس لكل مجموعة من البقايا. كان ذلك خطأً ندمت عليه في ما بعد.

انتقلت من باب فولاذي إلى آخر، ثم إلى باب ثالث، وانتقيت العظام نفسها التي شاهدتها في الطابق السفلي لمطعم البيتزا، ثم نقلتها بالعربة إلى الغرفة رقم أربعة.

دوّنت المعلومات المتعلقة بالبقايا في النموذج المخصص للقضية، ثم بدأت بالعمل على الحالة رقم 38426، أي العظام التي كانت موجودة في صندوق الدكتور إنرجي. بدأت بالجمجمة.

وجدت معها القليل من الملحقات العظمية. قذالاً مستديراً. وجدت كذلك قطعاً مستديرة صغيرة، وحوافٍ حادة من منطقة ما فوق محجر العينين.

تحولتُ إلى عظمة حوض. لاحظت عظمي ورك وأسعتين عند حافتيها. لاحظت أيضاً جزءاً ممدوداً من عظم العانة بالإضافة إلى حافة دقيقة مرفوعة تخترق جهة البطن. لاحظت وجود زاوية منفرجة لمنطقة تحت العانة، بالإضافة إلى شق وركيٍّ واسع. قابلت كل هذه الميزات في صفحة تقييم الجنس، ثم أصدرت استنتاجي؛ إنها أنثى.

قلبت الصفحة إلى قسم تقييم العمر، لاحظت أن خط الاتصال عند أسفل الجمجمة، وهو الفجوة ما بين عظمي القذال والعظم الإسفيني في أسفل الجمجمة، قد التحم حديثاً. استنتجت من هذا أن الفتاة كانت في وسط أو أواخر سنوات مراهقتها.

عدت إلى الحوض. يتألف كل جزءٍ من نصفي الحوض في أثناء سنوات الطفولة من ثلاثة عناصر منفصلة: العظمة الحرقفية، عظمة الورك، وعظمة العانة. تبدأ هذه العظام بالالتحام داخل التجويف الحوضي في أوائل سنوات المراهقة. شهد هذا الحوض مرحلة البلوغ بشكل متفاوت. لاحظت وجود تغضنات تمتد عبر منطقة الالتصاق العائبي، أي عند منطقة التقاء نصفي الحوض من الجهة الأمامية. قلبت العظمة. ظهرت خربشات على الحافة العلوية لعظمة الورك، وهو الأمر الذي يدل على فقدان العظمة الهلالية النهائية. ظهرت الخربشات واضحة أيضاً على الورك، أي قرب النقطة التي تدعم الجسم في حالة الجلوس.

شعرت بموجة برد معتادة تخترق بطني. أستطيع أن أمضي بتفحص الأسنان والعظام الطويلة، لكن كل الدلائل دعمت انطباعي الأول. إن الفتاة المخبأة في صندوق الدكتور إنرجي هي فتاة توفيت في منتصف أو أواخر سنوات مراهقتها.

أرجعت العظام التي تحمل الرقم 38426 إلى العربية، ثم تحولت إلى تفحص العظام التي انتقيتها من الحالة رقم 38427. تفرّغت بعد ذلك إلى الحالة رقم 38428.

تسأله العالم عندي إلى بعدٍ مختلف. اختفت من ذهني كل أجهزة الهاتف، والطابعات، والأصوات، والعربات. لم يعد هناك من وجود لشيء في ذهني سوى بقايا العظام الموضوعه أمامي على طاولتي. تجاوزت بعلمي وقت الغداء، وتزايد الشعور

بالحزن في داخلي كلما لاحظت شيئاً جديداً.

لطالما سمعت اتهام الناس لي بأنني أشعر بعاطفة نحو الأموات أكثر مما أحمل تجاه الأحياء، لكن هذا الاتهام ليس صحيحاً. أعترف أنني أشعر بالحزن تجاه العظام التي كانت أشخاصاً، والتي تريض على طاولتي، لكنني أعني جيداً الحزن الذي خلفه غياب هؤلاء الأشخاص عند ذويهم. لم تمثل هذه الحالة أي استثناء بالنسبة لي. شعرت بتعاطف تجاه العائلات التي أحببت هذه الفتيات وخسرتهن. لعل صوت الهاتف عند الواحدة والنصف تماماً. أنزلت قناعي ومشيت نحو الطاولة.

- "نكتورة برينان".

- "هل انتهيت".

لم يعرف المتصل عن هويته، لكنني عرفته من صوته.

- "لدي بعض المعلومات الأولية. إنني في الغرفة رقم أربعة".

- "أنا أنتظرك في مكتبك".

إنه كلوديل بالتأكيد. خذ راحتك يا كلوديل، لا بأس.

- "هل ترغب بمشاهدة الأشياء التي اكتشفتها؟"

- "لن يكون ذلك ضرورياً".

إن بغض كلوديل للتشريح هو أمر أشبه بالأسطوري. اعتدت أن أضرب على هذا الوتر، ولطالما فكرت بحيلٍ لاستدراجه إلى هذا الحقل، لكنني توقفت مؤخراً عن هذه المحاولات.

قلت له: "أحتاج إلى بضع دقائق لتنظيف المكان".

- "لعل ذلك ليس ضرورياً على أية حال".

- "أتمنى ذلك".

أقفلت خط الهاتف.

حسناً! إنه كلوديل. أعتقد أن لدى هذا الرجل ميلاً للعيش في الماضي.

وضعت صفحة من الورق على الطاولة، ونزعت قفازاتي وبدلت ملابسي، ثم أسرعرت إلى الطابق العلوي. لكن خوفاً متزايداً تملكني. أنا أعرف طبيعة العظام التي تفحصتها، وأنا أعرف أنني على حق. صليت إلى الله كي يكون كلوديل محقاً، وذلك برغم تظاهره بالتقوى وغروره.

الفصل 5

جلس كلوديل مواجهاً لطاولة مكتبي. أتجه حاجبا الرجل وأنفه وفمه نحو الأسفل. لم يقف لحظة دخولي لتحتيتي، وبادلته المودة نفسها.

- "هل انتهيت؟"

جلست في مقعدي: "لا، سيد كلوديل. لم أنته بعد. بالكاد بدأت، لكنني كنت بعض الملاحظات المقلقة".

التفت أصابع كلوديل في إشارة تقول: "إذا هاتها".

- "أستطيع أن أبلغك أن الهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38426، هو لأنثى في منتصف أو أواخر سنوات مراهقتها، وذلك استناداً إلى الخصائص التي وجدتها في عظام الجمجمة والحوض التابع لها. وسيسمح لي تحليل العظام الطويلة أن أحدد أكثر التقدير الذي أعطيته للعمر، لكن من الواضح أن خط الاتصال في أسفل الجمجمة قد لُحم حديثاً، وأن القشرة الحرقفية..."

- "لست بحاجة إلى درس في التشريح".

ما رأيك إذا بركلة على قفاك؟

قلت ببرودة: "إن الضحية صغيرة السن".

- "تابعي".

- "كلهن صغيرات السن".

تقوس حاجبا كلوديل ليشكلاً تعبيراً استفهامياً.

- "إنهن إناث في عمر المراهقة، أو تجاوزنها قليلاً".

- "وما سبب الوفاة؟"

- "سيطلب تحديد هذا الأمر فحصاً مدققاً لكل هيكل عظمي".

- "يموت الناس على الدوام".

- "لا يموتون عادةً في عمر مبكر".

- "ما هي الخلفية العرقية؟"

- "لست متأكدة بعد".

توحي تفصيلات الوجه والجمجمة أن الضحايا هن من البيض، مع أنه يتعين عليّ التحقق من الأصل العرقي.

- "إذا فمن المحتمل أن نكون قد استخرجنا بوكاهونتاس ورفيقتها".

منعت نفسي من التعليق على كلامه، لأنني لن أسمح لكلوديل باستدراجي للتصريح عن أمرٍ قبل أوانه.

- "صحيح أن العظام التي كانت موجودة في الصندوق، وتلك التي استخرجت من المنخفض الشمالي الشرقي، تفتقد إلى الأنسجة اللينة، لكن الهيكل العظمي الملفوف احتوى آثاراً من شمع القبور. لست مقتنعة أن هذه الوفيات قد حدثت في الماضي السحيق".

فتح كلوديل يديه ووجهه راحتيه نحو الأعلى: "كم مضى على الوفاة، خمس سنوات، عشر سنوات، قرن من الزمن؟"

- "يتطلب تحديد المدة التي مضت على الوفاة دراسة أعمق. لا أستطيع عند هذا الحد اعتبار الوفيات قديمة، أو تعود لما قبل العصور التاريخية".

- "لا أطلب توجيهاتٍ منك تتعلق بكيفية تحضير تقاريري. ماذا تريدون أن نقول بالضببط؟"

- "أقول ببساطة إننا اكتشفنا للتو بقايا ثلاث بنات متوفيات، في الطبقة السفلية لمطعم البيترز. لا أعتقد أن من المناسب عند هذا الحد من التحقيق أن نعتبرها ذات قيمة تاريخية فقط".

تبادلت مع كلوديل النظرات المركزة. مدّ يده بعدها إلى الجيب الأمامي لسترتيه، وتناول منها كيساً بلاستيكياً، ورماه على الطاولة.

أخضت بصري بتمهل. احتوى الكيس على ثلاثة أشياء أسطوانية الشكل.

- "أخرجها من الكيس إذا أردت".

فتحت زمام الكيس، ثم وضعت محتوياته على راحة يدي. رأيت ثلاث أسطوانات معدنية مسطحة يبلغ قطر الواحدة بوصة واحدة. لاحظت، برغم الصدا، صورة ظلّية لامرأة محفورة على الجهة الأمامية، بينما احتوت الجهة الأخرى على ثقبٍ صغير. لاحظت أن الحرفين س. ت. قد حفرا إلى جانب كل ثقب.

- وجّهتُ نظرةً استفهاميةً صوب كلوديل.
- "أفنعنا صاحب مطعم البيتزا بالاعتراف أنه احتفظ ببعض الأشياء عند وضعه العظام في الصندوق".
- "أزرار؟"
- أوماً كلوديل موافقاً.
- "هل كانت مدفونةً مع الهيكل العظمي؟"
- "كان ذلك السيد غامضاً بشأن طبيعتها. لكن، أجل إنها أزرار، ومن الواضح أنها قديمة".
- "كيف يمكنك أن تتأكد من أنها قديمة؟"
- "أنا لا أستطيع، لكن الدكتور أنطوانيت ليجو، العاملة في ماكورد، تستطيع ذلك".
- يشتمل متحف ماكورد للتاريخ الكندي على ما يزيد عن مليون قطعة فنية مصنوعة، بالإضافة إلى أكثر من ستة عشر ألف قطعة منها تتعلّق بمجموعة القماش والملابس.
- "هل تمتلك ليجو خبرةً بالأزرار؟"
- تجاهل كلوديل سؤالي: "صنعت الأزرار في القرن التاسع عشر".
- انطلق هاتف كلوديل بالرنين قبل أن أتمكن من التعليق. نهض الرجل، ومن دون استئذان، توجّه إلى الصالة.
- عدت بنظري إلى الأزرار. هل وجودها يوحي بأن هذه الهياكل قد أمضت قرناً من الزمان أو أكثر قليلاً تحت التراب؟
- عاد كلوديل في غضون أقل من دقيقة.
- "استجدّ أمر هام".
- أراد الرجل الانصراف قبل الانتهاء من المحادثة.
- أعترف أنني حادة المزاج، وأعترف أنني أفقد أعصابي أحياناً. وبدا أن غرور كلوديل كان يدفعني لهذه الحالة. اندفعتُ لإجراء التقييم الأولي لكي يستطيع متابعة برنامجه، وذلك افتراضاً مني أن هذا التحقيق يتمّ بأولوية قصوى، وها هو ينحني جانباً بعد تفحص سريع.
- "أتعني أن هذه القضية ليست مهمة؟"

أنزل كلوديل ذقنه وتطلع نحوِي، وبدا لي أنه يتمتع بصبرٍ لا حدود له.

- "أنا ضابط شرطة، ولست مؤرخاً".

- "وأنا عالمة، ولست بصّارة".

مدّ يده ليتناول أحد الأزرار: "يعود تاريخ هذه المصنوعات إلى قرنٍ آخر".

وقفتُ فجأة: "لكن الفتيات المتوفيات قد عشن في هذا القرن".

تصلّب جسد كلوديل، وأغمض عينيه.

- "وصلت للتو مومس إلى مستشفى نوتردام مع جمجمة مكسورة وسكين في

جوفها، لكن زميلتها كانت أقل حظاً منها لأنها ماتت. سأقوم أنا وزميلي بالقاء القبض

على قوّادة معينة من أجل حماية النساء الأخريات".

وجّه كلوديل إصبعاً باتجاهي متابعاً: "سيدتي، هذه هي القضية المهمة".

بعدئذ اتجه نحو الباب.

وقفت للحظة واجتاحني غضبٌ شديد. إنني أكره واقع أن كلوديل يتمتع بالقوة

لتحويللي إلى امرأة عصبية للغاية، ويحدث ذلك أحياناً بشكل غير منطقي على

الإطلاق. ما هو الآن، قد فعلها مرة أخرى.

جلست في مقعدي. استدرتُ بالمقعد، ووضعت قدمي على حافة النافذة، وأسندتُ

جانب رأسي إلى الحائط. بدت المدينة تحتي باثني عشر طابقاً، وهي تمتدّ باتجاه النهر.

كانت السيارات والشاحنات التي تبدو صغيرة الحجم تتحرك عبر جسر جاك كارتييه

باتجاه سانت هيلانة، وهي الضاحية الشاطئية الجنوبية، والتي تقع في ولاية نيويورك.

أغمضت عينيّ وقلت ببعض تمارين التنفس على طريقة اليوغا. تبدّد غضبي

ببطء. فتحت عينيّ وشعرت... بماذا؟ شعرت بالإحباط... بالتشوّش.

تُعتبر التحقيقات بأسباب الوفاة معقدة بما يكفي. لماذا يكون هذا الأمر دائماً ذا

صعوبة مضاعفة مع كلوديل؟ لمَ لا نستطيع أن نستمتع، هو وأنا، بالأحاديث التي

أُبدلها مع بقية المحققين في إطار أعمالهم المهنية؟ رايان مثلاً؟

رايان!

تذكّرت دوريس في أحد أدوارها في فيلم حديث الوسادة.

بدت بعض الأمور واضحة بما يكفي. تمسك كلوديل برأيه. لم يكن الرجل يحبّ

الفئران. لم يحبّ مطعم البييتزا. ولم يعتقد أن هذه العظام تستأهل اهتمامه. وبدا أن أية

مساعدة قد أحتاجها في التحقيقات ينبغي أن أحصل عليها من مصادر أخرى.

- "حسناً أيها المتكبر، والمتشكك الصلب. اهزأ بتحليلاتي من دون أن تحاول فهمها. سنكمل هذه التحقيقات من دونك".
تناولت لوحتي وعدت إلى الطابق السفلي.

بعد مرور ثلاث ساعات، أنهيت جردةً للهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38426. بدت البقايا سليمة في ما عدا العظم اللامي، وعظمة صغيرة بشكل حرف U، وهي التي تكون معلقة في نسيج لين من الحنجرة، بالإضافة إلى عدة عظام صغيرة تعود لليدين والقدمين.

تزداد العظام الطويلة طولاً طالما تبقى عظام الكردوس، وهي التي تغطي كل نهاية من نهايات هذه العظام، وتكون منفصلة عن العظمة نفسها. يتوقف النمو عندما تتحد عظام الكردوس مع الجزء الرئيسي للعظمة. تتحرك كل مجموعة من عظام الكردوس هذه حسب توقيتها الخاص به، وذلك لحسن حظ العالم بعلم الإنسان.

استطعت تضيق هامش العمر، وذلك عن طريق ملاحظة حالة تطور عظام الذراع، والساق، والترقوة. طلبت بعد ذلك إجراء فحص للأسنان بالأشعة السينية، كي أتمكن من ملاحظة تطور جذر الأضراس. وهكذا، لم يتبق عندي أي شك، وأستطيع أن أقول الآن إن الفتاة التي وجدت في الصندوق ماتت بعمر يتراوح ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة.

امتألت ورقة نموذج القضايا عندي بعشرات العلامات التي تدل على التحدر من أصل أوروبي، والتي ظهرت في العمود الخاص. واشتملت هذه الإشارات على فتحة الأنف الضيقة، والانحدار الشديد لحافة الأنف السفلى، وكذلك الجسر الأنفي المتميز بزاوية كبيرة، وبالمحور الأنفي البارز. تبين أيضاً أن عظام الخدين قريبة جداً من الوجه. دلت كل هذه الملامح والقياسات على أن الجمجمة تنتمي إلى الفئة القوقازية. تأكدت الآن أن الفتاة كانت بيضاء.

بينت قياسات الساق الدقيقة التي أجريتها أن طول الفتاة كان خمسة أقدام وبوصتين على وجه التقريب.

تفحصت كل العظام تقريباً، وكل كسرات العظام، لكنني لم أجد أي أثرٍ لاستخدام العنف عليها. وبدت الخريشات القليلة التي وجدت في منطقة القناة السمعية اليمنى سطحية، وتبين لي عندما وضعتها تحت المجهر أنها على شكل الحرف V. تولد شك عندي من أن تكون هذه العلامات قد حدثت بعد الوفاة، ربما نتيجة الاحتكاك مع

التراب، أو لربما حدثت نتيجة الإهمال أثناء نقل العظام إلى الصندوق.
فحص الأسنان قَدَمَ دليلاً على عدم الاهتمام بها، وعدم محاولة إصلاحها. عدت إلى تركيز اهتمامي على الفترة التي مضت على الوفاة. كم مرّ من الوقت على وفاتها؟ سأثبت لهذا المتعجرف خطأه عن طريق دراسة عظمة بسيطة.
يُعتبر جسم الإنسان كونا كوبرنيكياً (نسبة إلى كوبرنيكوس) صغيراً مولفاً من عناصر الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين. ويُعتبر القلب بمثابة نجمة الصباح في هذا الكون الصغير، وهو يؤمّن مصدر الحياة لكل نظام أبيض موجود في هذه المجرة.

تحدث فوضى في المادة الحية للخلايا في حالة حدوث الوفاة. تتطلق عند ذلك الأنزيمات بوليمية وحشية تلتهم فيها مخزونات الكربوهيدرات، والبروتينات للجسم ذاته. تتمزق في هذه الحالة أغشية الخلايا كي تتخلّى عن الطعام لجيوش من الكائنات المجهرية. وتبدأ البكتيريا الموجودة في القناة الهضمية بالتوجه إلى الخارج. وتتطلق البكتيريا الموجودة في البيئة، والحشرات التي تقفّت على الجيف، والحيوانات الكاسحة إلى داخل الجسم.

يؤدي الدفن، والتغطيس بالماء، أو التحنيط، إلى تأخير عملية التحلّل، لكن هناك عدة عوامل ميكانيكية وكيميائية تستطيع تعزيز هذه العملية. إذا متى نتحدّث عن عودة التراب إلى التراب؟

تختفي الأنسجة اللينة في مدة ثلاثة أيام فقط، هذا إذا توفّرت عوامل الحرارة والرطوبة الشديتين. تبقى هذه الحالة رقماً قياسياً، فتحت الظروف العادية، ومع دفن سطحي يستغرق الجسم فترة تتراوح ما بين ستة أشهر وسنة ليصبح هيكلًا عظيماً.
إن تواجد الجثة في قبو من شأنه التسبب بإبطاء هذه العملية، أما إذا تواجدت الجثة في بيئة شبه قطبية فتتباطأ هذه العملية أكثر فأكثر. والآن، ما هي الحقائق التي هي تحت تصرفي؟

وُجدت الجثث في قبور غير عميقة. هل كان ذلك القبو هو المكان الأصلي الذي دُفنت فيه؟ وكم مضى من الوقت ما بين وفاة أصحابها، ووضعها هناك؟
أعرف على الأقل أن جثتين قد جرى طيئهما، ووضعتهما الركبتان في وضع قريب جداً من الصدر. أعرف أيضاً أن واحدة من هذه الجثث الثلاث قد حُزمت، وغلّفت بكيس جلدي. لا أعرف شيئاً غير هذه الحقائق. يتعيّن عليّ التفكير في تأثير الرطوبة، وحموضة التراب، والتغيّرات في درجة الحرارة.

ماذا أستطيع أن أقول؟ وجدت العظام جافة، ومنفككة، وخالية تماماً من اللحم والرائحة. لاحظت بعض اللطخات، وبعض التراب المتسرب إلى التجويف الأنفي في الجمجمة، وكذلك إلى تجاويف النخاع العظمي. أعتقد أن الفتيات تعرّضن إلى الخطف، ونزعت عنهن ثيابهن لإخفاء أية آثار تدل على هويتهم، ولم تترك معهن أية أشياء مصنوعة، هذا إلا إذا كانت الأزرار التي أحضرها كلوديل تعود لهنّ.

أفترض أن أفضل التقديرات التي يمكنني إعطاؤها للفترة التي مضت على وفاة الفتيات هي: أكثر من سنة، وأقل من ألف سنة. يستطيع كلوديل أن يستمتع بانتصاراته نتيجة هذا التقدير. شعرت بخيبة الأمل، فأعدت الهيكل رقم 38426 إلى مكانه، مع تصميمي على طرح المزيد من الأسئلة.

كنت منشغلة بإخراج الهيكل الذي يحمل الرقم 38427 من العربية، عندما رنّ الهاتف الموجود خلفي. تضايقت من المقاطعة، وتوقّعت أن يكون كلوديل هو الذي يتصل ليظهر سخريته التي تتمّ عن الغرور. نزعت قناعي وتناولت سماعة الهاتف.

- "برينان".

سمعت صوتاً أنثوياً متهدجاً يفوح بالتردد: "الدكتورة تمبرانس برينان؟"

- "أجل".

نظرت إلى ساعتني. بقيت خمس دقائق ليحين وقت الخدمة الليلية للعاملين في مركز الهاتف.

- "لم أتوقّع أن تجيبي أنت شخصياً في الواقع. أعني اعتقدت أن سكرتيرة أخرى هي التي ستجيب. قالت عاملة..."

أجبت بإنجليزية تحاكي لهجتها: "أيمكنني أن أساعدك بطريقة ما؟"

مرّت فترة صمت، وبدا أن المتصلة كانت تفكّر فعلاً بالمسألة. تمكّنت أن أسمع أصواتاً تشبه أصوات الطيور من الجهة الأخرى.

- "حسناً، لا أعرف. فكّرت في الواقع أن أكون أنا من يقدّم المساعدة إليك".

عظيم. ها هي مواطنة أميركية متبرعة أخرى.

إن أفراد فريق استعادة مسرح الجريمة لا يكونون عادةً من العلماء. إنهم تقنيون، فهم يجمعون الشعر، والألياف والخيوط، وشظايا الزجاج، وشذرات الدهان، والدم، والمني، واللعب، وأية دلائل مادية أخرى. إنهم يجهدون في جمع البصمات، ويلتقطون الصور. ينتهي عمل وحدة استعادة مسرح الجريمة فور توضيب كل هذه

الأشياء وترقيمتها. لا يحتوي هذا العمل على أية تقنية عالية، وهم لا يشعرون بضرورة الإسراع في عملهم. ولا يشترك هؤلاء في مطاردات ساخنة. تفرض طبيعة عملنا أن يقوم الأخصائيون الذين يحملون شهادات عالية، بإنجاز الأمور التي تتطلب تطبيق علومهم، أما رجال البوليس فهم الذين يطاردون الأشرار.

تقدّم هذه المدينة المبهجة نوعاً آخر من الرقص، لأن الناس هنا يميلون للاعتقاد أن تقنيي مسرح الجريمة هم علماء ورجال تحرّ. إنني أتلقّى أسبوعياً اتصالات من المشاهدين الواهين الذين يظنون أنهم اكتشفوا شيئاً. أحاول أن أكون لطيفةً معهم في العادة، لكن هذه الأسطورة الهوليوودية تحتاج إلى ركلة على القفا.

- "أسفة سيدتي، لكن إذا أردت أن عملي في هذا المختبر فعليك أن تبرزِي مؤهلاتك، وأن تخضعي لعملية التوظيف الرسمية".

سمعت المتصلة وهي تأخذ شهيقاً حاداً: "أوه".

- "إذا مررت بمكتب شؤون الموظفين ستجدين نموذجاً مطبوعاً لتوصيف الوظيفة..."

- "لا... لا. أنت أسأت فهمي إذا. رأيت صورتك في لوجورنال البارحة فاتصلت بمكتبك".

أفترض أن هذه المرأة هي أسوأ من مجرد أن تكون مغرمة بالعروض البوليسية، ولعلها جارة متطفلة تمتلك أفضل النصائح في هذا القرن، ولربما هي مجرد مدمنة تتطلّع للحصول على مكافأة.

وضعت قلمي في مكانه، وجلست على مقعدي. أعتقد أنني ذهبت بعيداً في ظنوني بالنسبة لمكالمة هاتفية، لكن هذا هو الحال مع صاحبة الصوت الخفيض.

سمعت همهمة على الطرف الآخر من الخط: "يبدو هذا نوعاً من الجنون، وأنا متأكّدة من أنك مشغولة جداً".

- "أنا منهمكة جداً في موضوع هام سيده...؟"

وصلني الاسم مشوشاً قليلاً، غالات، أو بالانت، أو تالنت.

- "... بشأن العظام التي قمت باستخراجها".

سادت فترة صمت أخرى. وسمعت، مجدداً، بعض الصغير والأصوات الحادة

الأخرى.

- "ماذا بشأنها؟"

ازداد الصوت قوة.

- "أشعر أنها من ضمن مسؤوليتي الأخلاقية".

لم أقل شيئاً، بل حدّقتُ بالعظام الموجودة أمامي ورحت أفكر بالمسؤوليات الأخلاقية.

- "مسؤوليتي الأخلاقية التي تفرض عليّ متابعة الأمر حتى النهاية، على الأقل عن طريق مكالمة هاتفية. إنه أقل ما يمكنني عمله قبل مغادرتي. لا يريد أحد تخصيص بعض الوقت لسماعي بعد الآن، ولا أحد يكثرث بي. لا يريد أحد أن ينشغل بهذا الموضوع".

سمعت بعض الأصوات في القاعة المجاورة وسمعت صوت الأبواب وهي تُغلق بشدة، ثم ساد الصمت من جديد. أعرف أن تقنيي التشريح قد أنهوا أعمالهم لهذا اليوم وغادروا المكان. استرخيت في مقعدي وقد تملّكني التعب، لكنني شعرت برغبة أكبر لإنهاء المكالمة والعودة إلى عملي.

- "ما هي الأشياء التي تودّين إخباري إياها؟"

- "عشت في مونتريال لوقت طويل. أعرف ماذا جرى في ذلك المبنى".

- "عن أي مبنى تتحدّثين؟"

- "أتحدّث عن المبنى الذي خُبّنت العظام فيه".

استحوذت المرأة على كل انتباهي الآن.

- "أتقصدين مطعم البييتزا؟"

- "هذا ما أصبح عليه الآن".

- "أجل، تابعي".

لعلع في الطرف الآخر صوت جرسٍ صاخب في تلك اللحظة، صوت جرسٍ مماثل لصوت أجراس المدارس القديمة الطراز. وانتهت المكالمة فجأة.

الفصل 6

ضغطت عدة مرات على زر جهاز الهاتف محاولة أن أحصل على انتباه موظفة مركز الهاتف، لكن دون جدوى.

اللعنة!

أرجعت سماعه الهاتف إلى موضعها، وأسرت راكضةً نحو المصعد.

تعيش سوزان، وهي موظفة مركز الهاتف في المختبرات، في مدينة صغيرة تقع عند منتصف المسافة ما بين مونتريال وأونتاريو. يشتمل جدول تنقلاتها على قطار الأنفاق، والقطار، لكن مع توقيت دقيق جداً أكبر مما تطلبه عملية التحام مع محطة فضائية. تسارع سوزان للمغادرة فور انتهاء دوامها، وهي تفعل ذلك بسرعة الصاروخ. تمنيت أن ألحق بها في المصعد، وإن بمعجزة.

أشارت أرقام المصعد الضوئية إلى وجوده في الطابق الثالث عشر. هيا. هيا أيها

المصعد!

حسبت أن شهراً مضى قبل أن يهبط المصعد، وأن شهراً آخر سيمضي قبل أن أصل إلى الطابق الأعلى. خرجت من أبواب المصعد المفتوحة عند الطابق الثاني عشر.

كانت طاولة سوزان مهجورة. صليت أن تكون المتصلة قد عاودت الاتصال بي، وأن تكون المكالمات حوّلت بواسطة الخدمة الليلية الآلية إلى بريدي الصوتي. أسرعت إلى مكنتبي، شاهدت الضوء الأحمر يومض.

أجل!

أعلن لي صوت آلي عن وصول خمس رسائل. جاءت الأولى من صديقتي أن التي تعيش في كارولينا الجنوبية. جاءت رسالة ثانية من آلو الشرطة. ورسالة من غازيت مجدداً. ورسالة جديدة من مراسل أخبار محطة سي أف سي أف. وأخرى من رايان.

تملكتني مشاعر متناقضة. شعرت بالفضول لأن أن قد أتصلت بي، وشعرت بالارتياح لأن رايان حاول الاتصال بي. شعرت بالإحباط لأن مخبرتي الغامضة لم تتصل. خشيت أن أكون قد فقدت هذه المرأة إلى الأبد.

حاولت أن أتذكر اسمها. هل كان غالانت؟ أم بالانت؟ أم تالنت يا ترى؟ تساءلت لماذا لم أطلب منها تهجئة ذلك الاسم.

تقلبت في مقعدي، وحدثت في جهاز الهاتف، وتمنيت أن يلتمع ذلك الضوء الأحمر ليبلغني أن رسالة وصلت إلى الجهاز. طرقت بيدي على سطح طاولة مكتبي، وسحبت سماعة الهاتف بحيث امتد سلكها، ثم سمحت للسلك اللولبي بأن يعود كما كان ثانية. لماذا لم تحاول تلك المرأة الاتصال بي مجدداً؟ إنها تعرف رقمي.

مهلاً... ألم تقل إنها أتصلت بي من قبل؟ هل ظننت أنني أتهرب منها، وأني قطعت الاتصال معها عمداً؟ هل فقدت الأمل بالاتصال بي؟

فتحت الدرج، وبحثت عن قلمي. أفضلت الدرج ثانية. ألم تذكر المتصلة شيئاً عن المغادرة؟ هل تحدثت عن مغادرة المنزل، أم عن مغادرة المدينة، أم عن مغادرة المقاطعة؟ هل تحدثت عن المغادرة ليوم واحد، أم إلى الأبد؟ رحبت أضرب أحماسي بأسداسي، واندفعت بلوم نفسي على إهمالي. في هذه اللحظات رن هاتفي المحمول، فانترعته انتزاعاً من حقيبتي.

- "سيدة غالانت؟"

- "لَقَبْتُ ذات مرة بغالانت (الرجل الشهم)، لكنهم لم يطلقوا عليّ أبداً لقب سيدة".

آه! إنه رايان.

- "ظننتك شخصاً آخر".

ندمت على حماقة كلماتي ما إن تفوهت بها. تذكرت الآن أن السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت، قد أتصلت بي من خلال مركز الهاتف، ولذا من المستحيل أن تعرف رقم هاتفي الخليوي.

- "يؤلمني جداً أن أتحمس مدى الإحباط الذي يشي به صوتك".

عدت إلى مقعدي، وابتسمت لأول مرة في هذا اليوم: "إنك رائع، رايان. يرجع إحباطي إلى القضية التي بين يدي".

- "أية قضية؟"

- "الهياكل العظمية التي وجدت في قبو مطعم البييترا".

حافظت على مراقبتي لضوء الرسائل الأحمر أثناء مكالمتي مع رايان. وقفت على أهبة الاستعداد كي أقفز عند أول إشارة لبريدي الصوتي.

- "هل تمتعت اليوم بصحبة كلوديل؟"

- "حضر الرجل إلى هنا".

- "هل حضر بمفرده؟"

- "لم تستطع وحدة وافن للمخابرات السرية مرافقته".

- "أقصد أن كلوديل يبدو صلباً أحياناً".

- "ينتمي كلوديل إلى فصيلة إنسان نياندرتال. لا، أعتقد أنه ينتمي إلى العصر

الحجري القديم، لأن إنسان نياندرتال تمتع بدماع متعقل بالكامل".

- "لا يشكو دماغ كلوديل من شيء، لكنه يميل إلى تعليق أهمية كبرى على

الخبرات السابقة والأنماط المعتادة. أين يمكنني إيجاد شاربونيو؟"

- "تعرضت مومسان للاعتداء. قُلت واحدة، بينما ترقد الأخرى في مستشفى

نوتردام".

قال رايان: "سمعت عن هذا الأمر".

استشعرت شيئاً من الانزعاج في صوته.

- "أعتقد أن مدير أعمال المرأتين قد استدعي للتحقيق".

- "ستعرف بالتفاصيل".

تجاهل رايان مدى الانزعاج في صوتي، أو أنه لم يلاحظه.

- "ماذا يريد كلوديل أن يفعل بالعظام التي تفحصينها؟"

- "لا يستطيع أن يفعل الكثير مع الأسف".

تدخلت دوريس من دون أن أستطيع إيقافها: "لم تكن هذه القضية على رأس

أولوياتك في الليلة الفائتة".

امتنع رايان عن الرد.

أسرعتُ لمتابعة الموضوع: "تبين لي أن الهياكل العظمية الثلاث تعود كلها

لشابات صغيرات في السن".

- "هل هي حديثة العهد؟"

- "أخبرني كلوديل أن صاحب المطعم وجد أزراراً مع إحدى مجموعات العظام،

وأن خبيراً في متحف ماكورد قد قدر أن هذه الأزرار تعود إلى القرن التاسع عشر".

- "دعيني أَمْخَن. لا يكثرث كلوديل بما يعتبره أشياءً قديمة العهد".
- "أستغرب هذا، مع أن تفكيره مليء بأمور تعود إلى العصر الحجري الحديث".
- أضجرتني المتعة التي فاحت من صوت رايان عندما قال: "هل أنتِ في يومٍ سيئٍ يا شمسي؟"
- أزعجتني رغبتني بتقديم شرحٍ له. حاولت أن أتذكّر فلسفة آن. لا تشرحي أبدأً، ولا تشتكي أبدأً. كم أنتِ على حق يا أني!
- حافظت على تركيزي على جهاز الهاتف، مع أن ذلك المربع الأسود بقي أسود: "لم يكن هذا الأسبوع سهلاً بالنسبة لي".
- قال رايان: "كلوديل هو رجل شرطة جيّد، لكنه يتطلّب في بعض الأحيان إقناعاً أكثر مما نحتاجه نحن، أي الأنواع الأذكى بطبعيتنا".
- "إنه عنيد".
- "حاولي تغييره".
- "لم أفكّر بهذا الأمر".
- مرّت لحظة صمت، لكن رايان أسرع لكسرها.
- "ما هو عمر هذه العظام برأيك؟"
- "لست متأكّدة بعد، حتى إنني لست متأكّدة من أن وفاة الفتيات قد حدثت في نفس الوقت"
- "هل هناك عملٌ على الأسنان؟"
- "لم ألاحظ شيئاً من هذا القبيل".
- ساد الصمت من جديد.
- "ماذا بشأن انطباعك الأولي؟"
- "إن فترة الدفن في القبو لم تكن طويلة".
- "ماذا يعني ذلك؟"
- "أعتقد أن علينا أخذ القضية بجدية أكبر".
- تجاهل رايان مجدداً المرارة التي أشعر بها.
- "ما هو الأساس الذي بنيت عليه انطباعك الأولي؟"
- لم أكفّ عن طرح هذا السؤال على نفسي في الأيام الثلاثة الماضية.
- "التجربة".

لم أذكر له المخبرة الغامضة التي اتصلت بي مؤخراً، ولم أذكر له مدى حماقتي عندما لم أكرث بها كثيراً.

- "حسناً يا شمسي..."

سارعتُ إلى مقاطعته: "أجل يا حبيبي".

مرّت فترة صمت.

- "يتعيّن عليك إيجاد الدليل الذي يُقنع كلوديل أنه مخطئ".

مهلاً، مهلاً أيها الأستاذ الذي يويخ طالباً في صف الحضانة. مرّت فترة صمت

طويلة تخلّلتها أنفاسي المضطربة. بادر رايان إلى التكلّم مجدداً.

- "أعتقد أن هذه الليلة لن تكون مريحة بالنسبة إليك".

- "ماذا تعني بكلامك هذا؟"

- "أندركين كم أنت متعبة ومحبطة. اذهبي إلى بيتك واستمتعي بالاستحمام في

المغطس مع الفقاقيع. ستجدين أن الأمور أصبحت أفضل في الصباح".

جلستُ أستمع إلى الهمهمة الصادرة عن المبنى بعد انتهاء الاتصال. لا أستطيع

إنكار الواقع، أي أنني أمضيتُ إلى الآن ثلاثة أيام كاملة بلياليها في مونتريال. حافظ

رايان خلال هذه الأيام على شخصيته اللطيفة والساحرة. وحافظ أيضاً على غيابه

عني. إن آخر شيء أحتاج إليه هو أن تحترق أعصابي. ها هو الضابط المتباهي يبتعد

عني، وها أنا عالقة مع التحري العنيد الرأس.

أشرفت على نرف الدموع، لكنني نجحت بكبحها. عشت في الماضي من دون

رايان، وأنا مصممة الآن على فعل ذلك مجدداً. لطالما استطعت أن أتعايش مع

كلوديل، وسأفعل ذلك ثانية. أتساءل الآن إن كانت المشكلة مع رايان هي من صنع

خيالي. أتساءل عن سر هذه البرودة في علاقتي معه هذه الأيام؟

عصفت الرياح في الخارج، أما في الطابق السفلي لهذا المبنى فترقد ثلاث نساء

بصمت مطبق داخل مستوعبات من الفولاذ غير القابل للصدأ. تطلّعت مجدداً نحو

جهاز الهاتف. لم تقرّر السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت، أن تتصل بي بعد.

نهضت من مقعدي وقلت: "فلتذهب الفقاقيع إلى الجحيم. ولتذهب أنت أيضاً، يا

أندرو رايان إلى الجحيم".

انتهيت من تفحص الهيكل رقم 38427، أي الهيكل الذي استخرج من المنخفض

الأول، عند الساعة التاسعة. تبين لي أنها أنثى بيضاء، يتراوح عمرها ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، ويتراوح طولها ما بين أربع وستين، وسبع وستين بوصة. لم يحمل هذا الهيكل معه أية رائحة، ولا حتى الشعر، ولا أية شذرة من النسيج اللين. لم أجد سوى هيكل جاف من دون ألوان، لكنني لاحظت بعض التراب المتسرب. لاحظت أيضاً بعض الكسور في الجمجمة، وهي كسور حدثت بعد الوفاة، بما فيها بعض الشظايا في منطقة الإحساس اليمنى بالوقت، وكسور في عظام الوجه اليمنى، وفي الفرع الأيمن للفك. لم ألاحظ أية كسور في العظام حصلت قبل الوفاة. لم ألاحظ أي ترميم للأسنان، ولم أجد أية بقايا للثياب، أو أية ممتلكات أخرى. بدا الهيكل رقم 38427 نسخة طبق الأصل عن الهيكل رقم 38426.

اكتشفت فارقاً واحداً. رأيت هذه الشابة في مكان دفنها الأصلي، وتمكنت من معرفة أشياء عن ظروف دفنها. وُضع الهيكل رقم 38427 عارياً في الحفرة في وضع جنيني.

تعودنا نحن الذين نتبع المعتقد المسيحي، أن نرسل أمواتنا إلى العالم الآخر في أفضل هندام لهم. إننا نسبلهم وأرجلهم ممدودة بالكامل، ونضع أيديهم فوق بطونهم، أو نتركها مسبلة على جوانبهم. وأعرف أن عادة وضع الإنسان المتوفى في وضعية الشخص النائم، وفي حالة انثناء، متبعة أكثر بين إخواننا السكان الأصليين لهذه البلاد، وعلى الأخص قبل احتكاكهم بنا. إذًا، هل يدعم هذا الوضع المنثني فرضية كلوديل بتقادم تاريخها؟

ليس الأمر بهذه البساطة!

يتطلب الجسد المنثني حفرة أصغر، كما يتطلب حفراً أقل، ووقتاً وجهداً أقل. ويشيع هذا النمط من الدفن عند الذين هم في عجلة من أمرهم. ويبدو المجرمون كأبرز مثال على هؤلاء.

شعرت بالتعب، فأرجعت العظام إلى موضعها، ثم رجعت إلى مكثبي، وأسرعت إلى إلقاء نظرة على جهاز هاتفي مرة أخرى. لا رسائل.

كانت الساعة قد تعدت العاشرة بقليل عندما غادرت عملي. عصفت الرياح حول زاوية ويلفريد ديروم، واستطاعت هذه الرياح أن تخترق ثيابي كما تفعل الشفرة. أسرعت إلى سيارتي بينما كادت أنفاسي تتجمد بفعل البرد. لم أستطع التفكير بأي شيء، عدا الفتيات الراقدات في المشرحة. هل كان

المرض هو سبب الوفاة؟ هل تمت عملية قتل الفتيات بطريقة لا تترك أثراً على العظام؟ هل حدث القتل بطريقة التسميم، أم عن طريق الاختناق؟ هل تمت عملية القتل بطريقة تخفيض درجة الحرارة؟

ظهر مرافقان أمامي عندما وصلت إلى الإشارة الضوئية لشارع فايجر، ظهرا فجأة من بين ظلال جسر جاك كارتييه. لاحظت وشميهما، والنقوب في آذانهما، وتسريحة شعرهما السبايكي. رفع المرافقان تجاهي ممسحتين مطاطيتين بحركة متوترة ومستهترة. أو مأت إليهما أن يمضيا قدماً، وبدأت بالبحث عن دولار في محفظتي، ومضيت بمراقبتهما أثناء انهماكهما بإزالة الماء غير النظيف عن الزجاج الأمامي لسيارتي.

هل كانت فتيات قبو مطعم البييتزا متمرديات مثل هذين الشابين؟ وهل كن ماضيات في دروب العصيان المألوفة؟ هل كن محبات للعزلة، أو تعرضن للتعسف من طغاة عائلاتهم؟ هل كن هاربات يناضلن من أجل كسب عيشهن في الشوارع؟ لم أجد أي دليل على ملابسهن. أسلم أن الأنسجة الطبيعية مثل القطن، أو الكتان، والصوف، تتحلل بسرعة. لكن كيف يمكنني تفسير غياب أي سن من أسنان الزمام، أو أية حلقة صغيرة، أو حتى أي مثبت للصدر، أو حتى مثبتاً لصديرية؟ أظن أنه تمت تعرية الفتيات قبل تخبيتهن في مدافن غير معلومة.

هل ماتت الفتيات معاً، أم في غضون أشهر، أم على مدى أعوام؟ ويبقى دائماً السؤال المحوري: متى حدث ذلك؟ أقبل عقد، أم قبل قرن من الزمان؟ وصلت إلى منزلي وأنا أشعر بصداغ شديد، شعرت بجوع شديد أيضاً. تذكرت أنني لم أتناول أي شيء هذا اليوم عدا بضعة أصابع من الغرانولا، والقليل من الصودا المخصصة للحمية.

انتهيت من أخذ حمام سريع، فأسرعت بتحضير عشاء مكسيكي مثلج. سرحت بأفكاري نحو آن، أثناء تناول عشاءي برفقة رجل وهمي. تستطيع أن تفهمني. دعوني أنفَس عن مشاعري وأقول أشياء تبعث في الارتياح. لم أكد أتناول سماعة الهاتف حتى انطلقت بالرنين.

قالت آن: "كيف حال بيردي؟"

- "أتصلين لتسأليني عن هري".

- "لا أظن أن المسكين يلقي ما يستأهله من الاهتمام".

ربض ذلك المسكين بجانبني على الأريكة، وركّز نظره على الكريما التي رشحت

من بقية الترتيبة التي تناولتها.

- "أعتقد أن بيرد سيوافق على هذا الكلام".

وضعت عشائي على طاولة القهوة، وغرفتُ كمية من الكريما وقدمت للهرّ كميةً منها بإصبعي. لعق بيردي إصبعي ونظفها تماماً، ثم عاد بتركيزه نحو الصحن.

- "ماذا بشأنك أنت؟"

شعرت بالضياع، فسألتها: "ماذا تعنين بسؤالك؟"

- "هل تحصلين على اهتمامٍ كافٍ؟"

تتمتعُ آن ببصيرةٍ نفاذةٍ مثل القمر نافسات، لكنها لم تعرف بالقلق الذي أشعر به تجاه رايان. قلت لها: "كنت على وشك الاتصال بك".

تابعتُ كلامها من دون أن تصغي فعلاً لإجابتي: "أنا لا أحصل على هذا الاهتمام".

- "عمّ تتحدّثين؟"

- "أحدّث عن طوم تيد".

أعرفُ أن آن مستروجة من محامٍ يدعى طوم ترنيب. اكتسب طوم لقب تيد عندما واطب شريكه في مكتب المحاماة على مناداته بهذا اللقب لمدة شهر كامل، وذلك عندما أنهى سنة شراكته الثانية في مؤسسته. اكتسب طوم اسم طوم تيد منذ ذلك الحين.

- "ماذا بشأن طوم تيد؟"

- "خمّني؟"

أردت أن أكون متعاطفة معها، لكنني كنت متعبة جداً لكي أدخل في لعبة التخمين.

- "أخبريني من فضلك"

- "يا للفكرة الرائعة! سأكون هناك غداً".

الفصل 7

تحسّن مزاجي كثيراً بعد مضيّ ثماني ساعات، وزال صداعي. لقد غمر ضوء الشمس المكان، كما أن صديقتي المفضلة هي في طريقها لزيارتي. هذا ما أفترضه على الأقل، لأنني أعرف أن أن تغَيّر آراءها كثيراً.

بمناسبة الحديث عن تغيير الآراء، أعتقد أن رايان كان محقاً. إن إيجاد دليل يكشف المدة التي انقضت على الوفاة، هو في صميم الجدل مع كلوديل. انشغلت بمضغ رقائق الذرة أثناء تفكيري بهذه المشكلة.

أعرف عند هذا الحد أن الهيكلين 38426 و38427، قد استُخرجا من قبور حُفرت في قيو جاف. خلا هذان الهيكلان من اللحم، لكنهما كانا محفوظين بشكل سليم، ولم تظهر عليهما أية آثار لكسور أو للتقشّر.

أجريت تدقيقاً ذهنياً. وتساءلت عن أية معطيات أخرى قد تساعدني على تحديد المدة التي مضت على الوفاة عن طريق تحليل عظام بسيطة وجافة. هل أمثلك مواد مهترئة مرافقة للعظام؟ هل أمثلك تحليلاً يثبت وجود حشرات في العظام؟

قرب بيرد رأسه من صحن الحبوب الذي أعدته، على أمل أن يتمكن من لعق شيء من الحليب. أعدت الهر إلى مقعده.

هل يتوجب عليّ الانتقال إلى الهيكل رقم 38428، أم أنه يجدر بي أن أركّز على تحديد مدة الوفاة؟

تسلّل بيردي مجدداً إلى الطاولة. أعدته مجدداً إلى مكانه السابق. شعرت أنني سأرتاح إذا حصلت على دليل يؤكد أن عملية الدفن قد تمت منذ وقت بعيد، وسألجأ في هذه الحالة إلى إخطار علماء الآثار. أعلم أيضاً أنني إذا وجدت دليلاً على حداثة عهد الوفيات، كما هو ظني، فسيصّر القاضي على المضي بإجراء التحقيقات، وسيرضخ كلوديل للأمر الواقع. ويستطيع كلوديل بعدها الانطلاق بالتحقيق الرسمي بمساعدة شاربونييو، بينما أنفرغ أنا لتحليل ثالث مجموعة من البقايا.

شن بيردي غارته الثالثة أثناء انهماكي بسكب القهوة. أرجعته مجدداً إلى مكانه، لكن بحرصٍ أقل.

أعترف أنني لا أملك أية دلائل دامغة، فما هي الخيارات المتبقية أمامي؟
أعلم أن تركيب عناصر العظام يتغير مع مرور الوقت. تأخذ كميات النيروجين بالتناقص مع الزمن، بينما تزداد كميات الفلوريد. تحدث هذه التغيرات ببطء شديد، بحيث يتعذر علينا الاستفادة من هذا الواقع لتحديد عمر البقايا.
قرأت في الماضي دراسات ركزت على التصوير الشعاعي، وعلى علم الأنسجة والتفاعلات الكيميائية، ومحتويات العظام من النظائر المشعة. وسبق لي أيضاً الاطلاع على دراسات تشير إلى الأحماض الأمينية كونها مفيدة في تمييز العظام الحديثة عن القديمة.

أعرف أيضاً أن هناك عوامل كثيرة تؤثر على العمليات الكيميائية الحيوية، والعمليات الفيزيائية التي تحدث في العظام. تبرز هنا عوامل الحرارة، ورطوبة التربة، وضغط الأوكسجين، بالإضافة إلى النشاط البكتيري، وتوازن حموضة التربة وقلويتها. ذلك يعني عدم وجود تقنية دقيقة يُمكن استخدامها بشكل موثوق به. ما إن تحدث الوفاة حتى يبدأ الجسد بالتحلل، وتغزوه الجراثيم وأنواع الحشرات، تصبح هنا مسألة تحديد مدة الوفاة بمثابة مثلث برمودا بالنسبة للطب الشرعي.

لا أستطيع التفكير إلا باختبار واحد يُمكن أن يعطي نتائج محددة، لكن هذا الاختبار يتطلب الوقت والكثير من المال، بالإضافة إلى أن القليل من المختبرات تقدم على إجرائه. علمت أنه من الصعب إقناع لامانش بإجراء الاختبار، نظراً لمعرفتي بالحالة المالية الحالية للمختبرات. لكن الأمر يستأهل المحاولة.

وضعت الطبق على الأرض، ثم تناولت جهاز كمبيوتر المحمول وانطلقت.
بقي ضوء الرسائل في جهاز الهاتف الموجود في مكتبي مظلماً بشكل ثابت.
بدا الاجتماع الصباحي روتينياً. مات رجل اختناقاً بدخان مدفأة معطلة. وعلمنا بوجود قتيل نتيجة حادث سير له علاقة بتناول الشراب. ومات مهووساً آخر نتيجة غلطة ارتكبها في أنشطة حبل كان يعبث به. ووجد جسد مشوه في مرآب محترق للسيارات.

تولّى بيليتيه الضحية المحترقة. طلب بيليتيه أن أكون جاهزة للمساعدة في حالة تعقد الأمور، مع أنه يظن أن البقايا تعود لصاحب الشاحنة.

التفت إلى لامانش بعد خروج الآخرين، وقلت: "هل أستطيع التحدث إليك قليلاً؟"
رجع لامانش إلى مقعده: "أجل".

- "انتهيت من تفحص اثنين من الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيترزا".
استطالت الخطوط المرتسمة على وجه لامانش وتعمقت عندما رفع حاجبيه. بدأ
لي أنه تقدّم فجأة بالسن، أكثر مما كنت أظن. هل يعود السبب إلى ضوء الصباح
المتسلل من النافذة خلفي؟ هل صحة لامانش ليست على ما يرام، أم أنني لم ألاحظ هذه
التغيرات في الرجل حتى هذه اللحظة؟

قلت له: "تبيّن لي أن الضحيتين اللتين تفحصتهما شابيتين وصغيرتين في السن".
- "أرى أنك تستخدمين كلمة ضحية".
- "إنهما صغيرتان في السن وميتتان".
لسم تطرف عينا لامانش الكئيبتان نتيجة وصفي الحاد. تابعت معترفةً: "لكنني لم
أجد أية علامات تدل على العنف".

- "يشعر السيد كلوديل أنه يُحتمل ألا تكون البقايا حديثة العهد".
- "وجد صاحب المطعم أضراراً يُحتمل أن تعود للقرن التاسع عشر".
ارتفع الحاجبان مجدداً: "أيحتمل ذلك؟"
- "أخذها كلوديل إلى متحف ماكورد".
- "وهل اقتنعت؟"
- "حتى لو كانت الأضرار حقيقية، فليس من الواضح أنها ترتبط بأي هيكل من
الهياكل العظمية. يحتمل وجود الأضرار في القبو العديد من التفسيرات".
تأوّه لامانش وزاد من انتباهه: "أخبرني السيد كلوديل أيضاً أن عمر المبنى يزيد
عن المائة عام".
شعرت أن وجهي يتورد: "هل تفحص كلوديل المبنى؟ لم يخبرني عن هذه
المعلومة".

- "جرت عملية البناء منذ ما يزيد عن قرن من الزمان".
أعترف أنني أتمتع بحد أقصى لفقدان أعصابي، وقد ورثت هذا عن والدي. اعتاد
والدي أن يسمح لغضبه الشديد بالسيطرة عليه، وذلك إضافة إلى تناوله الشراب.
تعوّدت على نوبات الغضب هذه وكبرت معها.
مثل والدي تماماً، استسلمت لإغراء الشراب، لكنني اختلفت عنه في ابتعادي عن

الإيمان. اختلفت عنه أيضاً في مقدرتي على السيطرة على نوبات غضبي. أستطيع أن أحافظ على مظهرٍ خارجي باردٍ تماماً، بينما تغلي نيران غضبي في داخلي.

سألت بصوتٍ شديد البرودة: "ألم يدرك السيد كلوديل أن مثل هذه المعلومات هامة جداً لعملي؟"

- "أنا متأكد من أنه سيبلغك بتفاصيلها".

- "هل سيحدث هذا خلال حياتي؟"

- "لماذا تأخذين موقفاً دفاعياً، فأنا لا أحاربك".

أخذت نفساً عميقاً، وقلت: "هناك اختبار واحد يحسم المسألة".

- "أخبريني عنه".

- "هل سمعتَ عن تأريخ الكربون 14؟"

- "أعرف أن هذه الطريقة تُستخدم لتحديد عمر المواد العضوية، بما في ذلك العظام البشرية، لكنني لا أعرف كيف".

- "يُعتبر الكربون المشع، أو الكربون 14، من النظائر المشعة غير المستقرة. تتلاشى هذه المادة، مثل كل المواد المشعة الأخرى، عن طريق إطلاق جسيمات ما دون ذرية، وذلك بمعدل منتظم".

بقيت عينا لامانش مركزتان على عيني، فتابعت: "تتحول نصف كمية ذرات الكربون المشع إلى عنصر النيتروجين في غضون 5,730 سنة".

- "يسمى هذا نصف العمر".

أومات موافقةً وتابعت شرحي: "وفي غضون 11,460 سنة يتبقى ربع الكمية الأصلية للكربون المشع. ويبقى ثمن واحد فقط من هذه الكمية بعد 5,730 سنة أخرى، وهكذا دواليك".

لم يحاول لامانش مقاطعتي، فأكملت شارحة: "إن كمية الكربون المشع الموجودة في الجو هي صغيرة فعلاً. وتتواجد ذرة كربون مشع واحدة مقابل كل تريليون ذرة كربون مستقر. يتكوّن الكربون المشع باستمرار في الطبقات العليا من الجو، وذلك عن طريق القذف الكوني لذرات النيتروجين. تتحول بعض ذرات النيتروجين هذه إلى الكربون المشع، الذي يتأكسد فوراً ليصبح ثاني أكسيد الكربون. يترسّب ثاني أكسيد الكربون ذاك إلى طبقة المحيط الحيوي، أو البيوسفير، لتستفيد النباتات منه. يؤلف الإنسان والحيوانات والنباتات سلسلة غذائية واحدة طالما يبقون على قيد الحياة،

ويحتفظون بنسبة ثابتة من الكربون المشع في أجسادهم. تتناقص الكمية الفعلية تدريجياً بسبب التآكل الإشعاعي، لكن يجري تعويض هذه الكميات المفقودة عن طريق تناول المزيد من الطعام، أو عن طريق التمثيل الضوئي بالنسبة للنباتات. يستمرّ هذا التوازن موجوداً طيلة بقاء الكائنات الحية على قيد الحياة. يبدأ التآكل عند موت هذه الكائنات، ويستمرّ في كونه العملية النشطة الوحيدة. إن طريقة تحديد التاريخ عن طريق الكربون المشع هي طريقة تحدّد زمن بداية الإخلال بهذا التوازن".

رفع لامانش راحتي يديه بحركة تتمّ عن بعض التشكيك.: "ما يزيد عن الخمسة آلاف سنة. كيف يمكن لهذه العملية البطيئة أن تكون ذات قيمة بالنسبة للبقايا الحديثة؟" - "إنه سؤال وجيه، لأنه من الصحيح أن طريقة تحديد التاريخ بواسطة الكربون 14 أكثر ما تُستخدم من قبل علماء الآثار، ولطالما أثبتت مصداقيتها. تستند هذه التقنية على افتراضات عديدة، إحداها تقول إن مستوى الكربون المشع في الجو بقي ثابتاً مع مرور الزمن. ويمكننا استخدام المعطيات غير المتوافقة مع ذلك الافتراض من أجل إعطاء هذه العملية تطبيقات أوسع".

- "وكيف يكون هذا؟"

- "تصبح العملية أكثر تشويقاً هنا. تمكّنت الدراسات من توثيق بعض الشواذات في معطيات الكربون المشع بالنسبة لفترات محددة من الزمن. برزت بعض الاضطرابات على مدى الثمانين سنة الماضية، وهي التي تسبّب بها النشاط البشري". استرخى لامانش في مقعده، وشبك أصابع يديه، ثم وضع يديه على صدره. هل هذه إشارة منه لضرورة الاختصار؟ أجريت لهذه السبب بعض الاختصارات في ذهني.

- "تميّزت الفترة ما بين عامي 1910 و1950، بتناقص كمية الكربون المشع الموجود في الجو، ولعل ذلك يعود إلى إطلاق مخلفات احتراق الوقود الأحفوري في الجو. وتشمل أنواع الوقود هذه النفط، الفحم، والغاز الطبيعي".

- "لماذا؟"

- "لا يشتمل الوقود الأحفوري، بسبب قدم عهده، على كميات مهمة من الكربون المشع. يُدعى هذا الوقود بالوقود الميت. يتسبّب احتراق الوقود الأحفوري بانطلاق غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يخلو من الكربون المشع، لذلك تتناقص نسبياً كميات الكربون 14 الموجودة في الجو".

- "نعم".

- "أسفرت عمليات تجربة الأسلحة النووية الحرارية، والتي أجريت بعد العام 1950، عن عكس هذا الاتجاه التنازلي".

- "وننتج عن ذلك ازدياد كمية الكربون المشع الموجودة في الكائنات الحية".
- "ازدادت كثيراً. ارتفعت الأرقام إلى نسبةٍ تقارب 85 بالمئة أكثر من المستويات القياسية المعاصرة، وذلك من الفترة الممتدة ما بين العام 1950 والعام 1963. وأسفرت اتفاقية دولية عُقدت في العام 1963 عن توقف معظم الدول عن إجراء التجارب النووية فوق سطح الأرض، وعادت نسب الكربون المشع، الموجودة في الغلاف الحيوي، إلى الاستقرار على توازن جديد".
هزّ لامانش رأسه بحزن: "يا للحماقة".

- "تُعرف هذه التغييرات بالتأثيرات الناجمة عن الوقود الأحفوري والقنابل الذرية".

اختلس لامانش نظرةً على ساعته.

- "إن مغزى كلامي كله هو أن ذلك الكربون 14 الصناعي، أو ذلك الناتج عن القنابل، يمكن استخدامه لتحديد ما إذا كان شخصاً ما قد توفي قبل، أو بعد، فترة إجراء تجارب القنابل النووية فوق سطح الأرض".

- "وكيف يُجرى هذا الاختبار؟"

- "هناك طريقتان في الواقع. تعتمد طريقة قياس الكمية الإشعاعية العادية على تحليل المواد بواسطة تحويل نموذج من الكربون إلى بنزين، ثم قياس محتوى الكربون 14 بواسطة تحليل التآلق الطيفي".

- "وما هي الطريقة الثانية؟"

- "تُستخرج النتائج في الطريقة الثانية عن طريق تقليص نموذج الكربون إلى مادة الغرافيت. يُجرى اختبار بعد ذلك على الغرافيت لتحديد محتواه من الكربون 14، ويجري ذلك داخل مسرّع الكتلة الطيفي".

لم يقل لامانش شيئاً للحظاتٍ عديدة، إلى أن سمعت منه: "ما هي كمية العظام التي يتطلّبها الأمر؟"

- "تحتاج إلى مائتين وخمسين غراماً لإجراء تعداد تقليدي للتلاشي، أما في حالة مسرّع الكتلة الطيفي فنحتاج إلى غرام واحد، أو حتى أقل من ذلك".

- "هل يكلف اختبار مسرّع الكتلة الطيفي أكثر من الاختبار العادي؟"

- "أجل".

- "كم هي الكلفة؟"

عندما أخبرته، نزع لامانش نظارتيه عن عينيه، وعصرَ منطقة أعلى أنفه بإبهامه وسبابته.

- "ألا توجد خطوة وسيطة من أجل تقرير ما إذا كان هذا النوع من الإنفاق مبرراً؟"

- "هناك شيء واحد أستطيع تجربته. إن الطريقة ليست موثوقة تماماً، لكنها بسيطة ويُحتمل أن تُظهر ما إذا كانت الوفاة قد حدثت منذ مائة سنة، إما أكثر قليلاً، أو أقل قليلاً".

حاول لامانش البدء بالكلام.

أضفت قائلة: "كما أنها مجانية، لأنني أستطيع أن أجريها بنفسي، لكنني أقول مجدداً إنها تعطي تقديراً تقريبياً لمسألة إذا ما كان عمر العظام أكثر من قرن من الزمان، أو أقل بقليل".

أعاد لامانش نظارتيه إلى موضعهما وهبَ واقفاً: "سأناقش اقتراحك مع الدكتور أوتيه قريباً جداً، لو سمحت".

ينظر جان - فرانسوا أوتيه، وهو رئيس قضاة التحقيق بالوفيات المشبوهة، في جميع طلبات الإنفاق غير الاعتيادية. دأب الرجل على قبول القليل جداً من هذه الطلبات.

تناولت معطف المختبر من مكتبي ثم توجهت إلى المشرحة. لاحظت أن مورين وآيرز كانتا منمكتين في الغرفة رقم اثنين بتقطيع شقوق بشكل حرف Y. طلبت الحصول على مصباح للأشعة فوق البنفسجية، وانتظرت ريثما يفرغ التقني من إحضاره. أسرعرت بعد ذلك إلى الطاولة المناسبة وأخرجت عظام الفخذ اليسرى للهيكل العظمية التي تحمل الأرقام 38426، و38427، و38428.

عندما دخلت إلى غرفة التشريح رقم أربعة، شرعت بكتابة أرقام الحالات بالترتيب على النهايات القريبة من مراكز عظام الساق، وتلك البعيدة عنها، ثم وضعتها على طاولة التشريح. أصدرت كل مجموعة من العظام قرعةً وسط الصمت المخيم.

وضعت القناع، ثم شغلت منشار سترايكر الكهربائي. تجمّع مسحوق أبيض على الصينية الفولاذية غير القابلة للصدأ، وذلك عندما قطعت كل عظمة من عظام الساق.

ملأت المكان رائحة حادة وساخنة.

تساءلت مجدداً عن الشابات اللواتي انهمكُ الآن بتقطيع عظامهن. هل ماتت الفتيات وسط عائلاتهم؟ لربما لا. هل كنّ وحيدات وخائفات؟ أَرَجح هذا الاحتمال الأخير. هل امتلكن آملاً بالحصول على المساعدة، أم كنّ يائسات؟ هل كنّ غاضبات؟ هل شعرن بالارتياح؟ أعتقد أن كل الاحتمالات واردة هنا. لن تحصل الفتيات على فرصة لتوضيح ما حصل.

انتهيت من عملية النشر، فجمعتُ أجزاء عظام الساق، ومصباح الأشعة فوق البنفسجية، وحملتها إلى حجرة الإيداع الموجودة في نهاية القاعة.

لكم أتمنى أن تنجح محاولتي هذا.

دخلت إلى الحجرة، وبحثت عن مقبس كهربائي مناسب لمصباح الأشعة فوق البنفسجية. وضعت أجزاء عظام الساق النصفية على الرف، ووضعت معها الأجزاء التي نشرتها للتو ووجَّهتها نحو الجهة الخارجية.

أقفلت باب الحجرة، وساد الظلام في الأرجاء.

أمسكت أنفاسي، ووجَّهت مصباح الأشعة فوق البنفسجية، وضغطت على المفتاح

الكهربائي.

الفصل 8

- "أجل!"

ضربت الهواء بيدي الأخرى وأنا أشعر بالانتصار.

تضيء عظام الأطراف التي يعود عمرها إلى قرنٍ من الزمان تحت أضواء الأشعة فوق البنفسجية. يقل هذا الإشعاع مع مرور الزمن، ويبدأ القطاع الميت بالتمدد خارجاً من تجويف نخاع العظم، ونحو الداخل ابتداءً من السطح الخارجي. يغيب كلياً الوهج ذو اللون الأصفر الذي يميل إلى الخضرة بعد مرور قرنٍ على الوفاة.

بدا أن هذه العظام تتوهج مثل حلقات أضواء النيون.

حسناً يا كلوديل! ليست هذه سوى الخطوة الأولى.

أرجعتُ عظام الساق إلى مكانها في الأكياس المخصصة لها، وانطلقتُ أبحث عن

رئيسي.

وجدت لامانش منهمكاً بتقطيع دماغ في مختبر الأنسجة. رفع رأسه عندما دخلت، ولاحظتُ أنه يحمل السكين بيده، وأنه ارتدى منزراً بلاستيكياً مربوطاً خلف رقبته، وفي منطقة الخصر. شرحت له ما فعلته.

- "ماذا بعد؟"

- "توهجت الأسطح المقطوعة مثل نجم مستعر".

- "علام يدل ذلك؟"

- "يدل على وجود مكونات عضوية".

وضع لامانش سكينه على لوحة من الفلين: "إذا لا نستطيع اعتبار أن هذه الهياكل

المدفونة تعود إلى السكان المحليين".

- "ماتت الفتيات بعد العام 1900".

- "تحديداً؟"

علقتُ، لكن بحماسة أقل: "ربما".

- "بُنيت العمارة في أوائل القرن الماضي تقريباً".
لم أعلّق.

- "أتذكّر البقايا التي وُجِدَت قرب كاتدرائية ماري - راين دو موند؟"
قصدَ لامانش تلك المهمة التي أوكلها إليّ في وسط المدينة، من أجل التحقيق في أجزاء من أجسامٍ اكتشفها فريق صيانة أنبوب المياه الرئيسي للمدينة. ووجدتُ، حينما وصلت إلى المكان، حفارات وشاحنات لنقل الردميات، ووجدت حفرةً كبيرةً في وسط شارع رينيه - ليفسكو. ووجدت أيضاً أجزاءً من جماجم، وأضلاع، وعظام طويلة على طول الرصيف، استخرجت من خندق جرى حفره حديثاً. لاحظت وجود أجزاء بشرية مختلطة مع شظايا خشبية، ومسامير صدئة.

يا للقضية الواضحة، لأنها مدفونات مكفّنة!

أكّد علماء الآثار رأيي في ما بعد. تواجدت في المكان مقبرة حيث ترتفع الكاتدرائية هذه الأيام، والتي تشهد أمامها ازدحام السيارات التي تعبر شارع رينيه - لافاسكو. بقيت هذه المقبرة إلى أن أغلقت بفعل وباء الكوليرا الذي اجتاح المنطقة في منتصف القرن الثامن عشر. فوجئ فريق الإصلاح بوجود بعض هذه البقايا البشرية، والتي يظهر أنها نُسيت في المقبرة عند نقلها إلى مكانها الجديد.

سألته: "هل تريد أن تقول إن ذلك المبنى قد أُقيم فوق مقابر مجهولة؟ في الواقع، لم أجد دليلاً على وجود أكفان".

يشتهر الكنديون ذوي الأصول الفرنسية بهز أكتافهم دلالة الاستهجان، وباستخدام حركات دقيقة بالأيدي، والعيون، والأكتاف، والشفاه، وذلك للإيحاء بعدد لا يحصى من المعاني. توجد إشارات للإيحاء بالموافقة، وبعدم الموافقة، وبعدم الاكتراث، وأيضاً للاستفهام عمّا يمكن فعله، وللدلالة على عبارة: من يدري، وللدلالة على أن الشخص الآخر أحمق، وأخيراً هنالك إشارة لتقول: افعل ما يحلو لك.

رفع لامانش إحدى كتفيه وحاجبيه، وهي حركة هز الكتف التي تدل على: ربما نعم وربما لا.

سألته: "هل ناقشت مسألة الكربون 14 مع أوتيه؟"

- "ينشغل الدكتور أوتيه في هذه الأثناء باستضافة وفدٍ من أكاديمية الطب الشرعي المغربية. تركت رسالة له كي يتصل بي هاتفياً".

لم أحاول إخفاء انزعاجي: "يستغرق الاختبار بعض الوقت".

- "تمبرانس!"

أعرف أن لامانش هو الوحيد على هذا الكوكب الذي يناديني بهذا الاسم. لفظ لامانش اسمي على نحو مماثل لوزن كلمة شمعدان قبل أن يقول: "أصبحت متورطة شخصياً إلى حد مفرط".

- "لا أعتقد أن هذه العظام هي قديمة العهد. إنها لا تبدو كذلك بمظهرها وملمسها. تبدو البيئة التي وجدت فيها العظام غير طبيعية. أنا..."

طُفح وجه ذلك الرجل العجوز بالصبر الشديد: "هل ماتت الفتيات في الأسبوع الماضي؟"

- "لا".

- "هل هناك حاجة ملحة للكشف عنها؟"

لم أقل شيئاً، عندئذٍ حدّق بي لامانش لوقتٍ طويل حتى ظننت أن ذهنه سرح بعيداً، ثم قال بغتةً: "أرسلني نماذجك. سأسوي المسألة مع الدكتور أوتيه". قاومت رغبةً شديدة لاحتضانه: "شكراً لك".

- "أتمنى في هذه الأثناء أن نستخرج بعض المعلومات المفيدة من الهيكل العظمي الثالث".

عاد لامانش بعد فراغه من إيداء هذه الملاحظة المتفائلة إلى انشغالاته. شعرت بابتهاجٍ غامر، وتوجّهت إلى الطابق السفلي، ثم وضعت رداء العمل.

أوقفتني ليزا بينما كنت في طريقي إلى غرفة المشرحة رقم أربعة. تبين أن ضحية احتراق الشاحنة المقطورة يفقد للأسنان، أو الأسنان الصناعية، كما أنه لا يمتلك أصابع يمكن أن تؤخذ منها البصمات. تحول التعرف على هوية هذه الضحية إلى مشكلة، كما أن الدكتور بيليتيه أصرّ على الاستفادة من رأبي. أخبرت ليزا أنني سأنضمّ إلى بيليتيه في غضون نصف ساعة.

عملت بسرعة، واقتطعت جزءاً يبلغ طوله بوصة واحدة من المنطقة الوسطى لعظمتي الساق، ثم أسرعت إلى الطابق العلوي، وفتحت شبكة الإنترنت. أدخلت عنوان مختبرات فلوريدا التي ستجري التحاليل. نقرت على صفحة نموذج المعطيات وأدخلت المعلومات المطلوبة، ثم طلبت إجراء الاختبار بطريقة مسرّع الكتلة الطيفي.

توقّفت قليلاً عند القسم المتعلق بتسليم النماذج. تستغرق الخدمة العادية وقتاً يتراوح ما بين أسبوعين وأربعة أسابيع، وباستخدام الخدمة المتطورة تظهر النتائج في

فترة لا تتعدى الستة أيام فقط، لكن بسعر أعلى بكثير.

سحقاً لذلك! إذا توانى أوتيه، فسادفح أنا من جيبي الخاص.

أشّرت على المربع الثاني، ونفرت زر أرسل. أتممت نماذج نقل الرزمة التي تحتوي على الدليل، وأعطيت العنوان لدينيس، وطلبت منه أن يغلف العيّات، وأن يرسلها بالبريد السريع على الفور. أسرعت نزولاً مرةً أخرى.

تعيّن عليّ التوافق مع بيليتيه. أعرف أن مالك المقطورة - المنزل كان رجلاً أبيض اللون في الرابعة والستين من عمره. الجسد الموضوع على الطاولة كان يرتدي بقايا متفحمة من حمالة صدر من نوع وندر، وهناك أساور في اليدين. حسناً، يبدو أن الرجل كان غريب الأطوار.

كلا! لم يكن الأمر كذلك. أظهرت صور الأشعة السينية وجود حاجز وسطي في منطقة الحوض.

فرغنا من التصنيف في وقت متأخر من الظهيرة. تبين لنا أن الضحية هي أنثى بيضاء، وتفقد للأسنان. لاحظنا كسراً في مرحلة الشفاء في عظام الخدين والأنف. وقدّرنا عمر الضحية ما بين الخامسة والثلاثين والخمسين.

أين هو رجل الشاحنة المقطورة إذا؟ أصبحت هذه المشكلة من اختصاص رجال الشرطة الآن.

أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة والدقيقة الأربعين. غسلت يدي، وبدلت ملابس، ثم تناولت، في طريقي إلى مكتبي، علبة كولا مخصصة للحمية، وقطعتين من الكعك المحلى بمسحوق السكر. توهجت أضواء جهاز الهاتف في مكتبي مثل توهج أضواء تنزيلات الأسعار في متاجر كاي مارت. أسرعت لتناول سماعه الهاتف. جاءت الرسالة الأولى من أن لتعلمني أن طائرتها ستصل عند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين. وأنت الرسالة الثانية من آرثر هوليداي، وهو الرجل الذي سيجري اختبار الكربون 14. طلب مني في رسالته أن أتصل به قبل أن أرسل العيّات.

سارعت إلى مكتب المساعدات، وتفحصت كومة البريد المعدة للإرسال، فوجدت أن الرزمة لم ترسل بعد. استخرجت الرزمة وعدت بها إلى مكتبي، واتصلت بالمختبر في فلوريدا مستعربةً المشكلة التي استجدت.

- "تمب. حسناً، حسناً. أتصلت بك ما إن استلمت رسالتك بالبريد الإلكتروني. هل أرسلت عيّات العظام؟"

- "إنها جاهزة، لكنها ما زالت هنا. هل هناك من مشكلة؟"
- "لا، لا. لا توجد أية مشكلة على الإطلاق. حسناً، أصغي إليّ، هل تمتلك نماذجك أسناناً؟"
- "نعم".
- "جيد. جيد. اسمعي إذاً، لدينا مشروع دراسات صغير يجري هنا، وتساءلنا عما إذا كان مكان الولادة يحمل أهمية في قضيتك".
- "لم أفكر بتلك الناحية، لكن نعم، قد تكون تلك المعلومة مفيدة. هل تستطيع تحديد مكان الولادة؟"
- "هل لاحظت وجود الكثير من المياه السطحية في ذلك القبو؟"
- "لا. أستطيع أن أقول أن المكان جاف بما يكفي".
- لا أستطيع أن أعدك بشيء، لكننا نحصل على بعض النتائج الرائعة عن طريق استخدام تحليل السترونشيوم المشع. إذا سمحت لنا بتخزين النتائج في قاعدة بياناتنا، فيمكنك مراجعتنا في النهاية عندما تتضح هوية الأشخاص المجهولين لديك. سأكون سعيداً بإجراء هذا الاختبار التجريبي على عيّناتك المجانية".
- "أقول مجانية؟"
- "إننا بحاجة إلى توسيع قاعدة بياناتنا المرجعية".
- "ماذا يتوجب عليّ أن أرسل لكم؟"
- أخبرني عن الأشياء التي يتعيّن عليّ إرسالها، ثم بدأ بشرح أسباب احتياجه إلى عيّنات العظام والأسنان في الوقت نفسه. أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة والخمسين دقيقة. قاطعت مكالمة الرجل.
- "آرت، هل تستطيع أن تفسّر هذا عندما نصل إلى مناقشة النتائج؟ وإذا أردت أن تُرسل العيّنات هذا اليوم مع شاحنة البريد السريع، فيتعيّن عليّ أن أعود إلى الهياكل العظمية كي أنتزع أسنانها في غضون الدقائق الثلاثين القادمة".
- "أجل، أجل بالطبع. سنتحدّث لاحقاً. يُحتمل يا تمب أن لا تحصلي على أية نتائج، لكن.. حسناً، لا نستطيع أن نتأكّد من ذلك".
- قطعت الاتصال، وتوجّهت إلى المشرحة، قطعت قطعة أخرى من كل مجموعة من البقايا، ثم أرجعت العظام إلى مكانها. أقدمت بعد ذلك على انتزاع الفك، ورجعت إلى مختبري. أخذت صوراً للفك، ثم انتزعت الضرس الأيمن الثاني من كل واحدٍ

منها، وأعدتُ كل شيء إلى مكانه، ثم أرجعت الرزمة إلى كومة رسائل البريد، وشعرت بالارتياح لأنني أجريت صورة بالأشعة السينية للأسنان.

استقرتُ في مكتبي مجدداً عند الساعة الرابعة والنصف. وضعت كاحلي على حافة النافذة، وارتشفت بعض الصودا المخصصة للحمية، وبدأت بتناول أول كعكة محلاة، ثم ركزت أفكاري على مواضيع أخرى غير فتيات قبو البييتزا.
كاتي!

ماذا بشأن كاتي؟ لم أملك أية فكرة عما تفعله ابنتي في هذه اللحظة، أو حتى أين يمكن أن تكون بصورة محددة. هل يجدر بي أن أتصل بها؟ تطلعت إلى ساعتني. يُحتمل أن تكون خارج المنزل الآن، ولعلها في المكتبة أو في صفها. لا بأس. أفترض أن كاتي تنهمك الآن بحضور الصفوف، وبالتخطيط لمستقبلها بعد تخرجها من الجامعة. لم تكن ابنتي تخبرني عن أحوالها. هل وصلت ابنتي يا ترى إلى مرحلة بلوغها، والتي أتوقع أن أَلعب فيها دوراً ثانوياً فقط؟

أعادتني هذه الفكرة السعيدة مجدداً إلى الفتيات اللواتي أصبحن هياكل عظمية الآن. لماذا لم أجد أية قصاصة من ملابس؟ هل أغفلت شيئاً؟ هل كان يجدر بي استخدام شبكة أدق؟ هل حصل المالك على أشياء غير الأزرار؟ وما هو الشيء الذي يفسر دفن الفتيات الثلاث في القبو بعد تعريتهن؟ تناولت علبة الكولا، وأجريت تحولاً ذهنياً.

آن!

ما سرُّ هذه الزيارة غير المتوقعة؟ وما الذي أخفَّته رنة المرح في صوتها؟ عاد عقلي للتفكير ثانية بالهياكل العظمية بالتزامن مع تناولتي للكعكة المحلاة الثانية. إذا كانت وفاة الفتيات الثلاث قد حدثت في الوقت نفسه، فكيف يمكننا تفسير وجود شمع القبور في المجموعة الثالثة فقط من البقايا؟ حسناً، لدينا الهيكل المغلف، لكن لماذا استخدمت هذه الطريقة مع فتاة واحد فقط؟

لا أريد الدخول في هذا. أريد التفكير بموضوع جديد.

تذكّرت الكنزة التي رأيتها في واجهة أوغليفي. تذكّرت تلك الجلبة الحادة التي أحدثها محرك سيارتي، وتلك البقعة الغريبة البنية اللون التي ظهرت في كتفي الأيمن. أنهيت تناول كعكتي المحلاة الثانية، فأجرى عقلي محاولة صعبة أخرى للدخول في موضوع الهياكل. وُضعت الجثث على عمق يقل عن الست بوصات. لماذا وُضعت

في مكان قريب جداً من سطح الأرض؟ اعتاد السكان المحليون وضع موتاهم على عمق أكبر بكثير، كذلك هي الحال مع القبور التاريخية.

ماذا لو استطاع آرت أن يحدد لي تاريخ ميلاد كل فتاة من هذه الفتيات؟ هل ستكون هذه المعلومة مفيدة لي؟ أم أن تحاليله ستكتفي بتحديد أن كانت الضحايا من السكان المحليين؟ هل يمكن أن يكون لامانش على حق؟ وهل أصبحت مهووسة فعلاً بهذه القضية؟ أعترف أنني أصبحت عصبية وأتخذ موقفاً دفاعياً، فأنا لا أنام جيداً، حتى إن القضية تدخلت في أحلامي.

سلكت أفكاري مساراً آخر. هل أن سخطي في العمل هو في أساس مشكلتي مع رايان؟ وهل أن القلق والإحباط ينتقلان إليه، ويتسببان بتحطيم صورتي عنده؟
رايان!

رنّ جرس الهاتف وكأن ذلك حصل بدافع إلكترون مرسل هارب من أفكاري هذه. استدرت بمقعدي، وأسرعت بتناول سماعة الهاتف، حتى كاد كوب المشروب ينزلق على الأرض.

- "دكتورة برينان".

أبلغتني سوزان أن أحد رجال الشرطة السرية هو في طريقه إلى مكنتي. فكرت أنه كلوديل من دون شك، وهو الرجل الذي أحتاج للتكلم معه، إلا أن الرجل لم يكن كلوديل أبداً.

بدا رايان مزيجاً وسطاً من بيرس بروسنان، والرجل الأكبر منه سناً الذي يظهر في إعلانات أديداس الرياضية. أو هكذا خيل إلي في وقفته بطوله البالغ ست أقدام وبوصتين، وبثيابه الكاكية اللون، وبقميصه الكتانية ذات اللون البني الفاتح، وبسترته التويد. هزّ رأسه عندما رأى علبة الكولا الخاصة بالحمية في يدي، إضافةً إلى رؤيته لمسحوق السكر الذي غطى النشافة الموجودة على طاولتي.

- "المرأة هي كتلة لامتناهية من التناقضات".

- "أتمتع بذوق انتقائي".

- "لا بد أن نوقك يجعل بنكرياسك شديد الاضطراب".

- "إنه بنكرياسي أنا".

بدا رايان مندهشاً من الحدة التي تميّزت بها ردة فعلتي.

- "هل جئتُك في وقتٍ غير مناسب يا حلوتي؟"

- وضعت علبة الكولا على الطاولة: "كنت أنتظر شخصاً آخر يا حبيبي".
- "إنك ترددين هذه الكلمة كثيراً في الآونة الأخيرة".
- "أتقصد كلمة حبيبي؟"
- "بل أقصد أنني لست الشخص الذي تنتظرينه".
- "اعتقدت أن أحد الأشخاص المهتمين بالقضية يتصل ليحمل إلي معلومات عنها".
- "أراني، مجدداً، أضعت آمالك التي لا أعرف شيئاً عنها".
- استرخيت في مقعدي وقلت: "تبدو مثل وينستون تشرشل".
- "إنها لسخافة منك أن تتكلمي هكذا بطريقة أرفضها".
- غمست طرف إصبعي بالمزيد من مسحوق السكر: "أعطيك العلامة الأولى للقواعد، لكنني أعطيك أدنى علامة بالنسبة لوضوح كلامك".
- "أهذا ما قاله ويني؟"
- "أنت تكرر كلامه".
- استند رايان على مقبض الباب وكتف ذراعيه فوق صدره. انجذبت عيناها باتجاهه كالعادة. تأسرتي دائماً عيناها الزرقاوان، بغض النظر عن عدد المرات التي أراه فيها.
- "يشغل كلوديل عدداً محدوداً من خلايا دماغه، وهي الخلايا التي يحتاج إليها من أجل التواصل بالبريد الإلكتروني للمحافظة على الحد الأدنى من الاتصال".
- "وهل الاتصال بطيء هذه الأيام؟"
- "لم أرَ كلوديل هذا اليوم. إنني أنتظره في الواقع كي أتبادل الحديث معه حول موضوع معين".
- لعت مسحوق السكر من إصبعي، ثم غمست إصبعي بالسكر المتناثر على النشافة.
- "هل ستبداًلين الحديث عن هذا الموضوع مع حبيبك؟"
- "وافق لامانش على صرف مبلغ كبير من أجل إجراء اختبار طلبته أنا".
- "من دون تمريره إلى أوتيه؟"
- أومأت موافقة على كلامه.
- "يمكن للامانش أن يكون وغداً في بعض الأحيان. ما هو الاختبار الذي

تتحدثين عنه؟"

- "الكربون 14".

- "أهو الاختبار نفسه الذي يُجرى على المومياءات، والحيوانات المنقرضة؟"
أعطيت رايان الشرح المختصر الذي تلوته سابقاً على مسامع لامانش، لكنني
قررت عدم إخباره عن تحليل نظير السترونشيوم المشع، لأن هذا الموضوع ليس مؤكداً
بعد.

- "كم تستغرق النتائج؟"

- "أتمنى ألا تستغرق أكثر من أسبوع. اقترح عليّ لامانش أن أمضي لتحليل
الهيكل الثالث، كما اقترح أن أنسى المدة التي مضت على الوفاة في الوقت الحاضر".

- "إنها ليست بالنصيحة السيئة".

- "إنها مخيبة لآمالي".

- "يتلاءم ذلك مع طبيعة مهمتك".

رنّ جرس آلة الاتصال التي يحملها رايان، وتأكد من رقم المتصل ثم أعاد
الجهاز إلى حزامه ثانية.

تابعت كلامي: "أسلم أن هؤلاء الفتيات لم يمتن الأسبوع الماضي، أو حتى الشهر
الماضي، لكنني لا أستطيع التخلي عن فكرة أن الوقت يضيع بسرعة. لا أستطيع
تفسير القلق الذي يملكني بشأن هذه القضية".

- "لماذا؟"

أخبرت رايان بشأن السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت.

- "وماذا قالت لك بالضبط؟"

- "قالت إنها تعرف ماذا جرى في ذلك المبنى".

- "وما هو؟"

- "لم نصل إلى هذا الحد".

- "لعلها امرأة معنوهة".

- "قد تكون كذلك".

- "تقولين إنها بدت كبيرة بالسن".

- "نعم".

- "أليس من الممكن..."

- "فَكَثُرَتْ فِي هَذَا يَا رَايَانُ، لَكِنْ مَاذَا لَوْ كَانَتْ مُحَقَّةً وَعَلَى مَسْتَوَى الْمَسْئُولِيَّةِ؟
 ماذا لو كانت تعرف شيئاً بالفعل؟"
- "سَتَتَّصَلُ بِكَ مَجْدُوداً".
- "لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ".
- "هَلْ تَتَّبَعْتِ رَقْمَ هَاتِفِهَا؟"
- "نَعَمْ".
- "أَتُرِيدِينَ رُؤْيَا مَا يُمْكِنُنِي اِكْتِشَافُهُ؟"
- "أَسْتَطِيعُ اِحْتِمَالَ ذَلِكَ".
- "أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْخَطَرِ يُمَكِّنُ أَنْ تَحْمِلَهُ امْرَأَةٌ مَسْنَةً بِالنِّسْبَةِ لِأَيِّ شَخْصٍ؟"
- "تَعْرِفُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ بِأَمْرٍ جَوْلَتْنَا الْمِيدَانِيَّةَ فِي الْقُبُورِ. وَيَعْرِفُ اللهُ وَحْدَهُ كَمْ مِنَ الْأَشْخَاصِ قَرَأُوا، أَوْ سَمِعُوا عَنْ هَذِهِ الْجَوْلَةِ. رَأَيْتِ بِنَفْسِكَ لَوْ جُورِنَالٌ. تَهَافَتَتْ وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، مِثْلَمَا تَهَافَتَ الْقَطَطُ عَلَى عَرَبِيَّةٍ مَلِيئَةٍ بِالسَّمَكِ".
- "مَاذَا تَعْرِفِينَ عَنْ هَذِهِ الْعِمَارَةِ غَيْرِ زَمَنِ بِنَائِهَا؟"
- "أَعْرِفُ أَنْ ثَلَاثَ فَنَاتٍ مَتُوفِيَّاتٍ جَرَى دَفْنُهُنَّ فِي طَبَقَتِهَا السُّفْلِيَّةِ".
- "أَنْتِ مَاهِرَةٌ بِإِيْقَاعِ الْأَكْمِ بِالْآخِرِينَ يَا بَرِينَانُ".
- "أَنَا أَعْمَلُ عَلَى ذَلِكَ".
- سَأَلَنِي رَايَانُ: "أَتَتَنَاوَلِينَ الْعِشَاءَ مَعِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟"
- "أَنَا مَشْغُولَةٌ".
- خَيَّمَ عَلَى الْمَكْتَبِ صَمْتٌ ثَقِيلٌ. مَرَّتْ ثَلَاثُونَ ثَانِيَّةً، وَمَا لَبِثْتُ أَنْ امْتَدَّتْ لِتَصْبِحَ دَقِيقَةً كَامِلَةً.
- أَصْلَحَ رَايَانُ مِنْ وَقْفَتِهِ وَابْتَعَدَ قَلِيلاً عَنِ الْجِدَارِ. رَكَزَتْ عَيْنَاهُ الزَّرْقَاوَانُ الْبَارِدَتَانِ عَلَى عَيْنِي مَبَاشَرَةً. لَمْ تَكُنْ نَظَرَتَهُ تَفُوحَ بِالسَّعَادَةِ.
- "يَجِبُ أَنْ نَتَحَدَّثَ".
- أَحْبَبْتُهُ: "أَجَلٌ".
- شَاهَدْتُ رَايَانَ يَبْتَعِدُ مِنْ خِلَالِ الْبَابِ، وَوَدَّعَتْ بَدْهَنِي ذَلِكَ الْفَارَسُ.

الفصل 9

تُعتبر قيادة السيارات في مونتريال في منتصف أيام الأسبوع، وخصوصاً عند المساء، أمراً غير مريح على الإطلاق. اندفعت بسيارتي وسط نفق مدينة ماري، ثم في الشارع الذي يحمل الرقم 20. سرت بسرعة وصلت إلى خمسة وثلاثين ميلاً. وصلت أخيراً إلى تقاطع توركو، فأصبح تقدمي بطيئاً جداً، يقاس بطول السيارة فقط. توهّج أمامي ملصق وضع على خلفية إحدى السيارات. جاء في هذا الملصق: "ستستمرّ الهزائم إلى أن تتحسنّ المعنويات". ضحكت قليلاً بعد قراءتي الأولى لهذه العبارة، ثم تلاشى المرح بعد قراءتي لهذا الملصق للمرة العاشرة. فهمت معنى العبارة أخيراً: ستستمرّ زحمة السير إلى أن تلاشى قلة الصبر.

ألقيت نظرة على جميع الإعلانات الكبيرة الموجودة على جانبي الطريق، وذلك بهدف كسر حدة الضجر الذي شعرت به. اختلطت اللغتان الإنكليزية والفرنسية في إعلانات الهواتف الخليوية، وسيارات الهوندا، والمسرحيات الهزلية، بالإضافة إلى مرذاذات الشعر.

اشتدّت سرعة الرياح الباردة مع اقتراب الظلام. راحت السيارة تهتزّ بين الفينة والأخرى، وبدا كأنها انتعلت حذاءً رياضياً عملاقاً. بدت المدينة في الشتاء كأنها تزحف من خلال زجاج سيارتي الأمامي. رأيت النوافذ المضاءة بالمصابيح تزيّن المرتفعات العالية للجبل الغربي. شاهدت أيضاً الساحات الداكنة للسكك الحديدية. انتشرت في الضواحي البيوت المولفة من طابق واحد، والتي تسطع الأضواء الكهربائية فيها، كما انتشرت إلى جانبها محلات البضائع التي تعلن عن تنزيلات أسعارها لمناسبة عيد الميلاد.

خفّ الازدحام كثيراً عندما وصلت إلى مدينة سان بيير، فرفعت سرعة سيارتي لتصل إلى الثلاثين ميلاً. بدأت أنقر بأصابعي على عجلة القيادة، ولاحظت أن عقارب ساعة لوحة القيادة تشير إلى الخامسة والنصف. قدرت أن الطائرة التي تقلّ أن قد هبطت.

مضت ساعة كاملة على مغادرتي المختبرات، واستطعت أخيراً أن أدخل محطة مطار دورفال. وجدت أن آن قد أنهت معاملات الجمارك، ووقفت في طرف صف الأشخاص الذين ينتظرون وصول أحبائهم.

وقفت في مكاني، وحركت ذراعي بحركة دائرية. لاحظتني أن فتناولت مقبض حقيبتها الكبيرة ذات العجلات، ثم اتجهت بها نحوي. شاهدت كمبيوتراً محمولاً معلقاً على إحدى كتفيها، بينما علقت على كتفها الأخرى حقيبة جلدية ضخمة.

عادت بي الذكرى فجأة إلى مشهد آخر. تذكرت أختي هاري وسط حقائبها الجلدية الكثيرة التي تحمل ماركة لويس فونون، والتي كانت تكفيها لتقوم برحلة حول العالم. يومها أتت لتقضي أسبوعاً عندي، لكن إقامتها امتدت شهراً كاملاً.

يا الله!

تتميز آن بأنها طويلة جداً وشقراء جداً. تبعثها أعين كثيرة غير عينايا بينها كانت تشق طريق حقيبتها البولمان وسط حشود المستقبلين. وصلت إلى حيث أقف بانتظارها، وانحنت لتحيط عنقي بذراعيها. انزلق جهاز كمبيوترها المحمول ولامس أضلعي.

ساعدت آن بإزالة الحقيبة عن كتفها: "يا لزحمة السيارات المريعة!"

- "إنه لطف كبير منك أن تأتي لأجلي".

- "أنا فرحة جداً لمجيئك".

- "ادعي قبطان الطائرة أن درجة الحرارة هي ثماني عشرة درجة تحت الصفر.

هل هذا صحيح؟"

بدت لهجة آن غريبة عن المكان وسط ضجيج سكان كيبيك، تماماً كأغنية راوهايد عندما تغني وسط حفل جمعية بيتاً.

لم أشأ أن أقول لها إن درجة الحرارة كانت أعلى قليلاً من الصفر: "إنه يقصد درجة مئوية".

- "أتمنى أن أشهد عاصفة ثلجية، فالثلج هو شيء رائع".

- "هل أحضرت معك ثياباً تدفئك؟"

رفعت آن ذراعيها في حركة تشجيني على التأكد من ذلك. ارتدت صديقتي كنزةً محبوبكة يدوياً، وسترة جلدية، وسروالاً أخضر اللون، ووشاح أنغورا زهري اللون مع قبعة تتناسب معه. تأكدت أن حقيبة يدها تحتوي على قفازات ذات لون زهري غامق

من أجل إتمام المجموعة. أنا أعرف طريقة تفكيرها، وأعتبرها حسناء الشتاء. ولدتُ آن في ألاباما، وتلقتُ تعليمها في ميسيسيبي، ثم ارتحلت شمالاً، لذلك تكون لديها مفهوم نظري عن البرد، مثل الكثير من سكان الولايات الجنوبية. بقي عقلها مع ذلك عقل والده تُفرط في حماية أولادها. إنها تخفي الأشياء التي لا تهتم لها. أخفت أن عن ذهنها حقيقة وجود درجات حرارة تحت الصفر، كما يفعل سكان المناطق شبه الاستوائية.

إنها كيبك، وقد ارتدت آن الملابس المناسبة لقضاء فصل الخريف في جبال بلو ريدج.

خرجنا من المطار، وسمعت حسناء الشتاء وهي تجهد في تنفسها. ابتسمتُ، وأسرعت بها نحو سيارتي. إنني لا أستطيع أن أنتقد آن في الواقع، لأنني أتقّل بانتظام ما بين شارلوت ومونتريال، لكن هذا هو الشتاء الأول الذي حير الجميع، بمن فيهم أنا. تحدّثت أن بمواضيع عدة أثناء اتجاهانا بالسيارة نحو وسط المدينة. أخبرتني عن قطّيتها ريجيس وكاتي لي. أخبرتني أيضاً عن توأميها جوش ولولا، وعن ابنتها الأصغر ستيوارت، الذي أصبح متحدثاً عن حقوق الإنسان. لجأت آن إلى فترات صمت بين فترات كلامها، وعندها كان يخيم حولنا صمت حزين.

رحت أحتلسُ نظرات جانبية باتجاه آن بين حين وآخر. بدا وجهها متوهّجاً بسبب أضواء النيون المتعددة الألوان، بالإضافة إلى تلك الناجمة عن أضواء فرامل السيارات التي تسير أمامنا. لم أستطع أن أستنتج أي شيء من ملامحها، كما أنها لم تذكر لي أي شيء عن سبب زيارتها.

حسناً، يا صديقتي الحميمة! يمكنك إخباري قصتك عندما تشائين.

بدأت أن بالتلميح عن سبب زيارتها بعد مرور ساعة ونصف. أحسست بشيء من التردد من جانبها عندما تكلمت، وبدا لي أنها تختبر الأفكار في نفس الوقت التي كانت تتلفظ بها.

توقّفنا في المنزل كي نضع فيه حاجيات آن، ثم توجّهنا مباشرة إلى مطعم تراتوريا تريستيفير، الذي يقع في الجهة السفلى من الكرستنت. فرغ النادل للتو من تقديم سلطة السيزر. اخترت أن أشرب شراباً خفيفاً، بينما فضلت أن تناول الكوب الثالث من الشراب القوي الذي اختارته.

بدأ ذلك الشراب يفعل فعله في آن، فبدأت تقول: "أبلغ السادسة والأربعين من العمر يا تمب، وإذا لم أجد معنىً لحياتي الآن، فلن يتبقى لي شيء أجده لاحقاً هناك".

وجَهتُ إصبعاً مطلي الظفر نحو صدرها وأكملت: "أو في الداخل هنا".

فكرت بشقيقتي مجدداً. جاءت هاري إلى مونتريال طلباً للسلام الداخلي، وعلقت بحبال رجال مهوسين قالوا لها إنهم سيأخذونها في رحلة نحو السلام الدائم، كالسلام الذي يتحقق بالموت. لحسن الحظ، استطاعت شقيقتي أن تتخطى ذلك. بدت لي آن كأنها تسير في ذلك الطريق نفسه للحصول على الدعم النفسي.

- "إذاً أستطيع أن أفترض أن الأولاد بخير؟"

- "إنهم على ما يرام".

- "هل أقدم طوم على شيء يدلّ على تخليه عنك؟"

تحول الظفر ليشير باتجاهي: "لم يفعل طوم أي شيء إطلاقاً، إلا إذا اعتبرنا أن عمله هو الدفاع عن المقاولين المغفلين الذين يرغبون بتجريد العالم من كل الأشجار، والذين يمضون بقية وقتهم وهم يبحثون عن الكأس المقدسة. أعتقد أنني أخطأت منذ البداية في الزواج من شخص يحمل اسم تورنيب".

بقي اسم عائلة طوم تيد مصدرراً للتندر بيننا على مدى السنين.

- "انتهينا من ذلك الجذر (اسم تورنيب يعني اللفت)".

لم أصدق هذا الخبر، فسألتها: "هل تركته؟"

- "نعم".

- "تركته بعد أربع وعشرين سنة من الزواج، وبعد إنجاب ثلاثة أولاد؟"

- "إن ما يجري لا يطال الأولاد".

جمدت شوكتي في الهواء، وتسمّرت عيناي على عيني آن.

قالت: "تعرفين أنني لا أعني هذا. كبر الأولاد، وتخرّج جوش ولولا من الجامعة،

أما ستيوارت فترك جامعته ليفعل ما يحلو له".

تناولت آن ورقة خس وأضافت: "إنهم يمضون بحياتهم، وأنا بقيتُ وحدي، أبيع

العقارات وأزرع نباتات الأزاليا اللينة".

انضمّ زوجي بيتي إلى مكتب محاماة في شارلوت، وذلك فور انتهائي من نيل

درجة الدكتوراه من جامعة نورثوسترن. قبلت بعد ذلك منصباً في يو أن سي سي.

تحمّست كثيراً لمغادرة شيكاغو والعودة إلى كارولينا الشمالية التي أحبّها كثيراً، لكن

هذه الخطوة حملت معها جانباً سلبياً.

وجدت نفسي محاطةً بالأكاديميين طيلة النهار. بدا هؤلاء متفانين ومتعاطفين ولامعين، ويتمتعون بمراكز اجتماعية مرموقة. لم يكن لأيّ منهم أولاد، ولا يمتلكون أية فكرة عن تربية الأطفال، في حين كانت ابنتي كاتي ما تزال طفلة صغيرة.

اعتدت كل مساء أن اصطحب ابنتي من دار حضانة الأطفال، ثم أنتقل إلى بيئة مثالية تشبه ما يُحكى عن العيش في نادٍ ريفي. تواجدت في تلك البيئة المساحات الخضراء الجميلة، والسيارات الرائعة، والزوجات اللواتي يمتلكن تفكيراً سطحياً، وعقلية البقاء في البيوت. تركّزت الأحاديث النسائية هناك على كرة المضرب، والغولف، ومعارض السيارات. يئست من قدرتي على اكتساب صداقات نسائية مفيدة إلى أن التقيت آن في حفلة جمع تبرعات أُقيمت في الحي، أو على الأدق إلى أن سمعتها. عندئذ التقت عندها المغنوليا الفولاذية مع البحار السكرير.

انجذبت نحوها، وجمعتنا الصداقة على الفور.

رأيت أولاد آن، ورأت هي أولادي، من خلال العظام المكسورة والقلوب المكسورة. استمتعت العائلتان بعقدين من السنين كنا نخيم فيها في العطلات، ونستمع بجولات التزلج. استمتعنا أيضاً بالمآدب التي أُقيمت لمناسبة أعياد الشكر، ومناسبات التعميد، والمآتم أيضاً. لم تتأخر عائلتا تورنيب وبيترسون عن تمضية صيفٍ واحدٍ قرب المحيط طيلة هذه المدة، إلى حين انهيار زواجي. تعودنا في هذه الأيام على القيام لوحدنا بتمضية الوقت قرب الشاطئ.

- "ماذا أخبرتِ الأولاد؟"

- "لا شيء. لم أغانر المنزل في الواقع. أخذت إجازة منه فقط لأرتحل لبعض الوقت."

- "لكن..."

- "دعينا لا نتكلم عني يا عزيزتي. دعينا نتحدّث عنك. بماذا تشغلين هذه الأيام؟"

لا يستطيع المرء متابعة الحديث عن قضية تريد أن الكف عن الحديث عنها. لخصت لها قضية قبو مطعم البيترزا، وأخبرتها عن الإحباط الذي أشعر به بالنسبة لزميلي كلوديل.

- "ستكسيينه إلى جانبك كما فعلتِ دائماً من قبل. لنتحدّث الآن عن الأخبار

المهمة، هل تواعدن أحداً هذه الأيام؟"

- "توعاً ما".

استبدل السنادل السلطة بمقبلات أخرى. وضع صحن لازانيا أمام آن، ووضع صحناً من لحم عجل طلبته أنا. طلبت أن المزيد من الشراب، ثم تناولت المطحنة ونثرت المزيد من الجبنة فوق المعكرونة في صحنها. قررت أن أقوم بمحاولة أخرى للتحدث بموضوع طوم. جهدتُ ليكون صوتي خالياً من السخرية: "ما هو هدفك الشخصي بالضبط من برنامجك خارج المنزل؟"

أنزلت المطحنة من يدها بقوة ووضعتها على الطاولة: "أريد أن أشعر بأنني حققت شيئاً، وأن أشعر بالتقدير لذاتي، وبالاحترام. لا أريدك حتى أن تقترحي عليّ الانضمام إلى دورة إرشادية تافهة".

تناولنا الطعام بصمت للحظات عديدة. لاحظت أن نبرة صوت آن أصبحت أفضل قليلاً وأقل توتراً عندما استأنفت الحديث، لكنني شعرت أنها تتكلف بعض الشيء في حديثها.

- "حصلتُ من الجالس في المقعد رقم 3 على اهتمام أكبر من الاهتمام الذي تلقّيته من طوم طوال الاثني عشر شهراً الماضية. أظن أنه خرج الآن كي يشتري لي بعض الغاردينيا.

ارتشفت أن المزيد من الشراب وتابعت: "أظن أنه بينما نحن نتحدث الآن تتكدّس الرسائل في جهاز الإجابة الآلية في جهاز هاتفك".

- "من هو هذا الشاب في المقعد رقم 3؟"

- "هو شاب شهم التقيته في الطائرة".

- "هل أعطيتَه رقم هاتفِي؟"

- "إنه غير مؤدٍ".

- "وكيف تعرفين أنه غير مؤدٍ؟"

- "كان يسافر في الدرجة الأولى".

- "الشبان اللطفاء الذين فجّروا مركز التجارة العالمي كانوا يجلسون في الدرجة الأولى أيضاً".

تطلعت إليّ صديقتي وكأنني قلتُ شيئاً سيئاً.

- "لا تسرحي بعيداً في خيالاتك يا تمب. لا أعترم رؤية ذلك الشاب".

لم أصدق كلامها هذا. إنني حذرة جداً بإعطاء رقم هاتف منزلي للآخرين، وها قد أقدمت أن على إعطاء هذا الرقم لرجل غريب بكل استهتار، ولا أستغرب أن يقوم هذا الغريب بزيارة منزلي بحثاً عنها.

تابعت كلامها متجاهلة مدى انزعاجي: شربنا القليل من الكوكبيل. تحدثنا، ثم سألني كيف يستطيع الاتصال بي. كتبت الكلمات على منديل ورقي..."

- "الكلمات؟ أتعنين أنك أعطيته عنواني أيضاً؟"

استدارت أن على طريقة الذين يستلمون الجوائز الأكاديمية، وقالت: "أنا متأكدة من أن ذلك الشاب أقدم على رمي الورقة ما إن خرجنا من المطار. كيف وجدت اللحم الذي في صحنك؟"

بدا اللحم في حالة مثالية، وذلك بعكس المحادثة الجارية بيننا. أتضح لي أن الشاب قد لا يتصل، لكنه قد يطرق باب شفتي، وأخذت أتمتم: "جيدة".

أخذت أن تلوح بشوكتها في الهواء: "أما صحنني فيبدو مثالياً. أتدركين ماذا أقصد؟ إنني بعيدة جداً جداً عن غالاكسي، كارولينا الجنوبية. يا لروعة هذه المقاطعة! إنها هائلة!"

سمعت الناس يقولون إنني أتكلم الفرنسية بلهجة أهل الجنوب، لكن لهجة أن لم تترك لي شيئاً.

- "إنك في فترة نقاهة الآن، أليس كذلك؟ هل تقضين عطلة زوجية؟"

تبادلت أنا وأن الكثير من الدعابات بشأن العطلة الزوجية، وذلك في أول عهدي بالزواج من بيتي. اعتبرنا أن هذه العبارة هي كلمة السر بيننا للقيام بجولة من دون زوجينا.

أنزلت أن شوكتها لكنها وجّهتها نحوي هذه المرة: "قد يمضي أسبوع على موتي من دون أن يلاحظ طوم تورنيب غيابي. لا، قد يكون ذلك تشبيهاً متطرفاً، لكنه إذا احتاج أي شيء في المنزل فترينه على استعداد للصراخ ليعرف مكان وجودي".

أطلقت أن ضحكة من الأعماق: "أتعلمين؟ أتخيل الصورة الجميلة عزيزتي. أتخيل ذلك المحامي البارع وهو يتناول..."

- "أني!"

- "أصبح الشاب من الماضي يا عزيزتي".

جلسنا لحظات قليلة نتناول طعامنا بصمت. جرّبت للمرة الأخيرة أن أطرق

الموضوع، وذلك بعد انتهائي من تناول طعامي.

- "هذا أنا تمب يا آني. أنا أعرفك، وأعرف طوم. عرفتكما معاً لمدة عشرين سنة. أخبريني ماذا يجري فعلاً".

وضعت أن شوكتها، ثم انشغلت بالمنديل الورقي الموضوع تحت كوبها. مرّت دقيقة كاملة قبل أن تبدأ بالكلام.

- "كانت الأمور رائعة عندما التقيت طوم لأول مرة. تبادلنا الحب كل ليلة، وبقيت الأمور رائعة في ما بيننا. تخبرنا الكتب والبرامج التلفزيونية أن الأزواج يتنقلون ما بين لهيب مستعر من الغرام إلى لهيب خافت منه، وأن هذا أمر طبيعي، لكن هذا لم يحدث بيني وبين طوم".

بدأت قطع اللحمة الرقيقة تظهر على جوانب المنديل الورقي.

- "ليس قبل سنتين مضتاً".

- "هل تتكلمين عن الجنس؟"

- "إنني أتكلّم عن اتجاه شديد الهبوط. توقّف طوم عن الشعور بأي شيء، وبدأ يركّز على أي شيء عداي أنا. بدأت بتعويد نفسي على عدم توقّع أشياء كثيرة منه تدريجياً. لكنني تلقّيت صدمة في الأسبوع الماضي، إذ لم تتقاطع مساراتنا على الإطلاق".

- "هل حدث شيء فظيع؟"

- "هذه هي المصيبة؛ لم يحدث أي شيء، ولم يكن أي شيء ليحدث. بدأت أشعر باللامبالاة، والأسوأ من ذلك هو أنني بدأت بالتعود على هذه اللامبالاة، وبدأت أعتبر أنها الأمر الطبيعي في ما بيننا".

جمعت أن قطع اللحم الرقيقة في كتلة صغيرة واحدة داخل منديلها الورقي.

- "الحياة قصيرة جداً يا تمب. لا أريد أن يُكتب على لوحة قبوري، "هنا ترقد المرأة التي عملت في بيع المنازل"."

- "أليس من المبكر قليلاً أن تدمري زواجك؟"

ألقت أن محتويات المنديل الورقي على الأرض بحركة من يدها.

- "طمحت في فترة حياتي الماضية لأن أكون تلك الزوجة المثالية، ولم تكن النتيجة سوى خيبة الأمل. اتخذت فلسفةً جديدةً لي، وهي: 'اقطعي علاقتك مع الماضي وابتعدي راکضة'".

- "هل فكرت بالحصول على استشارة؟"

- "سأفكر في ذلك عندما تتجمد جهنم وملاعب الغولف".

- "تعرفين أن طوم يحبك".

- "هل يحبني فعلاً؟"

- "قلماً نلتقي بأشخاص يهتمون بنا حقاً".

- "أنت محقة يا عزيزتي".

ابتلعت أن رابع رشفة لها من شرابها بحركة سريعة ومرتجة، ثم وضعت الكوب فوق المنديل الورقي الذي أشرف على التلف وتابعت تقول: "وهؤلاء هم الأشخاص الذين يصيبونك بأكبر قدر من الأذى".

أجبرت صديقتي على التطلع نحو يبعينها العميقتين، ذات اللون الأخضر الفاتح، فبدأ أثر الأسى على حدقتيها اللامعتين "آني، هل أنت متأكدة مما تقولين؟" شبكت أن أصابع يديها ووضعت جبهتها على قبضتي يديها. مرت فترة تردد، ثم استعاد وجهها إشرافته.
- "لا".

أوجعت قلبي نبرة الحزن التي بدت في صوتها.

هبت الرياح الصاخبة أثناء تناولنا للعشاء، وانخفضت درجة الحرارة في اتجاه معاكس لمشاعر الود المرتفعة ما بيني وبين صديقتي. بدا لي أن قطع مسافة الربع ميل التي تفصل المطعم عن منزلي أشبه بقيادة زلاجة تجرها الكلاب ما بين أنكوراج ونوم.

مضت الرياح في أنينها في سانت كاترين، فعبثت بملابسنا، وشفعت وجهينا بقطع الثلج والجليد. انحنيت أنا وأن بوجه الرياح مثلما يفعل الجنود المحتجزون في مستودع تحت الأرض. بدأنا بالاستدارة حول زاوية المجمع السكني الذي يقع فيه منزلي، ولاحظت كتلة من الثلج تريض بشكل غريب في مدخل المبنى الذي أسكنه. تسبب البرد الفارس بنزول الدمع من عيني، لكن بدا لي أن هناك شيئاً مريباً جداً بشأن تلك الكتلة البيضاء.

ركزت بصري، ولاحظت أن تلك الكتلة الثلجية تزداد حجماً، ثم يتغير شكلها، وبعد ذلك تتقلص مجدداً. توقفت، وركزت نظري مجدداً. ماذا يمكن لهذا الشيء أن

يكون؟ ظهر شيء آخر، تسلل، ثم تراجع إلى الوراء. ماذا يجري بحق الجحيم؟
أسرعت بعبور الشارع وتوجهت إلى السلام الخارجية.

- "بيردي!"

رفع هرّي ذقنه قليلاً وفتح عينيه. انطلق مسرعاً فور رؤيته لي، ومن دون أن يكلف نفسه بتحريك قوائمه وثب نحوّي. تكثفت كتلة صغيرة من أنفاسي حول فمي، ما إن اندفع الهر بنقله على صدري.

رفع بيردي مخالسه إلى الأعلى، واتكئ بذقنه على كتفي، ملصقاً بطنه على سترتي. فاحت رائحة الرطوبة منه، فيما كان جسده يرتعش من البرد أو من الخوف.

بدأت أن بطرح سؤالها، لكن هبة الرياح اختطفته من شفيتها وأرسلته عبر الشارع: "ماذا يفعل هنا في الخارج؟"

- "لا أعرف".

- "هل يستطيع الهر أن يخرج بنفسه؟"

- "لا بد أن شخصاً ما أقدم على فتح الباب".

- "هل أنت قريبة ما يكفي من أحدهم إلى درجة تسمح لك بإعطائه مفتاح بيتك؟"
- "لا".

- "إذاً، من دخل إلى المنزل؟"

- "لا فكرة لديّ إطلاقاً".

- "حسناً، من الأفضل أن نعرف".

نزعت أن قفازيها، ثم تناولت مرذاذ مايس من حقيبة كتفها.

قلت لها: "أعتقد أن القانون لا يسمح بهذا الشيء هنا".

- "إذاً أطلقني النار عليّ".

دفعت أن الباب الخارجي بشدة.

دخلنا إلى الردهة، وكان ذلك أشبه بالخروج من دوامة العاصفة، والدخول في الفراغ. وضعت بيردي جانباً، ثم نزعت قفازي، ومددت يدي إلى جيبي، ثم تناولت مفاتيحي. فتحت الباب الداخلي بيدين غطّاهما العرق.

خيم على الرواق صمت القبور. لم ألحظ أية بقايا ثلجية، أو آثار أقدام رطبة على سجادات الممر، أو على الأرضية المبلطة. تابعت المسير وسط ازدياد في نبضات قلبي. اتجهت إلى اليمين فجأة، بينما تبعثني أن.

مررت قرب الجدران النحاسية المستعارة والتي تحمل المصابيح التي تضيء
الردهة والأروقة.

تكفي المصابيح ذات المستوى الخفيف من الإنارة لإضاءة المكان عادةً، لكنني
لاحظت أن هناك ضوءين معطلين، الأمر الذي تسبب بوجود بقعتين داكنتين وسط
جزر الضوء الأصفر التي تضيء رواقِي.

هل كان الضوءان الكهربائيان معطلين وقت خروجي؟ لا أستطيع أن أتذكر
بالضبط.

واجهت شقتي مباشرة. تجمّدت في مكاني لدى رؤيتها، وخارت قواي بالكامل.
ظهرت ثغرة سوداء ما بين الباب وعارضته؛ باب شقتي مفتوح!

الفصل 10

استطعت أن أميز من خلال فتحة الباب خيالات غير واضحة المعالم، وأضواء غريبة تلتصق مثل انعكاس ضوء القمر على صفحة الماء.

ألقيت نظرة عجلى من وراء كنفى. رأيت أن واقفةً تحتضن الهرّ بذراعها، رافعةً علبة مرذاذ الماييس في وضع جاهز للاستخدام بالذراع الأخرى. تعلق بيردي بصدرها، والتف برأسه مائة وثمانين درجة كي يتمكن من التحديق ببيته.

رجعت ببصري نحو الباب، وأصخت سمعي لأسمع الأصوات الآتية من الجهة الأخرى. سمعت صوت وقع أقدام، وسعلة أحدهم، ثم حفيف سترة. وصل إلى مسامعي أيضاً صوت تنفس أن المجهّد. ثم خيم صمت ثقيل وراء الباب.

جمدنا نحن الثلاثة في مكاننا، وفتحنا أعيننا جيداً، ونحن نرتجف. مرّت الفترة التي تستغرقها نبضة قلب، لكننا حسبناها دهرأ.

أخيراً، نفذ بيردي خطوته. وثب نحو الأعلى، وأطلق صوت خرخرة، ثم اندفع مبتعداً عن صدر أن باتجاه فتحة الباب. حاولت أن الإمساك به، لكنها لم تفلح سوى بتغيير مسار طيرانه.

اصطدمت المخالب بالباب، فاندفع الباب إلى الخلف، ثم اصطدم بالجدار. أسرع بيردي إلى الداخل بينما ارتدّ الباب عن الحائط، فانغلق ثانيةً.

شعرت أن الدماء قد هربت من دماغي. بدأت باستعراض عدد لا حدّ له من الخيارات. هل أترجع؟ هل أصرخ؟ هل من الأفضل أن أتصل بالنجدة؟

لطالما اعتبرت أن الهواتف الخليوية هي أمر مزعج لا يحتمل في المطاعم، لهذا لم أحمل معي هاتفي إلى المطعم.

اللعة!

التفت نحو أن. رأيت وجهها المتوتر الإهليلجي الشكل، وقد أصبح أبيض اللون وسط الضوء الخافت. حرّكت أصابعي بحركة إيمانية للدلالة على عملية نقر الأرقام

على الهاتف الخليوي. هزت أن رأسها بالنفي، وأبقت على العلبة مرفوعة. جهزت سيدة الحرية نفسها بعلبة مايس، لكنها لم تجهز نفسها بهاتف خليوي.

تبادلنا نظرات تدلّ على الحيرة. تكلمت أولاً بصوت أدقّ درجة من الهمس: "هل من المحتمل أننا لم نغلق المزلاج جيداً؟"

تحدّثت أن في البداية بصوت يشبه الصغير، لكنها استطاعت أن تهمس: "أنا متأكّدة من أنني أغلقته بشكل محكم، لكنه بابك اللعين. وفوق كل ذلك، هذا لا يفسّر كيف شقّ بيردي طريقه إلى الخارج".

- "لو أن أحدهم يختبئ هنا ليهاجمنا، لما أبقى الباب مفتوحاً".

اتّسعت حدقتا عينيّ أن: "يهاجمنا؟ أوه، يا إلهي العظيم! هل تتحدّثين عن مجرم معتوهٍ غضب منك في سياق عملك؟"

- "لم يكن هذا ما قصدته".

مع أنني قصدت هذا بالضبط لكنني أردفت قائلة: "أعني قد يكون أحد المتطفلين العشوائيين".

اتّسعت عينا أن من جديد، وقالت: "يا للروعة، لربما كان أحد المغتصبين المعتوهين".

- "ليس هذا هو المهم الآن. إن ترك الباب مفتوح هو دعوة لانتهاك حرمة المنزل".

- "يا للاختيار الموفق للكلمات!"

تتمتعّ أن بالقدرة على المحافظة على هدوئها حتى عندما تتعرض للضغوط.

- "أعتقد أنه لو كان الأمر مجرد سرقة عادية، فلن يعلن المقتحم عن وجوده عن طريق ترك الباب مفتوحاً، ولا معنى لوجود الباب المفتوح إن كان أحدهم في الداخل".
استرخت ذراع سيدة الحرية قليلاً، لكنها لم تقل شيئاً. تسلّلت إلى الأمام ووضعت أذني على الباب؛ لا ضجيج، لكنني سمعت شيئاً آخر.

جلست القرفصاء ومددت يدي نحو أسفل الباب، فأحسست بتيّار من الهواء البارد. حافظت أن على نبرة صوتها الهادئة: "ماذا وجدت؟"

انتصبت واقفةً، وأنا أقول: "لا بد من وجود باب، أو شبّاك، مفتوح في الداخل".

- "هل يعني ذلك أن المهاجم قد فرّ؟ أم أنه فضل تناول مشروباً بارداً قبل قتلنا؟"
فُتح باب الرواق في تلك اللحظة. فوقفنا في حالة جمود. سمعنا أصواتاً صادرة

عن رجل، ومرة أخرى، انطلق مرذاذ مايس نحو الأعلى. تراجع وقع الأقدام نحو الجناح المقابل لجناحي. سمعنا صوت باب يُفتح، ثم أغلق بعد ذلك.

مرّت لحظة صمت، ثم سمعنا المزيد من أصوات وقع الأقدام المتجهة نحونا! دفعت أن باتجاه رواق بيت الدرج الموازي لباب غرفتي. التصقت بصديقتي حتى أصبحنا كأننا شخص واحد. ملأ شخص إطار المدخل الرئيسي للرواق المؤدي إلى شقتي. أنزل ذلك الشخص قبعته حتى كادت تغطي عينيه. منعني الظلمة والقبعة من رؤية وجه الرجل. لم أستطع أن أتبين سوى شكل جسده. رأيت رجلاً طويلاً ورشيقاً.

تردد الشخص قليلاً قبل أن ينزع قبعته ويتقدّم نحونا. شدّت أن أصابعها على العلبة التي تحملها حتى ابيضّت مفاصل أصابعها.

مرّ الشخص تحت مصباح، فلاحظت أنه أشقر الشعر، ويرتدي سترة بومير. غمرني شعور بالارتياح تبعه شعور بالحرج، بالإضافة إلى مشاعرٍ لم أستطع تحديدها. شرعت بتهدئة أن بحركة مني، وتقدّمت خطوة إلى الأمام.

همست، لكن بقوة غمرتني بفضل الأدرينالين الذي سرى في جسدي: "ماذا تفعل هنا؟"

ضعفت ابتسامة رايان، لكنه استمرّ بالابتسام: "جئت لأشاهد كيف يكون الترحيب علامة الإعجاب".

- "أقول لك دائماً إنك تظهر بشكل غير متوقّع".

وضع رايان كلتا يديه على صدره قبل أن يفتحهما: "أنا رجل مغرم، ولا أستطيع البقاء بعيداً".

أنزلت أن ذراعها، وأوحت تعابير وجهها بشيء من الارتباك الغامر.

التفت رايان كي يتحصّر لتوجيه شيء من سحره باتجاه أن، لكن ابتسامته تلاشت عندما رأى علبة المايس. تطلّع نحوي مستفسراً. بدأت موجة من الانزعاج والإرباك تتغلّب على موجة الارتياح. لم أرغب بأن أبدو حمقاء في حالة لم يكن اقتحام المنزل حقيقياً. ولم أرغب بأن أجد نفسي مضطرة لطلب مساعدة رايان، أو حتى حمايته، إذا كان الاقتحام حقيقياً. لكن للأسف، وجدت نفسي في الوقت الراهن بحاجة لمساعدته وحمايته.

- "أعتقد أن شخصاً ما قد اقتحم منزلي".

لم يشكك رايان بما قلته له، لكنه تكلم من دون أن يتحرك: "كم من الوقت تغيّبتما عن المنزل؟"

- "غبنا ساعتين وعدنا منذ خمس دقائق أو أقل".

- "هل شغلت جهاز الإنذار قبل مغادرتك المنزل؟"

أعتبر نفسي ماهرة بأمور الأمن في الأحوال العادية، لكنني في هذه الليلة لم أفكر إلا باللقاء مع آن، لذا لم أكن متأكّدة فأجبته: "ربما".

انترع رايان قفازيه وقبعته، وفكّ زمام سترته، ثم تناول مسدسه الغلّوغ، وأشار لنا كي نعود باتجاه بيت الدرج. انزلقت آن إلى الجهة اليسرى، وأسندت ظهرها بالحائط. أمّا أنا فتحرّكت وراء رايان. انحرف رايان مستنداً على الحائط، وأخذ يطرّق على الباب بعقب مسدسه قائلاً: "الشرطة! سأدخل الآن!"

لا جواب.. لا حركة...

صرخ رايان مجدداً، أولاً باللغة الفرنسية، ثم باللغة الإنكليزية.

خيّم صمت تام...

أشار رايان باتجاه القفل، فتقدّمت واستخدمت مفتاحي لفتح الباب. دفعني رايان بذراعه بحيث صرت خلفه تماماً، بينما دفع الباب بقدمه، فانفتح.

- "ابقِي هنا".

أمسك رايان مسدسه بيديه اليمينين، لكنه صوّبه باتجاه الأعلى، ثم عبر العتبة فتبعته.

شعرت بشيء ينسحق تحت قدمي. تقدّمت خطوة أتبعتها بخطوة أخرى. لاحظت وجود مساحات سوداء داكنة على جدار البهو المكسو بالزجاج. لاحظت أيضاً انعكاس الأضواء الخارجية فبدت مثل الفوسفور على الأرض الرخامية.

تقدّمت خطوة ثالثة. التمتع مضلع بلون الزعفران في الطاولة المكسوة بالزجاج، والموجودة في غرفة الطعام المواجهة لنا. شاهدت أشكالاً أخرى وسط الظلمة، مثل طاولة الكتابة، كما شاهدت زاوية من خزانة غرفة الطعام. اجتاحني إحساس بالتوجّس، ما جعل حواسي كلها متيقّظة.

نادى رايان مرة أخرى. ولم يتلقَ أيّ جواب مجدداً.

تقدّمت، أنا ورايان من خلال العتبة، وبدونا مثل وحشين مفترسين يختبران الهواء. خيّم على المكان أصوات الفراغ: الثلجة، وجهاز إزالة الرطوبة.

نسمّ هواء بارد من جهة غرفة المعيشة.

توجّه رايان إلى القاعة الجانبية وضغط على زر المصابيح. أشار لي بالبقاء في مكاني، ثم استدار يمنةً واختفى في الداخل. اضاعت المصابيح في غرفة النوم، وفي الحمام، وفي غرفة المطالعة.

لم يحاول أحد الهرب، ولم يمرّ أي شخصٍ من أمامي. لم يُسمع في المكان سوى صوت حركات رايان.

تراجعنا باتجاه الصالة الرئيسية. تقدّم رايان ليستكشف المطبخ، ثم غرفة المعيشة، لكنه عاود الظهور في غضون ثوانٍ قليلة.

- "لا أحد".

استطعت أخذ أول نفسٍ حقيقي لي منذ دخولي إلى الشقة. لاحظ رايان مدى الرعب الذي أشعر به فاستعاد الشعور بالأمان، وأرجع مسدسه إلى غمده، ثم غمرني بذراعيه.

- "أقدم أحد الأشخاص على قطع زجاج الباب الفرنسي".

بدا صوتي مرتعشاً وكلماتي ممطوطة مثل تلك الصادرة عن شريطٍ تسجيل أفرط في استخدامه: "لكن ماذا عن جهاز الإنذار".

- "لم يخترقه أحد. هل تستخدمين كاشف الحركة؟"

- "أوقفته عن العمل".

شعرت بذقن رايان تلامس قمة رأسي. شرحت بنبرةٍ دفاعية: "أب بيردي على إطلاق ذلك الشيء اللعين".

- "لماذا بحق الجحيم؟"

التفت أنا ورايان، ورأينا أن تقف في المدخل، وقد أبقّت على علبة المايس باتجاه الأعلى. ولاحظنا اتساع حدقتي عينيها. قال رايان: "أهلاً بك في مونتريال".

تقوّس حاجبا أن نحو الأعلى، فقلت موضحة: "إنه رجل شرطة".

علّق رايان: "مستعد دائماً للخدمة والحماية".

أخفضت أن حاجبيها وأنزلت علبة المايس: "إنه نوعي المفضل من رجال الشرطة".

أفلتني رايان فتمكّنت من تقديمهما لبعضهما بعضاً. سمع بيردي أصواتنا، فانطلق من غرفة النوم، ورسم بحركته رقم 8 حول قدمي، وقد انتصب فراؤه نتيجة الإثارة

التي شعر بها.

رفعت أن حاجباً واحداً في وضع استفهامي: "هل التحري رايان هو الرجل الذي أشرت إليه بكلمة نوعاً ما أثناء تناولنا العشاء في المطعم؟" أطلقت باتجاهها نظرة تحنُّها على تأجيل البحث في هذا الموضوع وقلت: "اقتحم شخص ما المنزل".

توجَّهت أن إلى البهو، وسارت بضجيج وهي تتمم: "تَبّاً!" انشغل رايان باستدعاء رجال مكافحة السرقات، وانصرفتُ مع أن لتقييم الضرر الحاصل.

تمّ قطع اللوح الزجاجي بطريقة متقنة، من دون إحداث أي ضرر في أسلاك الكشف التابعة لنظام الأمن، لكن شظايا الزجاج انتشرت في البهو، وفي غرفة الطعام، وتكسرت مرايا الحمامات، كما تكسرت الزجاج في جميع إطارات الصور الموجودة في المنزل. التمعت شظايا الزجاج المنتشرة على قطع الأثاث وعلى المغاسل، وعلى طاولة المطبخ، وعلى أرض المنزل. تناثرت بعض الكتب والمجلات هنا وهناك، وفي ما عدا ذلك بقيت غرفة المعيشة الرئيسية سليمة من كل أذى.

شكَّلت الفوضى التي سادت غرف النوم نقيضاً صارخاً لغرفة المعيشة. كانت وسائد السرير ممزقة، والأدراج خارج أماكنها ومقلوبة أيضاً. بدا أن كل موجودات الخزائن قد تعرَّضت للتفتيش.

أظهرت جردتنا السريعة وجود خسارتين. لاحظنا فقدان آلة تصوير آي آر الرقمية، وكذلك جهاز كمبيوترها المحمول. لم نفقد أي شيء عدا ذلك.

قالت أن وهي تفكّر بهذه النعمة: "شكراً لك يا الله".

أشرتُ إلى مفقوداتها وقلت: "أنا أسفة جداً".

كانت أن قد وضعت الكيس الصغير الذي يحتوي على مجوهراتها في الخزانة. وضعت يدها على خصرها: "أظن أن السارقين الصغار لم يعجبوا بذوق طوم تورنيب في ما يتعلّق بالمجوهرات".

* * *

استغرق إعداد التقرير عدة ساعات. ووعدني الضباط أن الرجال المولجين بنفحص مسرح الجريمة سيأتون في الصباح من أجل تفحص البصمات، وآثار الأقدام، وكذلك علامات الأدوات المتبقية.

قدّمت أنا وآن الشكر لهم، ولاحظنا أن أياً منهم لم يكن متحمساً للموضوع. علمنا

جميعاً أن مفقودات آن قد اختفت في ثقب أسود لسرقة صغيرة.
بقى رايان معنا. لعلّه فعل ذلك من أجل تشجيع أفراد الشرطة على بذل المزيد من اليقظة، أو ربما من أجل رفع معنوياتي المنخفضة.
عرض علينا رايان بعد رحيل رجال البوليس أن ننام في منزله. تطلّعت نحو آن، فهزّت رأسها علامة عدم موافقتها، لكن نظراتها جعلتني أستنتج أن التعب بدأ يتغلّب على الأدرينالين عندها. ذهب رايان لإحضار شريط لاصق، وبضعة ألواح من الكرتون المقوى، والبلاستيك، بينما انطلقت مع آن في جولة تنظيف أولية. راقبناه بعد عودته أثناء انهماكه بتفصيل لوحة مؤقتة للباب الفرنسي. استأذنت آن كي تذهب إلى الحمام.

راقبت رايان أثناء انهماكه بوضع المزيد من الشريط اللاصق على اللوحة الكرتونية، وأدركت فجأة أنني لا أملك أية فكرة عن سبب مجيئه إلى منزلي.
بدأت بالقول: "لا أعرف كيف أشكرك".
- "لا لزوم للشكر".

أشرت إلى الفوضى السائدة في المكان: "وجدت نفسي وسط هذه الفوضى السائدة، لكنني لم أسألك عن السبب الذي دعاك للمجيء إلى منزلي".
وضع رايان لوحته على طاولة القهوة، وانتصب واقفاً من جديد، ثم وضع يديه على كتفي. لاذ بالصمت للحظة طويلة. لانت ملامح وجهه بعد ذلك، ومدّ يده ليرفع خصلة من الشعر تدلّت على خدي، ثم عادت يده إلى منطقة ما خلف كتفي. وصلت إلى مرحلة لم أعد أحتمل صمته، لكنه تكلم بغتة: "سأغيب لبعض الوقت".
شعرت بتوتر في معدتي. أتت اللحظة إذاً! أُرقت نهاية النهاية!

- "لا أستطيع تقديم الكثير من التفاصيل. إنها عملية كبيرة ومشاركة ما بين مختلف قوى الشرطة في مونتريال، حتى إن الأميركيين مشتركون فيها. بدأ الإعداد لهذه العملية منذ شهور عدة".

مرّت لحظة قبل أن أستوعب الفكرة.
- "هل تتحدّث عن مصيدة ما تحضّرها الشرطة؟"
- "إنني لا أكشف لك أية أسرار إذا قلت لك إن كلوديل سيشارك في هذه العملية، وكذلك الأمر مع شاربونييو".

شعرت أن عقلي عاجزٌ عن إيجاد الروابط بين هذه المعلومات.

- "لماذا تخبرني عن الأمر".
- "أظن أن افتقاد كلوديل للاهتمام بالعظام التي وجدت في مطعم البيتزا يؤثر عليك كثيراً".
- "هل ستغيب عن المدينة؟"
- ارتسمت معالم ابتسامة على شفتيه: "ليس هذا ما أريده. يتعلّق الأمر بالشهرة وبالأموال الطائلة".
- أنزلت بصري نحو يديّ.
- "أكره أن أدعك وحيدة وسط هذه المشكلة".
- "لم أطلب المساندة يا رايان. أنت مررت من تلقاء نفسك".
- بدا صوت رايان لطيفاً: "لا يعجبني ما جرى يا تمب".
- "لا أعتقد أن ما جرى هو أمر مهم جداً".
- استطعت أن أشعر بنظرات عينيه تحوم فوق معالم جسدي.
- "سأطلب مراقبة دائمة لمنزلك".
- "سأكون بخير".
- رفع رايان ذقني بإصبع واحد قائلاً: "لست متأكداً ممّا حصل هنا، لكنني مصمّم على معرفته".
- "إنها حالة سطو بسيطة".
- ارتفعت إصبعه لتلامس شفتيّ، ثم قال: "فكّري بالأمر، ماذا حصل هنا؟ ما هي الأشياء التي لم تمسّ؟ لماذا تمّ اقتحام البيت بهذه الطريقة البارة؟ ولماذا تمّ تهشيم كل هذا الزجاج؟"
- ضغط رايان بيديه على يديّ. لقد اعتاد على القيام بهذه الحركة عندما يريد تهدئتي، لكنها زادت من اضطرابي هذه المرة.
- "أريد أن أبقى فعلاً يا تمب".
- تفحصت وجهه أملهً أن أسمع منه الكلمات التي تُشعّرنِي ببعض الارتياح، لكن رايان أفلتني، وارتدى سترته. تناول الشريط اللاصق ومد يده ليلمس وجنتي، ثم انطلق مغادراً.
- وقفت لحظة أتساءل عمّا قصده بالعبرة التي تلفظ بها.
- أين تريد أن تبقى يا أندرو رايان؟ أتريد أن تبقى متبعاً النهج نفسه، أم تريد أن

تبقى عندي هذه الليلة؟ أتريد أن تبقى متردداً... حرأ؟
لم أسمع أي صوت من جهة الحمام، ولم أسمع أي صوت من غرفة المطالعة.
أطفأت أن أنوارها.
شغلت جهاز التدفئة في المنزل، ثم انصرفت لتفقد كل قفل وكل نافذة. شغلت
جهاز الإنذار، وتفقدت جهاز الهاتف. توجهت بعد ذلك إلى غرفتي.
لم ألاحظ ما أشاهده الآن من قبل، فما إن اجتزت العتبة حتى لفت انتباهي شيء
مثل شبح مميت.
تجمدت ساقاي من الصدمة عندما شاهدت تلك الإساءة المميتة التي تنتصب فوق
سريري.

الفصل 11

- "لا!"

اندفعت إلى الأمام، وقفزت إلى السرير، ثم انتزعتُ قطعةً طويلةً من اللوحة الممزقة المعلقة فوق الجهة الرأسية لسريري، وقذفتها بعد ذلك إلى الجهة الأخرى من الغرفة.

تهشم الزجاج، وتطايرت الشذرات بعد ارتطامها بالجدار، سقطت في زاوية الغرفة فوق الكومة التي تجمعت أثناء حملتنا الأولية لتنظيف المكان.

- "أيها السافل، وابن الساقطة!"

تسارعت دقات قلبي، وتساقطت الدموع التي كوّتَ ظاهراً أجفاني. نزعَت ثيابي، ثم رميتها فوق قطع اللوحة الممزقة. انسللت عاريةً، ورحت أرتجف تحت أغشية السرير.

اختارت كاتي، فور انضمامها للسنة التحضيرية في الجامعة، دراسة الفنون الحرفية. لم يطل اهتمام كاتي باختصاصها هذا، لكنها اهتمت خلال دراستها القصيرة بالفنون الجميلة، مثلها في ذلك مثل بقية الطموحين الذين يملأون شارع مونمارتر. استطاعت أن ترسم أربع لوحات في فصل دراسي واحد، وأن تتم أربع عشرة رسمة، وست لوحات زيتية، وتميّز أسلوبها بمزيج من البهرجة المتحررة والواقعية الباربيزونية.

أهدتني ابنتي الوحيدة، بمناسبة عيد ميلادي الأربعين، لوحةً زيتيةً أصلية بريشة كاتي بيترسون، تصورُ ثلة من تلال مدينة شارلوت، بأسلوب هو مزيج من ماتيس وروسو. احتفظت دائماً بتقدير كبير لهذه اللوحة الزيتية المرسومة على القماش، وهي إحدى ممتلكاتي القليلة التي نقلتها معي من كارولينا إلى كيبك. أردت أن تساهم هذه اللوحة في جعل شقتي تبدو مثل منزل حقيقي. إن هذا المنظر الطبيعي، الذي رسمته بريشة كاتي، هو آخر ما تقع عليه عيناى قبل أن أستسلم للنوم كل ليلة، وهو يلفتني كيف ما تنقلت في أرجاء الغرفة.

لماذا لم يكتفِ هذا اللص بأخذ أي شيء آخر أرادته؟ لماذا خربَ لوحة كاتي؟
لماذا أقدم على تخريب لوحة ابنتي الجميلة؟ ضغطت على أجناني، واجتاحني غضب
كبير منعني من البكاء، ومنعني أيضاً من عدم البكاء. تمسكتُ أصابعي بغطاء السرير
وضغطت عليه مرة بعد أخرى.

مرّت الدقائق. دقيقة واحدة... اثنتان... سألت الدموع على صدغي. مرّت الدقيقة
الثالثة... الرابعة...

عادت أنفاسي أخيراً إلى وضعها الطبيعي، وارتخت قبضتي الحديدية عن
الغطاء. فتحتُ عينيّ على الظلام المخيم، ولم أتبيّن سوى الضوء الخافت لساعة جهاز
الراديو. حدقتُ بالأرقام، وتمنيتُ أن أسترجع تفكيري المنطقي.

تلاشى الغضب أخيراً، وبدأت بإعادة تركيب صورة ما حدث خلال الساعات
الثلاث الماضية. ماذا حدث هنا؟ هل أقدمتُ أنا وآن على مقاطعة عملية سرقة في
أوجها، أم أننا اقتحمنا عملاً من أعمال الشر؟ لم أفهم أي سبب لهذين الاحتمالين.
تشابكتُ أصابعي مرة أخرى.

أقدم رجل غريب على انتهاك حرمة منزلي. من أقدم على هذا العمل؟ هل هو
لصّ انتقائي جداً يبحث عن أشياء قيّمة ومحددة؟ أم لعله مدمن على المخدرات، يبحث
عن أي شيء يمكنه بيعه ليمول شراءه لهذا السم؟ هل كانوا أولاداً يبحثون عن الإثارة؟
لماذا؟ والأهم من ذلك، ما هو سبب هذا العنف العشوائي؟
تذكّرت كلمات رايان.

ما هي الأشياء التي سرقت؟ إنها جهاز كمبيوتر آن المحمول، وآلة التصوير
الرقمية العائدة لها. أليس هذا أمراً غريباً؟

كان كيس المجوهرات واضحاً للعيان. احتوى ذلك الكيس على أشياء قيّمة
وخفيفة الحمل. لماذا لم يأخذ السارق ذلك الكيس؟ لماذا لم يسرق جهاز التلفزيون، أو
جهاز أسطوانات الفيديو الرقمية؟ ألم تكن هناك أشياء أخف على الحمل؟ فكّرت في
جهاز كمبيوتري المحمول، وتذكّرت أنني لشدة فرحي بقوم آن، نسيتُ هذا الجهاز في
صندوق سيارتي.

هل شعر المقتحم بالرعب قبل أن يستطيع الاستيلاء على الأشياء الثمينة؟ لا أظنّ
ذلك، لأن ذلك المقتحم عمل بهدوء من أجل تحطيم الأشياء التي حطمها، هذا إذا
افترضنا أنه رجل. أظنّ أن الرجال يتميزون بالميل إلى التدمير العشوائي أكثر من
النساء.

وجدنا الباب مفتوحاً عند وصولنا، أما الأبواب التي تؤدي إلى الباحة الخارجية فكانت موصدة من الداخل. إن الهرب من خلال الأبواب الفرنسية يعني أن المقتحم قد تسلق السور الخارجي للباحة.

ماذا تعني كل هذه الافتراضات؟ هل تفسر الطريقة التي دخل بها. وهل أقدم المقتحم على فتح الباب الخارجي لتضليلي عندما أعود؟ هل رمى ذلك اللص بيردي، أم أنه تسلل من خلال الباب الفرنسي عندما بدأت عملية تهشيم الزجاج؟ تقلبت في فراشي. لکمتُ وسادتي. تقلبت ثانية.

لماذا قام بإحداث كل هذا الضرر؟ أين جيراني؟ ألم يسمع أي جارٍ لي الضجيج؟ هل كان رايان محقاً؟ وهل إن ما جرى يتعدى قضية بسيطة؟ يعرف السارقون كيف يعملون من دون إحداث أي ضجيج. لماذا الحرص على قطع زجاج الباب الفرنسي بدقة، ثم الانطلاق بتحطيم المرايا والصور بصورة عشوائية؟ لماذا كل هذا التشويه للوحة؟ اجتاحتي نوبة غضب أخرى.

هل كان القصد من هذا العمل توجيه تهديد لي، أم توجيه إنذارٍ يا ترى؟ إذا كان القصد توجيه إنذار، فلِمَن؟ أهو لي أم إلى أن؟ إذا كانت فرضية توجيه إنذار صحيحة، فمن وجهه؟ هل أتى هذا الإنذار من أحد المعتوهين المصابين بانفصام في الشخصية، من الذين يمرّون معي في سياق عملي، أم أنه أتى من مصابٍ آخر بهذا الداء؟ هل أتى من ذلك الشاب الذي التقته آن في الطائرة؟

تلاطمت الأفكار المجنحة في رأسي... سمعت صوت أشياء تنسحق بنعومة تشبه أصوات وقع الأقدام على الرمال، ثم ارتطمت كتلة ما بسريري، وما لبث بيردي أن التفّ حول ركبتي.

انحنيت قليلاً لأمسد ظهر هري.

- "أحبك، أيها الهر."

مدد بيردي جسده على طول ساقِي.

- "وبالنسبة إليك أيها اللعين الكريه. نعم، لقد وصلت إليّ، لكنني سأعرف هويتك

ذات يوم."

تكلمت بصوت يعلو على الصوت الهادئ الصادر عن الهر.

ملأني شعور بوجود شيء على غير ما يرام عندما استيقظت. لم أتذكر كل شيء

في البداية، ثم تسلل إليّ قلق مبهم. بعدئذٍ تذكرت كل شيء.

فتحتُ عينيّ. توهج ضوء الشمس من الشظايا المتناثرة على السجادة، وعلى سطح الخزانة. لم أجد بيردي بجانبني، واستطعت سماع صوت جهاز الراديو من خلال الباب المفتوح جزئياً.

وجدت أن ترتشف القهوة في المطبخ، وتتشغل بحل أحجية للكلمات المتقاطعة، فيما راحت تندنن أغنية لدافيد بوي. راحت تغني بصوت عالٍ عندما سمعتني أدخل.

- "تغييرات!"

سألتها: "هل هذا اقتراح منك؟"

نظرت أن إلى شعري من وراء إطار نظارتها ذات اللون الزهري والأخضر، والتي تستخدمها للقراءة، وهي واحدة من مجموعة النظارات التي تشتريها كل سنة من متجر ستاين مارت.

- "هل أنت راضية عن مظهرك؟"

- "وهل تظنين أنك ابنة حاكم كندا؟"

رفعت أن شعرها، ولفته بواسطة ربطة شعر، ثم زينته بحلية تدلت من رأسها مثل التاج الذي يزين ببغاء كاتي.

- "فكرت بتسريحة أفضل، لكنني احترت بالنسبة للأشياء التي يمكنني استخدامها".

وقفت أن، ثم تناولت كوباً كبيراً من الخزانة، وملأته، ثمناولتني إياه.

- "شكراً".

- "ماذا وضعت للسحلية على السياج؟"

تستخدم أن عدة تعابير أخذتها من أيام طفولتها في الميسيسيبي، لكنني لم أسمع هذا التعبير منها سابقاً.

- "وما هي ترجمة هذا التعبير؟"

- "ماذا لديك من خطط هذا اليوم؟"

- "لديّ موعد مع آخر هيكل عظمي من الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البييتزا. وأنت؟"

- "أعترم الذهاب إلى متحف الفن المعاصر. يقع هذا المتحف في محطة مترو قصر الفنون، أليس كذلك؟"

- "صحيح".

أضفت الكريما إلى كوب قهوتي، ثم وضعت نصفَي قطعة فطيرة إنكليزية على المحمصَة الكهربائيَة.

- "هل تعرفين أن ألفين وخمسمائة من المغفلين وقفوا عراة تحت المطر، ليأخذوا صورة مع سبنسر تونيك في تلك الساحة؟"

- "كيف عرفت أنهم جميعهم من ذلك النوع؟"

- "هل قصدت شاطناً للعراة ذات مرة؟"

عرفت أن أن كانت على حق هذه المرة، لأن الذين يفرطون بالتباهي بهذه الأمور هم الذين يتعين عليهم عدم فعل ذلك.

أضافت قائلة: "سأقصد سان دينيز بعد ذلك لأتناول الغداء وأتسوق".

تذكرت نوعية الناس الذين يتواجدون عادة في ذلك المكان، فسألتها: "هل تذهبين وحدك؟"

- "نعم ماما. سأذهب وحدي".

- "أعتقدين يا أني أن ذلك الرجل هو الذي اقتحم المنزل؟"

- "ولماذا يفعل ذلك؟ يُحتمل أنه لا يعرفك، وطريقته هذه لا تؤثر بي بالمرّة.

لماذا يُقدم على شيء فيه كل هذا الجنون؟"

- "لكن أحدهم فعل ذلك".

بدا صوتها متهدجاً حين قالت: "لا أعتقد أنه الفاعل، لا أعتقد ذلك بالفعل. بدا ذلك

الشاب طبيعياً بالكامل، لكن... أنا أسفة يا تمب، كانت حماقةً مني".

بدأت بوضع بعض مربى الفراولة عندما تكلمت أن ثانية.

- "ما هي الكلمة المؤلفة من أربعة أحرف، والمرادفة لعبارة "غير حساس؟"

- "بليد".

- "إنها تبدأ بحرف الكاف".

- "كلوديل".

رفعت أن عينيها فوق إطار نظارتها الزهريتي اللون، وقالت: "أعتقد أنني

سأختار كلمة كليل".

أعادت تركيزها على شبكتها، وجلست أنا قبالتها أصغي إلى نشرة الأخبار؛ اندلع

حريق في سان ليونار، تساقط مزيد من الثلوج على المنطقة...

كنت قد انتهيت للتو من تناول فطيرتي عندما أنزلت أن نظارتها، ووضعت

قلمها على الطاولة.

- "هل كلوديل هذا رجل تحرّ جيد؟"

اكتفيت بإصدار صفير من بين شفّتيّ.

- "سأعتبر جوابك هذا سلبياً".

- "كلوديل هو رجل متمكّن، لكنه ضيق الأفق، متشبّث برأيه، وعنيد. ولا يرى ضرورة لوجود كل علماء الأنثروبولوجيا عموماً، والإناث منهم على وجه الخصوص. إنه ينظر إلى كل اقتراح على أنه تدخّل في شؤون عمله".

- "دعيني أحمّن. إنه لا يبذل أي جهد في قضية الهياكل التي تعملين عليها".

- "إنه لا يقدّر عملي، كما أنه يعتبر أن قضية الهياكل العظمية تخصّه وحده،

ولا تخصّني".

- "واجهت هذا المشكلة معه من قبل، أليس كذلك؟"

- "أوه، نعم. إنه كلوديل الواصل من نفسه، لكنه الرجل الذي يكون على خطأ

مراراً".

- "إذا أنت لا تعتبرينه المفضل لديك؟"

- "لا أعتبر أن كلوديل هو رجل طائش، لكن أسئلته مقتضبة، حتى إنها تقترب

من حد الغضاظة. كما أنه من النادر أن يفسّر لماذا يهتمّ بحقائق محددة، ولا يفسّر لي لماذا لا يهتمّ بأرائي".

- "وكيف تحملينه على الإصغاء إليك؟"

نهضتُ ووضعْتُ فطيرة أخرى في المحمصة: "إذا أدبْتُ ترنيمَة الشكر وأنا

عارية".

أجابت أن: "لعلك تملكين القوام المشوق، لكنك لا تملكين صوتاً غنائياً. إنني

أفكر بطريقة مهنية".

- "إن نقطة خلافنا هي تحديد المدة التي مضت على وفاة الضحايا. يعتقد كلوديل

أن العظام قديمة، أما أنا فأعتقد أنها حديثة العهد. أرسلت نماذج منها لإجراء اختبار

الكربون 14، لكنني لن أحصل على النتائج قبل أسبوعٍ على الأقل".

- "ما هي الأشياء الأخرى التي تثير انتباهه؟"

- "إذا قُتل ستة أو سبعة أطفال صغار".

رفعت أن كوبها الكبير الفارغ: "ها أنت بدأت بالتصايق مني يا تمب. إنني أطرح عليك سؤالاً جدياً. أعني ما هو الشيء الذي يُلهم كلوديل إبداء اهتمام أكبر بالعظام التي تدرسينها".

- "إذا استطعنا البرهنة أن هذه العظام حديثة العهد".
ملأت الكوبين، وناولتها واحداً منهما. رفعت أن يدها التي لا تحمل كوب القهوة،
وفتحت راحة يدها قائلة: "إذا أبدأي من هذه النقطة".

- "يعتقد كلوديل أنه لا وجود لدليل كهذا".

- "لا تنتظري نتائج اختبار الكربون 14. قومي بتغيير رأيه".

- "إنه يرفض البحث في الاحتمالات".

- "إذا أعطه شيئاً ليعمل عليه".

- "ماذا يُفترض بي أن أفعل؟ هل أستأجر بعض المرتزقة ليضربوه حتى يوافق؟"

- "يوافق على ماذا؟"

- "يوافق على فتح تحقيق".

- "وماذا يعني ذلك؟"

استرخيت في مقعدي بعد أن تناولت فطيرتي الثانية: "هل هذا استجواب مؤلف
من عشرين سؤالاً؟"

- "ماذا تريد من كلوديل أن يفعل؟"

فكرت بهذه الكلمات لعدة لحظات، ثم أجبت: "أريده أن يأمر بإحاطة المكان
بسياج من القماش، وأن يأتي بالمزيد من المعلومات عن المبنى. أريده أيضاً أن
يتقصى عن المقيمين السابقين، وأن يعرف من امتلك ذلك المكان، ومن عاش فيه،
ومنذ متى أصبح الطابق الأول مكاناً تجارياً. يتعين عليه أن يعرف كذلك ما هي أنواع
التجارة التي كانت تُمارس هناك، بالإضافة إلى نوع رخصة البناء التي أصدرت،
ولمن أعطيت".

رفعت راحة يدها مجدداً: "يمكنك الانطلاق من هذه النقطة".

- "تقولين هذا للمرة الثانية".

- "لا تجبريني على قولها للمرة الثالثة".

- "من أين يمكنني الانطلاق؟"

- "أبدأي بإيجاد حل لمشكلتك".

أعتقد أن من المبكر القيام بهذا الشيء، لأنني لا أعرف كيفية بناء الجسور مع الآخرين.

- "وما هي مشكلتي؟"
- "ابداي بالاعتماد على نفسك".
- "سيجعل هذا من كلوديل رجلاً عدائياً".
- "وكيف يمكنه فعل هذا؟ إنه يقول إن العظام قديمة، كما أنه لا يرى ضرورة لإجراء المزيد من التحقيقات. يمكنك القول إنك تجريين أبحاثاً إضافية".
- "هذا ليس من ضمن مهماتي".
- "يبدو لي أن كلوديل يعتقد أن هذا الأمر ليس من مهماته كذلك".
- "لا يهتم كلوديل باقتراحاتي أبداً، لكنني إذا أقدمتُ على أي شيء يشبه أعمال التحري فإنه يتحول إلى رجل عدائي جداً".
- "اسمعي، لا يتعين عليك جعل هذا الأمر مسلسلاً تلفزيونياً. أنزلي دلوك في البئر، وانظري ما يستجد".

فكرت في ما قالته أن بينما ملأت، ومحت، ثم ملأت ثانية العمود الرابع والثلاثين من أحجبتها. يظهر أنها تتكلم بصورة منطقية. ماذا سأخسر إذا ما تفحصت الصكوك العقارية القديمة، السجلات الضريبية، ورخص البناء؟ إذا كان كلوديل على حق فمعنى ذلك أنني عملت لصالح علماء الآثار على أية حال. أفترض أن كلوديل سينشغل بتلك العملية البوليسية التي ذكرها رايان. أعتقد أيضاً أنه ما إن يتفرغ كلوديل ثانية، ويعرف أنني قمت ببعض التحريات، فإنه سيضطر إلى القيام بتحريات أخرى بنفسه، حتى لو شعر بالغضب، لكي يتأكد من أنني لم أكتشف شيئاً فاته.

رن جرس الباب في تلك اللحظة. وجدت فريقاً من سرية مكافحة السرقات أمامي. أدخلت الفريق إلى المنزل، وذكرت لهم الأضرار التي أصابت الباب الفرنسي، وتلك التي حدثت في غرفة أن، بالإضافة إلى الضرر الكبير الذي أصاب لوحة كاتي. سألتهم إن كانوا يمانعون في بدء عملهم في غرفة المعيشة.

انشغل التقسيون بالتقاط الصور، ورفع البصمات، بينما انسحبت مع آن إلى غرفتي لارتداء ملابسنا، وتمشيط شعرينا، وكذلك لوضع مساحيق التجميل حينما يلزم. فكرت بالخيارات المتاحة أمامي أثناء جلسة التجميل هذه.

إنه يوم جمعة، والمكاتب الرسمية تقفل في أيام نهاية الأسبوع. وإذا ما بدأت

بتفحص الهيكل العظمي الثالث هذا اليوم فلن يكون بإمكانني الوصول إلى مبنى المحكمة، أو قاعة المدينة، حتى يوم الاثنين.

أستطيع العمل في مختبري في أي وقت أشاء، حتى في أيام العطلة الأسبوعية إذا كان هذا الأمر ضرورياً، لكنني لا أستطيع تفحص السجلات في أي وقت أريد. إذا ما هو قراري؟

أجلت التفحص الكامل للهيكل الثالث مرة أخرى.

وضعت كميات طعام وماء إضافية لبيردى، وانضمت قليلاً إلى فريق مكافحة السرقات الذين مضوا بعملهم.

اقتربت من جهاز الهاتف وفوجئت بأن تدخل غرفة نومي. انتعلت أن الحذاء العالي والسترة التي رفضت أن ترتديها البارحة. رأيت الوشاح المصنوع من وبر الأرناب في مكانه، وكذلك القبعة والقفازين.

- "هل تطلقين الآن؟"

أجابت أن: "بل سننطلق معاً".

- "ماذا عن زيارتك للمتحف؟"

- "إن الفنون خالدة، وستكون في مكانها غداً، أما اليوم فهو مخصص لأعمال التحري. أتفهمين؟ إن حياتي متعددة الأبعاد، أنت وأنا، مثل كاغني ولايسي. ستصبح حياتي ممتعة هكذا على ما أعتقد".

- "هل أنت متأكدة؟"

- "أنا متأكدة".

- "إن كاغني ولايسي رجلا تحريات مدربان، يمتلكان الشارات والمسدسات. أظننا نصلح أكثر لنكون الأنسة ماربل، وإحدى صديقاتها المنتميات إلى نادي غاردين. لننطلق إذاً ونجرب. سيخرج فريق مكافحة السرقات بأنفسهم. سأتحقق من الرسائل الواصلة ثم نمضي في طريقنا".

اتصلت بالمختبر، ونقرت على أرقام بريدي وعلى مفتاح الدخول. وصلت رسالة واحدة عند الساعة التاسعة والدقيقة الثالثة والأربعين من الليلة السابقة.

تسببت كلمات المرأة بإطلاق سلسلة لا متناهية من الاحتمالات في رأسي، وبدا كل واحد منها أشجع من الاحتمال الذي يليه.

الفصل 12

أشرت بحماسة كبيرة نحو القلم الموجود في خزانتي، فاندفعت آن وناولتني إياه.
- "دكتورة برينان. أشعر أنه يتوجب عليّ القيام بمحاولةٍ أخيرة، وإلا فلن أكون
قادرة على التعايش مع ذاتي".

سجلت انطباعاتي عن الصوت. إنه صوت امرأة مسنة.
- "اتصلت قبل يومين لأحدثك بشأن المقالة المنشورة في صحيفة لو جورنال".
مرت لحظة صمت، وسمعت صوت سقسقة طائر، كما في المرة السابقة، لكنها
سقسقة غير واضحة. تابع الصوت الذي ينضح بالتوحد والشك: "أعتقد أنني أعرف من
الذي مات، وأعرف كذلك سبب موته".

قلت بإلحاح من بين أنفاسي المترقبة: "هيا. من أنت؟"

- "أنت تعرفين اسمي"

- "لا أعرف اسمك"

ارتفع رأس آن بسبب دهولها لخيبة الأمل التي شعرت بها.

- "تستطيعين الاتصال بي على الرقم 514-937..."

- "يا لهذه المرأة!"

راقبتني آن أثناء كتابتي رقم الهاتف، وحين قُطع الاتصال، ثم عندما طلبت ذلك
الرقم.

رنّ جرس الهاتف في مكان ما من الجزيرة عشر، أو إحدى عشرة، أو اثنتي
عشرة مرة. قطعت الاتصال ثم نقرت على الأرقام مجدداً.

رنّ الهاتف في مكان ما اثنتي عشرة مرة مجدداً من دون أن يجيب أحد.

- "اللعة!"

قطعت الاتصال ووضعت سماعة الهاتف على السرير، وشعرت أن جسدي توتر
بالكامل نتيجة الإحباط. نهضت وبدأت أزرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً. تناولت سماعة

الهاتف، وطلبت الرقم مجدداً.

لا جواب.

- "ارفعي سماعة هاتفك اللعينة!"

ماذا أفعل؟ هل أتصل بكلوديل وشاربونيو لأعطيهم الرقم؟ هل أتصل برايان؟ يُحتمل كثيراً أن يكون الثلاثة مشغولين تماماً بهذه العملية المشتركة التي يعملون عليها، لذلك لن يتوفر لديهم الوقت للاتصال بأرقام هاتفية.

قطعت الاتصال، وتناولت مفاتيحي، وأسرعت إلى الطابق السفلي. تناولت جهاز الكمبيوتر المحمول من صندوق سيارتي. عند عودتي إلى غرفة النوم رأيت أن جالسة على السرير وقد شبكت ذراعها فوق صدرها، وانشغلت بتحريك قدمها صعوداً ونزولاً. راقيتني حينما بدأت بتشغيل الجهاز، لكن من دون أن تصدر أي تعليق. نقرت على أرقام الهاتف في برنامج التصفح.

لم أحصل على نتيجة. اقترح برنامج التصفح أن أدقق في تهجتي، أو أن أحاول نقر كلمات أخرى. "كيف تتهجي رقماً، أيها الأحمق الجاهل؟" جرّبت برنامج تصفح آخر، ثم واحداً آخر. لم تظهر أية نتائج، لكن ظهرت نفس النصائح المفيدة السابقة.

- "ما الجدوى منك أيها الجهاز؟"

تناولت سماعة الهاتف مجدداً، نقرت رقماً آخر، وطلبت أحد الأشخاص، ثم استعلمت عن أمر معين.

لا. لم يستطع أحد إلى الآن تتبّع المكالمة التي وصلت يوم الأربعاء إلى المختبر. لم لا؟ تتطلب هذه الأمور الكثير من الوقت. حسناً! دون هذا الرقم، وانظر إن كنت تستطيع الحصول على نتيجة.

رمى سماعة الهاتف على السرير ثانية، وتوجّهت إلى الخزانة، ثم تناولت قفازي، وأغلقت الدُرجَ ثانية. انشغلت بارتداء الجزء الأيمن من القفازين، لكنّ الجزء الآخر سقط مني. انحنيت لالتقاطه، لكنني أوقعته ثانية، وما لبثت أن رميته باتجاه الحائط. تناولته مجدداً، ثم أدخلت فيه يدي اليسرى.

تطلّعت لأكتشف أن آن تحدق بي، لكنها حافظت على وضع ذراعها المتشابكتين، بينما ارتسمت ملامح الاستمتاع على محياها.

سألت أن بصوت يشبه صوت السيد روجرز: "هل تقدّم لنا الآن طبيبتنا الشرعية عرضاً من عروض نوبات الغضب؟"

- "أتظنين أن ذلك كان عرضاً لنوبة غضب؟ ضايقيني فعلاً لترَي وجه غوريلاً".
- "لم أشاهدكِ تقدمين عرضاً لغرابية الأطوار منذ أن ضببتِ بيتي مع وكالة
السفريات".

اضطرتت للابتسام، وقلت: "كانت وسيطةً عقارية، وكانت تتمتع فعلاً بمؤخرة
سمينة".

- "دعيني أحمَن. إننا لا نستمتع برسائلنا الهاتفية، أليس كذلك؟"

- "لا. إننا لا نستمتع".

لخصتُ لها قصة المكالمات الهاتفية التي تلقيتها من السيدة غالانت، أو بالانت،
أو تالانت.

- "أتعنين تلك التي أثارت قضية ديفا دكاو".

لم أجبها. تابعت أن بصوت صبور تتميز به مديرات المدارس: "يُحتمل أن تكون
هذه السيدة اللطيفة قد خرجت لتشتري ميثاموسيل الأسبوعية. اتصّلت هذه السيدة
مرتين، ولا شيء يمنعها من الاتصال للمرة الثالثة. إذا لم تتصل فيمكنك مكالمتها في
ما بعد لأن الرقم معك. أعتقد أن لديك في وسط المدينة معارف باستطاعتهم مساعدتك
على إيجاد صاحب الرقم الهاتفي من بين قائمة المشتركين. آه! تستطيعين إيجاد الاسم
والعنوان من الدليل الموجود بين يديّ أيّ مشترك، هذا إذا كان لديك الرقم".

لم أستطع إخفاء اضطرابي وأنا أقول: "قالت المرأة يا أن إنها تعرف من توفي،
وسبب الوفاة. تستطيع هذه المرأة أن تجعل التحقيق علنياً إذا كان ما تقوله صحيحاً.
يُحتمل ألا يكون كلامها صحيحاً بالطبع. أريد أن أتكلّم معها قبل أن أجعل كلوديل
ينطلق بالتحقيق باتجاه خاطئ. إنك محقة، يتعين عليّ بذل بعض الجهود كي أتحدّث
معها بنفسي، لا سيما أنها اتصّلت بي لا بالشرطة".

- "لديّ سؤال آخر لك".

رفعت يديّ في إشارة تشجعها على المتابعة.

- "ما هي خطتك لتثببت أضرار سترتك؟"

نزعت قفازي، ورميتهما باتجاهها.

دخلت إلى موقف عمومي في ذلك الحي القديم للمرة الثانية ذلك الأسبوع.
تلبّدت الغيوم الرمادية اللون المائلة إلى الزرقة، بينما استعد الهواء لاستقبال ثلوج

لم تسقط بعد.

بدأت بتثبيت أزرار سترتي المقلنسة: "هيا، لننطلق!"

- "وما هي الجهة التي سنقصدها؟"

- "سنذهب إلى هوتيل دوفيل".

انطلق صوت أن المخنوق من خلال وشاحها المصنوع من وبر الأرناب: "هل

سنحجز غرفة لنا هناك؟"

- "بل سنقصد السيّتي هول. إنها على بُعد أربعة مبان فقط".

تشرف السيّتي هول في مونتريال على تقاطع جاك كارتييه. بنيت هذه القاعة الفخمة على الطراز الفيكتوري من الحجر والنحاس، ويعود تاريخ بنائها إلى الفترة الممتدة ما بين العام 1872 والعام 1878. ويبدو أن المهندس الذي صمّمها قد عمل بجهد كبير، فالمبنى يتميّز بالسقف السندي وهو يأخذ طابعاً باريسياً، وفيه الكثير من الأعمدة. كما أن هناك الكثير من الأروقة والأفاريز، والنوافذ النائثة، والشرفات. بالإضافة إلى وجود قبة وساعة.

أصيب مبنى هوتيل دوفيل بحريق كبير عام 1922، لكنه بقي سليماً من الناحية الإنشائية. خضعت القاعة لعملية تجديد، وهي مكان مفضل هذه الأيام بالنسبة للسكان والزائرين على حدّ سواء، بحيث باتت تُعتبر أحد أروع معالم مونتريال.

قالت آن عندما بدأنا بتسلّق الدرج الأمامي: "لا يمكن للمرء أن يخطئ بين هذه القاعة وبين قاعة مدينة كلوفر".

أشرتُ بيدي باتجاه شرفة تطلّ الباب الأمامي: "أترين تلك الشرفة؟"

أومأت آن موافقة بالإيجاب. فتابعت أقول: "ألقي شارل ديغول من تلك الشرفة خطبته الشهيرة، أو السيئة السمعة، التي قال فيها: 'لتعشّ كيببك حرة'".

- "متى ألقي تلك الخطبة؟"

- "ألقاها في العام سبعة وستين".

- "وماذا حصل بعد ذلك؟"

- "أحبّها الانفصاليون كثيراً".

يبقى هوتيل دوفيل المركز الإداري الرئيسي للمدينة، برغم وضعه الحالي بصفته مكاناً يجذب السياح. إنه، على ما أمل، مكان وجود المعلومات التي أبحث عنها.

شعرنا، آن وأنا، برائحة الدفء المنبعث من مشعاعات التدفئة، والممتزج برائحة

رطوبة الصوف. رأينا أمامنا مركز الاستعلام الموجود في الردهة. تطلعت الموظفة نحوي عندما اقتربت منها. بدت المرأة في حوالى العشرين من عمرها، وقد رفعت شعرها الأشقر، الأمر الذي أضاف عدة بوصات إلى طولها. بدأت أشرح لها ما أريده، وبدا كأنها تكتّم تتأوبها. أشارت المرأة إلى لائحة جدارية قبل أن أنتهي من شرحي. تضمّ هذه اللائحة أسماء المكاتب ومواقعها. أصدرت سوارتها البلاستيكية أصواتاً، فيما قالت: "هل تريدين مكتب استعلامات مونتريال؟"

قلت لها: "شكراً لك".

تبعنتي آن في طريقي إلى مكتب دليل الهاتف وقالت: "أعتقد أنه كان بإمكانها أن تكون أقل اهتماماً، لكن ليس من دون جرعة عالية من الليثيوم".
وجدنا فور دخولنا إلى مكتب معلومات مونتريال نسخة أكبر سنأ، وأثقل وزناً، لكنها بالتأكيد أكثر ودأ من المرأة الأولى. حيثنا المرأة بمزيج مألوف في مونتريال من اللغتين الفرنسية والإنكليزية.
- "مرحباً".

شرحت لها ما أريده باللغة الفرنسية.

أنزلت المرأة نظارتيها المعلقين بشريط حول عنقها، ووضعتهما على صدرها، وأجابت باللغة الإنكليزية.

- "إن كان لديك عنوان في المدينة، فبالإمكان إجراء بحث مسحي يشمل الكثير من الأرقام".

غدوت مشوشة الأفكار قليلاً.

- "يعطينا البحث المسحي أرقام قطع الأرض، والأهم في هذه الحالة هو رقم قطعة الأرض. وإذا استخدمت الرقم تستطيعين تفحص تاريخ ملكية قطعة الأرض في مكتب تسجيل الأراضي في كيبك، والكائن في دائرة التسجيل".

- "وهل يتواجد المكتب هنا؟"

- "إنه في قصر العدل، الطابق الثاني، في الغرفة رقم 2175".

دوت عنوان المبنى الذي يقع فيه مطعم البيترزا على ورقة، وناولتها للمرأة عبر الطاولة.

- "لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً".

صح توقع المرأة، ففي غضون عشر دقائق عادت مع الأرقام. شكرتها، وانطلقت

ثانية، أنا وأن.

تقع غرف محاكم مونتريال الثلاث إلى الغرب مباشرة من السي تي هول. انطلقنا عبر شارع نوتردام مسرعتين، استطلعت أن بعينها واجهات صالات العرض، والمقاهي، ومتاجر الثياب النسائية. توقفت قليلاً لترتبت على رقبة حصان، وتاملت كثيراً بجمال قصر راميزاي، وضحكت على السيارات التي جرفتها جانباً جرافات الثلوج.

تحمل السي تي هول القليل من الشبه من الناحية الهندسية مع دور المحاكم الحديثة، عدا عن كونها بناية، لكن أن لم تعلق على سحر هذه الأخيرة. تناولت هاتفي الخليوي قبل أن ندخل إلى قصر العدل، وطلبت رقم هاتف السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت.

لا نتيجة.

وجدت قصر العدل كما كان يوم أدليت بشهادتي، أي أنه يغص بالمحامين، والقضاة، والصحفيين، ورجال الأمن، وبالناس الذين تبدو على محياهم إمارات القلق. امتلأت الردهة بالفوضى المنظمة، وبدا أن كل وجه يريد أن يكون في أي مكان آخر. استقليت المصعد مع أن للوصول إلى الطابق الثاني، ثم توجهنا مباشرة إلى الغرفة رقم 2175. شرحت مهمتي عندما حان دوري لكاتب أسود اللون، وجهه أشبه بإناء الفخار.

قال إناء الفخار: "هناك رسم".

- "كم؟"

أخبرني.

ناولت إناء الفخار المبلغ، وناولني وصلاً بدوره.

- "يسمح لك هذا بالبحث طيلة النهار".

قدّمت له رقم العقار، ورقم المساحة.

عندما تفحص إناء الفخار الورقة، رفع بصره نحوي، ثم دفع نظارتيه ذات الإطار الأسود إلى ما فوق أرنبة أنفه بإصبعه السمين والقصيرة.

- "هذه الأرقام قديمة جداً. يصعب تفحص أي شيء يعود إلى ما قبل العام 1974 بواسطة شبكة الإنترنت. يتطلب هذا البحث وقتاً طويلاً، ويتوقف ذلك على عدد مرات بيع العقار".

- "هل أستطيع تحديد أسماء الذين امتلكوا المبنى؟"
 أوماً الرجل، ثم رفع الورقة بيده: "تسجل الحكومة المحلية كل صكوك نقل الملكية. ماذا يحتوي هذا المكان في الوقت الحاضر؟"
- "يحتوي المبنى على وحدات سكنية في الطوابق العلوية، ويضمّ محلات تجارية في الطابق الأرضي. إن العنوان الذي يهمني هو مطعم بيع شرائح البييتزا".
 هزّ إناء الفخار رأسه: "إذا كان العقار ملكية تجارية، فلن تعرفي نوعية العمل التجاري لذلك المكان، إلا إذا قدّم المالك هذه المعلومات".
- "كيف يمكنني أن أعرف؟"
 - "يُحتمل أن تعرفي هذه المعلومة عن طريق البيانات الضريبية، أو لربما عن طريق رخص مزاولة التجارة".
- "هل أستطيع معرفة أسماء المالكين السابقين؟"
 أوماً إناء الفخار. تذكّرت، بطريقة غير منطقية، نون هو، والفقاقيع الصغيرة.
 قلتُ: "هذه بداية على الأقل".
- دلّني إناء الفخار على موقع غير مشغول لجهاز كمبيوتر: "إذا احتجتِ لشيء قبل العام 1974، فباستطاعتي أن أشرح لك كيفية استخدام السجلات".
- تقدّمت نحو جهاز الكمبيوتر، ونزعت سترتي، ثم علّقتها على ظهر المقعد، وتبعنتي آن. التفت نحوها بعد أن علّقت رباط حقيبتني فوق السترة. "لست مضطرة لأن تجلسي لتراقبيني وأنا أنقر على لوحة المفاتيح، وأنقب في السجلات القديمة".
- "لا مانع عندي".
- "صحيح. لكن وسائل التسلية التي قطعت ألفاً ومايتي ميل لأجلها ليست موجودة في مكتب التسجيل هذا".
- "لكن هذا أفضل من تحضير الطعام، وتقديم الأطباق المتلجة للعمليات الجراحية والمأمّم".
- "ألا تفضلين القيام بجولة للتسوق؟"
 - "فلتذهب جولة التسوق إلى الجحيم".
- لاحظت أن آن تمرّ بفترة هبوط شديد في معنوياتها، لذلك افترضت أن جلوسها قبالتني أثناء عملي لن يخفّف عنها.
- "أذهبني إلى الكاتدرائية، وابحثي عن مكان تاكلين فيه، وسأصل بك على

هاتفك الخليوي عندما أنتهي من العمل".

- "ألن تشعرني بالإحباط والغضب الشديد؟"

وضعتُ يدي على كتفها قائلة: "أذهبي وتسوّقي مع الأثرياء، فعملك قد انتهى هنا".

مضت ثلاث ساعات ولم أزل منهمكة بالعمل. استغرقني البحث في شبكة الإنترنت أربعين دقيقة، وتساءلت سبعة وثلاثين مرّة عما أفعله في هذا المكان. أنتج هذا البحث ثلاث صفحات من المعلومات حول مالك المبنى الحالي. استغرقنتي مدة تقارب دهرًا من الزمان لمراجعة أكداس الصكوك.

بدا إناء الفخار مهذبًا وقدم لي الكثير من المساعدة، وتكرّم بأخذ مبالغ مالية مني من أجل تصوير كل معاملة فور اكتشافها.

اكتشفت عدة أشياء في سياق بحثي هذا. تبين لي أن كلوديل محقّ بشأن عمر المبنى. تبين لي أيضاً أن قطعة الأرض كانت تُستخدم لتكون جزءاً من فناء سكك سي أن أن، وذلك قبل إنشاء البناء عليها. تغيّرت ملكية المبنى عدة مرات منذ ذلك الحين. انشغلت بمراجعة نسخ مجموعتي عندما استوقفتني أحد الأسماء.

إنني أعرف هذا الاسم. لماذا؟ هل هو سياسي محلي؟ هل هو مطرب؟ حدّقت بالاسم، وحاولت أن أتذكّر ما يعنيه لي. هل هو شخصية تلفزيونية؟ هل مرّ معي في قضية عملت فيها؟ هل هو شخص أعرفه؟ لاحظت أن تاريخ نقل الملكية يعود إلى ما قبل قدومي إلى مونتريال، إذًا لماذا يقرع هذا الاسم ناقوساً في ذاكرتي؟ أخيراً تعرّفت على الاسم.

- "يا للروعة!"

حشرتُ أوراقي المطبوعة ونسخي المصوّرة في حقيبة يدي، ثم تناولت سترتي، وانطلقت خارجة.

الفصل 13

اكتسى درج المبنى والسياج المحاذي له في الخارج طبقة رقيقة من الثلج، وزاد حجم الأعمدة التي تصطف على جانبي الأرصفة والشوارع. لم أكتث بالثلج المتساقط. اتصلت بكلوديل ما إن أصبحت في الخارج.

أخبرتني عاملة الهاتف في مركز شرطة مدينة مونتريال أن كلوديل ليس موجوداً. سألت عن شاربونيو، فأجابتي أنه في الخارج هو الآخر. - "الدكتورة بريان من قسم الطب الشرعي تتكلم معك. هل تعرفين متى يرجع أحدهما؟"

أجابتي بصوت ينم عن عدم الاكتراث: "لا. هل جربت الاتصال بهما عن طريق جهاز الإخطار الهاتفي؟" - "أعطيني رقميهما من فضلك؟"

أعطيتي الرقمين المطلوبين. اتصلت بكل واحد منهما، وحوّلت هاتفي الخليوي ليكون صفحة رقمية لرجلي التحري. لم يكن عندي أمل كبير بالحصول على استجابة فورية. أستبعد أن يترك كلوديل، على الأخص، عملية بوليسية كبيرة ليتصل بي بشأن قضية ليس لديه اهتمام كبير بها.

حاولت مجدداً أن أتصل بالسيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت. لا جواب. جهدت كثيراً لتهدئة نفسي، لذلك أجريت اتصالاً مع أن. أخبرتني أنها منشغلة بشراء بعض الزينة من متجر متخصص ببيع لوازم عيد الميلاد.

اقترحت أن نتناول الغداء في مطعم لو جاردن نيلسون، وبدأت بإعطائي العنوان. قاطعتها: "أعرف أين يقع المطعم."

مرت فترة صمت، سألتني بعدها: "هل كان بحثك عقيماً؟"

- "أعتقد أننا وجدنا شيئاً. أراك قريباً."

سرت منحنية بسبب تساقط الثلج، وأسرعت نحو مكان يدعى جاك كارتييه، وهي

مساحة كبيرة مخصصة للمشاة محاذية للنهر، تمتد من شارع نوتردام باتجاه شارع الشعب. تصطف على جانبي هذه الباحة المطاعم، والمقاهي، ومحلات القمصان القصيرة الأكمام الرخيصة الثمن، ومحلات التذكارات. يعجّ هذا المكان بالحياة في الأيام التي يكون الطقس فيها معتدلاً. أتقاسمُ هذه الباحة اليوم مع حفنة من السياح، وفنان واحد من فنّاني الأرصفة، بالإضافة إلى كلب صيد صغير، من نوع تيريبه، كان واقفاً قرب عمود للإنارة.

غطّت رقاقات الثلج معالم بلاط الشوارع ولوحاتها، والعمود التذكاري الذي يخلّد أمير البحر نيلسون، وهو رجل إنكليزي وجّه ضربة مؤلمة للفرنسيين في معركة *ترافلغار*. وهو لم يناصر الانفصاليين يوماً. استطعت أن أرى سوق بونسيكور بقبابه الرمادية اللون، وراء الباحة الأشكال الباهتة، وهو المكان الذي كان بمثابة قاعة المدينة إلى أن أهملت في ما بعد.

إنها كيبك التي تضمّ مجتمعين منعزلين توأمين، أحدهما فرنسي كاثوليكي، والآخر إنكليزي كالفاني. تصارعت اللغتان والثقافتان في هذه المقاطعة منذ استيلاء البريطانيين على مونتريال في العام 1760. ويُعتبر ميدان جاك كارتييه عالماً مصغراً لما يحتويه من اللغات المتعددة التي تعبر عنها حجارة مبانيه.

يقع مطعم *لوجارين* في منتصف المسافة الممتدة من الجهة الغربية للباحة. يتميز هذا المطعم بشرفاته المطلّة على السوق، والتي تظللها ستائر ذات لون أزرق مشرق. يضمّ المطعم أيضاً باحة مظلة مزودة بسخانات تعمل على الأشعة ما تحت الحمراء، وهو الأمر الذي يُبقي مطعم *حساء مونتريال* مفتوحاً لعدة أشهر في السنة.

لم تكن هذه الفترة من السنة تسمح بتشغيل هذا المطعم. تطلّعت إليّ أن من فوق قائمة الطعام المتوفرة، وتابعتني بنظرها عندما عبرت القاعة باتجاهها.

نزعت سترتي المقلّسة فتناثرت منها رقاقات الثلج، ثم قلت لها: "سيسقط الثلج بالفعل".

- "هل سيصمد؟"

- "يصمد الثلج دائماً في مونتريال".

- "ممتاز".

وضعت جهاز هاتفني الخليوي وأشرت عليها بالسكوت.

ملأت شابّة حساء كويينا بالماء. طلبت أن بعض فطائر فورستبيرر المحلاة وكوباً

من الشراب. طلبت من جهتي بعض فطائر أرجنتويل وعلبة من الكولا المخصصة للحمية. سألتها عند انصراف النادلة: "هل اشتريت أشياء ثمينة؟" تُعتبر أن متسوّقةً مندفعةً حتى عندما تكون غير سعيدة، لذلك لم تتأخّر عن عرض مشترياتها أمامي.

كان بين هذه المشتريات كنزٌ صوفية ذات لون برتقالي مائل للحمرة، وأنية بروفانسية ملوّنة باليد، وأخيراً رأيت ستة وشاحات مزينة من الساتان الأحمر، ذات عروات معدنية. أومأت إلى الوشاحات وقلت: "يا لها من خيارات مستغربة لزوجة تعيش حياة متحررة".

أعدت أن تغليف هذه الوشاحات وقالت: "أنوي تقديمها كهدايا".

أحضرت النادلة المشروبات التي طلبناها. ارتشفت الكولا، وفرشت مندبلي على الطاولة، ثم وضعت عليه أنوات الأكل. وضعت الشوكة في مكانها، وغيّرت اتجاه الملعقة والسكين. غيّرت كذلك اتجاه الشوكة. تفحصت هاتفي الخليوي لأتأكد من اشتغاله. تناولت المزيد من الكولا. أصلحت براحتي يديّ وضع أطراف غطاء المائدة. مسدت شراريب الغطاء، وتناولت الهاتف، ثم وضعته مجدداً على الطاولة.

رفعت أن حاجبها معبرة عن حيرتها، وسألتني: "هل تنتظرين مكالمة هاتفية؟"

- "سبق لي أن تركت رسالتين لكلوديل وزميله".

- "هل ستخبريني بما اكتشفته حتى الآن؟"

تناولت النسخ المصورة والأوراق المطبوعة من حقيبتني، ثم وضعتها على جانب غطاء المائدة.

- "سأوفّر عليك سرد تفاصيل قصة قطعة الأرض هذه. جرى تشييد المبنى في العام 1901، وامتلكها رجل يدعى إيف ساريو. استُخدم المبنى لأغراض سكنية في ذلك الوقت. ورث جاك، وهو ابن ساريو، هذه العمارة في العام ثمانية وعشرين. ورث إيف، أي ابن جاك، هذا المكان في العام تسعة وثلاثين. باع إيف ساريو الابن ملكيته هذه في العام 1947، إلى إيريك إيمانويل غراتون، أي في نفس السنة التي أصبح فيها الطابق الأول من المبنى تجارياً. شغلت شركة مطبوعات صغيرة هذا المكان حتى العام 1970. توفّي إيريك إيمانويل غراتون في العام 1958، فورثت زوجته ماري المكان منه. توفيت ماري في العام ثلاثة وستين، وهكذا انتقلت ملكية المبنى إلى ابنتها جيل. أقدم جيل غراتون على بيع ملكيته هذه في العام 1970".

- "ألا توجد خاتمة لهذه القصة؟"
- "باعها إلى نيكولو كاتانيو".
- أوحى لي تعابير وجهها أن هذا الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة إليها. فكررت قولي مضيفة: "تيك كاتانيو، الملقب بالسكين".
- أتسعت العينان الخضراوان نتيجة الدهشة: "أتعنين رجل المافيا؟"
- أومأت مؤكدة.
- "السكين؟"
- أومأت مجدداً.
- "يفسر هذا تحريك المهورس لأدوات مائدتك؟"
- "لا أعرف الكثير عن هذه العصابة الإجرامية، لكنني سمعت الكثير عن نيكولو على مدى السنين".
- "وهل تنشط المافيا في هذا المكان؟"
- "إنها تنشط منذ بداية القرن".
- "ظننت أن راكبي الدراجات وحدهم هم الذين ينشطون في هذا المكان".
- "إنهم ينشطون فعلاً، وهم الآن مصدر تسلية في المدينة، لكن راكبي الدراجات هم عنصر واحد فقط من عناصر عالم الجريمة المنظمة في مونتريال. وتشكل المافيا، وعصابة الطرف الغربي، وملائكة الجحيم، ما يسمّى الاتحاد".
- "أتعنين أنه يماثل الوكالة، الناشطة في نيويورك؟"
- "بالضبط".
- "وهل يتوافق أبناء شبه الجزيرة المشمسة مع شبيبة شبه الجزيرة المشمسة الواقعة ما وراء الحدود الجنوبية، أم أنهم أقرب إلى رجال الجزيرة؟"
- "أتقصدين أن الأمر يشبه وضع إيطاليا ضد صقلية؟ لست مطلعة على تفاصيل شجرة العائلات، لكنني أعرف أن مونتريال شكّلت في وقتٍ من الأوقات فرعاً من فروع مدينة نيويورك".
- "أتقصدين عائلة بونانو؟ أذكر أنني قرأت كتاباً عن هذه العائلة ذات يوم".
- أومأت بالموافقة: "كانت المنظمة في مونتريال بقيادة رجل يدعى فيك كوتروني الملقب بالبيضة. أعتقد أن كوتروني قد مات في منتصف أعوام الثمانينيات".

ألقيت نظرة على هاتفني الخليوي. وجدته شغلاً، لكن لم تصل إليه أية رسائل بعد.

سألتني آن: "ما هي عصابة الطرف الغربي؟"

- "إنها إيرلندية في غالبيتها".

- "أي أنهم من أقاربك".

- "تؤلف نحن الإيرلنديون فرقة المشاة في جيش الرب".

- "إنكم تشبهون، وبالترتيب العكسي بالنسبة للنشاط، الشعراء والمترددون على

الحانات".

- "إننا يقظون".

- "وما هي الأعمال التي يتعاطى الاتحاد فيها؟"

- "يتعاطى الاتحاد بالدعارة، والقمار، والمواد الممنوعة. ويحدّد هذا التنظيم

أشياءً مثل أسعار المخدرات، والكميات التي ينبغي استيرادها، وأسماء المشترين

المحظوظين. ويُعتقد أن شبكة كوروني تنغمس في تهريب ما قيمته ملايين الدولارات

من المخدرات إلى السوق الأميركية، وذلك على مدى الأعوام. يلجأ هذا التنظيم إلى

غسل هذه الأموال عن طريق إنشاء مشاريع تجارية مشروعة".

- "ليس هذا بالنمط المستغرب حسب ما أعرف".

- "إنه نفس النمط الذي تتبناه عصابات راكبي الدراجات. يتعيّن عليهم تدريسه

في معاهد إدارة الأعمال".

وصلت النادلة في تلك اللحظة حاملةً معها الطعام الذي طلبناه. ألقيت نظرة

أخرى على الهاتف. سمعت نفس الأزيز الخافت، لكن من دون وصول أية رسائل.

مرّت لحظات متوترة قلت بعدها: "دعينا نعود إلى موضوع المبنى. اشترى نيك

الملقّب بالسكين المكان في العام 1970، وحافظ على ملكيته هذه لمدة عشر سنوات".

- "وما علاقة كل هذا بالهياكل العظمية التي تعملين عليها؟"

- "أتحدّث هنا عن المحترفين لا عن الهواة يا آن. يُحتمل أن يكون أي شخص

مدفوناً هناك في القبو".

- "ألم نسرح بعيداً جداً في تخيلاتنا؟"

- "يتعرّض الناس للاعتداءات يميناً وشمالاً هذه الأيام".

- "أتقصدين الفتيات المراهقات؟"

- "الحياة رخيصة جداً بالنسبة لهؤلاء العابثين الذين يديرون نوادي العراة، وأماكن الدعارة".

فكّرت أنهم يستهترون بحياة النساء على الأخص، وتذكّرت بغتةً تلك المومس الراقدة الآن في مستشفى نوتردام.

ركّزت آن على فطائرها حتى أتت عليها، وقالت على الفور: "من كان يشغل الطابق الأرضي عندما امتلك السكّين البناية؟"

- "لم تتوافر لديّ هذه المعلومة".

- "من اشتري المبنى في ذلك الوقت؟"

تفحصت أوراق المطبوعة.

- "اشتري ريتشارد ساير هذا المبنى في العام 1980، وما زال ساير يمتلك هذا المبنى بحسب السجلات الرسمية".

- "وماذا يحتوي الطابق الأرضي في الوقت الحاضر؟"

- "يحتوي هذا الطابق أربعة محلات تجارية منفصلة".

- "هل تشمل هذه المحلات مطعم البيترز؟"

- "أجل".

- "أين يعيش السيد ساير".

عدت ثانيةً إلى أوراق المطبوعة.

- "يعيش في نوتردام دي غرايس".

- "وكم يبعد هذا المكان عن مونتريال؟"

- "إنها ضاحية تقع إلى الغرب تماماً من وسط المدينة".

جمّد كوب الشراب الذي تحمله آن في الهواء. وارتفعت راحة يدها الأخرى صوب الأعلى، كما حدث في مطبخي هذا الصباح.

- "إذا انطلقي إلى هناك".

- "تحدّثين وكأنك خبيرة في أمور التحريات أي".

تلقيت نظرة ساخطة من آن، وما لبثت أن قالت: "هاك خطونك التالية. اتّصلي

بساير. أقترح عليك شيئاً أفضل من هذا، ما رأيك بزيارة مفاجئة لمنزله بما أنه يسكن

في مكان قريب؟ ما زلت أعتبر أن كاغني ولاسي المثل الأقرب إلينا. دعينا نجد حلاً

لهذه القضية".

اتجهت عيناى إلى الهاتف الموجود قرب صحنى. لم يظهر على شاشته الصغيرة أي شيء غير اسمى والوقت. اتضح لى أن كلودىل وشاربونىو لم يجيبا على ندائى لهمما. رفعت بيدي علبه الكولا، أما أن فرفعت كوب شرابها. تلاقى كوبانا فى الهواء فترددت أصدااء التلاقي فى القاعة. قلت لها: "تقصدىن بحثنا الأثرى". شربت أن آخر قطرة باقىة من شرابها وعلقت: لكن مع تعديل بسيط وهو أننا ننقب بحثاً عن التراب بدل أن ننقب فىه".

يقع نوتردام دى غرايس، وهو حىّ سكنى هادى، على بعد دائرتين من وسط المدينة. لا يمكننا مقارنة هذا الحى مع وست مونت الإنكليزى المترف، ولا مع نظيره الفرنسى أوترمونت، لكن يمكننا القول بأنه حىّ جميل. ونستطيع تصنيف هذا الحى على أنه يخص الطبقة الوسطى، لأنه يُعتبر مكاناً مناسباً لتثسئة الأولاد وتربية الكلاب. يعيش ريتشارد ساير فى منزل من طبقتين مبنى بالقرمىد الأحمر فى كوروناشن، ببعد مسافة قريبة جداً عن حرم لويولا التابع لجامعة كونكورديا. وصلنا بعد عشرين دقيقة، وأمضينا خمس دقائق أخرى فى تفحص المكان. لفت نظرى وجود شرفة أمامية للمنزل تظللها ستائر باهتة اللون، ولاحظت وجود باحتين صغيرتين من الجهتين الأمامية والخلفية للمنزل. كما شاهدت طريقاً لا تؤدى إلى مكان معين، وسيارة فورد فالكون زرقاء اللون، مركونة فى باحة المنزل. علقت أن: "لا يكلف السيد ساير نفسه عناء استخدام الرفش".

تعود مالكو المنازل فى مونترىال فى كل شتاء أن ينظفوا مداخل بيوتهم بأنفسهم، أو أن يستأجروا شركة، أو أحد فتىان الحى للقيام بهذه المهمة. يبدو أن ساير لم يلجأ إلى أى من هذين الحلىن. بدأ الثلج فى هذه الأثناء بالتراكم فوق الممر، مضيفاً طبقات جديدة إلى الثلج الذى تساقط سابقاً، والذى بلغت سماكته بوصتين.

تعين علينا، أنا وأن أن ننتبه جيداً لخطواتنا بينما كنا نتقدم باتجاه الدرج، وإلى الشرفة بعد ذلك. ضغطتُ زر الجرس فترددت أصدااء رنانة فى مكان عميق من المنزل.

لم يفتح أحد الباب حتى بعد مرور دقيقة. ضغطت الجرس مرة ثانية، ولم أسمع شيئاً سوء أصدااء رنين الجرس.

كادت أن تتعثر عندما قالت: "يبدو أن ساير معاق جسدياً، ولا بد من أن يكون أشد الناس بخلًا على هذا الكوكب".

- "لعله ينفق أمواله على أشياء أخرى".

- "خطرت ببالي فكرة مفرحة، وهي أن يكون هذا المغرور فوق يخته في باربادوس بينما نكاد نُقتل على الدرج، في محاولة منا لشق طريقنا إلى مدخل بيته".
قلت: "لكن سيارته هنا".

التفتت أن: "أعتقد أنه لا ينفق أمواله على العجلات المبهرجة".

بدأت برفع يدي كي أضغط على الجرس مجدداً، لكن الباب فُتح بغتةً في تلك اللحظة. ظهر أمامي رجلٌ من خلال زجاج باب الألومنيوم الخارجي.
لم نلاحظ علامات الارتياح على الرجل، لكن لم تكن ملامحه هي التي أقلقتنا.
بدأنا، أنا وآن بالتراجع عن الشرفة.

الفصل 14

وقف الرجل القصير والنحيل، ذو الشعر الأبيض المائل إلى الصفرة، والشاربين الرماديين الكثيفين، يتفرّج علينا. كان الرجل يضع نظارتين ملطّختين بالشحوم، ذات سلسلة معلّقة في عنقه. ولم يكن الرجل يرتدي شيئاً سوى النظارتين والسلسلة. تبدّلت نظرة الرجل العابسة إلى نظرة تطفح بالرضا عن الذات عندما شاهدنا أنا وأن، أثناء تراجعنا المترنّح عبر شرفته، ثم عادت ملامحه لتتمّ عن الشراسة مرة أخرى.

- "أنا كاثوليكي!"

تزحلقْتُ، واستقرّ حدائني مشكلاً زاوية مع الجليد المتجمّع. أمسكت أن، التي كانت واقفة بقربي، السياج واستدارت على عقبيها باتجاه الدرج. صرخ الرجل ثانية:

"أنا كاثوليكي!"

كاثوليكي!

توقّفت في مكاني حين تذكرت أن هاري استخدمت هذه الحيلة نفسها في ما مضى، لكنها كانت ترتدي ثيابها.

- "لسنا من المبشّرين، ساير".

تلاشى عبوس الرجل، ثم ما لبث أن فرض نفسه ثانية حين قال: "وأنا لست بي وي هيرمان".

بدا هذا الاسم غريباً عندما تَلَفَظَ به بلهجته الفرنسية الخاصة. أسرعت لتناول حقيبتني الشخصية.

لَكَمْ ساير الباب بقبضة يده وقال: "انصرفا!"

تناولتُ من حقيبتني إحدى بطاقات التعريف الخاصة بي، فيما تابع الرجل يقول:

"وإياكما أن تتركا منشوراتكما اللعينة".

- "لسنا مبشّرتين".

استوعبت أن ما يجري، فأسرعت بالامساك بالسياج، والتقدّم باتجاه المنزل.
تجمّدت النظارتان الوسختان باتجاه رفيقتي، وزحف شبح ابتسامة فوق الشفتين
المجعدتين، ثم عبس ساير مجدداً. قالت أن هذه المرة بأسلوبها المعهود: "ماذا تظنين يا
تمب؟ لا يبدو لي مخيفاً كما يحاول أن يوهمنا".

كرّر ساير تحذيره بشأن المنشورات، وفتحت أن فمها للرد.
قاطعتُ هذه المحادثة قائلة: "سيد ساير، إنني أقوم بجزء من تحقيقٍ يتعلّق بالمبنى
الذي تملكه، ويتعيّن عليّ طرح بعض الأسئلة بشأن عمارتك".
أعاد ساير انتباهه باتجاهي، وسألنا: "ألستما جزءاً من الجيش الذي يريد إنقاذ
روحي؟"

- "سيدي، إننا هنا لمناقشة موضوع المبنى الذي تملكه".

- "هل تعملان مع بلدية المدينة؟"

تردّدت قليلاً قبل أن أجيب: "نعم".

لا يسعد قولِي هذا عن الواقع، ذلك أنني عملت مع سلطات المقاطعة سابقاً، كما
أن ساير لم يطلب التحقّق من هويتي".

- "هل اشتكى عليّ أحد المستأجرين؟"

- "ليس على حد علمي".

أوما ساير برأسه باتجاه أن: "وهل تعمل رفيقتك مع البلدية كذلك؟"

- "إنها معي".

- "تبدو هذه المرأة جميلة".

- "نعم. لكنني مضطّرة يا سيدي أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

فتح ساير الباب الخارجي، فتقدّمت أنا وأن ودخلنا إلى المنزل. أظلمت الردهة
الصغيرة ما إن أغلق ساير الباب الداخلي. بدا الهواء حاراً وجافاً، وانتشرت في المكان
رائحة الدخان، بالإضافة إلى رائحة الطبخ التي انتشرت في المنزل الذي بدا من دون
تهوئة.

بدا أن الرجل نسي تماماً أنه عارٍ، لكنه نظر إلى أن بطرف عينه وقال: "أنت
جميلة بالفعل".

قالت أن مقترحة على الرجل: "ألا تريد وضع غطاء على جسدك؟"

أجاب ساير بالإنكليزية: "ظننتكما من جمعية واتش تاور. لا يفقه هؤلاء

الأشخاص أن الله قد وضع جزرةً أمام أعين الناس، لكنهم يتركونك وشأنك إذا ما كنت عارية، أو إذا كنت كاثوليكية".

قاندنا ساير خلال الأبواب الزجاجية، وأوماً باتجاه غرفة جلوس موجودة على يميننا قائلاً: "سأغيب دقيقة".

انطلق يتسلق الدرج الذي يتوسط البهو واضعاً قدماً على درجة، ليتبعها بعد قليل بالقدم الأخرى، بينما أمسك سياج الدرج بيده التي تظهر منها عروقه الزرقاء اللون. بدا بياض جسده بلون بياض بطن الضفدع وسط الخشب الداكن اللون الذي غطى به الدرج، بينما غطى الشعر الأسود جسمه.

سمعنا صوت البلاستيك يطقطق عندما جلسنا أنا وأن على جهتين متقابلتين من أريكة ذات قماشٍ مطرز. أنزلت زمام سترتي المقلنسة وخلعتها، لكن أن لم تخلع شيئاً من ملابسها.

- "لم أشاهد شيئاً شبيهاً بهذا في كاغني ولايسي".

ابتسمت لها ابتسامة عريضة، ثم سمحت لعيني القيام بجولة في أرجاء المنزل. لاحظت في الجهة المقابلة للأريكة مقعداً مخصصاً للاسترخاء، ومقعداً بذراعين مغطى بغطاء من البلاستيك. شاهدت إلى اليمين منصة، وموقداً طلي باللون البني، كما شاهدت إلى اليسار منصةً وُضع عليها أرغن صغير، وجهاز تلفزيون كبير الحجم، بالإضافة إلى مقعد ذي ذراعين رديء الهيئة. وُضع الكرسي قرب شاشة التلفزيون، لكن هذا المقعد ليس مغطى بغطاء بلاستيكي.

ساد هدوء مخملي في أنحاء المنزل. تساءلت ما إذا كان هذا الرجل العجوز قد أضاف أغطية الفينيل على قطع الأثاث، أم أنه تركها عليها عندما استلمها. شككت أن تكون هناك سيدة ساير في هذا المنزل. لم أر أية تماثيل، أو صوراً فوتوغرافية، أو أية تذكارات لإجازات سابقة. لاحظت أن منافض السجائر ممتلئة بالكامل وتفيض بأعقاب السجائر. شاهدت أيضاً رزماً من مجلتي بلاي بوي وناشيونال جيوغرافيك موضوعة قرب الموقد.

لاحظت أن آن منشغلة بتفحص المكان مثلي. قلت بصوت خافت: "باستطاعتك امتلاك المكان بكامله. أعتقد أن ساير قد وقع في غرامك".

ردت عليّ هامسة: "أعتقد أن لاجدوى من هذا الرجل".

- "قلت لي سابقاً إنك تحبين الحياة ذات الوتيرة السريعة".

- "هذا الرجل الهزيل هو في غاية الضعف فعلاً".

رحت أتساءل عما إذا كانت تتحدّث عن هوبالونغ أو عن ساير، لكنني لم أسألها. سمعنا وقع أقدام بعد لحظات قليلة، وظهر ساير ثانية منتعلاً حذاءً رياضياً، وقميصاً مزخرفاً أخضر اللون، وسروالاً صوفياً فضفاضاً رمادي اللون.

- "أتريدان شراباً أيتها الفتاتان؟"

رفضنا هذا الدعوة، فعاد يقول: "ألا تأخذان رشفةً رائعةً في هذا اليوم المثلج؟"

- "لا، شكرًا لك".

- "دعوني أعرف إذا غيرتما رأيكما".

مشى ساير متثاقلاً نحو المقعد الذي تعود أن يسترخي عليه، ثم انحنى وجلس بارتياح، وما لبثت أن عبقت خلفه موجة عاتية من عطر أولاد سبايس. خاطب ساير آن قائلاً: "لديك شعر رائع جداً أيتها الشابة".

ردت أن: "شكرًا لك".

بدت ملاحظته صحيحة. شاء حظ أن السعيد أن يكون شعرها كثيفاً أشقر اللون، بالإضافة إلى استعدادهما لتتركه طويلاً. لم يكن شعرها طويلاً في الوقت الحاضر، لكنه يبقى قابلاً لاكتساب المزيد من الطول. اعتدت في السابق أن أصارحها بهذه الحقيقة، مع أنني كنت أجد صعوبة في بعض المرات في ذلك، لكن هذا اليوم لم يكن من بينها. قال ساير، وكان يطلق كلماته وسط نفثات دخان قصيرة: "إنك طويلة القامة. هل

أنت متزوجة؟"

- "أجل".

- "دعيني أعلم إذا ما ساءت أمور زواجك".

التفت ساير نحوي قائلاً: "أنا مولع بالشقراوات".

أردت أن تسير الأمور باتجاه رسمي، فقلت: "سيد ساير..."

- "كيف تجدين لغتي الإنكليزية؟"

- "ممتازة".

بدت إنكليزته جيدة، مع أنه كان يشدّد على مقاطع كلماته. أشار ساير بذقنه إلى ناحية الموقد، وقال: "إنني أواظب على القراءة بحماس بالغ".

أفشلت محاولتي البدء في تحقيق رسمي حين سألته: "ألا تزعجك مناظر النساء

العاريات الموجودة بين النصوص؟"

أحدث ساير صوتاً كالصغير، لكنني اعتبرته نوعاً من الضحك: "أنا متأكد من أن

تلك المرأة هجومية جداً".

- "إنها آني أوكلي بذاتها".

نهضت من مكانها، وأعطيته صفحاتي المطبوعة: "إنها سجلات تدلّ على أنك تملك ذلك المبنى".

رفع ساير الصفحات المطبوعة حتى أصبحت على بعد بوصات من وجهه، واستمرّ يقرأ لمدة تقارب الدقيقة. ثم قال وكأنه يتنفس كلماته: "نعم. إنها ملكي".

- "هل أصبحت ملكك منذ العام 1980؟"

ناولني الأوراق المطبوعة ثانية وقال: "إنها بمثابة عذاب خالص بالنسبة لي".

تناولت الأوراق المطبوعة منه وعدت إلى مقعدي، ثم سألته: "هل اشتريت هذا العقار من "نيكولو كاتانيو"؟"

- "أجل".

- "هل تعرف لماذا أقدم السيد كاتانيو على بيعه؟"

- "لم أسأل عن السبب لأن العقار كان معروضاً للبيع".

- "ألا يُعتبر هذا سؤالاً ضرورياً عند الإقدام على استثمار كبير؟"

- "هل يوجّه هذا السؤال حتى إلى نيكولو كاتانيو؟"

وجدت أن ساير محق في هذه النقطة.

- "أيمكنني أن أسألك عن وجهة استخدام الطابق الأرضي وقت شرائك المبنى؟"

لم يتردّد ساير في الإجابة: "استُخدم الطابق الأرضي ليكون مخبئاً اسمه لو

بولانجيرى لوغانو. أخلي المكان قبل أن يصبح ملكي".

- "كيف شُغل الطابق الأرضي بعد المخبئ؟"

- "قسّمته، فأصبح يضمّ أربع محلات في ذات المكان. وجدت أن هذا التدبير أقل

كلفة".

- "هل كان مطعم البييترا أحدها؟"

- "يدعى لو بييترا باراديز إكسبرس".

- "متى افتتح هذا المطعم؟"

نفث ساير الدخان من شفّتيه وأجاب: "إنه يعمل منذ العام 2001. أرى أنه من

الأنسب أن يسمى مطعم شعر الفئران والصراصير بالشرائح. لا تعرف هذه الأعراق

للعيّنة شيئاً اسمه النظافة الصحية، حتى لو رأوها أمامهم".

لفظ ساير كلمة أعراق بطريقة مشددة وتابع: "لكني لا أشتكى من ماتوب. إنه يدفع الإيجار في الوقت المحدد تماماً".

عرفتُ من كلوديل اسم المستأجر يوم إيجاد العظام: "هل سعيد ماتوب هو المستأجر الحالي".

أدخل ساير إصبعه في أذنه وبدأ بتحريكها بشرود. تابعتُ سؤالي: "هل تعرف أسماء المستأجرين قبل مجيء السيد ماتوب؟"

- "أستطيع تذكّر أسماء المستأجرين السابقين بالطبع. أتذكّرهم واحداً واحداً. هل أبدو لك رجلاً يحتاج للمساعدة في حياته؟"

يكون المرء توقعاته نتيجة الأفكار المسبقة الشائعة، وأعتبر نفسي مذنبه بالرغم من أنني أكره الاعتراف بهذا الواقع. افترضت أن ذاكرة ساير ليست سريعة بسبب تقدمه في السن، لكنني بدأت بتغيير نظرتي هذه بسرعة، لأن هذا الرجل العجوز لا يمكن اعتباره سخرياً لأحد.

- "لا، سيدي..."

- "مرّ معي مستأجرون أكثر عدداً من الشعر الذي تحمله تلك الشقراء في رأسها الجميل".

ألقي ساير نظرة سريعة على آن، فأحنت آن رأسها الجميل، واسترخت في جلستها.

أكمل ساير: "كان المكان صالون عناية بالأظافر قبل أن يصبح مطعم بيتزا. صاحب هذا الصالون كان رجلاً فيببتمياً يدعى تروانغ. وظّف هذا الرجل نصف دزينة من الصبايا الصغيرات السن لطلاء الأظافر في هذا الصالون. أعتقد أنه لم ينجح كثيراً في عمله، لأنه لم يستمرّ فيه أكثر من سنة أو سنتين".

- "ومن استأجره قبل ذلك؟"

- "أحببت الشابات اللواتي كن يقمن بطلاء الأظافر لشبههن بالألعاب الصينية الصغيرة. اعتدن تغطية أسنانهن عندما يضحكن".

- "وماذا كان المكان قبل أن يصبح صالوناً لطلاء الأظافر؟"

- "كان المكان مكتب رهن قبل أن يصبح صالوناً لطلاء الأظافر. يدعى مالكة مينارد".

مدّ ساير إصبعاً ظهرت العقَد فيها: "ستيفاني، أو سيبستيان، أو سيلفيان، أو شيئاً

يشبه هذه الأسماء. اعتاد الرجل شراء وبيع الخردة. أعتقد أنه كان ناجحاً في عمله هذا لأنه استمرّ فيه تسع سنوات، أي منذ العام تسعة وثمانين، إلى العام ثمانية وتسعين".
أجريت بعض الحسابات في ذهني وسألته: "وهل بقي المكان خالياً لمدة من الزمن بعد إقفال مكتب الرهن وفتح الصالون؟"

- "بقي خالياً لعدة أشهر فقط".

- "وماذا كان المكان قبل مكتب الرهن؟"

- "دعيني أتذكّر. استخدم المكان ما بين عامي ثمانين وتسعة وثمانين، متجر حقائب، وملحمة، وشيئاً يشبه وكالة سفريات. يتعين عليّ العودة إلى سجلاتي لأزودك بالتواريخ والأسماء".

- "افعل ذلك من فضلك يا سيدي".

تضيقت عيننا ساير من وراء نظارتيه الوسختين: "هل تسمحين أن أسألك لماذا تطرحين كل هذه الأسئلة أيتها السيدة الأنيقة؟"

توقّعت أن يطرح ساير هذا السؤال، ودُهشت لأنه لم يطرحه في وقت أبكر من هذا. ماذا يمكنني أن أقول له؟ وما هي الأشياء التي يجب أن أخفيها عنه؟

- "وجدت أشياء في قبو المبنى الذي تملكه. ويجري الآن تحقيق فيها".

إن كنت قد توقّعت ردة فعل، فإنني لم أحظ بشيء منها، ولم يسألني الرجل عن الجهة التي تقوم بالتحقيق.

تابعت حديثي: "هل لي أن أسألك عن مدخل قبو مطعم البيتر؟"

- "هناك درج كان يؤدي في السابق إلى باب على مستوى الرصيف، لكن معالم ذلك المدخل ضاعت نتيجة عمليات التجديد".

- "هل يمكن الوصول إلى هذا القبو من مكان آخر في المبنى؟"

هزّ ساير رأسه: "لم يُستخدم القبو منذ سنين عديدة. يبقى المدخل الوحيد للوصول

إليه هو باب مخفيّ موجود في الكرابر".

التفت الرجل نحو آن وقال لها: "اغفري لي لساني غير المهذب".

- "إنه مرجع تاريخي مرموق".

- "من؟"

- "أتحدّث عن توماس كرابر".

تبادلت نظرات الاستغراب مع ساير.

- "إنه مخترع مانع تسرب الماء الصامت، والذي يخلو من الصمامات".
مرت فترة صمت.

- "حصل شخص آخر على براءة الاختراع، لكن كراير يبقى مخترع
المرحاض".

كيف حصلت أن على هذه المعلومة؟ أطلق ساير ضحكة بدت لي كأنها من بنات
أفكار كراير.

- "هل تقدمين على تضحية من أجلي. دعي زوجك يخسر امتيازاته معك إذا
شعرت أنك مهانة، أتصلي بريتشارد ساير العجوز".

- "تشبه صلاحيتك وضع مؤشر السرعة في سيارتي".

نهض ساير بعد أن تلقت قدماه مساعدة من يديه الائتنتين، ثم قال: "يستغرقني
الأمر عدة دقائق كي أبحث بين ملفاتي. أتريدان بعض الشراب؟"
رفضت مع أن عرضه مجدداً.

ظهر ساير بعد نصف ساعة لينتزع ورقة من دفتره ذي الشريط اللولبي،
فنهضت واقفةً، وكذلك فعلت آن.

- "ما رأي السيدتين بالبقاء لتناول الغداء؟ أستطيع أن أطلب طعاماً إلى منزلي،
ولعلنا نستطيع أن نأكل بعض الأبخيلادا والمارغريتا".

قلت له: "هذا لطف كبير منك، لكنني أعمل في الوقت الحاضر، ولست في زيارة
اجتماعية".

- "أصبحتما تعرفان منزلي".

ارتديت سترتي بينما قادنا ساير إلى البهو. أعطيته بطاقتي عندما وصلت إلى
الباب، وقلت: "لا تتردد بالاتصال بي إذا خطر على بالك أمر ما".

ناولني ساير ورقته: "حسب ما أذكر فإن هؤلاء حملوا لي من الأذى مثلما حملة
حساء الفطر".

- "شكراً لك سيد ساير".

قال الرجل بصوت خافت يخلو من المرح: "قتل شخص ما، لكن لا علاقة لي
بذلك".

لم يذكر ساير شيئاً عن لو جورنال، ولهذا افترضت أنه لم يقرأ المقالة: "ما الذي
يدعوك للاعتقاد أن شخصاً قُتل؟"

- "أخبرني ذلك التحري عن الأشياء التي وُجدت في ذلك القبو".
أتضح لي أن كلوديل قد أجرى مقابلة مع ساير، وها هو يبعدني الآن عن دائرة
التحقيق مجدداً، سحقاً له!

- "هل ما تقوله صحيح؟"

- "إنه سافل، مغرور، وحقير".

- "أنتكلم عن التحري كلوديل؟"

- "تصرف ذلك السافل وكأنني لا أتمتع بالذكاء، لكنني لم أقل له شيئاً".

- "أخبرني، سيد ساير، ما الذي حصل بحسب اعتقادك، كي يُدفن ثلاثة أشخاص

في قبوك؟"

- "لا بد أن شراً ما قد حدث هناك قبل أن أملك المكان".

- "كيف يمكنك أن تكون متأكداً إلى هذه الدرجة؟"

انطلق صوت الرجل العجوز بصوت حاد: "هل التقيت نيكولو كاتانيو ذات يوم؟"

هزرت رأسي بالنفي.

- "إذا انتبهي على حياتك".

الفصل 15

كشّرت العاصفة عن أنيابها، وشمّرت عن ساعديها، ومضت بعبثها، وها هي النتيجة تبدو في تراكم الثلوج على ارتفاع قدمين. لم تتلفظ أن بأية كلمة ونحن في طريقنا إلى السيارة، وراقبتني أثناء اتصالي ببريدي الصوتي من دون أن تتدخل. لم تصل أية رسائل.

حاولت أن أطلب رقم السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت. لكن لا جواب. اتّصلت لأتحقق من انتهاء تتبع مكالمتها الهاتفية للمختبر يوم الأربعاء، ومن ربط الرقم الذي أعطته يوم الخميس باسم، أو بعنوان ما، فوجدت أنهم ما زالوا يعملون على ذلك.

- "اللعنة!" لماذا لا يعطونني الاسم الموجود في الدليل الذي يقابل الرقم الذي أعطيتهم إياه؟ إنهم يستطيعون مقارنة هذا الاسم مع الاسم الذي يجدره عند انتهاء تتبعهم للمخبرة. هل يتقصّدون رفض كل الطلبات المقدمة من الذين يعملون في مجال التحري؟

رميت هاتفني الخلوي في حقيبتني، وتناولت مكشطة من المقعد الخلفي للسيارة ثم خرجت ونظّفت زجاج النوافذ، ثم رجعت إلى مكاني وراء عجلة القيادة، وأغلقت الباب بقوة.

شغلت محرك السيارة، وبدأت بتحريكها إلى الأمام وإلى الخلف. انطلقت بالسيارة بسرعة فور توفر الاحتكاك اللازم للعجلات مع الطريق واستطعت المناورة لتجنّب الحاجز الحجري لجانب الطريق. تمسكت بعجلة القيادة بكل قوتي، وسرت بالسيارة ببطء شديد إلى الأمام. بذلت كل جهد ممكن كي أرى الطريق من خلال غطاء من الثلج الأبيض. لم تخرق أن الصمت إلا بعد أن اجتزنا تقاطع شارعين.

- "تستطيع البحث في الجرائد القديمة كي تنتقي الأخبار المتعلقة بالفتيات المفقودات".

- "بالإنكليزية أو بالفرنسية؟"

- "ألا تكتب الصحف هذه الأخبار باللغتين؟"

تركز انتباهي الآن على البقاء على مسارات السيارات التي سبقتني وأنا أجيبها:
"ليس بالضرورة. لكن هناك عدة صحف ناطقة بالفرنسية هذه الأيام، ولا شك أنها
كتبت عن عدد لا يحصى من هذه الأخبار على مدى السنوات".

انزلت السيارة إلى ناحية اليسار. تمسكت بعجلة القيادة فاستقام اتجاه السيارة.

- "تستطيع البدء بالجراند الإنكليزية".

- "لكن ما هي الفترة التي سيشملها بحثنا؟ إن تاريخ المبنى يرجع إلى بداية
القرن الماضي".

تفوق الثلج على سرعة المساحات، فاضطرت إلى أن أضع الجهاز المقاوم
للتجمد في سرعته القصوى.

- "أظهر اختبار الأشعة فوق البنفسجية احتمال أن يعود تاريخ العظام إلى وقت
لا يتعدى تاريخ المبنى. لا أستطيع تقصير الفترة أكثر من ذلك".

- "حسناً، لن نبحث في أرشيفات الجرائد".

- "سيسغرق البحث طيلة فصل الشتاء إذا لم نحدّد اللغة أو الإطار الزمني.
أعرف أنه تمّ العثور على الفتيات هنا، لكن ذلك لا يعني أن عملية الاختفاء قد حدثت
هنا".

اجتزنا نحو تقاطع آخر، وسألت أن: "ماذا بشأن ذلك الزر؟"

أجبتها بحدة أثناء انشغالي بحركة العجلات الخلفية: "ماذا بشأن ذلك الزر؟"

فكّنت أن وشاحها واسترخت بطريقة أوحى لي أنها ستتجاهلني للوقت الحاضر.

لعبت دور كلوديل مع شخصية تمب التي تمثّلها آن بجانيبي: "أسفة".

طالت فترة الصمت، واتّضح أن كسر هذا الصمت يعود لي.

- "أعتذر. إن القيادة وسط العواصف الثلجية تجعلني متوترة. ما هي فكرتك عن

الزر؟"

سكتت آن للحظات إضافية، وكأنها تلومني على عدم فهمي لها، لكنها أعادت
توضيح اقتراحها: "لعلك تستطيعين التحدث إلى خبير آخر. حاولي الحصول على
المزيد من المعلومات".

ضغطت عدة مرات على المكابح كي أوقف السيارة، بعد أن شاهدت امرأة

متقدمة في السن وهي تمشي مع كلب مسنّ. لاحظت أنهما ينتعلان أحذية عالية، وأنهما ينحنيان أمام الثلج. تطلّعت نحو آن. يُحتمل أن أتمكّن من جمع المزيد من المعلومات. ضغطت على دواسة الوقود ببطء، فتقدّمت بالسيارة نحو التقاطع، وانعطفت يساراً.

يا إلهي! بالطبع أستطيع جمع المزيد من المعلومات. رحت أتساءل عن سبب تجاهلي للأزرار، وتقبّلي لوجهة نظر كلوديل بالنسبة لعمرها. ألا يُحتمل أن يكون مرجعه في متحف ماكورد مجرد مبتدئ. اجتاحني فجأة دافع للحصول على رأي آخر.

- "يا لك من عبقرية يا أني".

- "إذا انطلقني".

انتظرت أن في السيارة، أما أنا فانطلقت نحو المختبر. وأجريت مكالمة سريعة، ثم تناولت الأزرار. لدى عودتي وجدت أن تصغي إلى أغنية لزاكاري ريتشارد، كانت تذاق من محطة فرنسية محلية.

- "ما هو موضوع الأغنية؟"

- "امرأة ما تدعى مارجولان".

- "أظن أنه مشتاق إليها".

- "هذا ما يقوله".

- "هل هو فنان محلي؟"

- "إنه من كاجون، لويزيانا، ذلك الجزء من العالم الذي تنتمين إليه".

استرخت آن في مقعدها وأغمضت عينيها: "يستطيع هذا الفتى أن يؤلف أغنية عني ويغنيها في أي يوم يشاء".

استغرقتنا العودة إلى المركز القديم ضعف المدة المعتادة. أشارت عقارب الساعة إلى ما بعد الخامسة بقليل، لكن الليل أرخى سدوله، فأضيت مصابيح الشوارع، وبدأت المحلات بالإقفال، وأسرع المشاة بالعودة إلى منازلهم وقد أحنوا رؤوسهم، وضغطوا بصدورهم على حقائبهم وأكياسهم.

غادرنا بولفارد رينيه لافسكيو، ودخلنا شارع بيرري متجهين إلى نهايته الجنوبية، ثم انعطفنا غرباً وسرنا ببطء في شارع لا كوميون. تقاطعت على التلة إلى يميننا الطرقات الضيقة التي تميّز فيا مونتريال. وشاهدنا إلى يسارنا مارشيه بونسيكورس، وباقيون جاك كارتيه، ومركز العلوم في مونتريال، وبدا نهر سان لورانس بصفحة مياهه الملتعمة باللون الأسود، كأنه قطعة جليد من الأبنوس. قالت آن: "إنه جميل،

ويبدو كأنه توندرا قطبية بطريقة ما".

- "أتعنين بلاد الرنة المشرقة؟"

تزدحم أرصفة ميناء هذا النهر بالسفن طويلة الأشهر التي لا يتكوّن الجليد فيها، وتراها حينها تزيّن جوانب النهر. وترى راكبي الدراجات، والمتزلّقين، والمنتزهين، والسياح، يملأون المنتزهات والساحات المجاورة. بدت ضفة النهر ساكنة ومظلمة هذا المساء.

وصلت إلى دو يوفيل، فانعطفت نحو شارع جانبي صغير، وركنت السيارة مقابل مبنى الجمارك القديم. تبعنتي أن في وقت كنت أجهد بالنّقد نحو أسفل التلة، ومضت مترنحة وهي تتبع المسار الذي اتبعته.

تطلّعت عبر النهر، ولفنتني الحدود غير الواضحة لمبنى هابيتات 67. شيّد هذا المبنى ليكون مركز المعرض العالمي، ويشكّل هذا المجمع كتلة من المكعبات الهندسية التي تتحدّى فن التوازن الدقيق. تشكّل باحات وطرق الهابيتات متعةً في فصل الصيف، لكنها دعوة إلى التجمّد في فصل الشتاء.

يعيش أندرو رايان في الهابيتات. دارت في ذهني مجموعة لا حد لها من الأسئلة التي أثّرت على تركيزي. أين رايان؟ ما هي مشاعره؟ وما هي مشاعري؟ ماذا قصد بكلمته عندما قال إنه يتوجّب علينا التحدث؟ حسناً! أنا موافقة. عن أي شيء علينا أن نتحدّث؟ أعن الارتباط أم عن التنازلات أم عن النهاية؟

دفعت كل هذه الأسئلة جانباً، لأن رايان يعمل على مهمة بوليسية، ومن المؤكد أنه لا يفكر الآن بأي شيء يتعلّق بي.

وصلنا إلى شارع لا كوميون، ودخلنا بناية مشيّد بالحجر الرمادي ذات تصميم حديث جداً، وتتميّز بزواياها الكثيرة. لاحظت اللافتة الكبيرة التي تغطي برجاً من أبراج هذه البناية. جاء في اللافتة: "هنا ولدت مونتريال".

نفضت أن الثلج من ملابسها فتنطّير على بلاطات الأرض الخضراء، وسألت: "ما هذا المكان؟"

- "إنه بوينت كاليري، وهو متحف مونتريال للآثار والتاريخ".

شاهدت وجه رجل يرتفع عن طاولة دائرية موجودة في نهاية الردهة. لاحظت أن هذا الوجه متجهّم وشاحب، كما أن ذقنه يحتاج إلى حلاقة. ارتدى الرجل معطفاً من مخزونات الجيش. وما لبث أن هبّ واقفاً وأشار إلى لافتة: "أسف، المتحف مقفل".

- "لديّ موعد مع الدكتورة موسو".

بدأت الدهشة على وجه الرجل: "اعطني الاسم من فضلك".

- "تمب برينان".

طلب الرجل رقماً، وتفوه بعدة كلمات، ثم أعاد سماعه الهاتف إلى مكانها.

- "الدكتورة موسو موجودة في القبو. هل تعرفين الطريق؟"

- "نعم، شكراً لك".

عبرنا السردية وتقدّمت أن أثناء عبورنا لمدرج صغير، ثم نزلنا بضع درجات حديدية. دخلنا إلى قاعة طويلة وضيقة، مزودة بأضواء غير قوية، ولاحظت أن جدران القاعة وأرضيتها مبنية بالأحجار بكاملها.

قالت آن: "أشعر كأنني أليس وهي تطارد صانع القبعات في النفق".

- "شهد هذا الموقع بالذات بناء أول مستوطنة في مونتريال. يُظهر المعرض

كيفية تطور المدينة وتغيّرها عبر القرون الثلاثة الماضية".

ضربت آن بقفازيها على جدار بارز من الأرض: "أتعنين أن هذه هي الأساسات

الأصلية؟"

أشّرت لها صوب النهاية البعيدة للقاعة: "لا، لكن الجدار قديم. يقع هذا الممر تحت شارع دو يوفيل حيث ركنتُ السيارة. إن ما ترينه شارعاً الآن كان مجمّعاً للمياه المبتدلة، وقبل ذلك كان نهراً".

تردد صوت في الفراغ عكسته الأحجار والجدران الإسمنتية: "تمب؟ هل أنت

تمب؟"

- "نعم، أنا هي".

- "من هنا".

همست آن: "من هي موسو هذه؟"

- "إنها عالمة آثار متفرغة".

- "أراهن أن هذه المرأة تمتلك أزراراً".

- "إنها تمتلك أزراراً كثيرة".

انشغلت مونيكا موسو بالعمل في إحدى الخزائن الزجاجية الكثيرة المنتشرة على جانبي الممر، والتي تتفرّع عن القاعة الرئيسية. لاحظت وجود عربة معدنية صغيرة إلى جانبها تحتوي على آلة تصوير، وعدسة مكبرة، وجهاز كمبيوتر محمول، وملفاً للأوراق، بالإضافة إلى عدة كتب.

أسرعت موسو، فور رؤيتها لنا، بإعادة شيء ما إلى الرف، ثم أغلقت الخزانة وأقفلتها، وأنزلت نظارتَيْها اللتين تشبهان نظارتِي هاري بوتر، إلى صدرها، وأسرعت لتلاقينا.

- "صباح الخير تمب. كيف حالك؟"

قَبَلت موسو خَدَيّ، ثم تراجعت إلى الورااء وابتسمت لي، وأبقت يديها على أعلى ذراعِيّ.

- "هل أنت بخير يا صديقتي؟"

أجبتها بالإنكليزية قبل أن أعرفها على أن: "أنا بخير".
هزّت موسو ذراع أن بشدة: "أنا سعيدة جداً لأنني التقيتك".

تراجعت أن إلى الخلف، وقد ذهلت للعاصفة التي اجتاحت يدها: "وأنا كذلك".
بدت المرأتان كأنهما من جنسين مختلفين. تميّز أن بطولها وبشعرها الأشقر، بينما لا يتعدى طول موسو الأربعة أقدام وإحدى عشرة بوصة، وهي ذات شعرٍ أسود ومتجدد. التفت أن بوشاح من وبر الأرناب زهري اللون، بينما لبست عالمة الآثار قميصاً صبيانياً ضيقاً كاكّي اللون، وسروال جينز أسود اللون، وانتعلت حذاءً كالذي يستخدمه الخطابون. لاحظت أن مجموعة كبيرة من المفاتيح تتدلى من إحدى عُرى حزامها.

قلت لها: "أشكرك على موافقتك على مقابلتي في يوم الجمعة المثلج هذا".

تركت موسو أن والتفتت نحوي، ثم وثبت مثل شخص أتعبته سرعة عدوه: "وهل يتساقط الثلج الآن؟"

التقيت مونيكا موسو قبل عقدٍ من الزمان، وكان ذلك بعد وقت قليل من حضوري الأول إلى مونتريال. عملت مع هذه المرأة على مدى سنين عديدة، فهمتُ خلالها أن طاقتها لم تأت من دافع لا شعوري. إن حماسة هذه المرأة تأتي من محبتها للحياة ومن شعور عميق بالواجب. إذا أعطيت هذه المرأة مالجاً فستكون على استعداد كي تحفر نيو إنجلند بكاملها. قلت لها: "يتساقط الثلج بكثافة".

- "يا للروعة! بقيت تحت الأرض طويلاً هذا اليوم بحيث أنني فقدت اتصالي مع العالم الخارجي. وكيف يبدو المنظر في الخارج؟"

- "إنه شديد البياض".

دوّت ضحكة موسو بحجم يفوق حجمها: "إذا أخبريني. ماذا بشأن الأزرار".

وصفت لها الهياكل العظمية، والقبو الذي اكتشفت فيه. تكلمت وقد بدت حريصة على وضع علامة تعجب أمام كل لفظة: "رائع! دعينا نلقي نظرة".

مددت يدي إلى حقيبتني وتناولت كيس زيبوك. رفعت موسو نظارتيها اللتين تشبهان تلك الخاصة بهاري بوتر، وتفحصت الأزرار، ثم راحت تقلب الكيس الصغير بين يديها. مرت دقيقة كاملة.. ومرت دقيقة أخرى.

تبادلت مع آن نظرات ذات مغزى، ثم رفعت موسو عدسات دائرية نحوي.

- "هل أستطيع أن أخرجها من الكيس؟"

- "بالطبع".

فتحت موسو زمام الكيس، وحركت الأزرار حتى أصبحت فوق راحة يدها. مشت صوب العربة وهناك تفحصت كل زر بمساعدة العدسة المكبرة. دحرجت الأزرار مستخدمة طرف إصبعها، دقت بها قليلاً، ثم وضعتها، وتفحصتها مرة أخرى. لاحظت أن تعابير وجهها تزداد عمقاً مع كل حركة وخطوة تقوم بها.

تبادلت مع آن نظرة أخرى. بدا لي أن الفحص الذي تقوم به موسو سيستمر إلى

الأبد. سمعت موسو تقول فجأة: "هل تعذرانني دقيقة واحدة؟"

أومأت برأسي، وسرعان ما انطلقت موسو مسرعةً بعد أن تركت زرّين من

الأزرار الثلاثة فوق عربتها.

خيم صمت مخيف فوقنا، أما في الخارج فاستطعنا سماع صوت بوق منقطع.

أشعرني الانتظار بتوتر شديد. لماذا كل هذا الاضطراب؟ ما هو الشيء الذي لاحظته موسو يا ترى؟

عادت عالمة الآثار بعد فترةٍ حسبتها دهرًا، ثم تناولت الزرّين اللذين تركتهما

على العربة لتعاود تفحصهما من جديد. رفعت رأسها أخيراً، وظهرت عيناها بحجم

كبير وراء نظارتيها.

- "هل فحصت انطوانيت ليجو هذه الأزرار؟"

- "أحضر أحد رجال التحري هذه الأزرار إليها لتفحصها في متحف ماكورد".

- "هل شعرت ليجو أن هذه الأزرار تعود إلى القرن التاسع عشر؟"

- "أجل".

- "إنها محقة".

شعرتُ بهبوط شديد في قلبي. مشت موسو نحوي، ورفعت راحتها، ثم حركت

زرّين من الأزرار بطرف قلمها.

- "هذان الزرّان هما إسترلينيان فضيان، وقد أنتجتهما صانغ مجوهرات وساعاتي يدعى ر. ل. كريستي".

- "أين؟"

- "في أدنبرة، اسكتلندا".

- "متى؟"

- "في وقت ما بين عامي 1890 و1900".

- "هل أنت متأكدة؟"

- "كنت متأكدة عندما تعرّفت على إنتاج كريستي، لكنني تفحصتها مجدداً كي أزداد تأكداً".

أومات برأسي، وشعرت بتوتر منعني من أن أعلق بشيء.

قلّبت موسو الزر الثالث بقلمها وقالت: "لكن هذا الزر مجرد تقليد، وتقليد سيئ بالفعل".

حدقت فيها بشرود، فناولتني موسو العدسة، وأشارت إلى أحد زرّي كريستي، ثم تحرك قلمها باتجاه الزر المزيف: "قارني هذا الزر، مع هذا".

ظهرت ملامح وجه المرأة المرسومة على زر كريستي بكل وضوح. ظهرت العينان، والأنف، ولفائف الشعر، وبالمقابل ظهرت ملامح هذه المرأة على الزر المزيف بشكل غير محدد المعالم.

قلّبت موسو الزرّين: "لاحظي الأحرف الأولى المحفورة إلى جانب كل عين".

بدا الفرق واضحاً حتى بالنسبة للهواة. حفر كريستي أحرفه بحركات ناعمة ومتتابعة، بينما حفر حرف S على الزر المزيف بسلسلة من حركات الحفر المتقاطعة.

شعرت بالإرباك الشديد كاد أن يصل بي إلى حدّ المفاجأة. تبيّن لي في ما بعد أنها أقل إثارة من المفاجأة التي تنتظرني صباح يوم الاثنين.

الفصل 16

يحتلّ منزلي الطابق الأرضي من عمارة قليلة الارتفاع مؤلفة من أربعة طوابق. ويضمّ المنزل باحةً مركزية. إنه عبارة عن غرفتي نوم، وحمامين، وغرفتي معيشة وسفرة. يضمّ المنزل أيضاً مطبخاً صغير الحجم نسبياً، وبهواً. هناك أبواب فرنسية في قاعة طويلة تمتدّ ما بين المدخل الأمامي وغرفة السفرة، وهي تتواجد مقابل المطبخ تماماً، وتفتح على باحة صغيرة تحاذي الباحة المركزية. وتتواجد أبواب فرنسية أخرى من غرفة المعيشة، تؤدي إلى بقعة عشبية صغيرة. اعتدت أن أزرع في فصل الصيف بعض الأعشاب الطبية بمحاذاة العشب، أما في الشتاء فأكتفي بمراقبة تراكم الثلج على السياج الخشبي الأحمر اللون، وعلى أغصان الصنوبر الموجودة ضمنها. تبلغ مساحة حديقتي خمسة ياردات مربعة، وهي مساحة غير مألوفة في شقة تقع في وسط المدينة.

خيّمت تلك الليلة مشاعر الخطر والتهديد على تلك الباحة الداكنة الصغيرة. ولم يخفّ من شعوري هذا مرور سيارة الدورية التي أمر بها رايان بين حينٍ وآخر. ذكرني وجود تلك الرقعة التي وضعها على الباب بذلك الزائر غير المدعو، وبنقطة دخوله التي اختارها. ما هي الخيارات الأخرى التي امتلكها ذلك الرجل؟ أريد أن أعترف أن وجود أن في منزلي هو أمر يدعوني للارتياح.

تناولت مع آن وجبة طعام تايلاندية سريعة. نظّفت المكان بمساعدتها، وتنامت مشاعر الغضب في داخلي وأنا أقوم بكنس الغرف وتنظيفها.

غفوت مجدداً، لكن أفكارني لم تتوقّف عن التصارع. هل أقدم أحد المدمنين على انتهاك حرمة منزلي؟ يبدو لي هذا احتمالاً غير وارد. هل قام به شخص بحاجة ماسة إلى المال للخروج من مأزق وقع فيه، ثم أقدم على التخريب عندما لم يجد أموالاً؟ لا أعتقد أن أي مجرم قد يصل إلى هذا الحد من الاضطراب. لكن، ماذا لو كان الذي حصل هو مجرد عرض لتخويفي؟ هل كان ذلك الشخص مجرد أحرق تلقى أوامر لصرف انتباهي عن أسرار أشرار بقيت في الخفاء مدة طويلة، بهدف توجيه رسالة لي

مفادها إننا نعرف أين تعيشين؟ وهل أن ما حصل هو مجرد انتقام اجتماعي مجرم له علاقة بقضية تتعلق بي مباشرة؟ ما هو مغزى وجود الأزرار؟ لماذا لم يردّ كلوديل أو شاربونييو على اتصالاتي بهما؟

أين هو راين؟ ولماذا لم يتصل بي؟ هل أقدمت على شيء خاطئ؟ بالطبع فعلت. جالت آن على لا فوبورغ صباح السبت، أما أنا فتحدّثت مع الرجل الذي سيصلح لي زجاج منزلي. أحضر الرجل لوح الزجاج الجديد، وامتألت ثلاثي بالأطعمة، وأصبح المكان نظيفاً بشكل مقبول، وكل ذلك بحلول الظهر.

لم يساعدني لادوي بتفسير بعض الأشياء التي لا يمكنني تجاهلها، وذلك لأسباب لم أفهمها. تشمل هذه الأشياء الأدوية التي يصفها الأطباء، ومجلات ناشيونال جيوغرافيك، بالإضافة إلى الكتب العلمية التي تصدرها الأكاديمية الأميركية لعلوم الطب الشرعي، ودليل الهاتف. مهلاً، لا يستطيع المرء أن يتأكد.

انتهيت من تناول بعض شطائر البندورة والجبنة مع آن، فانصرفت إلى جمع كل دليل هاتف وجدته في البيت، ووضعتها كلها إلى جانب جهاز الكمبيوتر الذي أستخدمه. تناولت اللائحة التي أعطاني إياها ساير. احترت من أين أبدأ لتحديد أسماء المستأجرين. هل أبدأ بتسلسل رجعي، أم أبدأ من البداية؟

اخترت البدء مع أوائل المستأجرين في لائحة ساير. ظهر اسم متجر للحقائب ما بين عامي 1976 و1982 في نفس مكان مطعم البييتزا الذي يملكه ماتوب حالياً. امتاكت امرأة تدعى سيلفي فاسكو هذا المتجر. طلبت الرقم الوارد في لائحة ساير مقابل اسمها. ردّ على المكالمة طالب جامعي يعيش في حي فقير من المدينة يدعى ماك جيل. قال الطالب إن لا فكرة لديه عما أتحدّث عنه.

لم أجد في جهاز الكمبيوتر عندي، ولا في دليل الهاتف، اسم سيلفي، لكنني جمعت سبعة أسماء س. فاسكو منهما. وجدت أن رقماً واحداً منها هو في حالة انقطاع، ولم ألقَ أية إجابة من رقمين آخرين. أوصلني اتصالي الرابع إلى مكتب محام، أما الأرقام الثلاثة الأخيرة فكانت لنساء لم يكن من بينهن اسم سيلفي، ولم يعرفن امرأة من عائلة فاسكو تحمل اسم سيلفي أو سيلفيا. رسمت دائرة حول الرقمين اللذين لم يجيبا، ثم تابعت بحثي.

عرفت أن ملحمة تدعى ملحمة ليهام كانت تشغل المكان الذي شغله مطعم البييتزا، وذلك في الفترة الممتدة ما بين العام 1982، والعام 1987. كتب ساير اسم أبراهام كوهين ثم وضع إلى جانبه الحرفين س. ب.

وجدت في الصفحات البيضاء عشرات من أسماء كوهين في مونتريال وحولها.

تحتل هذه الأسماء أيضاً طرق تهجئة مختلفة، بما في ذلك كويين، كوهين، كوهن، وغيرها.

رائع!

وجدت في الصفحات الصفراء ملحمة تدعى ملحمة ليهام في هامبستيد، لكن لم يجبني أحد عندما طلبت رقم الملحمة. عدت إلى لائحة ساير. وجدت اسمي باتريك أوكلمان، وإيليا فاييان، من ضمن لائحة المستأجرين عند ساير، وذلك ابتداءً من العام 1987 إلى العام 1988. كتب ذلك الرجل العجوز كلمة سفر إلى جانب اسميهما. لم أجد اسم أوكلمان في أي دليل عندي. وجدت اسم إيليا فاييان مقابل عنوان في أمهيرست. رفع شخص السماعة بعد الدقة الأولى.

عرفت بنفسي وسألت ما إذا كنت أتكلم مع إيليا فاييان، وكان ذلك صحيحاً. سألت ما إذا كان الشخص الذي يتكلم معي هو نفسه إيليا فاييان الذي أدار وكالة سفريات في شارع القديسة كاترين، في أواخر سنوات الثمانينيات. أجابني رجل بصوت متعب: "نعم". سألته إن كان أوكلمان وشريكه استخدماً، أو زاراً، قبو ذلك المكان خلال فترة استئجارهما له. امتزج التعب الظاهر في صوت الرجل مع بعض الكراهية وهو يسألني: "هل قلت لي إنك تعملين مع القاضي الشرعي؟"

- "نعم، يا سيدي".

- "يا إلهي. هل مات أحد هناك؟ هل اكتشفت جثة في القبو؟"

احترت ماذا أقول للرجل.

- "إنني أحقق حول بعض العظام التي وجدت مدفونة تحت الأرض".

- "أوه، يا إلهي!"

- "قد تكون هذه العظام قديمة العهد جداً".

- "يا إلهي! يشبه الأمر ما حدث في فيلم المتطهر. لا، لا، ماذا كان اسم ذلك الفيلم عن الفتاة الصغيرة؟ أعني ذلك الفيلم الذي بُني فيه منزل فوق مقبرة؟ نعم، تذكرت. إنه الروح الشريرة".

- "سيد فاييان..."

- "لست متفاجئاً بالنسبة للقبو. ألقيت أنا وباتريك نظرة ذات مرة على ذلك المكان البائس الذي تقوح منه رائحة العفونة، المليء بمياه المجاريير الوسخة، ولم نطأ ذلك المكان ثانية. كان جلدي يقشع عندما أفكر بكل تلك المخلوقات الزاحفة والمتوالدة

المتواجدة تحت قدمي. زخر ذلك القبو بكل أنواع الحشرات والزواحف، والآن ها أنتِ تخبريني أنكم وجدتم جثتاً مدفونة هناك".

لاحظت أن فابيان شدّد كثيراً على مقاطع كلمتي الزاحفة والمتوالدة.

- "هل استخدمت ذلك القبو للتخزين؟"

أحسست أن الرجل يقشعر عندما أجابني: "العياذ بالله".

شعرت أن الرجل مفرط الحساسية ليكون منظم رحلات سياحية. سألته: "هل

كانت وكالة سفرياتك متخصصة بمنطقة معينة من العالم، يا سيد فابيان؟"

- "تظّمت برامج سياحية إلى أماكن مقدسة من العالم، وذلك بالاشتراك مع باتريك.

كانت تلك الحقبة سوقاً رائجة للرحلات الدينية. أغلقنا الوكالة بعد ثمانية عشر شهراً".

- "أتعني باتريك أوكلمان؟"

- "أجل".

- "أين هو السيد أوكلمان الآن؟"

- "متوفى".

انتظرت فابيان ليعطيني بعض التفاصيل الإضافية، لكنه لم يفعل.

- "هل لي أن أسأل كيف ومتى توفي شريكك؟"

- "توفي تحت عجلات حافلة، وصودف أنها كانت حافلة سياحية".

سمعت شيئاً يشبه الأنين قبل أن يتابع الرجل: "حدث ذلك في ستوي، فيرمونت،

منذ أربع سنوات. سحقّت العجلات رأسه مثل ثمرة ناضجة..."

- "شكراً لك سيد فابيان. سأتصل بك إذا احتجت إلى معلومات إضافية".

قطعت الاتصال. استبعدت أن يكون فابيان وأوكلمان مرشحين محتملين ليكونا

قاتلين دائمين، لكنني وضعت خطأ تحت الرقم، وكتبت عدة ملاحظات.

وجدت أن الاسم التالي هو س. مينارد. دون ساير كلمة مكتب رهنيات إلى

جانب ذلك الاسم، كما دون: من العام 1989 حتى العام 1998".

وجدت أربع صفحات تحمل أسماء مينارد في دليل مونتريال الهاتفي، وكان من

بين هؤلاء ثمانية وسبعون اسماً حملوا اختصار الاسم الأول س.

بعدما أنجزت اثنين وأربعين اتصالاً قرّرت أن هذه المهمة تعود لرجل تحريات،

وهكذا انتقلت إلى الاسم التالي. شغل فان لوك تروانغ صالون عناية بالأظافر بين

عامي 1998 و1999.

لم يكن البحث عن هذا الاسم متعباً كما كان الحال مع مينارد، لكن ورد 227 اسمَ تروانغ في الصفحات البيضاء وحدها. لم أجد من بينها اسم فان لوك، بينما ظهر أمامي اسمان يبدآن بحرف ف.

لم يكن فان لوك من بين هذين الاسمين الأخيرين. ولم يعرف أحدهما شخصاً يدعى فان لوك سبق له أن أدار صالون عناية بالأظافر.

بدأت العمل على بقية الأسماء في لائحة أسماء تروانغ. تكلم الكثيرون من الذين اتصلت بهم القليل من الإنكليزية، أو الفرنسية. وجدت أن الكثيرين منهم كانت لهم علاقة بصالونات العناية بالأظافر، لكنهم لم يسمعوا عن صالون يقع في المبنى الذي يملكه ساير. أوشكتُ على الاتصال بتروانغ رقم تسعة وعشرين عندما قاطعني صوت شخص: "هل وجدت شيئاً؟"

وقفت آن عند الباب، ولاحظت أن الظلام خيم على الغرفة من دون أن أنتبه.

- "وجدت الكثيرات من سيدات على أتم الاستعداد للعناية بأظافري".

شعرت بالإحباط، فأسرعتُ إلى إطفاء جهاز الكمبيوتر.

تشاركت مع آن في تحضير شرائح اللحم المقوية، والبطاطا، بالإضافة إلى الهليون. حدثتها عن فترة بعد الظهر التي بقيت من دون نتيجة. شاهدنا بعد الغداء فيلمين عن المفتش كلوزو، لكننا لم نضحك كثيراً. أوينا إلى الفراش في وقت مبكر من تلك الليلة. حاولت الاتصال بملحمة ليهام عند ظهر يوم الأحد، ولم أحصل على نتيجة. أفلحت في الاتصال عند الثانية من بعد الظهر. أجابني صوت يشبه زمماراً بنغمة واحدة: "مرحباً".

عزقت بنفسي. قال الرجل إنه يدعى هاري كوهين.

- "هل هي ملحمة ليهام ذاتها التي كانت تقع في شارع القديسة كاترين خلال سنوات الثمانينيات؟"

- "أجل. إنها هي. امتلكها والدي في ذلك الوقت".

- "واسمه أبراهام؟"

- "أجل. غادرنا المكان في العام سبعة وثمانين".

هل لي أن أسأل عن السبب؟

- "إننا نمونّ زبائن يتبعون نظاماً غذائياً محددًا، ووجدنا أن هذا الحي هو أنسب لعملنا".

- "أعلم أن سؤالي التالي سيبدو غريباً، سيد كوهين، لكن هل تعلم شيئاً عن قبو

موجود في ذلك المبنى؟"

- "تواجد مدخل القبو في ملحمتنا. لم نخزن أي شيء هناك، ولا أتذكر أن أحداً قد دخل ذلك القبو، أو خرج منه".

- "هل كان من الممكن أن يستخدم مستأجرون آخرون ذلك القبو للتخزين؟"

- "لم نكن لنسمح لأي شخص استخدام متجرنا. إن مدخل القبو الوحيد كان من خلال الحمام. أبقى والدي ذلك الباب موصداً بالأقفال طيلة الوقت".

- "هل تعرف سبب قيامه بذلك؟"

- "أعرف أن والدي حريص جداً في أمور الأمن".

- "ولماذا هو كذلك؟"

- "ولد أبي في أوكرانيا في العام 1927".

- "بالطبع".

شعرت بالارتباك، وتحيرت بما يجدر بي أن أطرحه من أسئلة.

- "هل تعرف أسماء المستأجرين الذين سبقوك، أو الذين أتوا من بعدك؟"

- "لا".

- "بقيت في ذلك المكان لمدة ست سنوات تقريباً. هل فعلت أي شيء على وجه

التحديد دفعك للمغادرة؟"

أحسست ببعض التردد بصوت كوهين حين قال: "أصبح ذلك الحي... غير

مريح".

- "من أية ناحية تقصد؟"

- "دكتورة برينان، إننا ننتمي إلى الشباب - لوبافيتش الذين هم غاية في التشدد.

لا يفهمنا الناس دائماً، حتى في مونتريال".

شكرت كوهين، ثم قطعت الاتصال.

توجد شجرة بيسية من الفصيلة الصنوبرية في حوض حجري إلى جانب الباحة

المركزية. اعتاد الوكيل الذي يعتني بالمكان أن يزين هذه الشجرة بالأضواء عندما

يحل شهر كانون الأول. ليس هناك من حل وسط عند هذا الوكيل وينستون، وهو لا

يرضى أن تبقى الشجرة بيضاء فإما أنيقة كاملة، أو لا شيء بالمرّة.

يستمتع هرّي بالمكان كثيراً. يمضي بيردي ساعات من وقته وهو ملتفّ حول

نفسه قرب المدفأة، ينقلّ بصره ما بين أسنة اللهب وبين معجزة وينستون وسط

الثلوج. أمضيت وقتي برفقة آن في حالة استرخاء طويلة فترة ما بعد الظهر يوم الأحد
ذاك، تماماً كما يفعل بيردي. أمضينا فترات طويلة قرب المدفأة، وأسندنا رأسينا على
وسادتين، معرّضين كواحلنا للدفء المنبعث من المدفأة. تدمّرت من كلوديل ورايان
أثناء تناولنا لأعداد لا حصر لها من أكواب القهوة والشاي. اشتكت آن من طوم
بدورها. ضحكنا طويلاً من حالة الحرمان التي نعاني منها.

ساعتتي الساعات التي أمضيتها بالتحدّث مع آن، وكذلك سيل الكلمات التي
تفوّهت بها، على فهم مدى عمق التعاسة التي تشعر بها آن. أيقنت أن مزاحها
وجولات تسوقها ما هي إلا محاولة منها للتظاهر أن كل شيء على ما يرام. تمنّيت أن
تسبرّج، وأن ترفع الكلفة من أجل أن تستمرّ بحياتها. هيا يا آن افعلي ذلك من أجل
عائلتك وأولادك. افعلي هذا من أجل خاطر تمب.

تعرف أن كيف تحافظ على هدوئها على الدوام. اكتشفت أن حزنها العميق مقلقٌ
للغاية. صلّيت وابتهلت كي لا يكون حزنها دائماً. فكّرت أثناء حديثنا بقول أشياء تشجّعها،
أو تريحها، أو تسليها على الأقل. بدا لي أن كل الأشياء التي قلتها لها مبتلة ومستهلكة.
اكتفيت في النهاية بإظهار دعمي لها، لكنني شعرت بخوف حقيقي على صديقتي.

تبادلت مع آن الحديث عن الذكريات التي جمعتها. تذكّرنا تلك الليلة التي سبحنا فيها
عاريّتين في البحيرة. وتذكّرنا الحفلة التي وقعت فيها على الأرض. تذكّرنا أيضاً تلك
السنزهة التي قمنا بها على الشاطئ والتي ضاع خلالها ستيورات لبعض الوقت، وكان في
الثانية من عمره حينها، واليوم الذي حضرت فيها الحفلة التي غنّت فيها كاتي وأنا ثملة.
تحدّثنا عن السنة التي ظهرت فيها ثملة في كل مناسبة، وأمام كل الناس.

تفحصنا أثناء محادثتنا هاتفينا الخليويين بحثاً عن رسائل محتملة. وصلت رسائل
كثيرة من طوم، لكن لم تصل رسالة واحدة من رايان.

أصرت السيدة غالانت، أو بالانت، أو تالنت على عدم الرد بالرغم من اتصالي
بها بين الحين والآخر. بدا لي أنها مصرة على عدم الاتصال بي مجدداً. تطرّقنا
بالحديث إلى أزرار كلوديل بين الفينة والأخرى. لم تقدّم لنا مونيكا موسو أي رأي
بخصوص عمر، أو مغزى، الزر المزيف. رسمت مع آن عدداً لا حصر له من
الاحتمالات المفترضة. لم يبد لنا أيًا منها افتراضاً منطقياً، ولم تقدّم لنا بيردي أية
معلومات تفيدنا بهذا الخصوص.

أقنعت آن مساء الأحد أن تردّ على مكالمة من طوم. تناولت آن بعدها الكثير من
الشراب، لكن بهدوء تام.

الفصل 17

تركتُ أن تغطّ في نومها، وغادرتُ المنزل متوجّهة إلى المختبر صبيحة يوم الاثنين، لكن بعد أن تركت لها رسالة أطلب منها أن تتصل بي حالما تستيقظ. لم أتوقع اتصالاً منها قبل حلول الظهر.

أحسست بعدم قدرتي على الرؤية فور مغادرتي للمراب. بدت السماء صافية، وقد أرسلت الشمس أشعتها الساطعة فوق الثلج الذي تراكم في عطلة نهاية الأسبوع. انتشر مرة أخرى أسطول المدينة من جرافات الثلج، فانفتحت كل الطرقات في وسط المدينة. بقيت الشوارع الجانبية إلى الشرق من وسط المدينة صالحة للمرور، بالرغم من وجود السيارات المدفونة بالثلج حتى أسطحها، والمركونة على جانبي الطرقات. بدت السيارات مثل أفراس متجمدة وسط أنهار من الحليب.

مررت بين الحين والآخر بأشخاص محبطين يريدون التوجه إلى أعمالهم، وقد انهمكوا بجرف الثلج برفوشهم، بينما بدت أنفاسهم المتقطعة أشبه بصوت عوادم سياراتهم التي غطى الثلج نصفها. وجدت أن الشوارع الفرعية المحيطة بالمختبر، ما تزال مستحيلة العبور، وهكذا ركنت سيارتي في مرآب عام يقع في تقاطع شارعي ويلفريد وديروم. عبرت باتجاه مدخل المبنى الخلفي، وشققت طريقي ما بين حواف الثلج، مررت حول جرافة ثلج صغيرة ما زالت أنوارها الكهربائية تلتصع في الجو البلوري.

ترددت أصدااء خطواتي بقوة، وسحقتُ حبيبات الثلج بقدمي. رأيت من بعيد شاحنات القطر وهي توقظ المقيمين بأصواتها القوية التي تكاد تخرق رؤوسهم. حنّتهم هذه الشاحنات القاطرة على النهوض من أسرّتهم، وعلى المسارعة إلى تحريك سياراتهم.

وجدت مفاجأة اليوم الأولى بانتظاري عندما بدأت أتحقّق من بريدي الصوتي. يُعتبر ميشال شاربونيو رجلاً ضخماً لا يتناقص حجمه مع مرور السنين. يمتلك الرجل رقبةً ثخينة، ووجهاً ممثلثاً، وشعراً مدبباً يضيء عليه منظر كرة تحيطها

الأسلاك الكهربائية. يتمتع شاربونييو بذوقٍ يميل نحو الألبسة المصنوعة من البولستر، والألبسة الرخيصة الثمن، وذلك على عكس كلوديل الذي يفضل ارتداء الملابس الحريرية والصوفية الفاخرة. ارتدى شاربونييو هذا اليوم قميصاً بلون برتقالي محروق، وبنطالاً أسود اللون، وربطة عنق بدت شديدة الزرکشة ذات ألوان متعددة. ارتدى الرجل ستره غير مناسبة ذات ألوان بنية داكنة، وخطوط متصالبة. جلس شاربونييو على كرسي، ثم نزع معطفه ووضع فوق حضنه. لاحظت وجود ندبة خفيفة على خده الأيسر، ولاحظ شاربونييو أنني أتفحصه.

- "كان عليك أن تري الرجل الآخر".

ابتسم ميشال، لكنني لم أبادله ابتسامته.

- "أسف لأنني لم أرد عليك. اشتركت مع كلوديل في عملية استدراج تجار

مخدرات، وتمت عملية القبض عليهم يوم الجمعة. أفترض أنك علمت بها".

استبعدت مع أن كل أنواع الجرائد خلال عطلة الأسبوع، وفضلنا مشاهدة أفلام

الفيديو والأفلام القديمة عبر قناة السينما: "لا. لم أستمع للأخبار".

- "استعدّ الفريق المكلف لهذه المهمة منذ أشهر عديدة".

تركته يمضي بحديثه، فتابع يقول: "أقدمت بعض المؤسسات الصيدلانية على

تهريب مادة الإبيديراين المقلدة. تستخدم هذه المادة في إنتاج الميتامفيتامين. خزنت هذه

المواد في كيبك وأنتاريو، وكانت تنقل بالشاحنات عبر كندا إلى جنوب خط العرض

ثمانية وأربعين".

انحنى شاربونييو إلى الأمام، ووضع مرفقيه على رجليه وسمح ليديه بالاسترخاء،

ثم أكمل قائلاً: "اعتاد هؤلاء الأغبياء تزويد تجار موجودين ما بين هاليفاكس

وهيوستن. استطعنا اعتقال ثلاثة وأربعين منهم ووضعناهم في السجن يوم الجمعة،

وألقينا القبض على أحد عشر غيرهم يوم السبت. وأتوقع أن يتمكّن الكثير من المحامين

الحصول على موكلين كثر لهم".

- "هل اشترك أندرو رايان في هذه العملية للبوليسية؟"

ابتسم شاربونييو وحرك رأسه قائلاً: "حتى لو كان الرجل من رجال تحري

كيبك، فهو يبقى أسطورة".

إن تبسيط الأمور بالقول بوجود بعض التنافس ما بين شرطة كيبك وبين شرطة

مونتريال، يشبه قولنا بوجود بعض القضايا العالقة ما بين الإنكليز والإيرلنديين.

تناولت قلماً وبدأت أرسم مربعات داخل مربعات: "وما هو السبب الذي يدعوك لهذا القول؟"

استرخى شاربونييو في مقعده، ورسم بيديه رقم 8 في الهواء: "كاد رايان يفقد حياته في صباح يوم السبت، ومع ذلك رأيت في تلك الليلة بارداً مثل قطعة ثلج، وشاهدته يغازل صبيةً لا تكاد تبلغ نصف عمره، وقد ظهر عليها القليل من الثياب والكثير من البشرة الناعمة. كم يبلغ عمر رايان، خمسة وأربعون؟ سبعة وأربعون؟ لكن تلك الحساء ما تزال طرية العود".

قسّمت مربعاً كنت أرسمه، ولم أكرث.

- "هذه الشابة الصغيرة متعلّقة به، وأنا أظن أن الرجل سيعطي الأمر استحقاقه". حافظت أنا ورايان على سرية علاقتنا، بل كنا أكثر من سرّيين. ولم يكن باستطاعة شاربونييو معرفة أننا على علاقة غرامية مع بعضنا. علّقت من دون اكتراث: "أهي متعلّقة به؟"

هزّ شاربونييو كتفيه: "رأيتهما معاً من قبل".

- "أحقاً؟"

تابع شاربونييو من دون أن يعرف مدى تأثير كلماته على مسامعي: "دعيني أتذكّر متى كان ذلك؟ هل كان ذلك في آب/أغسطس؟ نعم، في شهر آب. بدا الطقس أكثر حرارة من قارب موز".

انطلق إصبع سمين باتجاهي وهو يقول: "جنّت إلى هنا لأستوضح عن قضية، لكنك كنت بعيدة في الجنوب. كان عليّ أن أدلي بشهادتي، علماً أن التحقيق الأولي في هذه القضية قد جرى في أوائل آب/أغسطس. رأيت رايان مع ملكة الرقص هذه بعد مغادرتي لقاعة المحكمة. نعم، كان ذلك في الأسبوع الأول من آب".

عدت بالذاكرة إلى الأسبوع الأول من آب. غادر رايان إلى شارلوت بعد أن تلقى مكالمة هاتفية عاجلة. قيل له إن ابنة أخته تعاني من مشكلة، ثم رجع فجأة إلى كندا. رميت القلم من يدي، وأحنيت رأسي.

- "اتّصلت بك نهار الجمعة، يا سيد شاربونييو، لأنني اكتشفتُ معلومات مهمة تتعلّق بالهياكل التي وجدت في قبو مطعم البييتزا".

تراجع شاربونييو إلى الخلف ومدّ قدميه قائلاً: "إنني أصغي".

- "حصلت على رأي آخر في موضوع الأزرار التي وجدها سعيد ماتوب".

- نظر شاربونيو نحوي بشرود، وسألني: "أتقصدين صاحب مطعم البييتزا؟"
- "إنه الرجل الذي عثر على الهياكل العظمية".
- "إن السبّاك هو الذي عثر عليها في الواقع، لكن ذلك لا يهم. اعترف ماتوب أنه وضع الأزرار الفضية الثلاثة في جيبه أثناء عملية جمع العظام".
- "صحيح".
- "أخذ زميلك الأزرار إلى متحف ماكورد لتقييمها".
- "قالت السيدة التي تعمل هناك إنها قديمة".
- "إنك تقصد أنطوانيت ليجو، لقد كانت محقّة جزئياً".
- "أوه! أحقاً؟"
- "تقول مونيكا موسو التي تعمل في بوانت كاليري إن اثنين فقط من الأزرار يعودان إلى القرن التاسع عشر، أما الزر الثالث فهو مزيف".
- "وماذا يعني هذا الكلام؟"
- "لم تقل لنا".
- "إلى أي تاريخ يعود الزر المزيف؟"
- "لم تستطع تحديد عمره بالضبط، لكنها شكّكت بقيمته".
- "حسناً. إذا يُحتمل أن لا تكون الأزرار مترافقة مع العظام، ولن نستطيع استخراج الكثير من المعلومات منها".
- "هل سمعت عن رجل يدعى نيكولو كاتانيو؟"
- "أتعنين نيك السكين؟ ومن لم يسمع به؟"
- "تعود ملكية البناية التي تحوي مطعم ماتوب للبييتزا إلى ريتشارد ساير حالياً. اشترى ساير هذا المبنى من نيكولو كاتانيو".
- "أحقاً؟ متى كان ذلك؟"
- "حدث ذلك في العام 1980".
- هَبَّ شاربونيو واقفاً على قدميه، ثم سألني: "ما هي المدة التي امتلك خلالها كاتانيو المبنى؟"
- "عشر سنوات".
- ارتسمت ملامح العيوس على شاربونيو.
- "هل يعني هذا الأمر شيئاً، أيها التحري؟"

- "هذا محتمل".
- "أعرف أن كاتانيو متورط في هذه الجريمة".
- بدأ شاربونيو بتمسيد إبهام يده اليمنى.
- "ما الذي تخفيه عني؟"
- بدأ شاربونيو متردداً للحظة، ثم تراجع قليلاً وقال: "حدثت اضطرابات كثيرة هنا في أواخر أعوام السبعينيات. تصارعت عصابات الكالابرية والصقلية مع بعضهما. انتهى الصراع على السلطة هذا باغتيال زعيم يدعى باولو فيولي".
- "ماذا بعد؟"
- "تسلم زعيم جديد السلطة".
- سمعت صوت هاتف يدق في الطرف الآخر من القاعة، ثم دق هاتف آخر، وهاتف آخر أيضاً. عرفت أن لامانش يجمع رجاله للاجتماع الصباحي.
- "ماذا بعد؟"
- "انفصل الزعيم الجديد عن جماعة البونانو في نيويورك، وأقام علاقات ما بين جماعته في مونتريال، وجماعة كاروانا/كونتيريرا".
- تعمدت التطلع إلى ساعتني: "وماذا تريد أن تقوله لي؟"
- هزّ شاربونيو كتفيه: "كانت معركة وحشية قُتل فيها بعض الشبان".
- "بالإضافة إلى بعض الفتيات، لربما؟"
- هزّ شاربونيو كتفيه مجدداً: "لم تذكرني شيئاً عن صدمة ظاهرة على العظام التي تدرسينها".
- "لم أجد أي أثر لصدمة. هل ستتحدثت مع زميلك؟"
- لمس شاربونيو أذنه، وابتعد ببصره عني، ثم أعاده نحوي. تردّد للحظة، وبدأ لي أنه وصل إلى نوع من القرار الشخصي.
- "تحدثت لوك مع ساير".
- "أعرف هذا".
- "أظن أنه لم يخبرك عن هذا اللقاء".
- "لا".
- "كان من الأجدر بنا أن نخبرك".
- "لكان ذلك لطفاً منكما".

- "ذلك العجوز لم يذكر كاتانيو أبداً".
- "لعل ذلك يعود لمهارات زميلك الاجتماعية".
- "هل عرفت شيئاً آخر؟"
- أخبرته عن لائحة المستأجرين التي زودني ساير بها. أخبرته كذلك عن الاتصالات الهاتفية التي أجريتها.
- "إذاً من أحببت أكثر الملكة، أم الرجل ذا الشعر الملتف والقبعة؟"
- "رجال الشabad - لوبافيتش لا يعتمرون البايوت أو الستريميل".
- "إنني أمازحك قليلاً فقط يا دكتورة. أتعنقدين أن أحدهم متورط؟"
- "أتسألني رأيي؟"
- أوما شاربونيوي، فوقفت وأنا أقول: "أستبعد ذلك".
- نهض شاربونيوي بتثاقل، ووضع معطفه على إحدى ذراعيه، ثم تناول ورقة من جيبه: "يفترض أن أعطيك هذه".
- تضمّنت الورقة رقم الهاتف الذي تركته السيدة بالانت، أو غالانت، أو تالنت، واسم آلبان فيشر، وعنوان منزل في كاندياك.
- "أهذه نتيجة المكالمة التي جرى تتبّعها؟"
- "أوما بالإيجاب".
- "هل يزجرك أحدهم هذه الأيام؟"
- "أتعني رجلاً غير ذلك الذي تسلل إلى بيتي؟"
- توتر وجه شاربونيوي فجأة: "أوه، أحقاً؟"
- هل كان من الخطأ إبلاغه بهذا؟
- "الأمر بسيط على أية حال. رتب رايان مراقبة دائمة لمنزلي".
- تطلّعت إلى الورقة التي أعطاني إياها شاربونيوي، وقلت: "اتصلت هذه المرأة بي، وادّعت أنها تعرف شيئاً عن العظام التي وجدت تحت مطعم البييتزا".
- "ماذا؟"
- "لم أفهم ما تعنيه هذه المرأة. قالت لي إنها تعرف ماذا جرى في المبنى الذي يمتلكه ساير".
- "دعيني أعرف ما تقوله هذه المرأة فور تحدثك معها. وإذا لم تتمكني من الاتصال بها اليوم فسأقصد منزلها. دعيني أعلم إذا ما ضايقت أحد يا دكتورة. إنني

جاءَ بهذا".

تردّد شاربونيو مرة أخرى، لكن تردّده امتدّ هذه المرة لفترة أطول. قال بعدها:
"لا تدعي لوك يضايقك. أعرف أنه سيتحسن، وأعرف أنه هو الآخر لا يرضى بأن
يضايقك أحد. يمكنك أن تأخذي ذلك على محمل الجد".

شكّكت في قوله هذا. على أي حال، نجحت في اجتياز حقل الألغام الذي مثّله
المحادثة مع شاربونيو، لذلك كان عليّ أن أكون جاهزة لمفاجأتي التالية، إلا أنني لم
أكن كذلك.

وجدت الأطباء الخمسة منشغلين في محادثة جادة عندما وصلت إلى غرفة
الاجتماعات. تمتتُ باعتذار بسبب تأخري، وسرعان ما ناولني لامانش صورة
فوتوغرافية عبر الطاولة.

جرى توزيع ثلاث عمليات تشريح قبل وصولي. حصل بيليتيه على المدمنين
اللاذين وجدا في محطة مترو ليونيل غرولكس، بينما أخذت مورين راكب الدراجة
الهوائية الذي سحقته شاحنة الإطفاء.

قلّبت الورقة، ثم ألقيت نظرة سريعة على الحالتين الأخيرتين. وُجد رجل مقتولاً،
وقد وُضع وجهه باتجاه الأرض، في طرف مونتّن رويال لشارع درموند.

اسم الضحية: غير معروف.

وجدت امرأة مقتولة في سريرها.

اسم الضحية: لويز بارنت.

تاريخ الولادة: 1943/6/18.

معلومات أخرى: اشتباه بجريمة قتل.

انتقلت ببصري إلى السطر التالي، لكنني شعرت بهبوط في قلبي أشبه بهبوط

صخرة.

الفصل 18

بدأ صوت لامانش بالتباعد شيئاً فشيئاً، وتقلص حجم الغرفة من حولي. دسستُ يدي في جيب المعطف الذي ارتديه أثناء عملي في المختبر، ثم تناولتُ الورقة التي سلّمني إياها شاربونيو.

يا إلهي! تطابق العنوان الذي ظهر نتيجة تتبّع مصدر المكالمة الهاتفية مع العنوان الموجود في مُلف القضية. أسرع لامانش بالتلفظ بالعنوان بينما كنت أتطّلع إليه: "لويز بايرنت".

بالانت. غالانت. تالنت. بايرنت.

عصرتُ صدري أمواج من التوتر.

- "من وجدها؟"

تطّلع الجميع نحوي، وبدت دهشتهم واضحة لحماستي. تناول لامانش تقرير الشرطة من دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة.

- "وجدتها كلوديا باستيلو، وهي ابنة أخت الضحية".

- "وماذا حدث؟"

تابع لامانش القراءة بصمت للحظات قليلة، ثم قال: "تعوّنت السيدة باستيلو التحدث بانتظام مع والدتها. تتقاسم والدتها، روز فيشر، نفس المنزل في كاندياك مع شقيقتها الضحية، لويز بايرنت".

مضى لامانش بوصف الحقائق المتعلقة بالموضوع. "لاحظت باستيلو في عطلة نهاية الأسبوع أن مكالماتها الهاتفية بقيت من دون إجابة، لذلك ذهبت هذا الصباح لتتحقّق من السبب، فوجدت خالتها ميتة في سريرها".

يا إلهي! كنت أحاول الاتصال مع بايرنت في نفس الفترة التي كانت فيها ابنة أختها تحاول الاتصال بها!

- "وهل روز فيشر بخير؟"

أنهى لامانش قراءة تقرير البوليس، ثم قال: "لا يقول التقرير شيئاً بخصوص أحوال السيدة فيشر. أفترض أن السيدة ما تزال حية لأنها ليست في طريقها إلى هنا".

- "وما هو سبب الوفاة؟"

علمت أن سؤالي هذا كان سؤالاً غيبياً بمجرد نطقي به. تطلع لامانش نحوي من فوق إطار نظارتيه، وقال: "هذا هو سبب معالجتنا لموضوع السيدة بايرنت". بدأت الأسئلة تتور في رأسي.

هل ما حصل هو نتيجة مؤامرة، أم مجرد صدفة مروعة؟ هل قُلت بايرنت، أم أنها ماتت نتيجة أسباب طبيعية؟ هل لموتها علاقة بالمكالمات الهاتفية التي أجرتها معي؟ هل أن لويز بايرنت هي ذاتها التي كلمتني بالفعل؟ هل أقول شيئاً ما، أم يتعين عليّ الامتناع عن قول أي شيء؟ نظرت إلى الصندوق الذي كتب عليه النطاق القانوني للشرطة.

شرطة مونتريال.

قررت الانتظار حتى أفرغ من التحدث مع ضباط التحقيق، أو إلى أن يفرغ لامانش من تشريحه للجنة. تابع لامانش كلامه: "دكتورة سانت أنجلو، تولي من فضلك قضية السيد الذي وجد ميتاً تحت الدرج". أشرت سانت أنجلو على لائحتها.

قال لامانش: "سأتولى تشريح جثة السيدة بايرنت عندما تصل إلى هنا".

وضع لامانش كلمة لي بجانب اسم لويز بايرنت. ما هي إلا لحظات حتى انتهى اجتماع العمل، فنهض الجميع وبدأوا بالخروج من الغرفة. لم أضيع دقيقة واحدة عندما عدت إلى مكنتي قبل أن أطلب رقم هاتف رايان. أجابني عند الدقة الأولى.

- "من سيتولى قضية لويز بايرنت؟"

قال رايان: "أجل، من المريح أن أسمع صوتك. أجل، إن الطقس أدفاً هذا اليوم. أجل، كانت نهاية أسبوع سيئة".

- "كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع بالنسبة إليك؟"

- "سيئة جداً".

- "هل تقول ذلك بسبب العملية البوليسية الكبيرة؟"

- "انتهى كل شيء".

- "هل أطلقوا سراحك أخيراً؟"

- "أجل".

انتظرت قليلاً، لكنه لم يعطني المزيد من التفاصيل. سألته: "من سيتولى قضية لويز بايرنت؟"

سمعت أصواتاً في الغرفة على الطرف الآخر، فاستنتجت منها أن رايان موجود على بعد طوابق قليلة تحتي.

قلت متابعاً الموضوع: "وجدت امرأة في كاندياك تبلغ الستين من عمرها ميتة في سريرها هذا الصباح. من سيتولى القضية؟"

- "إنك تتحدثين معه أيتها الفتاة".

- "إذا لم يمنحك وقتاً لتستريح".

- "يبدو أنني اشتقت لهذا المكان".

- "هل وجدت من يساعدك؟"

مات زميل رايان نتيجة حادث تحطم طائرة قبل سنوات قليلة، بينما كان يرافق سجيناً أثناء نقله من جيورجيا إلى مونتريال. عمل رايان لوحده منذ ذلك الوقت متنقلاً من مهمة خاصة إلى أخرى.

- "يبدو أن جاذبيتني خارقة".

- "أرجع ذلك إلى عطر ما بعد الحلاقة الذي تستخدمه".

- "أحب التحليق بمفردي".

- "لماذا اعتبرت قضية بايرنت اشتباه بالقتل؟"

- "أظن أن موتها بدا مثيراً للريبة".

- "يا لك من معرّب يا رايان".

- "كانت فيك بصحة جيدة، ولم تكن مسنة. لم نجد مدفأة معطلة، ولم نلاحظ أي

أثر لتسرب الغاز، أو غاز أول أكسيد الكربون. لم يكن لديها ماضٍ مع الاكتئاب، ولا رسالة تتحدث عن انتحار. ذهبت شقيقة فيك التي تبلغ الرابعة والستين من عمرها أدراج الرياح. اختفت. تعتقد شرطة كاندياك أنها ذهبت في نزهة".

- "يقوم لامانش بالتشريح صباح اليوم".

تخيلت رايان وهو يحتضن الهاتف بكتفه، وقد وضع قدميه على الطاولة.. تخيلته

في سريري.. ثم تخيلته يتبختر مع ملكة من ملكاته.

- "وجدت ابنة شقيقة فيك جثتها. تدعى هذه المرأة أن ليس من عادة أمها أن

- تغادر من دون إبلاغها".
- "روز فيشر".
- سمعت خشخشة أوراق قبل أن يؤكد لي: "لقد حذرت".
- "هل تحاول إيجادها؟"
- "نعم سيدتي".
- "ومن هو آلبان فيشر؟"
- مرّت فترة من التردد: "أستطيع أن أعرف من هو. لكن لماذا؟"
- "هل تتذكّر المرأة التي اتّصلت بي لتحذّرتني عن الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البييتزا؟"
- "نعم".
- "هل تتذكّر أنني اعتقدت أن اسمها هو بالانت، أو غالانت، أو شيء من هذا القبيل؟"
- "أجل".
- "إن منزل روز فيشر في كاندياك هو مصدر المكالمتين".
- "بايرنت".
- "بدا هذا الاسم غامضاً بسبب التشويش في خط الاتصال".
- انطلق رايان مخمناً: "هل أن حساب الهاتف يحمل اسم آلبان فيشر؟"
- "نعم".
- "هل اسم آلبان موجود في الدليل؟"
- "انتظر لحظة".
- وضعت سماعة الهاتف جانباً، وتناولت دليل الهاتف، ووضعت إصبعي على الأسماء التي تبدأ بحرف ف. أعرف أن إيجاد اسم محدد لا يتطلّب الكثير من الذكاء. وجدت أن آلبان فيشر موجود من ضمن مشتركين منطقة كاندياك.
- "إنه موجود هنا".
- "لم تخبر ابنة الأخت أحداً بما جرى. قالت لي إن المرأة عاشت لوحدها. أعتقد أنني سأتصل بها".
- "سأتصل بك مجدداً حالما ينتهي لامانش من مهمته".
- "يُحتمل أن تكون قد ماتت نتيجة نوبة قلبية عادية".

- "يُحْتَمَل".
- "تحدث مثل هذه الأشياء على الدوام".
- "تعتبر النوبات القلبية ثاني أبرز سبب للوفيات".
- "هل أنت متأكدة من أن القلب لا يأتي في المرتبة الأولى؟"
- "لا".
- "هل ظهر شيء جديد؟"
- "نعم، ظهر شيء في واقع الأمر".
- أخبرته عن الزر المزيف. سألني ماذا يحمل من أهمية، فأخبرته أن لا فكرة لدي. أخبرته بعد ذلك عن نيكولو كاتانيو.
- مرت فترة صمت بدا لي صوت رايان مختلفاً بعدها، ولربما كان أشد قسوة بطريقة ما.
- "لا يعجبني هذا يا تمب. إن الحكماء يقدرون الحياة مثلما يقدرون خيوط الحرير. انتبهى لنفسك".
- "إنني أفعل هذا على الدوام".
- "هل أصلحت النافذة؟"
- "نعم".
- "اشتقت إليك في عطلة نهاية الأسبوع التي مرت".
- "هل تقول الحقيقة؟"
- "هل ما زالت صديقتك في منزلك؟"
- "نعم".
- "سنتحدث عندما تغادر".
- "صديقتي لا تعض".
- مرت فترة صمت طويلة، لكن رايان خرقها: "دعيني أعرف ما يقوله لامانش. أتصلي بي إذا لم أكن هنا".

عرجت على غرفة التشريح قبل أن أبدأ بتحليل الهيكل الثالث. وضع بيليتيه أول ضحية من ضحايا الانهيار على الطاولة رقم واحد، بينما وضع لامانش جثة لويز بايرنت على الطاولة رقم اثنين.

وصلت بايرنت وهي مرتدية عباءة فضفاضة. رأيت عباءة النوم هذه فوق الطاولة. لاحظت أن عباءة الفانيليا الطويلة الزهرية اللون مزينة بالورود الحمراء. رأيت أيضاً أزراراً لؤلؤية صغيرة تنتشر على طوق العنق المطرز. أرجعتني ذكريتي إلى الماضي. رأيت جدتي ترتاح على سريرها، وقد انتعلت خفيها الإسفنجيين، ووضعت فنجان البابونج على الطاولة. انتقل بصري نحو الجسد المسجى أمامي. بدت بايرنت صغيرة الجسم ودقيقة الملامح على ذلك اللوح الفولاذي المليء بالتقوب. رأيتها وحيدة جداً، وغارقة في الموت. شعرت بوخزة من الأسى تخترقني، لكنني حاولت التغلب عليها. قلب لامانش رأس المرأة الميتة. فتح فكّيها، وأسبل أحد كتفيها. بدا ظهرها متجعداً، أما أسفل ظهرها فكان متورداً.

ضغط لامانش بإصبعه على الجسد الذي فرّت ألوانه منه. لم يظهر البياض في مكان نقطة الضغط. سمح لامانش للجسد أن يعاود استقراره على ظهره، ثم رفع اليد الخالية من علامات الحياة. شاهدنا تقشراً رقيقاً جداً يتفكك من طبقة ما تحت البشرة. - "ألاحظ انعداماً ثابتاً للون، وحدوث التبيس الناتج عن الوفاة، وبالكاد بدأ تحلل الجلد".

حامت نظراتي حول جثة بايرنت، بينما انشغل لامانش بتدوين ملاحظاته. لاحظت أن عضلات المرأة بدأت تذوي، وبدا شعرها رمادي اللون، أما جلدها فبدا شاحباً إلى حد الشفافية. لاحظت أيضاً تدهيها المتدليين على صدرها الذي بان من العظام، ولفت انتباهي بطنها الذي بدأ بالتحوّل إلى اللون الأخضر. سألت لامانش: "كم من الوقت مضى على الوفاة برأيك؟"

- "لم ألاحظ تداخل الدهون مع العضلات، ولا أي انتفاخ باستثناء بعض العفن. أعتقد أن المنزل كان دافئاً، لكنه ليس حاراً جداً. سأقوم طبعاً بتفحص محتويات المعدة، وسوائل العين عندها، لكنني في هذه اللحظة أستطيع أن أقول إن ثمانية وأربعين ساعة إلى اثنتين وسبعين ساعة قد مرّت على الوفاة".

اجتاحني وخزة ألم أخرى. خذلت هذه المرأة يوم الأربعاء. اتصلت بي مرة ثانية يوم الخميس، وها هو لامانش يقدر أن وفاتها قد حدثت يوم الجمعة، أو السبت.

لاحظت وجود خط رفيع أبيض اللون في منطقة بطنها.

- "يبدو أنها خضعت لعملية جراحية ما".

انطلق لامانش ليخطّ أثر الجرح هذا على الرسم الذي أعدّه، فيما تحولت عيناى نحو وجه بايرنت. لاحظت أن عينيها كانتا نصف مفتوحتين، لكن أربطة داكنة غطتهما.

تسترخى عضلات أجفان العيون عند الوفاة في العادة، ويتسبّب هذا الأمر بانكشاف القرنيّتين، وهو الأمر الذي يسمح بحدوث جفاف الأنسجة الظهارية، أما تصلّب الأنسجة فهو أمر طبيعي. أعطت هذه التغيرات بايرنت المظهر الرهيب لشخص قُتل بالأمس على الطريق.

انحيت لأتفحص أسنان بايرنت. بدت الأسنان نظيفة بالرغم من بعض البلى، وبعض التغيّر في اللون. ظهر كذلك بعض التورم، أو الانتفاخ في اللثة. يبدو أن أسنانها كانت في وضع جيد.

بدأت بالنهوض ثانية عندما لفت انتباهي شيء يتواجد ما بين القاطعة الجانبية اليمنى وبين الناب. اقتربت أكثر، وتأكدت من وجود شيء هناك. تناولت عدسة تمسك باليد من الدرّج ثم عدت إلى الطاولة. بدت التفاصيل أوضح تحت التكبير، فقلت: "دكتور لامانش. ألق نظرة على هذه".

الفصل 19

دار لامانش حول الطاولة وناولته العدسة المكبرة. تفحص أسنان بايرنت، ثم قال من دون أن ينتصب بقامته: "إنها ريشة".
قلت موافقة: "أجل".

استخدم لامانش الكلاب لانتزاع الريشة، ووضعها في قارورة بلاستيكية. فتح بعد ذلك فكّي بايرنت، وتفحص أسنانها الخلفية. جاء صوته مخنوقاً بسبب الكمامة: "لا أرى ريشة أخرى".

- "هل نستخدم جهاز لوما لايت الضوئي؟"

التفت إلى تقنية التشريح وقال: "ليزا، من فضلك".

تناولت ليزا الجهاز من الخزانة، ثم نقلت بايرنت إلى عربة ذات عجلات، وقادت العربة إلى الباب الثاني الذي يؤدي إلى غرفة الأشعة السينية. لاحظت عندما انضمت إليهما أن ليزا جلبت عباءة بايرنت الفضفاضة، ونشرتها فوق طاولة الأشعة السينية.

وضعنا، أنا ولامانش، نظارات بلاستيكية مظلمة باللون البرتقالي، بينما ثبتت ليزا جهاز اللوما لايت، وهو مصدر ضوء متناوب يتألف من صندوق أسود، ومن سلك أزرق اللون معزز يتألف من ألياف ضوئية. يمكننا هذا الجهاز من رؤية أي أثر لدليل لا يمكن للعين المجردة أن تراه.

سألت ليزا: "هل أنتما مستعدان؟"

أوماً لامانش بالإيجاب. وضعت ليزا نظارتيها هي الأخرى، وضغطت على زر الجهاز الضوئي.

بدأ الطبيب بتفحص عباءة بايرنت. ومضت هنا وهناك شعيرات مثلما تضيء الأسلاك الدقيقة. التقطت ليزا هذه الشعيرات بملقط خاص ونقلتها إلى قارورة بلاستيكية.

عاد لامانش لتفحص الجثة مجدداً فور انتهائنا من فحص العباءة. زحف الضوء

ببطء فوق قدمي بايرنت ورجليها. تفحص الضوء العظم العاني بأشكاله المتموجة، وكذلك منطقة البطن، والقفص الصدري، والصدر. وأضاء الضوء أيضاً الفجوة الموجودة أسفل الرقبة. لم يلتصق شيء ما عدا شعيرات قليلة أخرى. قلت: "تبدو هذه الشعيرات متطابقة مع شعر الرأس".

قال لامانش موافقاً: "أجل".

لم نجد شيئاً في يدي بايرنت وأظافرها، وكذلك بالنسبة لعينيها، ومنخريها، وأذنيها.

دخلت الحزمة الضوئية بعد ذلك الفجوة المظلمة لعم تلك المرأة.

قالت ليزا وسط الظلمة: "مرحباً".

التمتع أحد أضراسها فوق اللثة مثل الفوسفور، فقلت: "ليس ذلك بالشعرة".

انترعت ليزا ذلك الشيء اللامع بالكلاب.

عملنا لمدة ثلاثين دقيقة وسط الظلمة، ومع ذلك لم نحصل إلا على شعرتين إضافيتين فقط. بدت الشعرتان دقيقتين و متموجتين، أي مثل شعر الضحية تماماً.

أضاعت ليزا الأنوار ثانية. عدت أنا ولامانش إلى غرفة التشريح. فتح لامانش القارورة البلاستيكية التي تحتوي على الضرس، وتفحص محتوياته تحت العدسة المكبرة. بدا لي أن عقداً من السنين مضى قبل أن يتكلم.

- "إنها جزء من ريشة أخرى".

تبادلت أنا ولامانش النظرات، وخطرت على أذهاننا نفس الشكوك. ظهرت ليزا مع السيدة بايرنت مجدداً في تلك اللحظة. مشى لامانش باتجاه الجثة، وتبعته. أمسك بذلك النسيج بإحكام، ثم قلب شفة المرأة العليا. بدا السطح الداخلي طبيعياً. قلب شفة بايرنت السفلية، فاستطعت رؤية تمزقات أفقية تشوه اللحم الناعم. تمركز كل تمزق مع موقع قاطعة سفلية.

فتح الجراح جفني بايرنت الأيسرين مستخدماً إبهامه وسبابته. انتقل بعد ذلك إلى الجفنين الأيمنين. ظهرت على العينين بثرات، ونقاط حمراء دقيقة، بالإضافة إلى لطخات تدل على التصلب على الملحمة.

دارت صور رهيبية في ذهني وقلت: "إنه الاختناق".

تصورت هذه المرأة وحيدة في سريرها، في منزلها الذي ظننته آمناً، واعتبرته ملاذها، ثم يظهر شبح يتسلل في الظلمة. تخيلت الأصابع وهي تلتفت حول رقبتها،

فتحرم رئيتها الأوكسجين، وتجعل قلبها ينبض رعباً.

- "ينجم نزيف البثور عن أشياء عديدة يا تمبرنس. ويدل ظهوره على شيء أكبر من تفجّر الشعيرات الدموية".

قلت: "إنها الأشياء التي تنتج عن تزايد مفاجئ في الاحتقان الوعائي في الرأس".

قال لامانش: "أجل".

قلت: "كما يحدث في حالة الخنق".

- "يحدث نزيف البثور أيضاً نتيجة السعال، العطس، والتقيؤ، وفي حالة بذل الجهد عند التغوط، وكذلك نتيجة المخاض..."

- "أشك أن هذه المرأة كانت على وشك أن تلد طفلاً".

تابع لامانش الكلام، واستمرّ بتفحص عنق بايرنت مستخدماً إصبعه: "... يحصل ذلك إذا دخل جسم غريب مسبباً الانسداد، أو سد مجرى الفم، أو انتفاخ بطانة مجرى الهواء".

- "هل ترى علامات تدل على هذه الأمور التي ذكرتها؟

رفع لامانش عينيه باتجاهي، وقال: "إنني بدأت بالكاد فحصي الخارجي".

- "يُحتمل أن تكون قد خُنقت".

قال لامانش وكأنه يحدث نفسه: "ليس هناك أية خدوش، ولا أطافر متكسرة، ولا أية علامة تدل على العنف، أو على مقاومة للدفاع عن النفس".

بدأت أعبر عن الأفكار كما وردت على ذهني: "يُحتمل أن تكون قد اختنقت أثناء نومها باستخدام وسادة. لا تخلف الوسادة أية علامة، كما أن الوسادة تفسّر وجود الريش في فمها والجروح في شفتها".

- "لا يُعتبر نزيف البثور الشديد نادراً في الجثث التي يكون الرأس فيها منخفضاً عن مستوى بقية الجسم".

- "توحي الزرقة في ظهرها وكتفها أنها ماتت ووجهها نحو الأعلى".

انتصب لامانش قائلاً: "وعد التحري رايمان بتجهيز صور مسرح الحادثة بعد ظهر هذا اليوم".

تشابكت نظرانا للحظة. أنزلت كامتي بعدها، وأخبرت لامانش قصة السيدة بايرنت. حدقت العينان المستناتان في عيني، ثم قال لي: "أقدر كثيراً أنك أثرت موضوع اتصال الضحية بك أمامي. سأبذل مجهوداً إضافياً عندما أبدأ بالفحص الداخلي".

لم تكن عبارته هذه ضرورية. أعرف أن لامانش سيكون شديد التدقيق في حالة السيدة بايرنت، تماماً كما هي حاله مع كل جثة تفحصها، سواء أكانت تعود لرئيس وزراء، أم للصغير. يرفض لامانش الاعتراف بشيء اسمه الموت الذي لا يُعرف سببه.

* * *

فتحت الكيس الذي يحتوي على البقايا التي استخرجت من المنخفض الثاني في قسيو مطعم البييتزا، وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. انتزعت عند الساعة الحادية عشرة والنصف العظام من كفنها الجلدي، وانتزعت طبقة التراب، والدهون الناتجة عن تحلل العضلات، ورتبت كل ذلك بطريقة تسمح بتسريحها على طاولة التشريح. أكملت عند حلول الساعة الثالثة والأربعين دقيقة الجردة والفحص.

يعود الهيكل الذي أعطي الرقم 38428، لأنثى بيضاء، يبلغ طولها خمس وستين إلى ثمان وستين بوصة، ويرجح أنها ماتت بعمر يتراوح ما بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين. لم يكن اعتناء هذه الفتاة بأسنانها جيداً، ولم تخضع لعملية ترميم الأسنان. لاحظت كسراً شفي تماماً في عظمة الكعبرة ليدها اليمنى. وظهرت على جمجمتها عدة أضرار حدثت بعد الوفاة، ولم تظهر صدمات عند وقت وفاتها أو حوله.

تبين لي أن استنتاجاتي الأولية كانت صحيحة. ظهر أن الفتاة هي أكبر سناً بقليل من الفتاتين الأخريين، وفي ما عدا ذلك فهي تماثلهن بشكل مقلق.

كنت منهمة بتدوين آخر ملاحظاتي القليلة عندما سمعت باب المكتب الخارجي يُفتح ويُغلق. ظهر لامانش بعد لحظات قليلة. أوحى لي تعابير وجهه أنه لم يأت ليخبرني عن تضخم جديد للأوعية الدموية.

- "وجدت فائضاً من الهيموغلوبين الخالي من الأوكسجين في الدم الوريدي، الأمر الذي يدل على الازرقاق الذي ينتج عن نقص الأوكسجين في الدم."

- "إنه يدل على الاختناق."

- "أجل."

- "هل هناك شيء آخر؟"

- "لا توجد أشياء غير مألوفة بالنسبة لامرأة في عقدها السابع من الحياة."

- "إذاً هناك احتمال بأن تكون قد تعرّضت للاختناق."

- "أخشى أن يكون هذا احتمالاً وارداً."

- "هل لاحظت أية جروح؟"

هزّ لامانش رأسه: "لا توجد أية كسور، ولم أشاهد دليلاً على حدوث نزيف، وما من علامات تدلّ على خدوش أو مخالب. لم ألاحظ وجود نسيج تحت أظافرها، ولا أي شيء يدل على المقاومة".

- "يُحتمل أن تكون المرأة هوجمت أثناء نومها، أو لعلها تعرّضت للتخدير".

- "سأطلب إجراء فحص كامل للسموم".

فُتح الباب الخارجي مجدداً ثم انغلق ثانية. سمعت وقع أقدام خفيفة تعبر المكتب الخارجي. كان رايان يقوم بعمله المعتاد كتحريّ ذلك اليوم. ارتدى قميصاً قطنياً، وبنطال جينز، وسترة فضفاضة داكنة اللون مزودة برُقْع عند المرفقين.

تبادل لامانش ورايان تحية الصباح، وتبادلت مع رايان إيماءات التحية. أطلع لامانش رايان على تفاصيل ما اكتشفه. وسأل رايان: "ما هو وقت الوفاة؟"

- "هل وجدت أي دليل على آخر وجبة لها؟"

- "رأيت صحناً، وملعقة، وفنجاناً في الرف المخصص للصحون. شاهدت علبة

حساء فارغة في سلة النفايات، وبعض خضار الحدائق".

- "فرغت محتويات المعدة تماماً. ويُحتمل أن يكون ذلك قد حدث في غضون

ثلاث ساعات من استهلاك الحساء".

- "تقول ابنة الأخت إن السيدتين تعودتا تناول العشاء في حوالى السابعة، وكنّ

يذهبن للنوم حوالى التاسعة أو العاشرة".

رفع لامانش إصبعه: "هذا إذا كان الحساء عشاءها وليس غداءها. لا تتسأ أن

الفيزيولوجية المعدية تتغيّر بشدة. يستطيع التوتر العصبي، وبعض الأمراض الأخرى، أن تؤخّر عملية إفراغ المعدة".

تذكّرت الصوت المضطرب الذي سمعته على الطرف الآخر من الخط. بدا توتر

بايرنت واضحاً حتى على بعد المسافة.

- "سأحصل على تفويض قضائي يسمح لي بالاطلاع على المكالمات الهاتفية".

وضع لامانش يديه خلف ظهره: "لكن حالة التحلل توحي باحتمال حصول الوفاة

يوم الجمعة. والآن ماذا أحضرت لنا أيها التحري؟"

تناول رايان ظرفاً بنيّ اللون من جيب سترته، ثم وزّع صوراً ملونةً على

الطاولة. أعادت الصور التي تبلغ قياساتها 5X6 بوصات إلى يوم لويز بايرنت الأخير.

شاهدنا المنظر الخارجي للبيت المؤلف من طابق واحد، والمشيّد من الأحجار البنية الفاتحة اللون. شاهدنا الممرات الخالية من الجليد، والشرفة الأمامية، والنافذة المزينة بأسلاك المصابيح المتعددة الألوان. شاهدنا أيضاً الباب الخشبي الأزرق اللون. بدأ إكليل من الزهر يحمل عبارة عيد سعيد! مكتوبة على رقعة قماش مخملية، وبدأت في الصورة الباحة الخارجية، وهي الباحة التي وُضعت فيها مجسمات بلاستيكية لغزلان الرنة. كما ظهرت في صورة الباحة الخلفية المغلقة مزلجة لطفل تتكئ على الجانب البعيد لسياج معدني متشابك. رأينا شرفةً اسمنتية خالية من الجليد، بالإضافة إلى رفشٍ مخصص لجرف الثلج.

تفحصت، أنا ولامانش، الصور من دون أن نتبادل كلمة واحدة. أظهرت الصور القريبة للبايين الأمامي والخلفي مقابض وأقفال لم تتعرض للتلف. تفحصت صورة للمطبخ التقطت من الجهة اليمنى، وأخرى التقطت من الجهة اليسرى. بدأ في الصورتين موقد غاز، وثلاجة، وطاولة مغطاة تحوي حوضاً لغسل الصحون من الفولاذ الذي لا يصدأ، بالإضافة إلى لوحة خشبية تستخدم لتقطيع اللحم لا تستند إلى أي دعامة. ظهرت في الصورة أيضاً ملعقة واحدة، وكوباً كبيراً، ومقلاة، موضوعة كلها على الرف المخصص للصحون.

قلت: "يبدو المطبخ مرتباً".

قال رايان موافقاً: "لا يوجد شيء خارج مكانه، ولا توجد علامات تدل على الكسر والخلع. ولا توجد علامات تدل على وجود عدة أشخاص".

سأل لامانش: "هل كانت الأبواب موصدة؟"

- "تظنّ باستيلو أنها كانت موصدة، لكنها لا تستطيع أن تؤكد ذلك".

- "أتعني ابنة الأخت؟"

أوما رايان: "تلقت باستيلو مكالمة هاتفية على هاتفها الخليوي ما إن وصلت إلى مدخل بيت والدتها. تتذكر أنها واجهت مشكلة في فتح الباب، لكنها ظنّت أن ذلك يرجع إلى حملها الهاتف الخليوي بيد بينما تفتح الباب بالأخرى. إنها تعترف أنه لو كان الباب مفتوحاً فلربما أقفله عن غير قصد، ثم فتحته مرة ثانية".

سأل لامانش: "هل البيت مجهز بنظام أمني للحماية؟"

هز رايان رأسه بالنفي، ثم تناول صورة فورية من جيبه وناولها إلى لامانش.

مرّر لامانش الصورة لي.

أظهرت الصورة الفورية امرأة بدينة ذات شعر مشمشي اللون تتجاوز الستين من عمرها، وبدا أنها تضع مساحيق تجميل من ماركة بولوك.

سألت: "هل هي روز فيشر؟"

أوما رايان بالإيجاب. أعدت الصورة إليه، ثم عدت إلى صور مسرح الجريمة. في إحدى الصور بدت أريكة ومقعد مزدوج، وفي صورة أخرى ظهرت نافذة عليها ستائر مطرزة. بدت في الصورة أيضاً ستائر أفقية وقصص لطائر موضوع على حامل معدنية مزخرفة. تذكرت فوراً سماع صوت خفق الأجنحة على الجهة الثانية من الخط عندما كانت بايرنت تتصل بي. سألت بأشمزاز: "أي نوع من الطيور هو؟" - "إنه ببغاء."

إنه مثل الطائر الذي تفتتبه كاتي، كانت هذه الأصوات بالذات هي التي حاولت معرفة طبيعتها عبر الهاتف.

- "من يعتني به؟"

تطلع رايان صوبي بنظرة فيها الكثير من الاستغراب، وأجاب: "باستيلو".

سأل لامانش: "هل ظهرت شقيقة الضحية؟"

- "أعني روز فيشر؟ لا".

- "ماذا تستنتج من هذا؟"

- "تقول باستيلو إن والدتها وخالتها تحبان الانطلاق بجولات عبر الطرقات، لكنهما تعلمانها بخطة تحركهما في العادة".

قلت مخمنة: "لكي تطعم ذلك الطائر".

أوما رايان بالإيجاب.

سأل لامانش: "هل اعتادت السيدتان أن تستقلا سيارة؟"

- "كانتا تستقلان سيارة فيشر. إنها من نوع بونتياك غراند بري طراز العام أربعة وتسعين".

- "هل هذه السيارة مفقودة الآن؟"

- "إنها غير موجودة في منزل فيشر. أصدرتُ مذكرة بحث عن السيارة.

سيلاحظ أحد ما رقم التسجيل إن كانت موجودة".

سألت: "من هو ألبان فيشر؟"

- "إنه زوج فيشر. كان يعمل كمحاسب ضرائب، ومات في العام أربعة

وتسعين. لم تكلف روز نفسها عناء تغيير الاسم في دليل الهاتف".

- "هل تشك باستيلو بنية أحد الأشخاص بإيذاء والدتها أو خالتها؟"

- "تقول باستيلو إنهما على خصام مع أحد الجيران بشأن إيقاف سيارة جيب في الطريق المخصصة لهما، وهي تصرّ على أن نتحقّق من الأمر مع ذلك الشخص".

سألت: "هل توحى باستيلو بالثقة؟"

أوما رايان باتجاه لامانش: "أشك في قدرة رجال الطاولة المستديرة في بيركلي على استخدامهما، لكنها تبدو لي صادقة بما فيه الكفاية. يقول دوك إننا أمام جريمة قتل، لذلك سأبدأ بالبحث عن خلفية هذه السيدة".

دخل لامانش ورايان في حالة صمت مطبق بينما تابعت استعراض مجموعة الصور. شاهدت صورة رواق، وغرفة نوم، وحمام، ثم وجدت صورة لحمام ثانٍ، لكنه أصغر قليلاً من الحمام الأول. كما ظهرت صورة خزانة مصنوعة من خشب القيقب، ومنضدة، وسرير ذي أعمدة جانبية... وجثة.

رقدت لويز بايرنت على فراش ذي لون زهري فاتح متكومة كطفلة. استلقت وأدارت وجهها نحو الباب، وألقت ذراعها اليمنى باتجاه الأعلى، بينما تدلّى رأسها بشكل غريب على وسادة متجعدة. بدت في الصورة عيناها السوداوان وحاجباها المتقوسان، وتدلتّ خصلات من شعرها الأشيب فوق وجهها.

ظهر لحاف زهري اللون مطوي بعناية إلى جانب طرف السرير. ظهرت أيضاً وسادة ثانية فوق اللحاف المطوي. لاحظت أن هذه الوسادة هي دون غطاء، فطرحت سؤالاً لم أوجّهه لأحد بالتحديد: "هل حركت باستيلو الجثة؟"

- "تقول إنها وجدت خالتها غائبة عن الوعي، فحاولت أن تعيد وعيها إليها".

- "هل لمست الوسادة؟"

- "إنها لا تتذكّر أنها فعلت".

استطعت أن ألاحظ زوجاً من الأخفاف موضوعاً بترتيب تحت السرير، كما لاحظت وجود زوج مطوي من النظارات، وكوباً كبيراً، وقارورة بلاستيكية تحتوي على حبوب أدوية. سألت لامانش: "هل هذه القارورة هي التي أرسلت إلينا؟"

- "أجل. إنها تحتوي على ثلاثين حبة، وتمتّ تعبئتها يوم الأربعاء الماضي. إنها

تنقص ثماني حبوب".

- "هل عرفت محتويات الكوب الكبير؟"

- "كان يحتوي على الماء. عبأته باستيلو عندما فشلت بإيقاظ خالتها. تقول إنها شعرت بالذعر، ولم تعرف ما الذي يتعين عليها عمله".
- "هل وجدت الكوب فارغاً؟"
- "إنها تظن ذلك. يجب أن نتذكر أن باستيلو ليس الأكثر ذكاء من بين أفراد عائلتها".

سأل لامانش: "هل وجدت أدوية غير تلك التي أحضروها مع الجثة؟"
- "وجدت فيوكس، وهو دواء لالتهاب المفاصل وقد أعطيتك إياه. تبقى مجموعة الأدوية المعتادة لخزانة الأدوية مثل الكالسيوم، الأسبرين، مستحضر أتش. وجدت أيضاً أنبوباً نصف فارغ من نيوسبورين، بالإضافة إلى الأدوية التي تباع من دون وصفة طبية، مثل أدوية الحساسية".

سألت: "هل هناك شيء غير طبيعي بالنسبة لوجود الكوب في غرفة النوم؟"
- "تقول باستيلو إن شخير أمها يصل إلى حد لا يطاق، أما نوم بايرنت فهو من النوع غير العميق، لذلك فهي لا تضع رأسها على الوسادة قبل أن تتناول حبتين من الأمبيان مع كوب شاي الأعشاب الذي تتناوله. لم تستطع باستيلو أن تتأكد ما إذا كان قد بقي شيء من الشاي في الكوب، وتضيف أنها لربما اعتقدت أن الكوب كان يحوي بقية من الشاي فأقدمت على إفراغه".

قلت: "لعله من الصواب أن نحصل على ذلك الكوب".
أوما رايان برزانه: "نعم سيدتي".
شعرت أن خدي قد تورداً، إذ من البديهي أن يكونوا قد جلبوا ذلك الكوب. قال لامانش: "تستطيع إجراء تحليل لعاب بايرنت الذي سال على غطاء الوسادة، لكن ذلك لن يكون مفيداً من الناحية العملية".

قلت: "يسيل لعاب السيدات المسنات عادةً".
وافق رايان: "من المعروف أنهم يفعلون ذلك".
سأل لامانش: "هل وجدت أي شيء يدل على الوقت الذي نامت فيه روز فيشر في بيتها لآخر مرة؟"

وجّه رايان إصبعه باتجاهي: "وجدنا السرير مرتباً، وكانت عباءة النوم معلقة على كلابة في باب الحمام. لم نجد كوباً على طاولة سريرها".
لم يخطر على ذهني أي جواب سريع. أضاف رايان: "قالت باستيلو إن والدتها

اعتادت أن تخلد للنوم بعد خالتها".

أمضينا دقيقة كاملة نتفحص الصور قبل أن يتوجه رايان بالحديث إلى لامانش.

- "ما هو رأيك أيها الطبيب؟ هل نحن أمام جريمة قتل؟"

أصلح لامانش من وقفته، لكنه أبقى يديه وراء ظهره، وقال: "تابع تحقيقاتك أيها التحري. أعتقد أن الأمر يثير الاشتباه. سأعلمك بنتيجة فحص السموم حالما تنتهي".

أمضيت مع رايان عدة لحظات أخرى في تفحص الصور الفورية. شعرت بثقلٍ شديدٍ يضغط على معدتي. كسرتُ جدار الصمت المخيم قائلة: "أعتقد أنها قُتلت".

جاء رد رايان مفعماً بالحساسية: "يبدو أن لامانش ليس مقتنعاً بالكامل بهذه الفرضية".

- "أجرت بايرنت مكالمات هاتفية مدعية أنها تمتلك معلومات عن الفتيات الثلاث المقتولات، ثم وُجدت بعد أربعة أيام ميتةً في سريرها وهي تحتفظ بريش وسادتها في فمها".

- "ليس من المستغرب أن تموت السيدات المسنات".

- "أين شقيقتها إذا؟"

- "هذا هو اللغز".

- "ماذا أرادت بايرنت أن تقول لي عن العظام؟"

- "إنه لغز آخر".

طرفت عينا رايان، أما أنا فأحسست أن معدتي تتقلب، وأنها استقرت على جانبها. أخذتُ نفساً عميقاً وسألته: "ما خطبنا يا رايان؟"

تطلع رايان نحوي بعينين زرقاوين تماثلان زرقه خليج في جزر الباهاماس.

تصارع فريقان من الأفكار في رأسي. الفريق الأول يؤيد مواجهته بتواجهه مع تلك الحسنة التي رآها شاربونيو معه، لكن الفريق الثاني نصحني بإبقاء الأمر لنفسه. للحظة، فاز الفريق الثاني، فمن الحكمة الاحتفاظ بهذا الأمر لنفسه. بعدئذٍ اكتشفت أن للحكمة استثناءاتها.

- "ذكر شاربونيو هذا الصباح شيئاً غريباً أُمامي".

- "إذا كنت تقصدين إطلاق النار الذي حدث يوم السبت، فأنا أقول لك إنه لم يكن بالأمر المهم كثيراً".

- "رآك في قاعة المحكمة في شهر آب/أغسطس الفائت".

ابتسم رايان ابتسامة صيبانية: "إنني رجل مكذّب في عملي".
- "كان ذلك في الأسبوع نفسه الذي غادرت شارلوت فيه".
أطلق رايان ضحكة خافتة وردّ قائلاً: "ذهبت إلى نوبا سكوتيا لمعالجة مشكلة عائلية".

يا لعمق المياه الساكنة!

- "لم تكن لوحديك".

- "ليس الأمر كما تظنّين".

- "وما هو الشيء الذي أظنّه بالفعل؟"

بدأت ابتسامة رايان بالتلاشي، ثم استعادها قليلاً، ولمست أطراف أصابعه خذي. تناول الصور الموضوعة على الطاولة، ثم وضعها في المغلف وناولني إياه. تبادلنا النظرات لوقت طويل، ثم قال لي فجأة: "أنا أحبك، وأنت تعلمين ذلك". نظرت إلى حذائي، بينما تصارعت المشاعر في صدري، ثم أغمضت عيني. سمعت صوت باب المكتب الخارجي يُفتح، ثم سمعت صوته ثانية. فتحت عيني لأجد أن رايان قد غادر المكان. لم تحدث أشياء مهمة في الأيام الثلاثة التالية. بعدئذ ارتكبت غلطتي الأولى.. وتبعتها الثانية... تبعتها غلطتي الثالثة.

الفصل 20

مضت عدة أيام ولم تظهر أية حالة وفاة تتطلب فحصاً من عالم انثروبولوجيا متخصص. لم تظهر أيضاً أية بقايا متحللة في شاحنات مقللة. ولم تُكتشف جنث في عليّة أي منزل، ولا أيّ جزء مقتطع من جنّة.

حاولت يوم الثلاثاء الاتصال بالمزيد من الأشخاص الذين يحملون اسمي مينارد وتروانغ، ثم أطلعت على تقارير عن القضايا التي تتطلب درساً، وأطلعت على البريد الإلكتروني، والمراسلات الأخرى. تعودت أن النوم في تلك الأيام حتى الساعة الثانية، واستمتعت بسماع أغاني الأوبرا، وبمشاهدة المسلسلات التلفزيونية. لم تحدثني آن كثيراً، مع أنني أخذت إجازة من العمل في المختبر في فترات بعد الظهر لكي أكون معها. كانت آن تتناول الكثير من الشراب في فترات الغداء، وتدّعي أنها تشعر بتعب كبير، قبل التوجّه للنوم عند الساعة العاشرة. رحّت أتساءل عن التعب الذي يشعر به شخص يصحو لثمانى ساعات فقط، من دون أن يفعل شيئاً.

يجتمع الحرفيون من جميع أنحاء المقاطعة في شهر كانون الأول/ديسمبر من كل عام، كي يبيعوا مصنوعاتهم، وذلك في صالة الفنون والحرف في كيببوك. أيقظت آن في ظهيرة يوم الأربعاء، واقترحت عليها أن نقوم معاً بزيارة تسوّق ميلادية لمعرض الفنون والحرف، فرفضت اقتراحي. لكنني أصريت عليها بالذهاب.

وجدنا حشداً كبيراً من الناس في معرض بونافينتشر. اشتريت وعاءً مصنوعاً من السيراميك اعترمت إهدائه إلى ابنتي كاتي. اشتريت أيضاً غليوناً محفوراً من خشب السنديان كي أقدمه إلى بيتي، كما اشتريت وشاحاً من صوف اللاما، واعترمت إهدائه إلى هاري. اخترت إهداء طوقين جلديين رائعين إلى بيردي وبويد، وهما الهرة والكلب اللذان يقيمان مع بيتي في المنزل. اخترت الطوق ذا اللون المشمشي للهرة، أما الكلب الصيني فاخترت له اللون الأخضر الداكن.

شاهدت معرضاً عُرضت فيه منسوجات حريرية جعلت رايبان يقفز إلى ذهني. هل أشتري له ربطة عنق؟ لم يكن هناك تنزيلات على هذه المنسوجات.

تتقلت آن ببطاء وتكاسل ما بين مكان وآخر، فأظهرت بذلك مستوى النشاط الذي تبديه مجموعة فئران المختبر الراءة. اشتريت لها بعض الحلوى، ووضعت على رأسي قبعات مضحكة، حتى إبنني جرّبت وضع طوقٍ للكلاب حول عنقي. حاولت آن إبداء اهتمامها، لكنها سرعان ما كانت تعود إلى حالة عدم الاستجابة، فتتصرّف كأنني لست موجودة معها. لم يُفلح أي شيء بتسليتها، كما امتعت عن شراء أي شيء.

لاحظت أن الاكتئاب الذي شعرت به آن قد وصل إلى عمقٍ أكبر من عمق خندق ماريانا. احتضنتها عدة مرات طيلة ذلك اليوم، وأسمعتها الكلمات التي تريحتها، إلا أنها لم تبادلني الأحاديث، وهو أمر مستغرب منها.

تناولنا العشاء، لكن آن لم تمسّ طبق السوشي إلا قليلاً، وركّزت بدلاً من ذلك على تناول الشراب. ادّعت أن أنها متعبة جداً ما إن وصلنا إلى المنزل، لذلك فضلت الانسحاب إلى غرفتها.

لم يسبق لسي أن رأيت صديقتي بهذا الإحباط، لذلك صعب عليّ تقدير مدى خطورة حالتها. أدركت وجود خطب ما، لكن ما هي حدود قدرتي على التدخل؟ تمنيت أن يذهب عنها سوء المزاج هذا من تلقاء نفسه. نمت تلك الليلة، وحلمت أن آن موجودة على شاطئٍ مظلم وموحش.

وجدت في بريدي الإلكتروني صباح يوم الخميس نتائج اختبارات الكربون 14 التي أجزاها آرثر هوليداي. حدقت في السطر الذي يحتوي على الموضوع، فتجمّدت أصابعي على لوحة المفاتيح. لماذا أشعر بالتردد، مع العلم أنني كنت متلهفة للحصول على التقرير؟

يبدو أن الجواب كان بديهاً جداً. لم أرغب حقيقةً بالتأكد من تلك الوحشية الحقودة التي تعرّضت لها شابات بريئات. لم أرغب بأن أعرف أن حياة شابات، بالكاد تجاوزن سن الطفولة، قد قُضي عليها. تساءلت من قضى على أعمارهن؟ هل هو شخص مهووس جنسياً من الذين يشبعون شهواتهم عن طريق فرض الإذعان بالقوة فقط، أم أنه أحد الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات عقلية، ويحملون آلة تصوير فيديو، والذين يضطرون بعد ذلك إلى التخلص من الدليل؟ ألا يُحتمل أن يكون أحد التافهين غير الطبيعيين الذين ينظرون إلى النساء بصفتهم أشياء يمكن التخلص منها، ويحسُن أن يتخلّص المرء منهن بعد تعريضهن لمعاملة منحرفة؟ علمت أن كل هذه الاحتمالات واردة الآن.

تمنيت أن يكون كلوديل على صواب. أردت أن يعود تاريخ هذه العظام لزمان

طويل مضي. وتمنيّت أن تكون هذه العظام لفتيات دفنتهن عائلاتهن التكلّي في حقبة أخرى. أدركت في نفس الوقت شيئاً غير هذا. أدركت أنه يتوجّب عليّ مواجهة الحصول على الدليل، هذا إذا كنا ننوي المساعدة في التعرف على الضحايا. أخذتُ نفساً عميقاً، ونقرت زر التحميل، ثم فتحت ملفّ الأكروبات. اشتمل الإرسال على خمس صفحات: رسالة الغلاف، وتقرير تحليل الكربون الإشعاعي، وثلاثة رسوم بيانية توضح طريقة قياس أعمار الكربون الإشعاعي مع الأعوام الزمنية. تطلّعت على الأعمار التي تمّ قياسها من الكربون المشع المعتاد، ثم تنقلت بين منحنيات القياس، فتفجّرت الاحتمالات في ذهني. طبعت التقرير، وأسرعت إلى المختبر.

وجدت لامانش في مكتبه، واكتشفت أنه قد وضع شجرة الميلاد فوق الفوضى الموجودة على طاولة مكتبه، أو ربما تكون مساعدته قد قامت بذلك. قرعت الباب بهدوء مستخدمةً مفاصل أصابعي. رفع لامانش رأسه إلى الأعلى، وقال: "ادخلي يا تمبرانس من فضلك. هل سمعت الأخبار؟" نظرت نحوه باستغراب، فتابع يقول: "وجدت هيئة المحلفين أن السيد بيتيت مذنب بكل الأحوال".

- "متى؟"

- "البارحة".

- "أيّ هذه السرعة؟"

تطلّعت لامانش إلى الأوراق التي أحملها بيدي: "عندما أتصلت المدعية العامة قالت إنها متأكّدة أن شهادتك ستكون حاسمة في هذه القضية. أعتقد بالتأكيد أن ذلك ليس سبب وجودك هنا".

- "حصلتُ على نتائج اختبارات الكربون 14".

علّق بدهشة: "جاءت النتائج بسرعة".

لم أشأ أن أذكر له الكلفة الإضافية بل قلت: "إن ذلك المختبر فعّال جداً".

نهض لامانش وانضمّ إليّ حيث كنت أجلس إلى طاولة بيضاوية الشكل قرب طاولته. نشرتُ الأوراق المطبوعة، وانحنينا لتفحصها.

بدأت بالحديث: "هناك عنصران مهمان، النشاط الإشعاعي لمادة معيارية، والنشاط الإشعاعي لنموذج مجهول. سبق لنا أن ناقشنا ظاهرة التجارب النووية التي

أجريت فوق سطح الأرض، وتأثيراتها على مستويات الكربون 14. وإذا أردنا أن نبسّط هذه الظاهرة دعنا نفترض أن القيمة المعيارية للكربون 14 في العام 1950 هي مئة في المئة. إذا وجدنا أية قيمة تفوق هذه النسبة فإنها تمثل الكربون الناتج عن القنابل، أو الكربون الحديث، لذلك فإن وجود هذا النوع من الكربون يدل على تاريخ وفاة أحدث من العام 1950".

أشّرت على آخر رقم موجود تحت العمود المسمى العمر القياسي للكربون المشع، وتابعت القول: "تبلغ نسبة الكربون القياسي المشع العائدة للهيكول رقم 38428 120.5 بنسبة خطأ تساوي خمسة بالمئة".

- "أي أنها نسبة مئوية أعلى من مئة بالمئة للكربون الحديث".

- "أجل".

- "هل هذا يعني أن الفتاة توفيت بعد العام 1950؟"

- "أجل".

- "هل نستطيع تحديد طول المدة بعد العام 1950؟"

- "تتطلب هذه المسألة الكثير من الحذر. تصاعدت نسبة الكربون القياسي المشع إلى نسبة 190 بالمئة عندما حظرت التجارب النووية في الجو في العام 1963. لكن إذا بلغت نسبة الكربون المشع مستوى عالياً، يمكن أن يظهر القياس هبوطاً حاداً. وإذا افترضنا أن نسبة الكربون القياسي المشع قد بلغت قيمتها مئة وعشرين بالمئة، فإنها تدلّ على نقطة ما في المنحنى التصاعدي، أي عندما تزايدت مستويات الكربون، أو أنها تدلّ على نقطة في المنحنى التنازلي عندما تتناقص هذه المستويات".

- "وما هو مغزى هذا الكلام؟"

- "إنه يعني احتمال حدوث الوفاة في أواخر الخمسينيات، أو في أواسط أو نهاية الثمانينيات".

شُحِب وجه لامانش بشكل ملحوظ.

أشرت إلى الأرقام العائدة للهيكولين اللذين يحملان رقمي 38426 و38427، وقلت: "يبدو الأمر أسوأ هنا. إن النسبة الحالية للكربون القياسي المشع تبلغ حوالى مئة وسبعة بالمئة".

- "يا إلهي".

- "يعود تاريخ وفاة الفتيات إلى وقت متأخر مثل أوائل الخمسينيات، أو إلى وقت

قريب مثل أوائل التسعينيات".

- "هل ستبلغني السيد كلوديل بهذه النتائج؟"

شعرت بنوع من الانفعال وقلت: "أوه، نعم".

مدّ لامانش أصابعه ولمس شفّته السفلى بها، ثم قال: "إذا كانت الفتيات قد اختلفين خلال السنوات العشرين الماضية، فمن الممكن أن تكون أسماؤهن قد دخلت في ملفات جهاز الكمبيوتر. يتوجب أن نرسل هذه البيانات إلى سي. بي. أي. سي".

أشار لامانش إلى مركز معلومات الشرطة الكندية، وهو المركز الذي يماثل أن. سي. أي. سي، أي المركز القومي لمعلومات الجرائم الموجود في الولايات المتحدة.

إن مركز سي. بي. أي. سي، الذي تديره وكالة أر. سي. أم. بي الكندية، ومركز أن. سي. أي. سي، الذي يديره مكتب التحقيقات الاتحادي. يُعتبران بمثابة دليل على الكمبيوتر للمعلومات، ويحتويان على تواريخ السجلات الجنائية، ومعلومات عن اللاجئين غير الشرعيين، بالإضافة إلى الممتلكات المسروقة، كما يتضمنان معطيات عن الأشخاص المفقودين. وُضعت قاعدتا البيانات هاتين بتصريف الهيئات المولجة بحفظ القوانين، بالإضافة إلى الهيئات القضائية الأخرى، وذلك على مدار الساعة، وطيلة أيام السنة.

وضع لامانش يده على كتفي ما إن نهضنا، وقال: "يتعين علينا تكريس أنفسنا لهذا العمل يا تمرانس، كي نصل إلى حقيقة ما جرى".

كرّرت بنفس درجة مشاعره: "أوه، أجل".

تكلّمت مع كلوديل بعد ثلاثين ثانية عندما عدت إلى مكتبي. لكنه لم يساهم بالكثير في هذا الحديث.

- "ليس بهذه السرعة".

رحت أردّد على مسامعه ببطء شديد يصلح لتعليم اللغة الفرنسية: "ثلاثة.. ثمانية.. أربعة.. اثنان.. ستة، أنتى... بيضاء... العمر ما بين ستة عشر إلى ثمانية عشر عاماً... الطول ثمان وخمسين إلى اثنين وستين بوصة".

جاء صوت كلوديل حاداً بما يكفي لحصد القمح: "وحالة الأسنان؟"

- "ليس هناك ترميم، لكنني أخذت بالطبع صوراً بالأشعة السينية لما بعد الوفاة".

- "هل تتحدثين عن العظام التي كانت موجودة في الصندوق؟"

- "نعم".
- "ماذا بعد".
- "ثلاثة.. ثمانية.. أربعة.. اثنان.. سبعة. أنثى، بيضاء. يتراوح العمر ما بين خمس عشرة إلى سبع عشرة سنة. ويتراوح الطول ما بين أربع وستين إلى سبع وستين بوصة. ليس هناك من عملٍ على الأسنان".
- "هل تتحدثين عن العظام التي أخذت من الحفرة الأولى؟"
- "نعم".
- "تابعي".
- "ثلاثة.. ثمانية.. أربعة.. اثنان.. ثمانية. أنثى، بيضاء، يتراوح عمرها ما بين ثماني عشرة إلى عشرين سنة، ويتراوح الطول ما بين خمس وستين إلى ثمانٍ وستين بوصة. لاحظت وجود كسرٍ اكتمل شفاؤه في منطقة الكعبرة".
- "ماذا يعني هذا؟"
- "كسرت معصمها الأيمن قبل عدة سنوات من حدوث الوفاة. تحدث الكسور في منطقة الكعبرة عندما تنبسط اليدين لحماية الجسم من سقطة ما".
- "هل تتحدثين عن العظام التي استخرجت من الحفرة الثانية؟"
- "نعم".
- "ألا تحمل الهياكل أية صفات مميزة؟"
- "كان أحدها قصيراً، بينما يوجد كسر في نراع هيكلي آخر".
- "إننا نضيّع وقتنا إذا تبين لنا أن وفاة الفتيات قد حدثت في الخمسينيات".
- "يُحتمل أن لا توافقت عائلات الضحايا على هذا الرأي".
- "أعتقد أن أقرباء الضحايا، في حال وجودهم، سيكونون متفرقين، أو مضى وقت على وفاتهم".
- "أقدم الجناة على تعرية الفتيات قبل دفنهن في القبو".
- "إذا كانت الفتيات مرتبطات مع كاتانيو، فلربما كن مومسات".
- أخذت نفساً عميقاً. يبدو أن الرجل قد ذهب بعيداً في تخيلاته.
- "أجل، من المحتمل أن يكن مومسات ومذنبات بالخطايا الناتجة عن الجهل والحاجة. يُحتمل أن الفتيات قد فررن من بيوتهن، ووقعن بخطايا مفاهيمهن الخاطئة، وحظهن العائر. ويُحتمل أيضاً أنهن فتيات بريئات لعبت بهن يد الأقدار التي انتزعتهن

من حياتهن من دون ذنب. أعتقد يا سيد كلوديل أنهن يستأهلن شيئاً أفضل من قبر منسي في قبو تفوح منه رائحة العفن، وذلك بغض النظر عن طبيعتهن. لم نستطع مد يد العون للفتيات عند موتهن، لكن لربما نستطيع حماية فتيات أخريات من تلقي المصير نفسه في المستقبل".

فرض كلوديل فترة صمت، قبل أن يقول: "قلت سابقاً إن الهياكل لا تحمل آثاراً للعنف".

تجاهلت ملاحظته هذه، وترددت في إبلاغه أنني أعرف كل شيء عن زيارته لمنزل ساير، لكنني قلت له: "اكتشف كلانا... أن ريتشارد ساير هو صاحب البناية حالياً. اكتشفتُ أيضاً أن مالك البناية السابق هو نيك كاتانيو، وأن الفترة التي امتلك البناية فيها تقترب كثيراً من أحد المجالات التي حددها الكربون 14".

مرت فترة صمت طويلة وثقيلة، ثم سألتني: "هل تدرकिन المجالات التي يفتحها أمامنا تحليلك هذا؟"

أدرکت هذا جيداً. أجبتّه: "سأعيد فحص العظام لأتأكد إذا ما كان هناك شيء إضافي يمكنني مساعدتك به".

- "سيكون ذلك مفيداً".

عاد خط الهاتف ليرسل نغمته المعهودة.

اعتبرتُ كلوديل، على مدى السنوات الماضية، رجلاً عنيداً ومتصلباً في أفكاره، لكنني لم أرفض موافقه بصورة قاطعة. بدا أن هذه القضية ستهدد بعكس اتجاهي هذا. قمتُ بزيارة سريعة إلى الطابق السفلي لأتناول كوباً من القهوة. بعدئذ هاتفتُ أن لكي أَدعوها، على عجل، أن نتناول الغداء معاً. لكنها اعتذرت، كما كنتُ أخشى تماماً. أخبرتها عن نتائج اختبارات الكربون 14.

- "خذي وقتك مع العظام يا تمب، أما أنا فسأبقى هنا".

- "حسناً، لكن دعيني أعرف إذا ما غيرت رأيك، فأنا مستعدة للتغيير".

أنهيتُ الاتصال، ورتبتُ طاولتي للعمل، والطاولة الجانبية للمختبر، ثم نشرتُ الهياكل العظمية كلها على الطاولات. ظهر مارك بيرغبيرون عندما كنتُ منهمكة بتفحص العظمة الكبرى لساق الفتاة التي وجدت في صندوق الدكتور إنرجي.

إن قلتُ إن بيرغبيرون هو رجل فريد المظهر، فذلك يشبه قولي إن الكعك المحلى يحسوي على قدر كبير من السكر. يبلغ طول بيرغبيرون ست أقدام وثلاث بوصات،

ويحافظ جسده على انحناء دائم، أما وزنه فيقارب المئة وستين باونداً، لكنه يحافظ مع ذلك على رشاقة وتناسق طائر اللقلاق عندما يحاول عبور مجرى مائي.

يشغل بيرغرون مركز طبيب الأسنان الشرعي في كيبك. بقي هذا الطبيب لمدة ثلاثين عاماً يعمل على إصلاح وتعبئة فراغات أسنان الأحياء من أيام الاثنين حتى الخميس، أما أيام الجمعة فخصصها لفحص أسنان المتوفين. تبادلنا التحيات، وعبرت له عن دهشتي لرؤيته في المختبر في يوم الخميس.

- "سأشغل بالمشاركة في عرس لقریب لي، وسأتجه غداً إلى أوتاهو".

مشى بيرغرون نحو الخزانة، وتناول معطف مختبر من حمالة الثياب وارتداه. بدا المعطف مثل ملاءة سرير معلقة على فزاعة غير محشوة. مدّ بيرغرون يده باتجاه الهياكل العظمية: "وما هذه؟"

- "وجدناها في قبو مطعم البيترز".

- "هل مات أصحابها بسبب نوعية الطعام؟"

- "لا أعتقد ذلك؟"

- "هل ماتوا منذ زمن بعيد؟"

- "كل ما أعرفه هو أنهم ماتوا بعد العام 1950. هل لديك اقتراح ما؟"

أصلح بيرغرون ياقة المعطف ومسّد شعره الأجدد. يمتلك الرجل شعراً غريباً، فعدا عن كون الشعر أشيب وأجدد، فهو يبدأ على بعد ميل من حاجبيه. يدع بيرغرون شعره ينمو طويلاً جداً بعكس الموضة السائدة، بحيث يتطاير حول رأسه.

- "توحي اختبارات الكربون 14 أن الوفاة قد حدثت إما خلال الخمسينيات، أو خلال الثمانينيات والتسعينيات".

مشى بيرغرون نحو أحد الأدرج، وتناول مصباحاً صغيراً يعمل على البطارية، ثم أمسك بالجمجمة التي كانت في صندوق الدكتور إنرجي، وبدأ بتفحص أسنانها.

- "ألاحظ إهمال صحة الأسنان هنا. هل نزعنا ضرساً طاحناً ليكون عينة؟"
أومأت بالموافقة.

- "أفترض أنك طلبت أخذ صورة بالأشعة السينية أولاً".

فتحتُ مظروفاً بنياً يعود لملف قضية الهيكل الذي يحمل الرقم 38426، ثم أدخلت عشر شرائح صغيرة في الصندوق الضوئي. تفحص بيرغرون هذه الصور. التمتعت شعرة من الطرخشقون تحت الضوء الفلوري. لمس إحدى صور الأشعة السينية

بطرف إصبعه النخيلة قائلاً: "ليس هناك أشياء مهمة عدا التلف الشامل. لاحظت ناباً مائلاً في الجهة العليا اليمنى".

سألته: "هل تستطيع تقدير العمر".

- "سنة عشر عاماً، ولربما ثمانية عشر".

- "هذا ما اعتقده أنا أيضاً".

انتقل بيرغرون إلى الهيكل الذي يحمل الرقم 38428.

- "وجد هذا الهيكل العظمي ملفوفاً في كفن جلدي".

- "هل تعرّضت الجثة للتشريح؟"

صدمني سؤاله فقلت: "ماذا تعني؟"

- "لاحظت هذه الحزوز على عظمة الصدغ. هل من الممكن أن تكون قد حدثت

أثناء سحب الجمجمة؟"

- "لم أفكر بهذا الأمر من قبل".

حملنا الجمجمة إلى منظار التشريح. تفحصت العلامات أثناء تكبيرٍ منخفض، ثم

أثناء تكبيرٍ أعلى. انغمس بيرغرون بأفكاره.

- "يُحتمل أن تكون هذه عينات بيولوجية قديمة، أو هياكل عظمية لغرض

التعليم. ويُحتمل أن يكون أحد الأشخاص قد احتفظ بها من قبيل الفضول، ثم فقد

اهتمامه بها بعد ذلك، أو أنه قرّر أن الاحتفاظ بها هو أمر محفوف بالمخاطر".

فكرتُ بما قاله الطبيب، ولم أعتقد أن ما قاله هو حالة بعيدة الاحتمال.

- "لم ألاحظ وجود فجوات مثقوبة، ولا أجزاء من أسلاك، ولم أجد معالجة

كيميائية، أو تعديل ميكانيكي. لم تُجمع هذه العظام لأغراض العرض".

بدأت العلامات الصدغية بعد تكبيرها مثل أودية، أو منخفضات بشكل V. تواجد

بعضها بشكلٍ متوازٍ مع فتحة الأذن، بينما تبعثر بعضها الآخر حول زواياها. وتوحي

عملية القطع الدقيق على الأطراف، بوجود التلف بعد أن أصبحت العظمة جافة،

وخالية من اللحم.

- "لم تحدث هذه العلامات نتيجة استخدام مبضع جراحي. إنها واسعة جداً في

مقاطعها العرضية. ويبدو أن ترتيبها عشوائي بدرجة أكبر مما توقّعت حدوثة نتيجة

عملية تشريح. أعتقد أنها نتجت عن عملٍ حدث بعد الوفاة".

سيطرت عليّ فكرة غريبة، وبدأت هذه الفكرة تفرض نفسها في ذهني. لماذا

تأخذ هذه الحزوز شكل الحرف ٧؟ لا يُعتبر هذا الشكل معتاداً في حالة التلف، أو التآكل الطبيعي.

نظرت إلى الأعلى. انكبّ بيرغبيرون على الطاولة الثانية ليتفحص أجزاء الفك العائدة للهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38427.

أشرت إلى ظرفٍ أصفر اللون إلى جانب العظام: "ستجد الأسنان العلوية في ذلك الملف".

نشر بيرغبيرون صور الأشعة السينية للأسنان في صندوق الضوء.

- "يُحتمل أن تكون الضحية أصغر سناً بقليل، أي ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة".

- "هل ترى أي شيء له أهمية خاصة؟"

هزّ بيرغبيرون رأسه، فتحرك شعره الأجدد. أرجعت كسرات فك الهيكل الذي يحمل الرقم 38427 إلى مكانها، وعاد بيرغبيرون ليتفحص الهيكل رقم 38428، ثم رفع الجمجمة ووجّه مصباحه الصغير نحوها.

بدا صوت بيرغبيرون متلاشياً: "هناك شيء في هذه..."

- "ماذا؟"

رفع بيرغبيرون الجمجمة ليتفحص الفك، وصوّب ضوء المصباح نحو الأسنان السفلى.

- "أجل".

تركت المنظار لأنضم إليه.

- "ماذا؟"

- "يكفي هذا لينزع شكوكك بشأن تواريخ الوفاة".

ناولني بيرغبيرون الجمجمة والمصباح الصغير.

الفصل 21

- "أقلبي الجمجمة قليلاً، ثم حركي الضوء إلى الأمام وإلى الوراء، فوق الطواحن".
- نَفَذْتُ ما أمرني به بيرغرون.
- "هل ترينَ لمعاناً بين ثنايا طبقة الميناء؟"
- لم ألاحظ شيئاً.
- "أزيجي حزمة الضوء قليلاً".
- وجدت أن بيرغرون على صواب، لاحظت أن اللمعان كان خفيفاً لكنه حقيقي، ولاحظت أيضاً أنه موجود في أسفل الأضراس.
- "ما هذا؟"
- "إن لم أكن مخطئاً فإن الطواحن قد عولجت بالحفر، وبوضع مادة لسد الفجوات".
- رفعت نظري فوجدت بيرغرون يحرك المنظار. لم يكن الرجل مزاجياً بالتأكيد في حركته.
- "إن مادة سد الفجوات هذه هي طبقة رقيقة من مادة صمغية بلاستيكية، توضع فوق أسطح الطواحن التي تقوم بعملية المضغ. تظلي هذه المادة وكأنها سائل، ولا تمضي دقيقة حتى تتصلب لتشكل حجاباً واقياً".
- "وما هو الهدف من ذلك؟"
- "إنها مادة تمنع النخر، أي تسوس الأسنان".
- دسّ بيرغرون الفك الأسفل للهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38428، تحت عدسة المجهر، وحدّق من خلالها، وعدّل درجة التركيز.
- "تعم أيتها السيدة. إنها مادة سدّ الفجوات".
- بدأ بصيص الأمل يتحرك في صدري.

- "متى وُضعت هذه المواد التي تسدّ الثقوب موضع الاستخدام".
أجابني بيرغبيرون من دون أن ينظر نحوي: "توفّرت أولى هذه المواد بشكل تجاري، وقدمت لأطباء الأسنان في أوائل السبعينيات. وانتشرت بشكل واسع منذ الثمانينيات".

تزايدت حركة بصيص الأمل في صدري. من غير المحتمل إذاً أن يكون موت الفتاة ذات الكفن الجلدي قد حصل في أعوام الخمسينيات! إذا أجرينا بعض الاختزال سنجد أن وقت الوفاة يقفز نحو أواخر الثمانينيات!

حاولت أن أبقى صوتي هادئاً، وسألته: "ما هو مدى انتشار هذه المواد؟"

- "كانت منتشرة جداً، لسوء حظ العاملين في حقل الطب الشرعي. ينصح معظم أطباء الأسنان بوضع هذه المادة فور بروز الطواحن الدائمة. زاد في انتشارها أيضاً البرامج المستندة إلى المناهج المدرسية في معظم الولايات الأميركية، وذلك منذ عشرين سنة على الأقل. وتعتبر كندا متخلفة قليلاً في هذا المجال، لكن هذه المواد لقيت انتشاراً واسعاً هنا منذ أواسط الثمانينيات".

أطفاً بيرغبيرون الضوء الذي يستخدم الألياف البصرية، وركّز اهتمامه الآن على الفتاة التي وُجدت في صندوق الدكتور إنرجي: "لم تساعد المواد التي تسدّ الفجوات هذه الشابة كثيراً، فلديها من التسوس أكثر ممّا لدى الفتاة الأخرى".

- "إذاً ذهبت هذه الفتاة إلى طبيب الأسنان مرة واحدة، ثم امتنعت عن متابعة الاهتمام بأسنانها".

- "إنه نموذج غير نادر بالنسبة لمن يتركون منازلهم ويتجهون إلى الشوارع. يهتمّ الأهل بصيانة أسنان أولادهم طالما هم في المنزل، ثم يغادر الأولاد إلى الشوارع، حيث تضطرب الأنظمة الغذائية والصحية لديهم، وتعاني أسنانهم نتيجة لذلك".

- "كم بلغت من العمر؟"

عاد بيرغبيرون إلى الطاولة التي تحمل الضوء، وتفحص صور الأشعة السينية لأسنان الفتاة التي تحمل الرقم 38428.

- "يبدو أنها أكبر قليلاً من الأخريات. سأقدّر عمرها ما بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين".

لاحظت مجدداً أن تقديرات بيرغبيرون كانت متوافقة مع ما لاحظته أنا من خلال

دراستي لهذه العظام.

- "هل هناك دليل على وجود تلك المادة عند الفتاتين الأخريين؟"

أعاد بيرغرون تفحص أسنان الفتاتين اللتين تحملان رقمي 38426 و 38427. وبدا أنهما لم تتلقيا هذا العلاج.

- "من المؤسف أن أياً منهما لم ترمم أسنانها. أعلميني إن كنت أستطيع تقديم أية مساعدة أخرى لك".

- "ساعدتني كثيراً".

انطلقت بأقصى سرعتي نحو مكتبي واتصلت بكلوديل.

عرفت أن كلوديل وشاربونيو مرتبطان بمقابلة، لذلك لا يمكنني مقاطعتهما. تركت رسالة لهما أطلب منهما الاتصال بي بأسرع ما يمكن. رجعت إلى مختبري، وتناولت قطعة منكسرة من الفك الذي تركه بيرغرون قرب المجهر. لاحظت أثناء إرجاعي لهذه القطعة إلى ملف الرقم 38427 شقاً دقيقاً على النتوء المفصلي للفك الأيمن.

عدت إلى المجهر.

وجهت حزمة الألياف البصرية، بعد إمالتها قليلاً، نحو العظمة، فوجدت شقين إضافيين على الفرع الصاعد من الفك، وأخدوداً صغيراً جداً على زاوية الفك. تفحصت بعد ذلك القسم الأيسر من الفك، فلم تظهر أية شقوق ولا أخاديد. تفحصت الجمجمة، ولم تظهر أية شقوق ولا أخاديد.

تفحصت كل الكسرات المتناثرة التي اقتطعت من عظام الخد الأيمن، وتمكنت بمساعدة هذا الضوء من ملاحظة ستة أخاديد سطحية يبلغ طول الواحد منها حوالي الخمسة مليمترات. لاحظت أنها منتظمة على شكل ثلاث مجموعات، تتألف كل مجموعة منها من أخدودين.

رزح هم آخر في ذهني، فزدت قوة تكبير المجهر. لاحظت أن هذه الشقوق والأخاديد بدت مختلفة عن تلك العائدة إلى الهيكل رقم 38428، مع أنها غير طبيعية بشكل واضح. أخذت هذه الشقوق والأخاديد شكل الحرف v، لكنها كانت أضيق بكثير في عرضها المقطعي، بالإضافة إلى أنها بدت أكثر دقة عند أطرافها. إنها تشبه العلامات التي يتركها مبضع جراحي على عظمة حية.

استرخيت في مقعدي، وبدأت أفكر بمغزى هذه الظاهرة. أعدت في ذهني تركيب

كل القطع التي تولف الجمجمة، ووصلت أجزاء الفك. تبين لي أن الشقوق تركزت حول فتحة الأذن.

ماذا يجري بحق الجحيم؟ هل هي صدفة؟ أم عمل شرير؟ لاحظت وجود شاربونيو بينما كنت أهم بتفحص جمجمة الفتاة التي كانت في صندوق الدكتور إنرجي وفكها. وقف شاربونيو خلف النافذة التي تشرف على حوض الغسيل. أشرت إليه بدخول مكتبي. نزعت قفازي، وغسلت يدي، ثم عبرت القاعة. وجدت شاربونيو جالساً جلسته التقليدية في الكرسي المواجه لطاولتي، وقد مدّ رجليه وأرخى كتفيه. ارتدى لهذا اليوم سترة بلون التوت البري اللامع، مثل اللمعان الذي تتمتع به تلك المادة التي تسدّ تقوُب الأسنان.

- "هل السيد كلوديل منشغل باجتماع مع لجنة نوبل هذا الصباح؟"
خفّض شاربونيو ذقنه، وأغمض عينيه، وفتح راحتي يديه، ثم قال: "ماذا تقصدين؟ ألا أكفي أنا؟ إن لوك مشغول بالفعل."
- "هل يأخذون قياساته عند إرمينغيلدو زينا؟"
نظر شاربونيو إليّ وكأنني تكلمت باللغة الأتروسكية، فأوضحت له: "هناك يصنعون البذلات".

كتم شاربونيو ابتسامة عريضة كانت على وشك الظهور على شفتيه، وقال: "إنه منهمك بتفحص لائحة المستأجرين التي أعطاه إياها ساير."
ارتفع حاجباي نتيجة الدهشة: "أحقاً؟"
- "أصل أوتبيه هاتيفاً".

لا بد أن لامانش تحدّث مع رئيس المحققين، ولا بد أن هذا الأخير أمره بالتحقيق جدياً في قضية قبو مطعم البييتزا.

- "يبدو أنه لم يكن هناك الكثير من الحبور في ما قاله أوتبيه. أليس كذلك؟"
- "لوك يعتبر التعليقات وكأنها إرشادات مقترحة."
شرحت له الأشياء التي اكتشفها بيرغرون.

- "هل بيرغرون مقتنع أن تلك المادة هي مادة سدّ الفجوات؟"
- "بالتأكيد. أعتقد أن هذا هو ما يسميه الصحفيون التعزيز المستقل للوقائع."
- "تستطيع القول إذاً إن واحدة على الأقل من الضحايا قد توفيت في السبعينيات، أو في وقت لاحق".

- "وضعت اختبارات الكربون 14 مدة الوفاة في نطاقين، الأول في الخمسينيات، أما الثاني فكان الثمانينيات".

- "أعتقد أنه يجب علينا التركيز على الثمانينيات".

- "أعتقد أن هذا هو ما فعله".

- "هل تتكلمين عن الفتاة ذات المعصم المكسور؟"

أومأتُ بالموافقة: "إنه الهيكل الذي كان ملفوفاً بكفنٍ جلدي".

هبطَ شاربونييو واقفاً: "يا له من سافل! سأدخلُ معطياتها إلى الحاسوب على الفور".

لم يكد شاربونييو يخرج من الباب حتى رنَّ الهاتف. كان آرت هوليداي هو الذي يتصل من فلوريدا.

- "هل حصلت على تقرير الكربون 14؟"

- "نعم، وشكراً لك. أقتر لك تحويله إليّ بهذه السرعة".

- "إننا نهدف لإرضاء زبائننا، لكن اسمعيني، فلربما لديّ شيء آخر لك؟"

كنت قد نسيت عرض هوليداي لإجراء اختبارات إضافية.

- "ما زالت اختبارات تحليل نظائر السترونتيوم في مرحلة الاختبار بالنسبة لأغراض التحقيقات، لكننا استطعنا تطبيق هذه التقنية على قضايا في الطب الشرعي. استطعنا في إحدى الحالات أن نحدد الموطن الأصلي لستة غزلان ذات ذيول بيضاء. استخدمنا القرون في هذه الدراسة مع علمنا بالطبع أن هذه الغزلان لا بد أن تأتي من إحدى ولايتين. عرفنا أننا نتعامل مع منطقتين جغرافيتين منفصلتين من ناحية النظائر، واستطعنا الانطلاق من هذه المعلومة لقياس المجموعات الرئيسية في الاختبار. سهل هذا الأمر مهمتنا إلى حد كبير".

تعلمت على مدى السنين أن من المستحيل أن أحمل آرت هوليداي على التعجيل في عرض ما لديه. إنه يفرض عليك أن تسير مع سياق كلامه، وأن تستمع جزئياً إلى التفاصيل، وذلك قبل أن تركز على الاستنتاجات التي يقدمها.

- "إننا نحرز نتائج طيبة في تفحصنا لأنماط الهجرة والاستيطان، وذلك بالنسبة للسكانين القدامى في مناطق معينة".

ذكرني كلامه هذا بأمر يتعلّق بالآثار، فسألته: "هل مجموعتك هي التي تقوم بتحليل المكتشفات القديمة في ولاية أريزونا؟"

- "تعود هذه المدفونات إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. إننا نعرف أن عملية البناء والاستيطان في بعض القرى الهندية الأكبر حجماً قد استغرقت عدة أجيال. سكن مئات من الناس في هذه القرى، وهناك احتمال بأن يكون هؤلاء خليطاً من السكان القدامى وبعض المهاجرين الذين أتوا من الخارج. إننا نحاول أن نوضح هذا الأمر".

- "هل باستطاعة اختبار تحليل نظائر السترونتيوم أن يفصل القادمين الجدد عن الساكنين القدامى للمكان".

- "أجل".

بدأت الأفكار تحوم في ذهني من جديد، فسألته: "هل تستطيع هذه التقنية أن تحدد أين عاش هؤلاء؟"

- "إنها تتمكّن من ذلك إن كان لديك عينات مرجعية. يمكن لعملية تحليل السترونتيوم، في بعض الحالات، أن تحدد منطقة ولادة شخص ما كان قد انتقل من منطقة جغرافية معينة إلى منطقة أخرى. يستطيع هذا التحليل، بالإضافة إلى ذلك، أن يحدّد المكان الذي أمضى فيه ذلك الشخص السنوات الست الماضية من حياته".

وصلت الأفكار إلى سرعتها القصوى. تناولت قلماً وورقة وقلت: "أريدك أن تعود إلى الوراء، وتبدأ من البداية. ولا أريدك أن تستخدم كلمات تحمل أكثر من ثلاثة مقاطع".

- "توجد أربعة نظائر مستقرة لمادة السترونتيوم، وهناك نظير واحد هو سترونتيوم 87، ينتج عن التفكك الذي يتعرّض له عنصر الروبيديوم 87. يبلغ نصف عمر هذا العنصر 48.8 مليار سنة".

- "إنه أبطأ بكثير من الكربون 14".

- "إنه أبطأ بكثير من كلبّي العجّز سباد".

- "سباد؟"

استرسل آرت في شرحه من دون أن يكثرث للتشوش الذي أحدثته عندي إشارته إلى سباد: "تظهر طبيعة تكوين الأرض في أميركا الشمالية تغييرات كبيرة في عمرها. سأعطيك مثلاً هنا: يتراوح عمر قشرة سطح الأرض ما بين أقل من مليون سنة في هاواي، وما يزيد قليلاً عن أربعة مليارات سنة في بعض أنحاء المقاطعات الشمالية الغربية لكندا".

- "هل يفسر هذا الأمر الفروقات في قيم السترونتيوم في تربة وصخور المناطق المختلفة؟"

- "نعم. لكن مثل هذه الفروقات تنتج أيضاً عن تغييرات في تركيب طبقة الصخور".

- "عندما تستخدم عبارة قيمة، هل تعني نسبة السترونتيوم بالنسبة لنظيره المستقر؟"

- "تماماً. إن نسبة السترونتيوم 87 بالنسبة لنظيره السترونتيوم 86، هي الأمر المهم هنا، وليس المستوى المطلق لكل واحد منهما".
سمحت له بإكمال شرحه.

- "سأعطيك مثلاً آخر وهو الحمم البازلتية، والأحجار الجيرية، والرخام، وهي تتميز جميعها بنسب سترونتيوم منخفضة. نعرف بالمقابل أن نسب السترونتيوم في الحجر الرملي، والصخر الصلصالي، والغرانيت، هي أعلى عادةً، بينما تكون هذه النسب في حدها الأقصى في المواد الطينية".

- "وهكذا نرى أن الفروقات في الأعمار الجيولوجية، وتركيب الطبقات الصخرية هي المسؤولة عن التغيرات في نسب نظائر السترونتيوم في مختلف المناطق الجغرافية".

- "بالضبط. لكن علينا ألا ننسى أمراً واحداً وهو أنه نظراً لطبيعة النسب التي يصعب تذكرها مع وجود تلك الكسور العشرية، فإننا نلجأ عادة إلى مقارنة نسبة سترونتيوم سبق قياسها مع النسبة العامة لعنصر السترونتيوم في الأرض بكاملها. إذا كانت النسبة التي سبق قياسها هي أكبر من تلك النسبة العامة للأرض، فستعطينا قيمةً إيجابية. وإذا كانت أصغر من النسبة العامة، فستعطينا قيمةً سلبية".

- "وما علاقة كل هذا مع تحديد المكان الذي وُلد فيه الإنسان؟"

- "تعرف أن السترونتيوم هو معدن ترابي وقلوي، وهو مشابه من الناحية الكيميائية للكالسيوم".

ربطت هذه المعلومات في ذهني: "تمتص النباتات السترونتيوم من التربة والماء. تأكل العشبيات النباتات، وهكذا بالنسبة لباقي عناصر السلسلة الغذائية".

- "أنت ما تأكله".

- "إذاً يقوم تركيب نظير السترونتيوم الموجود في عظام الكائنات الحية وأسنانها

بإظهار تركيب السترونتيوم في الوجبات الغذائية التي تناولتها في فترة تكون هذه العظام".

- "أرى أنك فهمت العملية بكاملها".

- "اعتادت جدتي أن تقلق بشأن السترونتيوم الموجود في طعامها".

- "لم تكن جدتك الوحيدة في ذلك. خضعت عملية التغير البيولوجي للسترونتيوم للدراسة بشكل شامل في سنوات الخمسينيات. ويعود ذلك لخوف الناس من دخول سترونتيوم 90 المشع إلى الأجسام بسبب الاختبارات السطحية للأسلحة النووية". بدأت الأمور تتضح أكثر فأكثر.

- "إنك تقول إن السترونتيوم يدخل في عظام الإنسان، وفي أسنانه مثل الكالسيوم تماماً".

- "صحيح".

- "يتم استبدال الكالسيوم في الهيكل العظمي البشري على مدى دورة تستغرق ست سنوات تقريباً".

- "أجل".

- "وهكذا إذا يُظهر السترونتيوم الموجود في العظام طبيعة الوجبة الغذائية للشخص على مدى ست سنوات من حياته، وهذا ما يفعله تماماً الكالسيوم الموجود في العظام".

قال آرت: "يتراوح المدى ما بين ست وثمانى سنوات".

- "لكن مستويات الكالسيوم لا تتغير في طبقة المينا من الأسنان مثلما يجري في العظام. تبقى طبقة المينا ثابتة ما إن تتكون".

- "ويصح الشيء نفسه بالنسبة للسترونتيوم، وهكذا تستمر طبقة المينا في الأسنان بإظهار تركيب نظير السترونتيوم ذاته الذي يدخل إلى الجسم أثناء تكون الأسنان، وذلك عن طريق الوجبات الغذائية".

- "وهكذا إذا غادرت فتاة ما المكان الذي ولدت فيه وانتقلت إلى مكان آخر أثناء فترة تكون أسنانها، فستتغير عندها مستويات السترونتيوم الموجودة في أسنانها عن تلك الموجودة في عظامها، فيما تبقى هذه المستويات متشابهة إذا بقيت في مكانها".

- "هذا صحيح تماماً. توحى قيم السترونتيوم الموجودة في المينا بمكان الولادة وفترة الطفولة المبكرة. وتوحى القيم الموجودة في العظام بمكان الإقامة خلال السنوات

الأخيرة من عمر الإنسان".

صعقتني فكرة طرأت على ذهني: "ألا يأتي طعامنا عن طريق الشبكات الوطنية والعالمية في هذه الأيام؟"

- "إننا نشرب المياه الآتية من مصادر محلية. إننا نفعل هذا غالباً على الأقل".
- "هذا صحيح. أخبرني الآن ماذا فعلت بالعينات التي أرسلتها لك".
- "قمنا بطحنها بعد أن أزلنا عنها كل المواد الغريبة الأخرى. أقدمنا بعدها على فصل السترونتيوم باستخدام طريقة تبادل الأيونات في التصوير الكروماتي. حللنا السترونتيوم ونظفناه باستخدام القياس الطيفي للكتلة عن طريق التحويل إلى أيونات باستخدام الحرارة. جمعنا بعد ذلك نسب السترونتيوم عن طريق الجمع المتعدد للتحليل الديناميكي..."
- "آرت".
- "نعم؟"
- "ماذا وجدتم؟"
- "وجدنا أن إحدى فتياتك قد تجولت كثيراً في عدة أماكن من هذا العالم".

الفصل 22

- "تابع".
- "دعينا نتحدّث عن الأسنان أولاً. تتطابق قيم السترونتيوم الموجودة في الأسنان لدى اثنتين من فتياتك".
- "أيّ فتاتين منهما؟"
سمعتُ حفيف أوراقٍ في الطرف الآخر.
- "دعيني أتأكّد... الفتاتان اللتان تحملان رقمي 38426 و38427. أتوقّع أن تتراوح معدلات قيم السترونتيوم في وجباتهما الغذائية بين تسعين وما فوق، وبين مئة وخمسة وما فوق. لاحظت مع هذا أن الفتاة رقم 38428 متميزة من الناحية الإحصائية. يوحي تركيب نظير السترونتيوم الموجود في عينة أسنانها، أنها تناولت في طفولتها وجبات غذائية تحمل معدل قيمة سترونتيوم يتراوح ما بين خمسين وما فوق، وبين ستين وما فوق".
- "هل يعني ذلك أن الفتاة رقم 38428، لم تولد في نفس منطقة ولادة الفتاتين الأخريين؟"
- "هذا صحيح".
- "هل تستطيع أن تقول لي أين وُلدت إذا؟"
- "يبدأ التشويق هنا. تلقينا في السنة الماضية قضية بقايا مبعثرة كانت في برميل، وُجد في قبو منزل أحد المدمنين على المخدرات في ديترويت. عرفت الشرطة أن هؤلاء الضحايا كانوا شركاء تاجر المخدرات الذي يمتلك المنزل، لكنها أرادت جمع عظام كل ضحية على حدة.
لم يجر الضحايا ترميمات لأسنانهم، وكانوا كلهم من السود، وفي منتصف العشرينيات من أعمارهم، ويتميزون بنفس الحجم تقريباً. عرفنا أن أحد الضحايا الثلاث وُلد في شمال وسط كاليفورنيا، بينما كان الآخر من كنساس، أما الأخير فكان

من مواطني ميتشيغان المحليين.

لم تكن لدينا مجموعات بحث رئيسية في المناطق الثلاث العائدة لهذه القضية، وهكذا كان علينا أن نستنتج التركيب النظائري للسترونتيوم، الذي تناوله الضحايا في وجباتهم الغذائية، من طبيعة تكوين الأرض في كل منطقة. وتعين علينا بعد ذلك أن نعود للعظام المختلفة في البرميل. هل ما زلتِ معي؟"

- "أجل، ما زلت معك".

- "إن شخصاً أمضى طفولته في شمال ووسط كاليفورنيا، لا بد أن يمتلك قيم سترونتيوم تتراوح ما بين ثلاثين وما فوق، وبين ستين وما فوق. لاحظي أن القيم التي وجدت لدى الفتاة رقم 38428 تقع في هذا المجال بالضبط".

سمعت حفيف الأوراق التي قلبها آرت، وبقيت لحظة كالمأخوذة.

- "هل يعني هذا أن فتاتي هي من كاليفورنيا؟"

- "إنه يعني أن هذا الاحتمال موجود. يبدو لي أن هذه هي نقطة انطلاق ممتازة، هذا إن لم يكن لديك واحدة أفضل. يبقى احتمال أن تكون من منطقة أخرى تتميز بنفس خصائص طبيعة تكوين الأرض فيها".

- "ماذا عن الفتيات الأخريات؟"

- "عالجنا قضية منذ سنوات قليلة تتعلق ببقايا مختلطة استخرجت من قبر جماعي في فييتنام. امتلك الجيش هوية جنديين، لكنه أراد أن تفصل عظام كل جندي على حدة. قال لنا الجيش إن أحد الجنديين نشأ في شمال شرق فيرمونت، أما الآخر فكان من يوتاه".

لم يعطني آرت فرصة مقاطعته.

- "دلّتنا دراسة تركيب نظير السترونتيوم للمياه الجوفية التي أجريناها قرب سانت جونزبوري في فيرمونت، على أن القيم المقترحة كانت في حدود أربعة وثمانين وما فوق، وبين أربعة وتسعين وما فوق. توافق فحص قيم السترونتيوم لأسنان أحد الجنود مع هذا النطاق تماماً".

- "أتعني الجندي الذي سكن في فيرمونت".

- "أجل. يبدو أن فحص أسنان الفتاتين 38426 و38427 قد أعطى نتائج متطابقة مع هذا النطاق".

- "أتعني أن الفتاتين هما من سكان فيرمونت؟"

- "لا تقفزي إلى الاستنتاجات. تمتدّ تكوينات الطبقة الصخرية نفسها حتى كيببوك. إن ما أقترحه هو أن قِيم السترونتيوم للفتاتين الأخريين، تتطابق مع تلك التي يمكنني توقعها من الأشخاص الذين ولدوا في تلك المنطقة، أي حيث وُجدت البقايا".

- "أتعني منطقة مونتريال؟"

- "أجل. دعينا الآن ننقل للحديث عن العظام. لاحظت أن قِيم السترونتيوم في أسنانها تتشابه مع هذه القِيم في عظامها".

- "أتعني أنهما لم يتبعدا كثيراً عن موطنهما الأصلي؟"

- "صحيح. لكن الفتاة رقم 38428 لها شأن آخر".

انتظرت بصبر.

- "إن قِيم السترونتيوم في عظامها هي أعلى من قِيم السترونتيوم في أسنانها، وأكثر من ذلك، لاحظت أن قِيم السترونتيوم في عظامها تتشابه كثيراً مع قِيم السترونتيوم للفتاتين 38426 و38427".

- "أتعني الفتاتين اللتين بقيتا في منطقتهم؟"

- "أجل".

استغرقتني الأمر عدة لحظات لاستيعاب هذه المعلومة.

- "هل تريد أن تقول إن الفتاة رقم 38428 قد نشأت في مكان معين، لكنها أمضت آخر الأعوام القليلة من حياتها في مكان آخر".

- "يبدو الأمر هكذا".

- "وإنها ربما نشأت في شمال وسط كاليفورنيا".

- "أو في منطقة مشابهة لها من حيث النظائر".

- "لكن مع احتمال أن تكون قد انتقلت إلى كيببوك، أو فيرمونت".

- "أو إلى منطقة مشابهة لهما من حيث النظائر".

لم أستطع تأجيل إبلاغ هذه المعلومات هاتفياً لشاربونيو.

- "هذا رائع يا آرت".

- "إننا نهدف لإرضاء زبائننا. دعيني أعلم عندما تتعرفين على هويات

السيدات".

شعرت بإثارة كبيرة إلى درجة أنني طلبت الرقم الخطأ، وتعيّن عليّ النقر على الأرقام مرة ثانية. اكتشفت أن شاربونيو كان خارج مكتبه، وكذلك الأمر مع كلوديل.

وهل تواجدا يوماً حينما احتجتكما؟

تركت لهما رسالة صوتية مع عاملة الهاتف، ثم تركت رسالة رقمية على جهاز الاتصال الرنان لدى شاربونييو، وعدت إلى مختبري.

أخذت جمجمة الفتاة التي وجدت في صندوق الدكتور إنرجي وفكّتها إلى المجهر، لكنني توقّعت الأشياء التي قد أكتشفها.

رأيت خمسة أحاديث دقيقة، اثنتان منها في الجهة العليا من القناة السمعية الواقعة على العظمة الصدغية، أما الثلاثة الباقية فهي في المنطقة الخلفية لتلك المنطقة. أجريت تكبيراً لهذه الأحاديث فبذت مشابهة لتلك الموجودة عند الفتاة رقم 38427. لم أستطع رؤية أي شيء على الفك، أو على العظام القحفية الأخرى.

يا إلهي! أي رعب تعرّضت له هذه الفتيات؟

اتّصلت بي آن عند الساعة الواحدة والخمس عشرة دقيقة. بدا صوتها كسولاً وهادئاً. اعتذرت لي عن كونها رفيقة سيئة طيلة الأسبوع الذي مضى، ثم أخبرتني أنها تفكّر بالمغادرة. وقالت إنها لا تريد أن تتقل على ضيافتي أكثر من ذلك. أكّدت لها أنها لا تتقل عليّ مطلقاً، وأضفت أنني أستمتع برفقتها كثيراً. أيقنت أن قرارها ذاك كان نتيجة مزاجها الحالي، لكنني شجعتها على التفكير بالبقاء حتى تستطيع اختيار مكان أفضل لتذهب إليه.

اتّصل بي شاربونييو عند الساعة الواحدة والأربعين دقيقة.

- "إن البرد هنا يماثل ذلك الموجود في القطب الشمالي".

لم تكن كل تعابير شاربونييو تكسافية المصدر.

- "هل أجريت بحثاً في مركز سي. بي. أي. سي؟"

- "أجل".

سمعت صوت خريشة ورق السلوفان.

- "أجريت البحث على هاتين القضيتين بطريقتين، لأننا لا نعرف إذا ما كانت الفتاتان اللتان لم تستخدماً مادة سدّ الفجوات قد توفيتا قبل الفتاة التي استخدمت هذه المادة. طلبت البحث أولاً عن كل الفتيات المختفيات في سنوات التسعينيات".

- "تبدو هذه خطوة على الطريق الصحيح بالنظر إلى نتائج الكربون 14".

- "أتت بعض الأسماء قريبةً من النطاق الذي نبحث فيه، لكننا لم نحصل على

نتيجة أكيدة تماماً".

بدا شاربونيو وكأنه يأكل شيئاً يشبه الكراميل أو التوفي.

- "لجأت بعد ذلك للطريقة الثانية، فأبقيت تاريخ الاختفاء مفتوحاً. حصلت على ما توقّعت، وذلك من دون معطيات الأسنان، ومن دون تفاصيل، ومن دون تواريخ".

- "هل وجدت الكثير من الأسماء؟"

- "تكاد اللائحة تصل حتى بومفوك الشرقية".

- "ماذا بشأن الفتاة رقم 38428؟"

- "حصلت على كل المعطيات التي تعود إلى ما قبل العام 1980. لاحظت أنه إذا أدخلنا المعصم المكسور بالحسبان سنتقلّب اللائحة. حصلت عند ذلك على أسماء قليلة تقترب من المواصفات التي نبحث عنها، لكنني لم أجد لها أي صلات بذلك المكان. سيساعدنا تحديد المكان الذي عاشت فيه الفتاة".

- "ماذا لو قلنا إنها عاشت في شمال وسط كاليفورنيا؟"

- "أجل، أي شيء من هذا القبيل".

- "أنا جادة".

توقّف شاربونيو عن المضغ، وقال: "أنتِ تمزحين".

أخبرت شاربونيو الأشياء التي عرفتتها من آرت هوليداي، لكن بعد أن بسطت له الكيمياء الحيوية، وفيزياء الأرض.

- "سيصدموك حالما يعرف".

- "يتعيّن عليك أن ترسل مواصفاتها إلى ما وراء الحدود الجنوبية".

- "سأرسلها إلى مركز أن. سي. أي. سي. اعتبري أن ذلك قد تم فعلاً. سأرسل

هذه المواصفات إلى شرطة ولايّي فيرمونت، وكاليفورنيا".

- "لكن هذا سيحدث ضجة".

- "لا ضيرَ من ذلك".

- "ما عدا صدمة زميلك".

ضحك شاربونيو: "سأبلغه أنك قلتِ هذا".

- "هناك شيء آخر".

- "أبلغيني بما عندك".

وصفت له الحروز والأخايد.

- "أنتظنين أن هذه العلامات هي نتيجة استعمال مبضع جراحي؟"
- "أو نتيجة استخدام شفرة حادة دقيقة الحافة."
- "هل تتحدثين عن الهياكل العظمية الثلاث جميعها؟"
- "أجل، لكن العلامات على الهيكل المكفّن تختلف قليلاً عن تلك الموجودة على الهيكلين الآخرين."
- "بماذا تختلف؟"
- "ليست بالدقة نفسها، كما لاحظت وجود عمليات قطع أكثر على الأطراف."
- "هل يعني ذلك أن آلة أخرى قد استخدمت؟"
- "هذا ممكن، ويحتمل أيضاً أنها حدثت بعد جفاف العظمة. يبقى احتمال آخر، وهو أن لا تكون هذه العلامات نتيجة عملية قطع أو حز على الإطلاق، أي أن تكون نتيجة عمل حرفي يشبه علامات التقطيع، لكنها حدثت بعد الوفاة."
- "أيعقل أن تكون هذه خدوشاً نتجت عن عملية جراحة، أو أي شيء من هذا القبيل؟"
- "هذا محتمل."
- "لا تبدين مقتنعة."
- تخيلت الجماجم، بما فيها من فكوك، في ذهني: "يبدو لي أن هناك نمطاً معيناً... تحيط هذه العلامات بفتحة الأذن اليمنى."
- "عن أي هيكل تتحدثين؟"
- "أتحدث عن الهياكل الثلاثة."
- "ألا توجد علامات في أمكنة أخرى؟"
- "لا."
- "يا إلهي! أعتقد أن أحدهم كان يقطع الأذان؟"
- عبرت هذه الفكرة في ذهني.
- "لا أعرف."

أمضيت بقية فترة ما بعد الظهر مع فتيات قبو مطعم البيترز، وذلك بعد أن أبلغت لامانش بما علمته من آرت هوليداي. تعودت أن أفكر بهن بهذه الطريقة، أي فتياتي فتياتي الضائعات.

أعدت فحص كل عظمة، وكل كسرة عظام، وكل سن. درست صور الأشعة السينية للأسنان، وللعظام الأخرى. أعدت فحص التربة، وانكبتت على دراسة الأزرار.

أظلمت النوافذ وهدأت القاعات في الوقت الذي انتهيت فيه. أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والعشرين دقيقة، ولم أكتشف أي شيء جديد على الإطلاق. أغضت عيني، وشعرت بالحزن لفشلي باكتشاف أسماء الفتيات، كما شعرت بالغضب بسبب فشلي في إقناع كلوديل. اجتاحني إحباط كبير أيضاً بسبب فشلي في إدراك معنى وجود الأزرار، وشعرت بالذنب نتيجة فشلي بملاحظة وجود آثار الحزوز قبل اكتشاف بيرغرون لها.

لماذا لم ألاحظ هذه العلامات؟ تذكرت أنني قوطعت عدة مرات، وأدركت أنني كنت أعمل على هذه القضية من جوانب عدة، وأن العلامات كانت غير مرئية تقريباً، لكن كيف أغفلت عن ملاحظة شيء يمثل هذه الأهمية؟

فشل هنا، فشل هناك، وفشل في كل مكان، وما من قطرة نجاح واحدة. تذكرت فشلي مع آن، وتذكرت فشلي مع رايان. صرخت من دون وعي: "رايان".
- "نعم".

فتحت عيني، ورأيت رايان واقفاً قرب الباب وقد ألقى معطفه على كتفه وحمله بإصبعه. وقف رايان يتأملني، ووجهه يحمل تعابير لم أستطع تفسيرها. رفع رايان يده وفتح راحته، ثم قال: "أعرف. ستقولين ماذا تفعل هنا؟ صحيح؟"
بدأت بالكلام، لكن رايان قاطعني.

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "إنني أعمل في الطابق السفلي هنا. إنني رجل شرطة كما تعلمين".

أصلحت من جلستي، وأبعدت شعري إلى ما وراء أذني، ثم سألته: "ألديك أخبار عن لويز بايرنت؟"
- "لا".

- "هل تمكنت من إيجاد روز فيشر؟"

اختفت الابتسامة العريضة: "لا. لست مرتاحاً لاختفائها".

- "أتعتقد أنها ميتة؟"

- "إنها في الرابعة والستين من عمرها، ومضى أسبوع كامل على اختفائها".

- "أي نوع من السفاحين المتوحشين يقدم على قتل امرأة مسنة؟"
اعتبر رايان كلامي نوعاً من البلاغة: "هل ما زالت المراقبة الإضافية مستمرة في بيتك؟"
لو أنه يأتي لزيارتي، لعلم باستمرارها: "نعم. هل تلمح إلى أنني مسنة؟"
- "أريدك أن تتيقظي كثيراً يا تمب."
- "إنني بالكاد أغمض عيني هذه الأيام يا أندي."
تجاهل رايان ملاحظتي هذه.
- "سأعرج على منزل فيشر. فكرت أنك ربما ترغبين بمرافقتي."
رغبت بمرافقته فعلاً، لكنني مددت يدي باتجاه الهياكل العظمية وقلت: "إنني مشغولة جداً."
ظهرت ابتسامة صيبانية أخرى على شفثيه: "لن تستطيع الهياكل التحرك إلى أي مكان."
احترت مجدداً بما يفترض بي القيام به: مواجهته، أم تجنب الصدام معه. لم أقرر أي شيء محدد، تاركة لرايان زمام المبادرة، سواء بمعالجة المشكلة أو بالتهرب منها.
- "هل تعودت طرح الأسئلة على نفسك يا رايان؟"
- "بالتأكيد. ماذا حدث لأليس كوبر؟"
- "أعني طرح أسئلة مهمة."
- "هل تعنين أسئلة مثل، ماذا كانت تفعل أليس كوبر؟"
- "أنا جادة."
جاء صوت رايان هادئاً ووثقاً: "أنا جاد أيضاً. هل تريدين مرافقتي؟"
فلتذهب كل العلاقات إلى الجحيم، وليذهب رايان إلى الجحيم. اكنمي آلامك، وركّزي على مهمتك يا تمب. خلعت معطف المختبر الذي كنت أرديه، ووضعت مفاتيحي في حقيبتي الصغيرة، ثم انتزعت معطفي من حاملته: "دعنا نطلق."
سرت، أنا ورايان، وسط ازدحام شديد، لكن الجو في السيارة كان مريحاً مثل استراحة حية ملتفة حول نفسها. لم نتبادل الحديث. تفاقزت صور مألوفة إلى ذهني. تخيلت رايان على الشاطئ، وتخيلت نفسي مع رايان في غواتيمالا. تخيلت رايان أخيراً في سريري. و.. تخيلت رايان مع حسناؤه الفاتنة.
لمست يد رايان ركبتي في إحدى المرات، فانطلقت شرارة الرغبة لتخترق

جسدي. أغمضت عيني، وجهدت كي أستعيد السيطرة على نفسي. أخذت نفساً عميقاً. كانت عضلات عنقي قد توتّرت مثل أوتار غيتار مشدودة في الوقت الذي وصلنا فيه إلى كاندياك.

شاهدنا الستائر مسدلةً وراء كل نافذة من نوافذ منزل روز فيشر. لاحظنا أن ضوءاً أصفر يتسلّل من وراء إحدى الستائر.

انعطف رايان بالسيارة وأطفأ المحرك: "اسمعي".

- "ماذا؟"

- "لا أتذكّر أنني تركت أي مصباح مضاء".

- "هل ما زال المكان مغلقاً؟"

فتح رايان باب السائق من جهته: "لا فائدة من إحاطة المكان بالشريط. انتهى رجال استعادة مسرح الجريمة من عملهم قبل أيام عديدة، لذلك نزعوا الشريط. ابقني هنا".

انتظرت عدة لحظات قبل أن أتبعه من خلال الطريق المؤدية إلى المدخل الأمامي والشرفة. ما زال الإكليل في مكانه، يتمنى الأعياد السعيدة للجميع.

قرع رايان جرس الباب، فتردّدت أصداؤه الخافتة في المكان، وفي تلك اللحظة لفحت الرياح وشاحي. قرع رايان على الباب مجدداً. مرّت الثواني بطيئة، وعصفت الرياح ثانية. انهمرت من عيني دمعة وحيدة، فأنزلت قبعتي إلى مستوى أدنى.

بدأ رايان يبحث في مجموعة المفاتيح التي يحملها مستخدماً مصباحاً صغيراً يعمل على البطارية. في الوقت نفسه أضيء نور في غرفة المعيشة. أصدرت الأقفال أصواتها، ورأيت مقبض الباب يدور دورته.. انفتح الباب قليلاً، وتسلّل وجه من فتحته.

كان آخر وجه توقّعت رؤيته.

الفصل 23

- "من أنتما؟"

بدت الكلمات نديّة ومثقلّة بالعواطف، وكان شخصاً يتلفظ بها، وفمه مليء بالحبوب.

أبرز رايان شارته. فقالت المرأة بصوت مليء بالخوف: "هل أنتما من الشرطة؟"

- "هل نستطيع الدخول يا سيدة فيشر؟"

- "أين لويز؟ أين أختي؟"

يا إلهي! إنها لا تعلم.

كلّمها رايان بصوت هادئ يوحى بالطمأنينة: "نودّ التحدّث معك بهذا الشأن".

اتّسعت فتحة الباب. شاهدتُ وجهاً يشبه اليقطين بشكله، وبشدة انحنائه قرب

منطقة الفم.

- "انتظرا قليلاً".

أقفل الباب. وفي تلك اللحظة، لفحت الرياح القارسة ياقتي ووشاحي، فأخضت وجهي، وحركت قدمي. شعرت بتقلّ الوضع لأنني سأتولّى ورايان مهمة نقل الأخبار السيئة، ولا شك أن كلماتنا ستغيّر حياة روز فيشر إلى الأبد. كرهتُ المشهد الذي أو شككُ على رؤيته، لأنه ليس من ضمن مهماتي في العادة. أرتاح عادةً لأن هذه الأمور ليست من ضمن مهماتي، لكنني أكرهها كثيراً عندما تصبح كذلك.

فُتح الباب مجدداً بعد دقائق قليلة، ودخلت برفقة رايان إلى المنزل. استقبلنا

الدفاء المنتشر في البيت، وجعلني أشعر بدفاء وجهي ونعومته مرة أخرى.

لم تكن روز فيشر امرأة بدينة، لكنها لم تكن هزيلة أيضاً. أضفى صباغ شعرها

السيئ على وجهها مسحة من مظهر المهرج، ولم تساعد الكمية الكبيرة من مساحيق

التجميل التي وضعتها على وجهها في تحسين مظهرها.

- "أين شقيقتي؟"

ملاً الخوف وجهها، لكن اضطرابها خفّ قليلاً. بدا فيها طبيعياً برغم بعض التجاعيد وأحمر الشفاه.

تزايد شعوري بالكآبة. يا إلهي، هذه المرأة وضعت طقم أسنانها الاصطناعية، ووضعت مساحيق التجميل، لتظهر أمام غرباء.

وضع رايان يده على كتف فيشر: "هل نستطيع الجلوس؟"
ارتفعت يد صغيرة وسمينة لتغطي فيها الشديد الحمر: "يا إلهي. هل حدث شيء للويز؟"

تحولت عيناها المتقلتان بكحل الأهداب باتجاهي وأضافت: "أنتيما لتخبراني أن شيئاً قد حدث للويز. أين هي؟"

قاد رايان فيشر إلى أريكة في غرفة المعيشة، وجلس بجانبها. تحرك في الزاوية ببغاء ذو ذيل رمادي وأصفر، وخدين من اللون البرتقالي الفاقع، ثم راح يسقسق ويصفّر ستة ألحان من مقطوعة إديل وايز.

جلست إلى يسار السيدة فيشر، وأمسكت بيدها السمينة. أحنى رايان ذقنه في إشارة فهمت منها أنه يجدر بي أن أتكلّم أولاً.

قال البيغاء: "مرحباً"، وكرّر هذه الكلمة، ثم سقسق مجدداً.

- "تحمل إليك أخباراً سيئة يا سيدة فيشر."

أغمضت السيدة فيشر عينيها، ثم شبكت أصابعها مع بعضها وشدت عليها.

- "أنا آسفة لإبلاغك أن شقيقتك قد توفيت."

سمعنا سقسقة البيغاء مرة ثانية، ومرةً ثالثة.

راحت فيشر تحرك رأسها إلى الأمام ثم إلى الخلف، وأغمضت عينيها بشدة إلى درجة جعلتهما تغرقان في المساحة الدهنية المحيطة بهما. وانطلقت مع كل أرجحة لرأسها نغمةً عاليةً وحادة من حنجرتها، قبل أن تختنق وراء طقم أسنانها المثبت بدقة.

أحطت كنتفي المرأة بذراعي، وكرّرت قولي: "أنا آسفة".

تابعت فيشر عويلها، واستمرّ الكحل فوق أهدابها والصباغ الذي يظلل عينيها، بالسيلان مختلطين مع بودرة الخدين ذات اللون البرتقالي والزهري الفاتح.

التزم البيغاء الصمت.

رَبّت رايان على كتف فيشر الأيمن. تشابكت نظراتي مع نظراته، وعكست

أعيننا الحزن الذي شعرت به. ألقى البيغاء نظرةً على سيدته، ورفع تاج رأسه، ثم جمّد

رأسه على زاوية مقدارها خمس وأربعين درجة.
استمرت ساعة المنضدة بترديد دقات الثواني. حاول البيغاء أن يردّد نغمات قليلة
من لحن معروف، ثم توقّف عن المحاولة. واستمرت فيشر بالنحيب، وهزّ رأسها.
مرت دقيقة... اثنتان. بعدئذ تسلّ رايان إلى خارج الغرفة، وعاد بعد قليل حاملاً
معه علبة مناديل ورقية.

مرت ثلاث دقائق... ثم بدأ النحيب الرهيب يتلاشى تدريجياً، وأرسل البيغاء
صوت سقسقته: "أحبك، أحبك".

فتحت فيشر عينيها الغائرتين، وأدارت رأسها نحو الطائر قائلة: "أنا أيضاً أحبك
أيها الملاك الصغير، تيت آنج".

رفع الملاك الصغير رأسه لكنه لم يقل شيئاً.
قالت لنا بصوت خافت: "تحبّ أختي هذا الطائر الساذج. أعني أنها... كانت
تحبه".

قدّم رايان لها علبة المناديل الورقية. أخذت فيشر بعضها ثم التفتت إليّ، كانت
الأصباغ قد سالت من وجهها مثلما تسيل كتلة من البوظة الملونة على أرض موحلة.

- "من أنت؟"

- "أنا الدكتورة تمبرانس برينان. أعمل مع المحقق الجنائي".

ظهر لون وجه فيشر الأبيض من تحت أصباغ المهرجين.

- "أظن أن وفاتها نتجت عن نوبة حساسية، صحيح؟"

- "لم يتّضح سبب الوفاة بعد".

مسحت فيشر الفوضى التي سالت على وجهها، ثم قالت: "ما كان يجدر بي أن
أترك لويز وحدها في أوقات كآبتها".

ثم انهارت على مقعدها.

سألها رايان بلطف: "هل كانت شقيقتك مريضة؟"

تكوّر جسدها الضخم على بعضه: "عانت من حساسية شديدة، ومن صغير في
تنفسها، كما أن عينيها كانتا تؤلمانها، بالإضافة إلى رشحها الدائم. لم أتخيل أبداً..."

اندفعت فيشر بنوبة عفوية أخرى من العويل. أمسكت عدة مناديل ورقية وناولتها
إياها.

قلت لها بألطف صوت ممكن: "أعلم أن هذا أمر فظيع بالنسبة لك، وأنا آسفة

لأنني مضطرة أن أطرح عليك هذه الأسئلة. حاول الكثيرون إيجادك هذا الأسبوع. أتمانعين بإبلاغ التحري رايان أين كنت؟"

- "اشتركت مع لويـز في محترف السيراميك في بوينت أو بيكس. ظننا أننا سنتسلى لو تعلمنا كيفية صنع الفخاريات..."

بدأ صدر فيشر بالارتفاع والهبوط مرة أخرى، فيما تابعت: "... اعتدنا المكوث في بي وبـي، والخروج للتسوق بمناسبة عيد الميلاد في منطقة شارليفو".

- "لماذا لم ترغب شقيقتك في الذهاب معك؟"

أومأت فيشر، فتجمّع القسم الأعلى من ذقنها فوق القسم السفلي منه. بدا كما لو أن حنجرة فيشر أطبقت على بعضها حين قالت: "أصرت لويـز على أنها ستكون بخير. قالت إنها إذا احتاجت لأي شيء فسوف تتصل بكلوديا، ابنتي، هاتفيًا. يا إلهي القدير! هل علمت كلوديا بالخبر؟"

- "نعم سيدتي. قلقت كلوديا كثيراً عليك".

- "كان علينا أن نخبرها، لكن عندما قرّرت لويـز البقاء في المنزل، لم نعتقد أن هذا أمر ضروري. تجادلني كلوديا على الدوام حول قيادتي السيارة في فصل الشتاء. إنها تعاملني كأنني عجوز خرقاء، وتريدني أن أمكث في المنزل على الدوام".

سألها رايان: "متى عدت من شارليفو؟"

- "قبل وقت قصير من وصولكما. ظننت أن لويـز موجودة في الكنيسة. إن نوادي ألعاب الحظ تفتح في مساءات أيام الخميس. شعرت أنني متعبة من قيادة السيارة، فقرّرت أن أترك لها رسالة وأخرج".

أخذت فيشر في استخدام المناديل الورقية واحدة بعد أخرى. وتابعت: "لاحظت أن سرير لويـز غير مرتب، وهذا أمر مستغرب منها".

بدأ ذلك الصدر السمين بالعلو والهبوط ثانية.

- "دعيني أحضر لك القليل من الماء".

ملأت الكوب من صنوبر المياه في المطبخ، بينما استمرّ رايان بالتحدث مع فيشر في غرفة المعيشة. استمرّ الببغاء بالسقسقة، أو بتأدية مقطع من أغنية، بين الحين والآخر.

عرجت قبل رجوعي على غرفة لويـز بايرنت. لاحظت أن المشهد قد تغيّر قليلاً عما هو في الصور التي شاهدها سابقاً. خلا السرير الآن من غطائه فظهرت بقعة في

المكان الذي أسلمت روحها فيه، كما بقيت وسادة واحدة في مكانها عند طرف السرير. رجعت إلى غرفة المعيشة، وناولت فيشر كوب الماء. حدق بي رايان وهزّ رأسه قليلاً، مشيراً إلى أن فيشر كانت مضطربة جداً بحيث لا يمكننا استجوابها أكثر من ذلك. قال رايان: "سأتصل بابنتك حالاً".

أحدثت فيشر صوتاً متقطعاً أثناء شربها، فيما تابع رايان يقول: "سنتحدث غداً عندما تكونين أفضل حالاً".

- "متى يمكنني رؤية لويز؟"

نظر رايان نحوي: "تستطيع ترتيب هذه المشاهدة إذا كنت ترغبين بذلك". ارتعشت شفتا فيشر، وانهمرت الدموع ملتمة على خديها: "ما أقطع عيد الميلاد هذا!"

ضغطت على يد المرأة: "ما أصعب أن نخسر شخصاً نحبه".

- "يتعين عليّ تنظيم المآتم".

- "أنا متأكدة أن كلوديا ستساعدك كثيراً".

- "أعرف ما هي الأشياء التي كانت سترغب لويز فيها".

قلت: "هذا جيد".

- "اعتدنا أن نخبر بعضنا كل شيء".

لا بد أن هذا أمر جيد. وصلت كلوديا في غضون دقائق قليلة، لكن بقي لدي سؤال واحد قبل مغادرتي: "سيدة فيشر، هل تعودت شقيقتك أن تنام على وسادة من الريش؟"

- "لا، مطلقاً. عانت لويز من حساسية شديدة".

- "هل تنامين أنت على وسادة من ريش؟"

تجهّم وجه فيشر: "يا إلهي. لماذا؟ هل كانت وسادتي على سرير لويز؟"
التقت عيناها بعيني رايان.

قلت لرايان ما إن انطلقت السيارة: "يبدو أنها سيدة لطيفة".

- "والأهم هو أنها تعرف كيف تعيش".

- "لا عجب إذاً أن أحداً لم يشاهد سيارتها".

- "لم يكن من السهل مشاهدتها لأنها ركنتها وراء حمامات بي وبي في بوينت أو

بيكس".

ساد الصمت أثناء تحرك السيارة، لكننا لاحظنا وسط أضواء الشوارع تتناثر بعض الأغصان المقطوعة من الأشجار، والتي كانت ترتطم بجانب السيارة. وصل رايان في غضون دقائق قليلة إلى بون فيكتوريا. أصدرت عجلات السيارة أصواتاً تشبه أصوات فرك إطار لوح كبير من الزجاج. بدا نهر سان لورانس من تحتنا مثل صفحة سوداء ساكنة.

قلت بتجهم: "ماتت بايرنت مقتولة".

- "يبدو الأمر كذلك".

- "ماتت بواسطة وسادة فيشر".

- "يستطيع خبراء الأنسجة مقارنة الريش".

- "تسلل لعين لا قلب له إلى البيت، وتناول وسادة من سرير فيشر، استخدمها

ليخفق بايرنت".

- "هذا، في الوقت الذي نعتبر فيه أنها ماتت نتيجة تناول الأمبيان".

- "كيف يستطيع أحدهم اقتحام البيت من دون ترك دليل وراءه؟"

- "أعتزم مناقشة ذلك مع فيشر لاحقاً".

- "وباستيلو".

- "وباستيلو أيضاً".

- "أعتقد أن فيشر عرفت بموضوع مكالمات بايرنت الهاتفية معي؟"

- "إنه موضوع آخر للحديث".

لم تتضمن محادثتنا أي شيء غير هذا الموضوع.

حسناً! لم أرغب بالتفكير في روز فيشر، ولا بلويز بايرنت، ولا برايان، ولا بأن، أو حتى بفيتياتي الضائعات. أسندت رأسي إلى ظهر مقعدي. أغمضت عيني وشغلت ذهني بالتفكير في استنباط عبارات لوصف الصمت المخيم في السيارة.

إنه يشبه صمت قبرٍ مغلق، أو قل إنه يشبه صمت مكتبة مهجورة في قبو من أقبية الفاتيكان. إنه صمت ثقوب أسود في أقصى طرف من أطراف مجرة لولبية، أو قل إنه يشبه صمت ببغاء أجفل لتوه.

أنزلني رايان قرب مكان توقف سيارتي.

- "هل أنت مستعدة ليوم غد؟"

- "ماذا تعني؟"

- "أتودين مكالمة روز فيشر؟"

- "متى؟"

- "سأتصل بك هاتفياً حالما أتشاور مع باستيلو".

أشارت عقارب الساعة إلى الساعة والخمس والثلاثين دقيقة عندما وصلت بسيارتي من المختبرات إلى وسط المدينة. وجدت أن تغط في نومها، وكان الكوب الزجاجي الزهري قرب أنفها، بينما وضعت كتاباً فوق صدرها، أما بيردي فربض إلى جانبها.

حضرت أن بعض الطعام المشوي، وتبادلنا الحديث أثناء إعدادها صلصلة كثيفة لمرفقة اللحم، بينما انهمكتُ أنا بخلط طبق من السلطة. تحدثت أن عن كتابها أثناء تناولنا للعشاء. قالت إن موضوع الكتاب كان الموت. وجدت أن أن منظور الكاتب لهذا الموضوع مفيد جداً. قلت لها إن اختيارها لهذا الموضوع غير موفق.

- "لماذا هذا الاهتمام المرعب بالموت؟"

- "تبدين مثل أني هال".

- "وأنت تتصرفين مثل وودي آلن".

فكرت أن للحظة ثم قالت: "يتعين على الإنسان أن يتغير إذا أراد المضي قدماً".

- "إلى أين يتحرك، وكيف يتغير؟"

- "يتغير جوهرياً".

- "عمّ تتحدثين؟"

- "أتحدث عن الأدوار".

رن جرس هاتفني أثناء انشغالي بالتفكير بهذا التعليق الغامض من جانب أن. وجدت كاتي على الطرف الآخر من الخط.

- "مرحباً أمي".

- "مرحباً عزيزتي. أين أنت؟"

- "أنا في قرية شارلوت، لكنني سأوجه إلى البيت غداً".

- "هل كانت امتحاناتك جيدة؟"

- "طبعاً. أتصل بك الآن لأتأكد من حضورك إلى شارلوت في الثاني والعشرين

من هذا الشهر".

ماذا هنالك في الثاني والعشرين من الشهر؟

- "تصادف حفلة هانا، حفلة ما قبل الزواج؟ ألم تعدي بمساعدتي؟"

أيّ أبله ومعنوه يستطيع تخطيط حفلة زواج قبل عيد الميلاد مباشرة؟

- "سأكون هناك بالطبع".

- "أنا أعتد على سنوات خبرتك الطويلة".

- "يا لك من ذكية!"

- "أرسلت إليك عدة رسائل بالبريد الإلكتروني. أرسلت أشياء مثل "هوهه!"

هوهه! هوهه! إنه موسم الأعياد.. وأشياء مشابهة. إنني أتوق إلى الاستفادة من خبرتك

في الأنثروبولوجيا. سيساعدني ذلك على الشعور بالسكون".

- "لماذا تريد أن تشعر بالسكون؟"

- "ذلك يساعدني على الدراسة".

- "آه!"

بدا صوت كاتي وكأنه عالق بالدبق: "أحبك، يا أمي. عليّ قطع الاتصال الآن".

- "لِمَ العجلة؟"

- "إنه موسم الأعياد".

- "هوهه. هوهه. هوهه".

- "حافظي على هذه الفكرة".

انطلقت لأبحث عن أن ما إن قطعت الاتصال. وجدتها منغلقة على ذاتها، ولم

تزوّدني بأية شروح تجعلني أفتنع. أحسست أنها استفادت من فرصة اتصال كاتي بي

حتى تجلس بمفردها.

خلعت ثيابي، وغسلت وجهي، ومشطت شعري، ونظّفت أسناني بخيط الحرير،

لكنني بقيت قلقة كل الوقت بشأن وعدي الذي قطعته لكاتي. شغلت نفسي كثيراً بقضية

لويز بايرنت وفتياتي من قبو مطعم البيتزا إلى درجة أنني كدت أنسى عيد الميلاد

فعلياً، ونسيت حفلة هانا بالكامل.

هل أستطيع حل لغز هذه القضية في غضون أسبوع، أم أنني سأضطر إلى جعل

فتياتي ينتظرن حتى انتهاء فترة الأعياد؟

رجعت إلى غرفتي، سارعت إلى ضبط المنبه، لكنني توقّفت. هل حدّد لي رايان

موعداً ليقلّني بسيارته؟ تذكرت أنني سألته، لكنني لم أستطع تذكر جوابه.

كانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة والنصف، لعله في المنزل الآن. نقرت على الزر السريع الخاص برايان. رفعت سماعة الهاتف بعد دقيقتين فقط، وأجابني صوت أنثوي: "نعم؟"

اخترقتني صاعقة تسلّلت إلى معدتي وصدري. قلت: "أريد التحدث مع أندرو رايان من فضلك".

سألني الصوت الفتى والأنثوي: "من يتصل؟"

- "الدكتورة برينان".

مضى الصوت الفتى والأنثوي الحاد يقول: "أنت! لماذا لا تتركينه وشأنه؟"

- "عذراً؟"

- "توقفي عن سلبه لبه".

- "هل دانييل هي التي تتكلم؟"

مرّت فترة صمت طويلة، وتسارعت الأفكار في ذهني. هل قلت لها الاسم الصحيح؟

- "هل من أتكلّم معها هي ابنة أخت التحري رايان؟"

أطلقت الفتاة صوتاً كالشخير: "تقولين ابنة أخته؟ هل هذا ما قاله لك؟ وهل صدقته؟ إنك أغبي ممّا كنت أعتقد سابقاً".

أطبقت عليّ الحقيقة كأنها نصل مقصلة.

- "هل لك أن تتركه وشأنه؟"

بقيت فترة من الوقت وأنا أصغي لصوت الاتصال المقطوع.

الفصل 24

بعد أن أمضيتُ معظم الليلة وأنا أعاني من الأرق، ومن انخفاضٍ في معنوياتي أكثر مما عانتَهُ آن، تمكّنتُ من التمتعِ بفتراتٍ من النوم المتقطع.

قارب الليل على الانقضاء، وقبل استيقاظي حلمت أنني أسير مع رايان وسط نفق طويل ومظلم. ما إن بدأنا بالحديث، بدأ رايان بالابتعاد عني رويداً رويداً حتى أصبح جسده مثل ظل باهت في الطرف الآخر من النفق. حاولت أن أتبعه، لكن ساقِي لم تساعداني على ذلك. صرخت المرة تلو الأخرى، لكنه لا بالصمت. مرّ شيء ما بقربي وسط الظلام، شيء أشبه بعنكبوت جاف أو بجناح خفاش. حاولت أن أرفع ذراعي، لكن أبت هذا الذراع التحرك. لامس ذلك الشيء خذي، فحاولت أن أصل إليه... استيقظت لأكتشف أن بيردي يلحق وجهي.

اتّصل بي سيد النفق بينما كنت أمضغ رقاقات الذرة، والخبز المحمص. قرّرت أن أتوجّه معه إلى كاندياك كما كان مقرراً، لأنني أردت أن أتحدّث مع روز فيشر. بعدئذٍ سينتهي كل شيء بيننا، ليسيطر عليّ الحزن، ولأقضي الكثير من الليالي من دون أن أدوق فيها طعم النوم. يا لكثرة ملكات الرقص الحسنوات!

فكرت كثيراً، لكنني قرّرت عدم مواجهة رايان في موضوع المرأة الموجودة في بيته. تعرّضت للخيانة ذات مرة، فغضبت وأثرت الكثير من الجدال. وجّهتُ عندها الكثير من الاتهامات المصحوبة بالدموع، وسمعت الإنكارات العنيفة، ثم سمعت الاعترافات التي تغتت القلب. لن أكرّر ما حصل أبداً. دعم بيردي قراري هذا.

- "هل نمت جيداً يا شمسي؟"

- "نمت مثل صخرة بركانبة".

- "اصطحبتُ باستيلو فيشر لزيارة الكاهن عند الساعة العاشرة. اقترحتُ عليّ أن نأتي إلى المنزل عند الحادية عشرة. هل أمرّ لاصطحابك عند العاشرة والنصف؟"

سمعت شيئاً يشبه صوت عود نقاب، ثم صوت نفث دخان.

- "ساكون في منزلي".

أتصل بي كلوديل هاتفياً عندما كنت منهكة بتجفيف شعري.

لم يكف كلوديل نفسه عناء إلقاء التحية كعادته، كما أهمل الأسئلة التقليدية عن الصحة، أو عن حسن سير الأمور. تنساب اللغة الفرنسية كالحرير من معظم الأفواه، لكنها تتدحرج من فم كلوديل مثلما تتدحرج كميات من البطاطا عبر منحدر. قال: "اقترح عليّ التحري شاربونيو أن أتصل بك، بالرغم من أنني لا أفهم سبباً لذلك. ليس لديّ معطيات أرفعها إليك".

- "ماذا تعني؟"

- "لم يسفر تفحص لائحة المستأجرين عند سائير عن أية نتيجة. لم أحصل على شيء من سي. بي. أي. سي، ولا من أن. سي. سي. أي. سي أيضاً. ولم يأتني أي شيء من فيرمونت، أو من كاليفورنيا".

- "ألم تكشف أية حالة عن شخص مفقود تقارب مواصفاته مواصفات ضحايا القضية التي ندرسها؟"

- "هناك حالة فتاة من كاليفورنيا كانت تعاني كسر في المعصم. تقارب طول هذا الفتاة مع الحد الأدنى لمدى الطول عند فتياتك".

- "كم كان طولها؟"

- "خمسة أقدام وأربع بوصات".

شعرت بشيء يشبه سريان الكهرباء في جسدي.

- "إن طولها قريب جداً من المواصفات التي أمانا. متى أعلن عن اختفائها؟"

- "اختفت عام خمسة وثمانين".

- "إذا أين المشكلة هنا؟"

- "كانت الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها"

تطور التيار ليحدث شيئاً كقصف الرعد.

- "بدا لي أن الهيكل ذا الكعبرة المكسورة قد اقترب من سن العشرين".

تخيلت عظام الفتاة التي وجدت في كفن جلدي، والتي سدّ طبيب أسنانها جذر ضرسها الطاحن، وهو الذي ظهر في صورة الأشعة السينية لأضراسها: "يُحتمل أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها، لكن لا يمكن أن تكون في الخامسة عشرة".

- "هذا هو رأيي تماماً".

- "ليس بالضرورة أن يكون تاريخ الاختفاء هو تاريخ الوفاة. هل علمت شيئاً آخر؟"

- "تختفي عشرات الفتيات كل سنة".

حذرنني صوتٌ في داخلي أن أقطع الاتصال قبل أن يعاني كلوديل من صدمةٍ مباشرةٍ أخرى.

لا يعطي جرس الباب عندي رنةً عادية، بل يعطي صوت تغريد الطيور. انطلق الجرس بالتغريد في تلك اللحظة بالذات.

- "أودّ الحصول على تقرير مطبوع عن كل أنثى اختفت في كيبك على مدى العشرين سنةٍ الماضية، من اللواتي تراوحت أعمارهن ما بين الخامسة عشرة والثانية والعشرين".

- "إنك تتحدثين عن عشرات الفتيات، لكن تبين لنا أن معظمهن يغادرن منازل عائلاتهن ثم يرجعن إلى أمهاتهن وأبائهن، وذلك بعد أن يتعبن من الأكل والنوم على أرصفة الشوارع".

- "يساعدني كثيراً أن أعرف من لم تعد منهن".

سمعت المزيد من صوت التغريد الصادر عن الجرس.

- "يا سيدتي، ..."

- "حضر التحري رايان، سأقفل الخط".

- "أندرو رايان؟"

- "إننا ذاهبان لمقابلة شقيقة لويز بايرنت".

- "أتعنين السيدة التي توفيت في كاندياك؟"

- "نعم".

- "هل هي السيدة نفسها التي حاولت التحدث معك مراراً عبر الهاتف؟"

- "أتصلت بي السيدة بالفعل".

- "وماذا أردت أن تقول؟"

- "أعتزم اكتشاف هذا الأمر بالتحديد".

- "ومتى ظهرت شقيقتها؟"

- "البارحة".

- "أين؟"

- "ظهرت في منزلها".

- "وأين كانت تلك العجوز من قبل؟"

أجبت بصوت فيه الكثير من البرودة: "كانت في بوان أو بيكس. أود الحصول

على ذلك التقرير حالما يجهز".

- "سأبذل جهدي".

- "شكراً لك".

يا له من أحق!

أسرعت إلى الحمام، فوجدت أن جانباً واحداً من شعري يبدو مقبولاً، بينما كان الجانب الآخر متديلاً على شكل لفافات مبللة بالماء. أسرعت لأتناول مجفّف الشعر. سمعت المزيد من صوت تغريد الجرس الذي أصبح أكثر حدة.

- "رائع".

اكتفى بيردي بالمراقبة من مكانه قرب المدخل. نهض الهر فور سماعه صوتي ومدّ رجله إلى الوراء، ثم تحرك. لم يتبقّ لديّ وقت كافٍ كي أترك رسالة إلى آن. أرجعت مجفّف الشعر إلى مكانه، وتناولت قبعتي ثم انطلقت.

وقف رايان ينتظرني في الرواق الخارجي، ولاحظت أن وجهه قد احمرّ من البرد. وضع رايان نظارتيه البنيّتي اللون، وارتنى سترة فضفاضة. انطلقت الأفكار الجميلة في مخيلتي من عقالها. استمرت تلك المكالمة الهاتفية بالإمساك بخناق عواظي، لكن الرغبات أخذت لها نهجاً معاكساً.

ظهرت ابتسامة رايان الكبيرة: "هل أيقظتك يا حلوتي؟"

حاولت أن أبعد العدائية عن صوتي: "لم توقظني".

- "هل بدأنا بطبع حاد هذا الصباح؟"

- "هل بدأنا بالتدخين هذا الصباح؟"

دسّ سيجارته في المنفضة المليئة بالرمل الموجودة قرب الباب: "إنها انتكاسة

ثانوية".

صفعني البرد في الخارج وكأن انفجاراً جليدياً قد حدث لتوه. ظهرت أشعة الشمس خجولة في سماء زرقاء صافية. رأيت سيارة رايان مركونة دون اهتمام في المنعطف. دخل رايان إلى السيارة، والتفت إليّ، ثم رفع نظارتيه الشمسيّتين إلى ما فوق رأسه. ظهر هلال داكن اللون تحت كل عين لازوردية من عينيه.

- "ما الذي يشغل بالك؟"

لم أقل أي شيء.

- "يبدو الاضطراب عليك".

لم أقل أي كلمة، وبدا الصمت أثقل هذه المرة. ابتسم رايان، لكن التوتر ظهر في فكّه وحول عينيه: "أظن أنك غير سعيدة معي".

- "أعرف أنك تعتبر نفسك كنزاً ثميناً يا رايان، لكن لدي أشياء أخرى غيرك لأفكر بها".

وأكملت في سرّي: وغير ابنة أختك أيضاً. شعرت بحساسية مفرطة.

سألني رايان: "أتريد أن نتحدّث؟"

شعرت بصعوبة السيطرة على صوتي بعد الآن، فقلت له: "أريد أن ننطلق".
هذا ما حصل. وساد الرحلة صمت ثقيل.

فتحت كلوديا باستيلو باب المنزل في كاندياك بعد أن قرعنا الجرس للمرة الأولى. حيّيتها بحرارة رداً على ابتسامتها المصطنعة. شاهدت روز فيشر جالسة لوحدها وهي تحدّق من خلال الستائر الأفقية. ارتدت هذه السيدة فستاناً من الحرير الصناعي الأخضر اللون الموشى بالورود. رفعت روز شعرها البرتقالي اللون إلى الخلف بواسطة مشط ذي مشابك بلاستيكية. لاحظت أن مساحيق التجميل التي تضعها كانت أكثر من تلك التي استخدمتها في الليلة الماضية. انشغل الملاك الصغير تيت أنج بأداء مقطع من أغنية الأخ جون.

لم تتحرك فيشر عندما دخلنا إلى غرفة المعيشة. وعندما سمعت صوت ابنتها التفتت نحونا. بدت مذهولة كأنها تحاول أن تتذكّر من عسانا نكون.

- "إنه رجل الشرطة، والمحقق الجنائي".

انسحبت باستيلو بعد أن أنهت تقديمها الذي لم يكن دقيقاً بالكامل، جلستُ ورايان إلى جانب فيشر. أشار الشرطي للمحقق الجنائي كي يبدأ بمطالعة.

- "سيدتي، أمل أن يكون مزاجك أفضل هذا اليوم".

وأمرت فيشر، وبدا أنها فعلت ذلك من دون وعي تقريباً.

- "أتساءل يا سيدة فيشر عن بعض المكالمات الهاتفية التي أجرتها شقيقتك مع

مختبري".

نظرت العينان الرماديتان باتجاه الأسفل: "متى؟"

- "كلمتني في الأسبوع الماضي".

ركزت فيشر نظرتها نحو الأرض وقالت: "كلمتك بشأن أي موضوع؟"

- "السيدة بايرنت..."

- "لم تتزوج لويز أبداً".

- "تحدثت الأنسة بايرنت عن مبنى يقع في شارع القديسة كاترين".

أطبقت الأصابع الثخينة على بعضها ثم عادت وانفتحت.

- "قالت إنها قلقة بشأن بعض الحوادث التي جرت هناك".

تزايد تلمل فيشر بشكل ملحوظ.

- "قالت شقيقتك إنها تشعر بمسؤولية أخلاقية تدفعها إلى تزويد السلطات ببعض

المعلومات".

تطلعت فيشر إلى الأعلى واتسعت العينان في ذلك الوجه المصبوغ بطريقة غير

موفقة.

- "كلمتني مرتين، فهل تعرفين السبب؟"

- "لم أعتقد أنها أقدمت على ذلك بالفعل".

- "ما هي المواضيع التي أرادت شقيقتك مناقشتها معي؟"

وصلت باستيلو في تلك اللحظة بالذات، وجلست على كرسي كان بقرب الأريكة،

وانتقل الببغاء من السقسقة إلى إصدار نغمات قصيرة، وعالية، وصاخبة.

صرخت باستيلو: "تيت أنج".

انتقل الببغاء لأداء سلسلة من الصرخات القوية.

- "توقّف!"

قال الببغاء عبارة طائر جميل باللغتين الإنكليزية والفرنسية، ثم بدأ بالبحث في

محتويات وعاء اليزور. شرحت باستيلو لنا: "إنه يقلد صوت جهاز كاشف الدخان. تعلم

هذا المعتوه تقليد هذا الصوت عندما بقي لوحده في أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع،

وعندما فرغت بطاريات الجهاز".

قلت: "إنه موهوب جداً، وثنائي اللغة".

بدا لي أن باستيلو لا تحب هذا الطائر، إذ قالت: "إنه مجرد طائر غريد".

- "إنه ثلاثي اللغة".

نظرنا جميعاً نحو فيشر. انطلق صوت فيشر بشكل متقطع: "إنه يتكلم الإنكليزية، والفرنسية، ولغة البيغاوات. اعتادت لويز أن تضحك لهذا، لأنها كانت تعمل مترجمة كما تعلمين".

- "لا يا سيدتي، لم أكن أعلم".

أومات فيشر والتقى جزءا ذقنها.

- "عملت على ترجمة الكتب من الفرنسية إلى الإنكليزية، ومن الإنكليزية إلى الفرنسية".

أجبتها: "يبدو أن عملها كان صعباً جداً".

ثم التفت نحو باستيلو وقلت: "سألت والدتك عن مكالمات هاتفية أجرتها خالتك مع مختبري قبل أن تموت بوقت قصير".

- "هل هناك رابط بين الأمرين؟"

- "لم نتأكد بعد".

- "هل توحين لي أن موت خالتي قد لا يكون طبيعياً؟"

قال رايان: "إننا عازمون على استكشاف كل احتمال".

صرخت بصوت يشبه صوت الطائر: "هل تشكّون بنا؟"

بدا صوت رايان مطمئناً بما فيه الكفاية: "بالطبع لا. نريد بكل بساطة أن نعرف ماذا كان يدور في ذهن خالتك".

التفت رايان كي يتحدث إلى فيشر: "هل تعلمين ما الذي كانت ترغب الأناسة بايرنت بإبلاغه للدكتورة برينان؟"

أومات فيشر، فتشابكت حُزم من ألوان ضوء الشمس في خدها.

تبرّع تيت آنج بأداء مقطع من مسرحية كاملوت.

أخذت روز فيشر نفساً عميقاً، ثم قالت: "أقامت لويز في شارع القديسة كاترين لمدة سبع عشرة سنة تقريباً. أفنعتها أن تمكث عندي عندما توفي زوجي في العام أربعة وتسعين. قلت لها إن المبنى الذي تسكنه هو بناء كبير، وهناك الكثير من المحلات التجارية في ذلك الشارع، كما أن هناك الكثير من الناس الذين يقطنون في الشقق المجاورة. شعرت أنني لا أتحمل تلك الضجة المحيطة بالمكان، لكن لويز أحببت المكان. امتلكت أختي شقة مطلة على الشارع تضم غرفتي نوم. أحببت شقيقتي النظر من خلال النافذة أثناء عملها في مكتبها، ولطالما لقيت نفسها بمتطفلة الحي".

سألتهما بإلحاح: "ما هو نوع المحلات التجارية التي تشغل العمارة؟"
- "تواجدت مجموعة متكاملة من المحلات. امتلكت سيدة متجراً لبيع حقائب السفر، بالإضافة إلى ملحمة، إلى أن فتح ذلك الرجل مكتباً للرهنيات".
تطلّعت فيشر باتجاه الأرض، وقالت: "لم تحبّه لويز في الواقع... لم تكن تحبّه أبداً".

- "ماذا كان اسمه؟"

- "يبدأ اسمه بحرف م. ربما كان ماينارد. اعتبرته لويز أميركياً.. لا أذكر، لأن هذا حدث منذ سنوات طويلة".

إنه ستيفان مينارد، وهو رجل ورد اسمه في قائمة ساير. إنه الرجل الذي استأجر محلاً في عمارة ساير من العام تسعة وثمانين حتى العام ثمانية وتسعين.

- "لماذا لم تكن شقيقتك تحبّ هذا الرجل؟"

- "لا تفهمني بطريقة خاطئة. اعتادت لويز أن تحبّ كل الناس، لكن مشاعرها تجاه ذلك الرجل لم تكن طيبة".

تطلّعت فيشر نحو باستيلو، وأومات هذه الأخيرة.

- "رأته ذات ليلة يحمل فتاة نائمة بين ذراعيه. قالت لويز إنه بدا وكأنه يحمل طفلاً إلى سريرهِ"

- "وهل كان يحمل طفلاً؟"

- "كان يحمل فتاة مراهقة".

- "هل كانت ابنته؟"

- "قالت لويز إنه أخبرها بأنه نادم على عدم الزواج وعدم إنجابهِ للأطفال. تمّتعت لويز ببراعة في حمل الآخرين على التحدّث معها بصراحة، بحيث أنها كانت قادرة على حملك على إخبارها قصة حياتك بأكملها بعد لقائك معها بخمس دقائق".

تزايدت ضربات قلبي: "هل من شيء آخر؟"

- "حدث أن رأيت شقيقتي فتاة تهرب من مكتب الرهنيات. انطلق ذلك المستر هن مسرعاً نحو الشارع وجرّها ثانية إلى داخل محله".

- "متى حدث ذلك؟"

أساءت فيشر فهم سؤالِي: "حدث هذا في وقت متأخر من الليل".

نظرت إلى راين. بدا متوتراً مثلي.

- "كتمت لويز هذه الحادثة في دخيلة نفسها حتى انتقلت للسكن معي، وإلى أن بدأ ضميرها يؤنبها، فأخبرتني بما رأت".

- "هل تكلمت شقيقتك مع المسترهن بشأن هاتين الحادثتين؟"

أومأت فيشر: "قالت لويز إنها استفسرت عن الفتاتين عدة مرات، لكن ليس على الفور، وهي فعلت ذلك بطريقة حاذقة. أخبرتني أن ذلك المسترهن واطب على تفادي الإجابة عن أسئلتها، ثم أصبح عدائياً جداً بالنسبة للموضوع برمته. اضطرت شقيقتي إلى التخلي عن استفساراتها بسبب موقفه هذا".

رفعت فيشر نظرها وركزته على عيني.

- "ظلت لويز تتعذب بشأن ضرورة إبلاغ الشرطة، وكما تعلمين... كي يبادر أحدهم للتحقق من هاتين الحادثتين. طلبت منها أن تهتم بشؤونها، وأن لا تتورط بشيء".

- "هل جرت هاتان الحادثتان قبل العام 1994".

أومأت فيشر: "هل تعتقدين أنني أسديت نصيحة سيئة لشقيقتي؟"
سقسق تبت أنج قبل أن ينطلق بتغريده.

الفصل 25

تابع رايمان استجوابه لروز فيشر، فيما بقيت باستيلو تحوم في جوارنا. تسللتُ إلى الخارج، وأجريتُ اتصالاً هاتفياً مع كلوديل. فوجئت عندما رفع كلوديل السماعه بعد الرنة الثانية. كررت على مسامعه القصة التي روتها فيشر.

- "استقصيت عنه أثناء عملي على التحقق من لائحة مستأجري ساير".

- "ألا يمتلك سجلاً قضائياً؟"

- "لم يسبق لذلك الرجل أن بصق في الشارع، رسمياً على الأقل".

- "هل ما زال متواجداً في مونتريال؟"

- "إنه يمتلك منزلاً في بوان سان شارل".

- "وماذا يعمل الآن؟"

- "إنه لا يعمل على حدّ علمي".

- "أدار مينارد مكتب الرهنيات من العام تسعة وثمانين حتى العام ثمانية

وتسعين. ماذا كان يعمل قبل ذلك؟"

مرت فترة صمت قصيرة، ثم قال: "السجلات ليست واضحة بهذا الخصوص".

- "أقول غير واضحة؟"

- "تنتهي سجلاته عند العام ثمانية وتسعين".

- "ماذا تعني بذلك؟"

- "لا تحتوي السجلات الرسمية أي شيء بخصوص ستيفان مينارد في فترة ما

قبل العام 1989".

- "ألا تضمّ السجلات شهادة ميلاد، أو جداول ضريبية، أو حتى سجلاً طبياً له؟"

ألا تضمّ شيئاً على الإطلاق؟"

مرت فترة صمت. فعدت لأقول: "تعتقد روز فيشر أن شقيقتها قالت لها إن

مينارد كان أميركياً. هل أرسلت الاسم إلى ما وراء الحدود الجنوبية للبلاد؟"

انتظرت كلوديل ليتكلم، وعندما لم يفعل قلت: "سأتصل بالسيد أوتيبه لأخبره أننا حصلنا على معلومات جديدة قد توصلنا إلى نتائج معينة".

يتعين عليك شرح افتقادك للحماسة لرئيس المحققين الجنائيين يا سيد كلوديل! رجعت إلى غرفة المعيشة بعد انتهائي من المكالمات الهاتفية. بقيت أراقب ما يجري بهدوء بينما أمضى رايان ثلاثين دقيقة في استجواب فيشر.

تسببت الدموع، التي انهمرت أثناء غيابي، بنشر الفوضى في مستحضرات التجميل الموجودة على وجه فيشر. حطم الكرب المخيم على فيشر قلبي، ولاحظت أن وضع باستيلو مختلف تماماً. بقي ظهرها مستقيماً، وبقيت نظراتها مركزة، وخالية من التعاطف مع الحزن الذي تشعر به والدتها. أقدمت هذه المرأة الأصغر سناً على وضع ساق على ساق بين وقت وآخر، كما أقدمت على شبك ذراعيها فوق صدرها، أما في الأوقات الأخرى فقد جلست ساكنة، ومن دون إطلاق أية تعليقات.

انتهى رايان أخيراً، فنهضنا، ثم كررنا أسفنا لفيشر وابنتها، وغادرنا المكان. اقترح رايان فور عودتنا إلى السيارة أن نتناول بعض الشطائر. - "لا، شكراً لك".

اختارت معدتي هذه اللحظة بالذات لتدمدم.

- "سأعتبر ذلك نقضاً أيضاً لقرارك عدم تناول الغداء".

لم ينتظر رايان انتهاء الجدل. قاد السيارة نحو موقف سيارات لافلور، وهي المطاعم التي تعادل مطاعم المأكولات السريعة في الولايات المتحدة. استدار حول السيارة وفتح لي الباب، ثم انحنى وأطلق إشارة بيده الأخرى.

لم كل هذا التظاهر؟ أنا جائعة!

تشتهر مطاعم لافلور بالمقالي والنقانق المحضرة على البخار. يعرف قاطنو مونتريال أن معدلات الكوليسترول تسجل ارتفاعاً كبيراً عندهم بسبب تناول هذه الأطعمة، إلا أنهم يتناولون الطعام في لافلور بين حين وآخر.

لم تمض دقائق قليلة حتى جلست ورايان إلى طاولة سطحها من الفورميكا، ولم يفصل بيننا سوى أربع قطع من النقانق، وعشرين باونداً من المقالي.

رن هاتفني الخليوي فور بدئي بتناول قطعة النقانق الثانية. لم يكلف كلوديل نفسه عناء إلقاء التحية.

- "الحق معك".

كدت أختتق. هل يغترف كلوديل فعلاً أنني على حق بأمرٍ معيّن؟
تساءل رايان عما يحدث، وبسط ذراعيه مستفسراً. مددت يدي باتجاهه.
- "تقول بطاقة هوية السيد ستيفان مينارد عند ولادته إنه ستيفن تيموثي مينارد،
وإن والديه، جينيفياف روز كورنيو وسايمون تيموثي مينارد، هما من سكان
فيرمونت".

- "تتذكر فيشر هذه الأمور بشكل صحيح".

- "عمل والدا مينارد في التعليم، كما أنهما كانا يبيعان منتوجات حديقتهما من
الخضار. تقع تلك الحديقة على بعد خمسة عشر ميلاً خارج سان جونزبوري. توفي
الوالد في العام سبعة وستين، أي عندما كان ابنه في الخامسة من عمره. وتوفيت
الوالدة في العام اثنين وثمانين".

- "كيف انتهى مينارد في كندا؟"

- "جاء بطريقة شرعية، لأن والدته ولدت في مونتريال. انتقلت بعد ارتباطها مع
مينارد إلى فيرمونت، حيث تزوجت هناك، وأصبحت مواطنة أميركية. اعتادت
جينيفياف روز زيارة عائلتها في موطنها، وحدث أن وُلد الصغير ستيفن في إحدى تلك
الزيارات".

- "هل يمتلك مينارد جنسية مزدوجة".

- "أجل".

- "لكنه لم يسكن بشكل دائم في كندا حتى العام تسعة وثمانين، صحيح؟"

- "ورث مينارد المزرعة التي تضم حديقة الخضار عندما ماتت والدته في
العام 1982. تبلغ مساحة المزرعة حوالي 12000 متر مربع، وتحتوي بيتاً يضم
غرفتي نوم".

أجريت حساباً سريعاً في ذهني: "تلك يعني أنه كان في العشرين من عمره".

- "أجل".

انهمك رايان بإضافة الخل إلى طبق البطاطا المقلية، لكنه كان يصغي بانتباه
شديد.

- "هل بقي مينارد في فيرمونت؟"

- "يدقق شاربونيو في هذا الأمر مع شرطة سان جونزبوري. تأكّدت من جهتي
أن جدّي مينارد قُتل في حادث سيارة في مونتريال في العام 1988".

- "دعني أحمَن. ورث مينارد من جدته وجدّه منزل كورنيو، فقال وداعاً لفيرمونت، ثم عدل طريقة لفظه لاسمه، وتوجّه شمالاً".
- "امتلك الرجل منزل كورنيو في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1988".
- "يقع ذلك المنزل في بوان سان شارل. أليس كذلك؟"
- قرأ لي كلوديل العنوان.
- أومأت لرايان كي يناولني قلماً، فدونت العنوان على منديل ورقي.
- "هل يسكن وحده؟"
- "لا تتدلّ السجلات على أن أي شخص آخر يسكن هناك".
- سألته: "هل يمتلك مينارد سجلاً عدلياً في الولايات المتحدة".
- "يعتبر الرجل نموذجاً للاستقامة، في ما عدا حالة واحدة نتجت عن قيادته السيارة تحت تأثير الكحول، وذلك عندما كان في السابعة عشرة من عمره".
- أحسست أن موقف كلوديل المتعجرف يؤثّر كالعادة على مزاجي.
- "اسمعي جيداً، دأبنا حتى هذه اللحظة على التركيز على الضحايا، وعملنا على القضية بدءاً من آخرها. يتعيّن علينا الآن أن نفكّر في الذين وضعوا الضحايا في القبو".
- "هل تعتقدين أن مينارد هو من دفنهم هناك".
- "هل تمتلك أفكاراً أفضل يا سيد كلوديل؟"
- بادرنا إلى قطع الاتصال الواحد تلو الآخر.
- مسرّرت المعلومات التي حصلت عليها من كلوديل إلى رايان أثناء تناولي لقطعة النقانق الثانية. لم يُظهر رايان أمامي أية شكوك تتعلّق بمينارد، ولعله أبقاها لنفسه. بعد قليل دسّ الأوراق المشمعة التي غلّفت وجبتنا في العلبة الكرتونية وقال: "لا بد أن مينارد هو في الأربعينيات من عمره هذه الأيام".
- "وبقي من دون مدخول معلّن منذ سنوات عديدة".
- "تعرف أنه يمتلك عدة عقارات في فيرمونت وكيبيك".
- قلت له: "ولديه الكثير من الأقارب المتوفين".
- اتّصل بي شاربونيو على هاتفي الجوّال عندما وصلت السيارة إلى الرصيف الموجود أمام منزلي.
- "كيف تسير الأمور أيتها الدكتورة؟"
- "إنها تسير سيراً جيداً".

- "أجريت بعض التحريات المهمة مع جيران رجلنا، صاحب الحقائق الخضراء. يبدو أنه تخرّج من الجامعة".
- "أين؟"
- "تخرّج من جامعة فيرمونت، وهو من خريجي دفعة العام 1984. أرسلت لي تلك السيدة اللطيفة التي تعمل في مكتب التسجيل صورته الموجودة في كتاب الجامعة السنوي. يبدو الفتى كأبي ولدٍ تفخر به والدته. يظهر في الصورة شعر الفتى الكثيف، وبعض النمش في وجهه، وقد وضع نظارتي كلارك كنت، وابتسم على طريقة دوني أوزموند".
- "وهل شعره أحمر اللون؟"
- "يبدو مثل أوبي بنظارتيه تلك. ستعجبين بما سأقوله لك. حصل الدكتور مينارد على درجة بكالوريوس فنون في علم الإنسان، الأنثروبولوجيا".
- "هل تمزح؟"
- "تبدو القصة أكثر تشويقاً هنا. أكمل مينارد تخصصه العالي، والتحق ببرنامج الماجستير في علم الآثار في مكان يدعى... انتظري وجدته. يدعى شيكو".
- تزايدت ضربات قلبي إلى حدها الأقصى.
- "هل تعني جامعة ولاية كاليفورنيا في شيكو؟"
- هزّ رايان رأسه مستفسراً بسبب حدّة نبرتي.
- "نعم، لكنها مكان بعيد بالنسبة لفتى يسكن في فيرمونت".
- ذكّرت شاربونييو باختبارات نظير السترونتيوم التي أجراها آرت هوليداي على الهياكل العظمية.
- "توحي نسب السترونتيوم الموجود في الأسنان العائدة للفتاة التي كانت في الكفن الجليدي أنها نشأت في شمال وسط كاليفورنيا، ألا تذكر؟"
- "صحيح".
- "تقع شيكو في شمال وسط كاليفورنيا".
- "يا للروعة!"
- "تذكّر أيضاً أن نسب السترونتيوم الموجودة في عظام تلك الفتاة توحي باحتمال تمضيبتها السنوات الأخيرة من حياتها في فيرمونت".
- "يا للعين!"
- "ماذا عرفت أيضاً؟"

- "يبدو أن منحة مينارد لم تسمح له بالمتابعة، فاضطرّ إمّا لترك الجامعة، أو أنه تعرّض للطرد بعد إكماله سنة واحدة من البرنامج. لم يحصل الفتى على شهادته".
- "وأين ذهب بعد ذلك؟"
- "ظهر في مزرعة والدته في فيرمونت في شهر كانون الثاني/يناير من العام ستة وثمانين".
- "إذا كان الفتى قد ترك جامعته في شيكو بعد إكماله سنة أكاديمية واحدة، فمعنى ذلك وجود ثغرة ما بين نهاية فصل الربيع الدراسي في العام خمسة وثمانين، وشهر كانون الثاني/يناير من العام ستة وثمانين. أين كان طيلة هذه الفترة؟"
- "سأجري بعض المكالمات الهاتفية مع شيكو".
- "بماذا انشغل مينارد بعد عودته إلى فيرمونت؟"
- "زرع الخضار على ما أظن، واعتمدَ على الممتلكات التي ورثها. لم يدفع الرجل اشتراكات الضمان الاجتماعي، ولم يسدّد ضرائبه".
- "هل تكلمت مع السكان هناك؟"
- "تجحت في حمل اثنين من جيرانه على تذكّره. لاحظت أن معظم السكان في تلك المنطقة قدموا إليها بعد مغادرة مينارد، لكن بعض الرجال المسنين يتذكّرون جينيفياف روز وابنها. يبدو أن والدته كانت سيدة قديرة، استطاعت أن تبقى ولدها تحت سيطرتها".
- "ألم تتروّج كورنيو ثانية؟"
- "لا، أبداً. ظلّت أماً وحيدة. يتذكّر بعض الناس أن مينارد كان ولداً هادئاً، ولم يكن يتجول كثيراً. لم يشارك ذلك الفتى بنشاطات رياضية، أو بنشاطات مدرسية من خارج المنهج الدراسي. يتذكّر شخص واحد على الأقل أنه رآه خلال السنة الأولى التي تلت عودته من شيكو. ويبدو أن الرجل أولع باتخاذ مظهر غريب في الفترة التي قضاها بعد تخرجه من الجامعة، لأنه عاد بلحية طويلة، وخصلات شعرٍ متدلّية حول رأسه".
- "إنها فيرمونت".
- "ماذا تعنين بذلك؟"
- "إنهم أناس محافظون. هل قال لك الجيران أشياء أخرى؟"
- "لم يقولوا الكثير. يبدو أن مينارد كان منعزلاً بعض الشيء، ولم يجازف بالخروج من منزله إلا لشراء حاجياته، أو من أجل الحصول على وقود لسيارته".

- "تحدّث مع أشخاص في شيكو. اكشف النقاب عن كل شيء يتعلّق بهذا الرجل. أريدك أن تجهّز لي لائحة عن كل أنثى بلغ عمرها ما بين الخامسة عشرة، والخامسة والعشرين اختفت في تلك المنطقة أثناء تواجد مينارد فيها".

- "هل أنتِ ميالةٌ حقاً إلى ربط مينارد مع الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البيترز؟"

- "إنه النموذج التقليدي؛ والدة مسيطرة، وفشل في تحقيق الطموحات، رجل وحيد، يعيش في مكان منعزل".

- "لا أعرف ماذا أقول".

- "اربط المعلومات مع بعضها يا شاربونيو. دُفنت ثلاث فتيات في قبو عقار استأجره مينارد لمدة تسع سنوات. يوحى تاريخ الكربون 14 بتزامن حدوث الوفيات مع فترة استئجار مينارد للمكان. أعتقد أن لويز بايرنت امتلكت ما يكفي من الأسباب التي تدفعها لتكلمني هاتفياً مرتين".

عمدت إلى التلخيص من أجل رايان وشاربونيو على السواء.

- "بحسب ما قالته شقيقة بايرنت، فإنها أرادت أن تخبرني أنها رأَت مينارد مرة وهو يحمل فتاة مراهقة غائبة عن الوعي، ويتّجه بها نحو متجره. راقبته في مناسبة أخرى وهو يجرّ فتاة هاربة إلى متجره. جرت الحادثتان في وقت متأخر من الليل".

قال شاربونيو: "لكن بايرنت متوفاة الآن".

نظرت نحو رايان الذي بدا مهتماً بكل كلمة.

أكدت قوله: "وبايرنت متوفاة الآن".

- "أوضحي حدود عملك إذاً، لأنه يُحتمل أننا سنعمل على نفس المستوى".

- "يبدو الأمر كذلك".

- "هل رايان معك؟"

- "نعم".

- "دعيني أتكلّم معه".

ناولت رايان سماعة الهاتف، ثم راقبته أثناء إصغائه إلى شاربونيو. حافظت على هدوء تعابير وجهي بالرغم من أن أعصابي كانت مشدودة. لم تظهر على وجهي الصدمة التي واجهني شاربونيو بها. كتمت الألم الذي تسبّب لي به شاربونيو يوم الاثنين. كما كتمت العذاب الذي تسبّب لي به المكالمة الهاتفية التي أجرتها الليلة الماضية.

أقسمتُ على أن أبقى مسافةً ما بيني وبين رايان، لكن الخيوط بدأت بالترابط. بدا لي أن التداخل الموجود ما بين قضيتي بايرنت، وبين التحقيقات بخصوص قبو مطعم البيتر، سيجعل من الانفصال المهني في ما بيننا أمراً مستحيلاً. عزمت على أن أتصرف بإيجابية. سأقوم بمهمتي، وعندما تنتهي سأتمنى التوفيق لرايان، ثم أمضي في طريقي. ضحك رايان تلك الضحكة المعتادة بين الرجال الذين يتبادلون نكاتاً حول النساء: "نعم، إنها كذلك".

ثار جنون الارتباب عندي. إنها ماذا؟ وعن أي امرأة يتحدثان؟ انسي الأمر يا برينان. ركزي اهتمامك على القضية، وحافظي على كل طاقائك مصوبةً بذلك الاتجاه. تخيلت العظام في قبورها المنسية والمجهولة، بينما انشغل مينارد بالشراء والبيع في متجره الكائن فوقها؛ يتاجر بالإلكترونيات مقابل صفقة مخدرات، ويشتري ممتلكات الآباء التي ورثها لأبنائهم الذين يبيعونها آسفين. تخيلت مينارد في فيرمونت وهو يزرع البازيلاء والبطاطا. وتخيلت مينارد في كاليفورنيا وهو مكبٌ على دراسته ستروفر، وبينفورد، وبويكسترا، وفاغان. تقدّمت فكرة واضحة المعالم في رأسي محاولةً الاستحواذ على انتباهي: شيكو.

أدار رايان المنديل الورقي لكي يقرأ عنوان مينارد: "... لقد دوّنته عندي". تقع شيكو في شمال وسط كاليفورنيا. أعرف ذلك تماماً. إذاً لماذا يثير اسم مكان ما كل هذه الضجة في ذهني؟

لم يكن الأمر بهذه البساطة، لا بد أن هناك سبباً آخر يفوقه أهمية. ما هو؟ قال رايان: "هذا يكفي". قال شاربونيو شيئاً.

- "أجل. نستطيع الضغط على السنجاب لنعرف كيف يستجيب". قطع رايان الاتصال، وناولني هاتفه الجوّال، ثم سألني: "هل تودين إجراء محاورّة مع هذا الرجل؟"

- "أتعني مينارد؟"
أوما رايان بالإيجاب.
- "بالتأكيد".

بدا لي أن تلك الفكرة الغامضة في ذهني قد تراجعت قليلاً. لم نعرف أننا مراقبان عندما غادرت المطعم برفقة رايان.

الفصل 26

تجعلني خارطة مونتريال أفكرّ بقدّم، يشكل الكاحل فيها مطار دورفال بالإضافة إلى ضواحي الجزيرة الغربية، بينما تشير أصابع هذه القدم نحو الشرق. ينحدر عقب القدم نزولاً باتجاه فلاف سان لوران. وتشكّل فردون الباطن السمين لهذا العقب، أما بوان سان شارلز فتشكّل ورماً صغيراً في إبهام تلك القدم.

تنتهي البوان بقناة لاشين، وتمتدّ حتى ساحات سكة الحديد الكندية. تقع فيو مونتريال وميناؤها إلى جهة الشرق. سكن البوان في البداية العمال المهاجرون الذين عملوا في تشييد جسور مونتريال، لهذا السبب نجد أسماءً تعكس حضوراً أيرلندياً قوياً، مثال على ذلك شارع سان باتريك، وسوليفان، ودبلن، ومولينز. أصبح كل ذلك من التاريخ، أما اليوم فغالبية سكان البوان هم من الفرنسيين.

انعطف رايبان إلى شارع ولينغتون بعد أقل من عشرين دقيقة على مغادرته لافلور. ويُعتبر ولينغتون الشريان الرئيسي لتلك المنطقة، وهو يمتدّ من جهة الشرق حتى الغرب. مررنا أمام متاجر بيع اللوازم الرياضية، وصالونات الوشم، وبمتجر أقمشة أم أتش غروفر الذي يشكّل معلماً من معالم ولينغتون منذ عقود من الزمن. انتشرت هنا وهناك مقاهٍ جميلة تتوسّط ذلك الشارع.

توقّف رايبان قليلاً حيث يلتقي شارع دبلن مع الجهة اليسرى لشارع ولينغتون. هناك تنتشر مجموعة من الأبنية المشيدة على الطراز الفيكتوري على يمين الشارع. بدت تلك الأبنية غير متناسبة، ومبنية بطريقة مستعربة بسبب كثرة ألوانها، لكنها تتميز بأعمال خشبية مزخرفة، وأقواس قرميذية، وبألواح الزجاج المثبتة داخل إطاراتها. استطعت أن أقرأ اسم الدكتور جورج هال محفوراً على قطعة زجاج غير شفافة وُضعت فوق أحد الأبواب الأمامية.

لاحظ رايبان أنني أحتق فيها، فقال لي: "إنه شارع الأطباء. شيّدت أبنيته مجموعة من الأطباء الأغنياء في القرن التاسع عشر، فقد أراد هؤلاء الحصول على مساكن فخمة. تغيّرت الأمور قليلاً منذ ذلك الحين".

- "هل ما تزال هذه المنازل بيوتاً خاصة؟"

- "أعتقد أنها مقسمة الآن إلى شقق."

- "أين يقع شارع دي سيباستوبول؟"

أدار رايان رأسه نحو اليسار: "إنه شارع مكتظ مثل جحور الأرناب، فيه الكثير من الطرق المسدودة، والطرق ذات الخط الواحد. أعتقد أن سيباستوبول يلامس طرف ساحات سكة الحديد".

شاهدت معلماً تاريخياً من خلال زجاج نافذة السيارة، وذلك ما إن انعطفت رايان نحو شارع دبلن.

- "ما هو بارك مارجوريت بورجوي؟"

- "يا سيدتي الدكتورة، ها أنت تشيرين إلى واحدة من أكثر سيدات كيبيك شعبية. إنها الأخت ماجي التي أسست المدارس لتعليم الفتيات الصغيرات في القرن السابع عشر، كانت فكرتها ممتازة، وقد استفادت منها كيبيك في ذلك الوقت. أسست هذه الأخت أيضاً أبرشية راهبات نوتردام. أقدمت الكنيسة منذ سنوات قليلة على رفع درجتها إلى رتبة قديسة".

سألت: "وما هي فائدة اللوحة؟"

- "في أواسط الستينيات أعطى مئات من البورجوازيين مساحات مهمة من شبه الجزيرة الصغيرة هذه للراهبات. لكن بدأت الراهبات ببيع الأراضي شيئاً فشيئاً. تغطي بوان سان شارل حالياً مساحةً كبيرة من هذه المنطقة، لكن مدرسة المدينة الأساسية وبعض أقسام المزرعة، والتي تقع أمامنا مباشرة، قد أصبحت متحفاً هذه الأيام".

- "أتعني مايزون سان غابريال؟"

أوما رايان.

بدت عملية جرف الثلج سطحية في تلك المنطقة. بقيت الأرصفة مغطاة بالثلوج وبدت تحتها معالم السيارات التي طُمر بعضها في الشوارع. قاد رايان السيارة ببطء، وأبقاها إلى أقصى يمين الطريق كي يُفسح في المجال للسيارات الآتية في الاتجاه المعاكس. بدأت بأخذ جردة بالأبنية المحيطة بنا أثناء تقدمنا أكثر فأكثر في البوان.

لاحظت أن هندسة الأبنية كانت خليطاً من الطرازات التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين. يبدو أن معظمها قد شيد للفقراء من أبناء الطبقة العاملة. اصطفّت المباني ذات الطبقتين على جانبي الكثير من الشوارع، وهي البيوت

المشيّدة بالحجر القرميدي الأحمر، والتي تفتح أبواب مداخلها على الأرصفة مباشرة. لاحظت أن بعض المباني الأخرى قد شيّدت بالأحجار الكلسية غير المنحوتة جيداً. بدت معظم البيوت بسيطة للغاية، بينما زيّنت بيوت أخرى بالأفاريز على أسطحها، أو بالأسطح المستعارة، أو بالنوافذ البارزة من السقوف الخشبية المنحوتة المائلة.

تداخلت مع هذه البيوت القديمة المبنية على الطراز السائد في القرن الماضي، منازل بثلاث طبقات، أو ست طبقات، شيّدت في السنوات الأولى من هذا القرن. فضّل أصحاب هذه المنازل التراجع عن الطرقات، الأمر الذي سمح بإنشاء حدائق صغيرة في الباحات الأمامية. أنشأ هؤلاء أيضاً مداخل مظلمة لبيوتهم، وأقدموا على تلبس الجدران الخارجية بالأحجار الصفراء، أو البنية اللون، أو تلك التي هي بلون جلد الظباء، ولم ينسوا إنشاء أدراج خارجية ملتفة تصل إلى شرفات الطبقات الثانية.

مررنا قبل وصولنا إلى مدخل مايزون سان غابريال بعدة أبنية ضخمة، مكوّنة من أربع طبقات، تعود إلى ما فترة ما بعد الحرب. تميّز هذه البيوت الكبيرة بمداخل مظلمة بالإسمنت أو البلاستيك. أتضح أن تركيز مهندسي هذه البيوت القبيحة الشكل كان منصباً على المنفعة أكثر منه على الجمالية. ويبدو أنهم تأثروا كثيراً بفكرة فينغ شوي أي تأثيرات الخير والشر في البيئة.

بعد عدد من الالتفافات انعطف رايان نحو اليمين لنشاهد شارع دي سيباستوبول يمتدّ أمامنا. امتدّت إلى يسارنا ساحات سكة الحديد، والتي بدت نصف مخابأ بالأسيجة وبالنباتات المتعرّشة الدائمة الخضرة، والتي يبلغ ارتفاعها ست أقدام. استطعت أن أرى عربات الشحن التي علاها الصدأ في الباحة، برغم الأغصان المتشابكة. استعدّ رايان لإيقاف السيارة فسمعت انسحاق الثلج تحت عجلاتها. أجريت مع رايان جولة بصرية حول المكان، لكن بصمت.

امتدّت في طريقنا سلسلة من البيوت المبنية بالحجر القرميدي الأحمر، والتي تتكئ على الرصيف. بدا كأن هذه البيوت الصغيرة المتهاكة تحتضن بعضها طلباً للدعم، أو للدفع.

استطعت أن أرى ثغرة وراء هذه البيوت المتهاكة، ثم لاحظت خليطاً من الأبنية الإسمنتية التي حملت جدرانها الخارجية رسومات ملونة. شاهدنا إلى يميننا مستودعاً رث الهيئة يحيط به سياج شبه متهدم. وقف كلب هجين وراء السياج، ولاحظ وجودنا. انتصبت الأشجار العارية من خلال خطوط الطاقة الكهربائية، وتجمّع الثلج المجروف سابقاً على جانبي الطريق وقد اتسخ بالسخام. بدا شارع دي سيباستوبول مثل الكثير

من الشوارع الأخرى في البوان. شعرت، بالرغم من هذا، أنه أكثر كآبة وأكثر عزلة. انبسطت إلى يسارنا ساحات سكة الحديد الشاسعة وغير المأهولة، وامتدّ خلفنا الطريق الوحيد الذي يسمح بمرور العربات إلى المخرج.

تفحصت طول هذا المجمع، وشعرت بإحساس عميق من التوجس.

أوماً رايان باتجاه صف البيوت: "هذا هو مجمع سيباستوبول، والذي بنته سكة حديد غراند ترنك في أعوام الخمسينيات من القرن التاسع عشر".

- "يبدو أن سكة الحديد الكبرى لم تكثر كثيراً للناحية الجمالية".

تناول رايان المنديل الورقي من جيبه وتفحص العنوان، ثم تقدّم قليلاً كي يستطيع رؤية رقم أول بيت في المجموعة. توقف الكلب عن النباح، ووضع مخالفه الأمامية على السياج، ثم اكنفى بمراقبة تقدمنا.

- "ما هو الرقم؟"

قرأه رايان لي.

- "لا بد أن المنزل بعيد من هنا".

بدأ رايان يتقدّم باتجاه المنازل الأخرى، وتولّيت أنا مهمة قراءة العناوين. دلّت أرقام البيوت على أننا لم نذهب بعيداً بما يكفي، لكن أول بيتٍ إسمنتي أظهر لنا أننا ذهبنا بعيداً جداً.

قلت مقترحةً: "لعل ذلك المنزل يقع في آخر الرصيف، وراء تلك الباحة الخالية". أرجع رايان السيارة من أمام عدة منازل ثم أوقفها أمام آخر بيت في المجموعة. بدا لنا شبح الكاد تمكنا من رؤيته من خلال الأشجار العارية من الأوراق، وأشجار الصنوبر الكثيفة.

تناول رايان قفازيه من المقعد الخلفي: "هل أنت مستعدة؟"

- "أنا مستعدة".

وضعت قفازي وخرجت من السيارة. انطلق الكلب بالنباح ما إن سمع صوت إغلاق أبواب السيارة.

تقدّم رايان لمسافة ستة أقدام وراء الجدار الخارجي لآخر بيت من البيوت. مشى فوق طريق مكسو بالجليد. ملأت الفضاء الغصون المليئة بالأوراق الإبرية، والأغصان العارية من أوراقها، وأحدث ذلك تأثيراً يشبه ذلك الذي تحدّثه الأفق. امتلأ الجو برائحة الصنوبر، ودخان الفحم، والروائح العضوية. سألت بصوت خافت:

"ما هذه الرائحة؟"

أجابني رايان هامساً: "إنها رائحة روث الخيول، وهذا الكلب المستن يحرس اصطبل الخيول".

- "هل هي نفس الخيول التي تجرّ العربات في شوارع مونتريال القديمة؟"

- "إنها هي ذاتها".

استنشقت مرة أخرى.

صحيح، لكن لا بد من وجود شيء آخر هناك.

شقتت طريقي مع رايان بكل حرص فوق طريق غير مستوية. تسارعت أنفاسنا، ورفعنا ياقاتنا لنندراً البرد القارس عنا.

تأخذ الطريق إلى اليسار منعطفاً حاداً قبل الوصول إلى مسافة عشر ياردات من سيباستوبول. وجدنا نفسنا أمام عمارة مبنية بالقرميد وقد عدت عليها عوامل الزمن. توقفنا لنقرأ الأرقام الصدئة الموجودة فوق الباب.

قال رايان: "لقد نجحنا".

لاحظت أن مدخل العمارة مظلل، أما الباب فقديم وغير مصقول، لكنه محفور ومزخرف. لاحظت أيضاً أن النوافذ معتمة، بدا بعضها أسود اللون، وبعضها الآخر أبيض اللون، نتيجة الجليد والتلج الذي حملته الرياح إليها.

تناثرت أغصان العريش اليابسة فوق السطح وعلى الجدران، وشاهدت عتبة خشبية ساقطة من إطارها. بدت أشجار الصنوبر أكثر هنا، الأمر الذي ألقى ظلالاً كثيفة على المنزل وباحته الصغيرة. دُهشت عندما شعرت أن شعيرات صغيرة ارتفعت في مؤخرة رقبتي. أخذت نفساً عميقاً، وجهدت لأهدئ من روعي. تقدّم رايان نحو الباب، وتبعته.

لاحظت أن الجرس مصنوع من النحاس الكليل، وهو من النوع القديم الطراز الذي يُصدر صوتاً عندما يُدار المقبض في اتجاه عقارب الساعة. مد رايان يده وأدار المقبض، فتردّد صوت الجرس في مكان ما داخل البيت.

انتظر رايان دقيقة كاملة قبل أن يقرع الجرس للمرة الثانية. دوت أصوات الأقفال بعد ثوانٍ عدة، وما لبثت مفصلات الباب أن صرفت لينفتح مقدار أربع بوصات.

مدّ رايان شارته من الفتحة، وسأل بالإنكليزية: "السيد مينارد؟"

لم يفتح الباب أكثر مما هو عليه، ولم أستطع رؤية الشخص الموجود وراءه.
كرّر رايان: "هل أنت ستيفن مينارد؟"
سأل الرجل بلهجة أميركية مشددة: "ماذا تريد؟"
تابع رايان بالإنكليزية: "نحن من الشرطة يا سيد مينارد. نرغب في التحدث إليك".

- "أتركوني وشأني".

تحرك الباب باتجاه إطاره، إلا أن رايان أسرع لدفعه إلى الخلف. فعل ذلك بخفة الأرنب الأميركي.

- "هل أنت ستيفن مينارد؟"

لفظ الرجل اسمه على الطريقة الفرنسية: "اسمي ستيفان مينارد. من أنتما؟"
صوّب رايان إصبعه باتجاهي: "إنها الدكتورة تمبرانس برينان، وأنا التحري رايان. نرغب في أن نتحدث معك قليلاً".

لم أستطع أن أتبيّن صاحب الصوت، حتى ذلك الوقت، لكن الصوت بدا لي جافاً وضعيفاً: "ارحلاً".

- "لن نرحل إلى أي مكان يا سيد مينارد. إذا تعاونت معنا فلن تأخذ أسئلتنا أكثر من دقائق قليلة من وقتك".

امتنع مينارد عن الإجابة.

بدت نبرة رايان قوية كالفلواز المقوّى: "وإلا سنضطر إلى إجراء المقابلة في مركز الشرطة".

- "تياً!"

انغلق الباب، وسمعنا صوت سلسلة، ثم انفتح الباب ثانيةً.

دخل رايان ففتبعته. لاحظت أن أرضية المنزل مغطاة ببساط مشمع، أما الجدران فكانت ملونة، الأمر الذي أضاف المزيد من العتمة للغرفة الخالية من النوافذ. تشبّع الهواء برائحة كرات مكافحة العث، وأوراق الجدران القديمة، والأقمشة العفنة، وقد أضيء الرواق الصغير بمصباح صيني صغير. وقف مينارد وراء الباب واضعاً إحدى يديه على المقبض، وضغط بالأخرى فتّاحة رسائل نحاسية على صدره.

أقفّل مينارد الباب ثم التفت نحونا، وعندها لمحته للمرة الأولى. يقارب طول ستيفن مينارد الستة أقدام وأربع بوصات. بدا لي أنه أغرب رجل رأيته في حياتي

بسبب وجهه المليء بالشمس، ورأسه الأصلع الشبيه برأس الضفدع. يحمل الرجل ملامح رجل متعب في الأربعينيات من عمره، أو ملامح رجل مقبول الهيئة في الستين من عمره.

سأل مينارد مجدداً: "ماذا تريدان؟"

بدأ رايان بفك زمام سترته: "هل نستطيع أن نجلس؟"

هز الرجل كتفيه: "كما تريدان".

قادنا مينارد إلى غرفة استقبال معتمة قليلاً مثلما هي حال الرواق. رأينا ستائر حمراء داكنة، ومكتباً من خشب الماهوغاني، وطاولات للقهوة، وطاولات صغيرة أخرى. لاحظت أن الجدران مكسوة بورق جدران ذي لون زهري داكن، وقطع أثاث بلون التوت البري المعتم.

وضع الرجل فتاحة الرسائل النحاسية على المكتب الخشبي، ثم تهالك على الأريكة، ووضع رجلاً فوق الأخرى. خلعتُ سترتي، وجلست على الكرسي الموجود إلى يمينه. تجول رايان في الغرفة وأضاء الثريا المتدلية من السقف، كما أضاء زوجاً من المصابيح المصنوعة من الكريستال والنحاس يحيطان بالأريكة. سمحت لي الإنارة الإضافية بإجراء تقييم أفضل للرجل الذي يسكن هذا المنزل.

لم يكن ستيفن مينارد أصلع قليلاً فقط، لكن رأسه خلا بالكامل من الشعر، حتى من شعر اللحية، كما افتقد الرجل للأهداب. افتقد الرجل وجود الشعر في جسمه كما في رأسه. أعطته هذه الخاصية نعومة، ومظهراً شاحباً بشكل غريب. رحت أتساءل إذا ما كان افتقاد مينارد للشعر هو مجرد حالة وراثية، أو أن هذه الحالة كانت ضرباً من الموضة الغريبة المقصودة.

رفع رايان كرسي وندسور من جانب طاولة المكتب الخشبية ووضعها أمام مينارد. أوحى لغة جسده أنه لا يميل إلى الهدوء. جلس رايان وأسند مرفقيه على ركبتيه، وانحنى إلى الأمام حتى أصبح على بعد ياردة من وجه مينارد.

انتعل مضيفنا الذي لم يرحب بنا خفياً، وبنطال جينز، وكنزة صوفية رُفَع كماها إلى ما فوق المرفقين. تراجع مينارد من أمام رايان. أنزل كمي كنزته حتى معصميه، ثم رفعهما مجدداً، وعدّل وضع نظارتيه، ثم جلس منتظراً.

- "سأكون صادقاً معك يا سيد مينارد لأنك أثرتَ اهتمامنا".

- "أنا..."

- "فهمت أنك أميركي، إذاً لن يكون التكلم بالإنكليزية معضلة بالنسبة إليك، صحيح؟"

انثنت ذقن مينارد قليلاً، لكنه لم يتكلم أبداً.

- "قال لنا ريتشارد ساير إنك أدت مكتباً للرهنيات منذ سنوات قليلة في عمارته الواقعة في شارع القديسة كاترين".

رقت شفقا مينارد وأصبحنا كالخيط، وظهر تغضنٌ مكان وجود حاجبيه.

- "أليك مانع إذا ما طرحت عليك بعض الأسئلة حول هذا الموضوع؟"

مرّر مينارد يده فوق فكّه، وعدّل مكان نظارتيه مرة أخرى.

- "كان عملاً ناجحاً جداً، كم سنة استمر؟ تسع سنوات؟ أنت ما زلت شاباً، ما الذي دفعك إلى إقفال مكتب الرهنيات؟"

- "لم أكن مجرد مسترهن. تاجرتُ بالمقتنيات الثمينة".

- "أيمكنك أن تشرح لي هذا بتفصيل أكثر؟"

- "ساعدت هواة جمع هذه المقتنيات على إيجاد تلك التي يصعب العثور عليها، مثل الطوابع، النقود المعدنية، ومجسمات مصغرة للجنود".

سبق لي أن رأيت رايان أثناء استجوابه المشتبه بهم. أجاد الرجل استخدام الصمت، فهو ينتظر إلى أن ينتهي المشتبه به من إعطاء جوابه، لكنه بدلاً من طرح سؤال آخر، يعمد إلى التطلع عالياً والانتظار. لجأ رايان حالياً إلى هذا الأسلوب.

بلغ مينارد ريقه، وانتظر رايان.

تمّم مينارد: "كان عملاً قانونياً".

ظننت أنني سمعت صوت باب يُفتح ويُغلق في مكان ما من البيت.

- "تعقدت الأمور كثيراً، وبدأ العمل بالتراجع، كما أن مدة الإيجار أشرفت على الانتهاء، فقررت عدم التجديد".

- "ماذا تعني بأن الأمور تعقدت؟"

- "تعقدت فحسب. اسمع، إنني مواطن كندي، ولديّ حقوقي".

- "إنني أطرح عليك بعض الأسئلة فحسب، يا سيد مينارد".

لم يعد يسهل على مينارد أن ينظر إلى عيني رايان بشكل مباشر، فتنقّل بنظرته ما بين يديه ورايان، ثم نظر إلى الأسفل.

سمح رايان بفترة صمت طويلة أخرى قبل أن يطرح سؤاله التالي: "ماذا تحوّلت

إلى دراسة علم الآثار؟"

- "عمّ تتحدّث؟"

- "ماذا حدث في شيكو؟"

ومضت فكرة في ذهني. لكنني لم أتتبعها. عدل مينارد من وضع نظارتيه مجدداً، ثم سأل: "هل لديك مذكرة استجواب؟"
قال رايان: "لا يا سيدي".

نقل مينارد نظراته في هذا الوقت إلى ما فوق كتف رايان الأيسر، فالتفتنا نحو الاتجاه الذي نظر إليه. وقفت امرأة عند مدخل الغرفة امرأة ذات قامة طويلة، نحيلة. لاحظتُ أن بشرتها ذات لون أصفر شاحب، أما شعرها فقد ضمّته بجديلة سوداء طويلة. خمنت أن عمرها يتراوح ما بين أواسط وأواخر العشرينيات.
تضيق عينا مينارد أكثر فأكثر. توترت المرأة بشكل واضح حتى بدا أنها أجفلت. ضمّت هذه المرأة ذراعيها حول خصرها، ثم أسرعت مختفية بعيداً عن أنظارنا.

هبّ مينارد واقفاً على قدميه، وهو يقول: "لن أجيب عن أية أسئلة إضافية. تستطيع أن تلقي القبض عليّ، أو أن تغادر منزلي."
نهض رايان ببطء شديد.

- "هل هناك من سبب يدعوننا لإلقاء القبض عليك يا سيد مينارد؟"

- "لا، بالطبع".

- "حسناً".

أقفل رايان زمام سترته، وارتديت أنا سترتي، وبدأت أمشي نحو الرواق. وقفت قليلاً قرب طاولة المكتب، ولاحظت وجود فتحة الرسائل. رأيت بطرف عيني رايان وهو يحرق بمينارد.

- "سنفعل كما تريد الآن أيها السيد، لكننا إذا اكتشفت أنك تخفي معلومات عنا، فسوف أتأكد من أنك ستندم على ذلك".

رفع مينارد عينيه هذه المرة نحو رايان، ووقف الاثنان وجهاً لوجه.

أدرت ظهري لهذه المواجهة المباشرة، ووضعت فتحة الرسائل في محفظتي؟

الفصل 27

بدأ رايان باجتياز آخر منعطف في شارع دي سيباستوبول: "إلى أين أخذتك أفكارك؟"

- "لو عادت محاكم التفتيش إلى مزاوله نشاطاتها، فستكون وريثها الأول."
- "سأعتبر ذلك بمثابة إطراء. ما هو انطباعك بشأن مينارد؟"
- "جعلني الرجل أشعر بالتوتر. هل تعتقد أن فقدانه لشعره هو حالة مرضية؟"
- هزّ رايان رأسه علامةً على النفي: "استطعت أن ألاحظ حزواً في فروة رأسه."
- "لماذا يقدم أي رجل على حلاقة شعره، وانتزاع كل شعرة من جسمه؟"
- "قد يكون من معجبي تيلي سافالاس؟"
- "وهل سيقدم على نزع الشعرات من كامل جسمه؟"
- "لربما، كي يوفر في كلفة الشامبو."
- "رايان."
- "هل يتمرن الرجل على السباحة ليشارك في المسابقات الأولمبية القادمة؟"
- لم أقدم إجابة عن سؤاله هذا.
- "لا أعرف، أليكون ذلك من فعل مزين غافل، أم بسبب القمل؟ أم هل تراه نوع من الخوف المرضي من الشعر؟"
- "هل لاحظت غرابة تصرفات تلك المرأة؟"
- "أعتقد أنها لم تظهر لتعرض علينا تناول الشاي."
- "بدت مرتعبة."
- هزّ رايان كتفيه: "لربما، ولربما تعارض هذه السيدة وجود ضيوف غير مدعوين في بيتها."
- "قال لي كلوديل إن السجلات لا تظهر شخصاً آخر يسكن في ذلك البيت. من تظنها تكون؟"

- "أعترزم معرفة من هي".
أخبرته بأمر فتّاحة الرسائل.
- "إنها مصادرة غير قانونية".
قلت موافقةً: "أجل".
- "سيستبعد القاضي الأخذ بأية معلومات تأخذينها منها".
قلت موافقةً للمرة الثانية: "أجل، لكن قد تفيدنا البصمات بالتعرف على هوية تلك المرأة".
- "هذا أمر محتمل".
- "اسمع. فعلت ذلك من دون تفكير. رأيت الفتّاحة على الطاولة. تصوّرت أن المرأة قد أمسكت بها من قبل، فاستعرتها فقط."
- "آه!"
- "سأرجعها".
- "لا أشك بذلك أبداً".
قاربت الشمس المغيب، فأصبح زجاج السيارة الأمامي معتماً قليلاً بسبب الثلج المالح، ونصف الذائب، والذي قدّفته باتجاهنا السيارات التي تسير أمامنا. استسلمت للصمت، بينما ركّز رايان على قيادة السيارة.
بدأنا بعبور قناة لاشين كي ننعطف باتجاه دي لامونتان. قلت لرايان: "لعلها ستفسّر لنا سر الأزرار القديمة".
- "هذا محتمل".
خطرت فكرة على ذهني بغتة.
التفتّ نحو رايان وقلت: "الزر المزيف".
- "أعتقدين أن مينارد كان يساعد زبائنه الذين يجمعون التحف، عن طريق قيامه بصناعة بعض الأشياء بنفسه؟"
- "ربما ظنّ أننا نحقق في هذا الأمر، ولعله توتّر كثيراً لهذا السبب".
قال رايان: "يبقى ذلك احتمالاً وارداً".
خطرت على ذهني فكرة أخرى.
- "يُحتمل أن مينارد قد عثر على الهياكل العظمية، لكنه أبقى الأمر لنفسه معتقداً أنه سيتمكّن يوماً ما من بيع الهياكل إلى بعض الذين يجمعون الأشياء الثمينة. إنني

متأكّدة أنه لا يُسمح بالمتاجرة بالعظام البشرية في كندا".

- "إنه احتمال آخر".

استرخيت في مقعدي: "خبرني حدسي أن الأمر يتعدّى ذلك بكثير".

- "سأعرف ما إذا كان الرجل يعيش وحيداً أم لا".

- "إنني متأكّدة من أن مينارد لم يكن سعيداً لرؤيتنا".

- "الدفء الذي نضح منه أشبه بذلك الذي ينضح من غرف التشريح. تذكّرت

الآن.. إلى تريدين أن تذهبي؟"

- "أريد التوجه إلى المختبرات".

أجريت اتصالاً مع شفتي كي أتأكّد من برنامج آن، لكنني لم أتلّق جواباً. تركت

لها رسالة لتتصل بي حال عودتها.

* * *

بعد مضي عشرين دقيقة كنت أجلس خلف مكنتي.

وعد رايان بأخذ فتّاحة الرسائل إلى قسم التحقيقات القضائية. قال لي إنه سيّصل

بي إذا ما استطاع ذلك القسم فك الأسرار الكامنة فيها، أو إنه سيكلف التقني الموجود

في المختبر أن يتّصل بي.

أصرت أن منذ أن تعرّفت عليها على أنها تكره ألوان الأطعمة الهندية. اتّصلت

بها ثانية كي أقترح عليها تناول طعام العشاء في مطعم لا ميزون دي كاري، وكنت

متأكّدة من أن طبق لحم الحمل المنكّه بالكاري سيغيّر رأيها، لكنها لم تجبني. تركت

رسالة ثانية.

وجدت ورقتين مطبوعتين فوق دفتري. أعدّ كلوديل الورقة الأطول، والتي ترد

فيها أسماء الفتيات المفقودات في كيبك، ووردت في اللائحة الأقصر التي أعدّها

شاربونيو أسماء الفتيات اللواتي اختفين في شمال وسط كاليفورنيا.

بدأت العمل على اللائحة الأولى.

عملت على الأسماء واحداً واحداً، واستبعدتُ منها أسماء الفتيات اللواتي لا

تتوافق مواصفاتهم مع الهياكل التي وجدت في قبو مطعم البييتزا. بدأت أشعر بالصداع

في الوقت الذي وصلت فيه إلى اسم مانون فيوليت.

تتميّز مانون فيوليت بوجود نابٍ مائل في الجهة اليمنى من فكها الأعلى، وبأنها

لم تجرِ أية عمليات ترميم لأسنانها. تابعت العمل وسط شعور غامر من الإثارة.

تميزت الفتاة التي جمعت عظامها في صندوق الدكتور إنرجي بوجود ناب مائل في فكها الأعلى، ولم تخضع لأية ترميمات في أسنانها. قرأت التفاصيل وبالكاد استطعت التنفس. اختفت مانون فيوليت قبل تسع سنوات بعد أن غادرت منزلها الكائن في لونغ ويل، ثم استقلت الباص قاصدة وسط المدينة. تنتمي فيوليت إلى الجنس الأبيض، وقد بلغت الخامسة عشرة سنة من العمر عند اختفائها. أصابتي المعلومة التالية بوخزة في الصدر. يبلغ طول مانون فيوليت ثمان وخمسين بوصة. اللعنة!

قدرت أن طول قامة فتاة الدكتور إنرجي يبلغ اثنين وستين بوصة. هل من المعقول أنني أخطأت بتقديراتي بهذا القدر؟ قصدت المختبر لأتحقق.

لا، ففتاة الدكتور إنرجي قصيرة القامة، لكن ليس إلى هذا الحد. قدرت أن الفتاة التي تحمل الرقم 38426 كانت طويلة جداً، حتى لو احتسبنا عامل الخطأ. ماذا بشأن الفتاة رقم 38427؟ قدرت أن عمرها يتراوح ما بين الخامسة عشرة، والسابعة عشرة، وأن طولها يتراوح ما بين أربع وستين، وسبع وستين بوصة. تناولت الجمجمة ثم تفحصت الأسنان. رأيت في الأسنان النموذج المثالي الذي يبحث عنه طبيب تقويم الأسنان. عدت إلى القائمة.

استرحت من عملي بعد مضي ساعة، ولم أحصد سوى الإحباط. أكره أن أعترف أن كلوديل كان على حق. لم أجد حالات تتوافق مع المواصفات التي نبحت عنها، فلو توافقت الطول يختلف العمر. وإذا توافقت مواصفات العمر والطول مع أحد الهياكل، أكتشف أن الأصل العرقي، أو إحدى الخصائص الأخرى، تستبعد الفتاة المرشحة من الحساب.

بحثت عن فتاة عانت من كسر في الكعبرة اليمنى. لم أجد أي فتاة من كيبك قد عانت من هذا الكسر، لكنني وجدت فتاة واحدة من كاليفورنيا عانت منه. أشار كلوديل إلى فتاة من كاليفورنيا في إحدى محادثتنا السابقة. تفحصت المعطيات الواردة عنها.

قدم ليونارد ألكسندر روبنسون إلى مكتب الشريف في مقاطعة تهامة، تقريراً عن شخص فقد في العام 1985. جاء في التقرير أن أنجيلا، وهي ابنة روبنسون، وتبلغ

أربعة عشر عاماً وتسعة أشهر من العمر، وبيضاء اللون، غادرت منزلها في ليل الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر، ولم يرها أحد بعد ذلك. قال أصدقاء أنجيلاً أنها كانت تنوي الذهاب إلى جفلة عن طريق التنقلات المجانية.

سبق لأنجيلاً روبنسون، أنجي، السقوط عن أرجوحة عندما كانت في عمر الثامنة، الأمر الذي تسبب بكسر في معصمها الأيمن. بلغ طول أنجي خمس أقدام وبوصتين.

رجعت إلى المختبر لأدقّق ثانية في المعطيات التي توصلت إليها بنفسها. اكتشفت أن أنجي روبنسون هي من الصغر في السن بحيث لا تتوافق مع الفتاة ذات الكفن الجلدي، كما أنها قصيرة جداً لتكون تلك الفتاة.

شعرت بالإحباط، وبلغ الصداع في رأسي حداً من القوة بحيث يستطيع هزّ المسلة الذهبية في مدينة أوغدين. لكن، ماذا لو عاشت أنجي وقتاً أكبر بعد اختفائها؟ أما كانت ستتقدّم بالسن، وتكتسب بعض السمنة؟

بدا أن عقلي اللاواعي يوجّهني باتجاه معين مرة أخرى.

ماذا؟ أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والعشر دقائق، فقررت أن أنهى عملي لهذا اليوم. رجعت إلى مكنتي، وحاولت الاتصال بأن، لكنني لم أحصل على جواب مجدداً. أوشكت على وضع السماعة في مكانها حينما طرق شخص على بابي. ارتدى شاربونيو بنظلاً من البوليستر وحذاء ثقيلاً من الطراز الذي يستخدمه رعاة البقر: "مرحباً دكتوراً". - "مرحباً".

- "كنت في طريقي إلى الخارج، وفكرت أن أمرّ بك وأعطيك آخر المعلومات المتوافرة".

حاولت أن أفك رموز كلماته بما بقي لي من مقدرة على التفكير.

- "آخر المعلومات المتوافرة؟"

سحب شاربونيو بقايا زهرية اللون من فمه، تفحصها، ونظر إلى الأعلى، ثم انحني يبحث عن سلة النفايات الموجودة في المكنت.

ناولته منديلاً ورقياً، فلفها بها وقذف بها إلى سلة النفايات.

- "أخبرني رايان عن زيارتكما وكر مينارد في دي سيباستوبول. يبدو أن هذا

الرجل خطر جداً".

- "أجل".

بدأت أفرك جبهتي ببواطن أصابعي.

- "هل تعانيين من صداع؟"

أومات بالإيجاب.

- "حاولي أن تتناولي بعض الأطعمة الحارة بالتوايل. إنها تفيدني."

- "شكراً لك."

- "لا أحمل الكثير من الأخبار من جهتي. لم أجد سجلاً قضائياً لمينارد في

كاليفورنيا، لكنني وجدت توبيخاً واحداً وجه له في سجله الأكاديمي، وبالرغم من ذلك

لم يتأثر ذلك المحتال. تسجل في السنة الثانية في شيكو."

- "ثم ماذا؟"

- "لم يظهر في تلك الجامعة."

توقفت عن فرك جبهتي: "أتعني أن مينارد دفع القسط الجامعي، وتسجل في

الصفوف، ثم اختفى؟"

- "نعم."

- "لكن لماذا؟"

هز شاربونيو كتفه: "لم يستجب ذلك المحتال للنداءات التي طالبته بالحضور.

اختفى فحسب."

- "ألم يفسخ عقد إيجاره؟ ألم يُقفل حساباته؟"

- "إنني أسعى إلى التحقق من هذه الأمور."

- "أين كان قبل حضوره إلى فيرمونت في كانون الثاني/يناير؟"

ابتسم شاربونيو ابتسامة عريضة: "إنني أعمل على ذلك أيضاً."

وجدت منزلي مظلماً عند وصولي. رأيت بيردي نائماً فوق الأريكة. رفع رأسه،

ثم فتح عينيه وأغمضهما.

ناديت: "آن."

لم أسمع أي استجابة. مطّ بيردي جسمه، ثم نزل متسقبلاً إلى الأرض. ناديت

ثانيةً بينما مسدت بطن بيردي.

صمتُ مطبق.

- "أين هي يا بيردي؟"

انقلب الهر ليقف على قوائمه الأربع، ومدّ قائمته الخلفيتين الواحدة تلو الأخرى،

ثم توجّه نحو المطبخ. سمعت بعد ثوانٍ قليلة الضجة التي يسببها تحريك وعاء طعامه.
- "آني؟"

كان باب غرفة نومها مغلقاً. قرعت الباب ودخلت على الفور. شعرت بهبوط في قلبي؛ لقد اختفت حقيبة آن، لكنني لاحظت رسالةً متروكة على الطاولة.
حدقت هنيهة في هذه الرسالة، ثم أسرعت لفتح الورقة.
"عزيزتي تمب،"

لا أستطيع التعبير عن مدى تقديري للطفك وصبرك تجاهي. لا أعني هذا الأسبوع فقط، بل أعني طوال مدة صداقتنا الرائعة، والممتعة، والثرية. اعتبرتك سندي، والرياح التي تحمل أجنحتي. (أتذكرين فيلم نحن؟)
إننا متشابهتان بطرق عديدة يا تمب. لست ماهرة بالتعبير عن مشاعري، ولست حتى ماهرة بالتفكير بهذه المشاعر. إنك مثالية بالنسبة لي.
حان وقت إسدال الستار على صداقتنا. أعرف أنني أحبك جداً جداً، مع أنني لا أستطيع قول هذه الكلمة وجهاً لوجه. أرجوك لا تغضبي مني لأنني فعلت ذلك بهذه الطريقة".

- آن

سيطرت عليّ مجموعة من الانفعالات.
الحب! عرفت صديقتي هذه منذ زمن بعيد، وأعرف مدى ثقل هذه الكلمات بالنسبة إليها.
الذنب! غرقت بمشاكلي الخاصة، إلى حد أنني لم أركز على وجود آن معي. كيف استطعت أن أكون أنانية إلى هذه الدرجة؟
الغضب! حزمتُ حقائبها وتوجّهت نحو المنزل من دون أن تعلمني؟ كيف استطاعت أن تتجاهلني إلى هذه الدرجة؟
تسارع الخوف في أعماقي مثل تسارع قاطرة بخارية. أتراها حقاً توجّهت إلى منزلها؟ أرادت إسدال الستار على ماذا؟ وماذا فعلت بهذه الطريقة؟ وأية طريقة؟
تذكّرت كتاب آن والعشاء الذي تناولناه سوية في الليلة الماضية. لم تذكر لي حينها أي شيء عن المغادرة. ماذا قالت لي؟ هل ذكرت لي أشياءً عن الدورات، وضرورة تغيير الإنسان في الجوهر. أشعر أنني حملتها على الرحيل.

يا إلهي القدير! هل كانت تتكلم عن الموت؟ بالتأكيد لا. أعتقد أن آن ليست ممن يفكرون بالانتحار، سواء أكانت مكتتبه أم لا. هل نستطيع أن نتأكد من هذا حقاً؟ استعرضت شريط الذكريات. جلست صديقة أخرى ذات يوم في هذه الغرفة، ثم غادرت. بعدئذٍ انتهت ميتة في قبر متواضع. هل انطلقت آن في رحلة طويلة هي الأخرى؟ حاولت الاتصال بهاتفها الخليوي. لا إجابة. فاتصلت بطوم.

- "مرحباً".

- "هل آن موجودة عندك؟"

- "تمب؟"

- "هل وصلت آن إلى المنزل؟"

- "ظننت أنها عندك؟"

- "كانت عندي، لكنها رحلت".

قرأت له الرسالة التي تركتها آن.

- "عمّ تتحدثين بحق الله؟"

- "لست متأكدة".

- "غضبت مني كثيراً".

- "نعم، أعرف".

- "هل تعتقدين أنها أقدمت على شيء من قبيل الجنون؟"

سيطر السؤال نفسه على ذهني من قبل.

- "ألم تتصل بك؟"

- "كلا".

- "أتصل بشركات الطيران. تأكد ما إذا كانت قد حجزت لها مقعداً في رحلة ما

إلى شارلوت".

- "لا أعتقد أنهم سيخبرونني".

كدت أبكي: "قل لهم أي شيء يا طوم. اكذب. فكر بشيء ما".

- "حسناً".

- "أتصل بي حالما تعرف أي شيء".

- "افعلي هذا أنت أيضاً".

وقفت وقد حملت سماعة الهاتف بيدي، وشاهدت انعكاس صورتي في مرآة

غرفة السفرة التي استبدلت حديثاً. رأيت التوتر الذي سيطر على جسمي، وبدا وجهي أبيض اللون بسبب الخوف. شاهدت هذه المظاهر نفسها عند أن ليلة اقتحم أحدهم البيت.

يا إلهي القدير! أريد أن تكون بخير. ماذا أفعل؟ هل أتصل بشركات الطيران؟ وعد طوم أن يقوم بهذه المهمة. هل أتصل بشركات تأجير السيارات؟ أم أتصل بشركات سيارات الأجرة؟ أم أن من الأفضل أن أتصل بالشرطة؟ أم أنه يجدر بي أن لا أفعل أي شيء وأكتفي بالانتظار؟

تركت أن رسالة لي، إذأ فهي تخطط لشيء ما. ما هي خطتها يا ترى؟ قفزت من مكاني عندما انطلق الهاتف بالرنين في يدي.

- "آن".

- "هذا أنا. ما خطبك؟"

لا بد أن رايان قد أحس بالتوتر الذي ينضح به صوتي. أخبرته عن رحيل أن المفاجئ.

- "هل ذكرت في رسالتها أنها ستتوجّه إلى المنزل؟"

- "لم تذكر ذلك صراحة".

- "هل أتصلت هاتفياً بأحدهم؟"

- "لا يسجل هاتفي المكالمات الصادرة".

- "إنه لا يسجل حتى المكالمات الواردة، ولا يسجل رقم المشترك على الشاشة.

عليك أن تحسني نوعية هاتفك فعلاً".

- "أشكرك على نصيحتك التقنية".

- "سأقوم ببعض التحريات".

- "شكراً لك، رايان"

- "على الرحب".

- "إنها محبطة جداً".

- "أخذت أمتعتها معها، وهذه علامة جيدة".

لم أفكر بهذه النقطة من قبل: "أعتقد ذلك".

مرّت فترة صمت.

- "هل ترغبين أن آتي إلى منزلك؟"

- رغبت فعلاً بقدمه، لكنني قلت: "سأكون على ما يرام. لماذا تتصل؟"
- "تمكن مكتب التحقيقات الجنائية من رفع بصمات عن فتاحة الرسائل. وجدوا مجموعتين من البصمات".
- "هل وجدوا بصمات مينارد، وبصمات المرأة؟"
- "حزرتِ نصف الحقيقة".
- "أقول النصف؟"
- "تبيّن لنا أن الرجل ليس مينارد".

القفل 28

- "تعود البصمات لشخصين، وليس مينارد أحدهما".
- "هل أنت متأكد؟"
- "أرسلت كل شيء إلى فيرمونت. قارن مختبرهم هناك البصمات التي رفعت من فتّاحة الرسائل التي أرسلناها، مع تلك التي أخذت من مينارد عندما ألقى القبض عليه بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول".
- لم أصدّق هذه المعلومة فقلت: "لكن مينارد أمسك بفتّاحة الرسائل تلك".
- "أمسك بها الرجل الذي رأيناه في البيت، لكن مينارد لم يلمسها".
- "هل توصلتم إلى معرفة أي شيء بشأن المجموعة الثانية من البصمات؟"
- "لا. إننا ندقّق بها هنا، وسنرسلها بعد ذلك إلى آفيس في الولايات المتحدة".
- يُذكر أن آفيس هو نظام معلومات بصمات الأصابع الآلي.
- "إذا لم يكن الرجل مينارد، فمن يكون إذاً".
- "إنه سؤال ذو أهمية استثنائية، يا دكتورة برينان".
- لم أفهم ما يجري فقلت: "لعل شخصاً ما تلاعب بالبصمات".
- "يحدث ذلك أحياناً".
- "يملك شاربونيو صورة لمينارد مأخوذة من كتاب الجامعة السنوي. دعنا نريها لساير ونعرف ماذا يقول بشأنها".
- وافق رايان مع فكرتي هذه: "لن يضرنا هذا بشيء".
- انتظرت، وتمنيت جزئياً لو أن رايان يكرّر لي دعوته لاصطحابي معه. لم يفعل ذلك.
- بدأ رايان بالقول: "سأحصل على الصورة من شار..."
- سمعت ما يشبه صوت أنثى في مكان ما، ثم سمعت صوتاً يتكلّم أمام سماعة هاتف مغطاة.

قال رايان بصوت خافت: "أسف. سأحصل على الصورة من شاربيونيو، وسأمر لاصطحابك عند الثامنة".

أدركت أنني سأتناول عشاءً مؤلفاً من المعكرونة والجبنه مساء يوم الجمعة، لكنني سأكون وحدي. سأتناول هذا العشاء أثناء أخذ حمام ساخن يمتد لفترة طويلة، حتى يحين موعد أخبار الساعة الحادية عشرة.

في سريري، وسط الظلام، اجتاحتني أفكار سيطرت عليّ من دون قصد مني. رأيت نفسي في قبوٍ قذر، حيث تتناثر العظام، بعضها في صندوق، وبعضها في حفرة. رأيت امرأة في سريرها، وشعرها الأشيب تدلّ حول وجهها. شاهدت فراشاً ملطخاً، وجسداً هامداً لا حياة فيه، ملقى على فولاذ لا يصدأ. رأيت المرايا المهشمة. ورأيت كسرة من زجاج استقرت على لوحة معلقة. شاهدت أن مع أمتعتها، وهي تحقّق في إطارات أزهارها. شعرت بتقلص في أحشائي، واجتاحت وجهي جداول من رطوبة ساخنة.

تذكّرت أنني كنت مع رايان آخر مرة اجتاحني فيها مثل هذا الشعور. تذكّرت كيف أحاطني بذراعيه، وشرع يمسد رأسي، وكيف سمعت دقات قلبه. تذكّرت كيف جعلني أشعر بقوتي، وبجمالي، وأن كل شيء يسير على ما يرام. تتهدت، وتساعد من خلال حنجرتي شيء كالنشيح. أخذت أنفاساً عميقة أدخلتها في رئتي، قرّبت ركبتي من صدري، وأطلقت العنان لمشاعري.

يحمل البكاء المناسب فوائد علاجية تفوق تلك التي يحصل عليها المرء بعد تمضيته ساعة كاملة مع طبيبه. استيقظت وقد تخلّصت من كل الأحزان والإحباطات الكامنة في نفسي. شعرت بتجدّد حيويّتي، وقدرتي على السيطرة على مجريات الأمور. استمرّ هذا الوضع حتى مضت اثنتا عشر ساعة، حيث أبدت قدراً كبيراً من الغفلة.

اتّصل بي طوم عند الساعة السابعة كي يسأل إن كنت قد علمت شيئاً جديداً بشأن آن، فقلت إنني لم أعرف أي شيء جديد. أكّد لي طوم أن زوجته لم تجرِ حجوزات على أية رحلة متجهة من مونتريال إلى شارلوت في أي يوم من أيام الأسبوع. أخبرته أنني تحدّثت مع ضابط من شرطة كيبك.

فكّر طوم باحتمال أن تكون آن قد اختارت أن تتعزل مع نفسها كي تحصل على

فرصة للتفكير، وأنا سنعرف عنها شيئاً في القريب العاجل. وافقته على هذا الرأي لأننا كنا بحاجة إلى شيء يطمئنا.

وقعت عيناى على المرأة مجدداً بعد انتهاء الاتصال. لم يجد رجال الشرطة شيئاً بعد مرور تسعة أيام على اقتحام منزلي. عادت إلى ذهني بعض الصور. برز منها ذلك الرجل الذي جلس قرب آن في مقعد سي ثلاثة.

يا إلهي! هل هربت مع ذلك الرجل الغريب الذي التقته على الطائرة؟ هل يُعقل أن يكون هذا الرجل هو ذاته الذي اقتحم منزلي؟ برزت صورة أخرى. تذكرت نظام المراقبة الذي رتبّه رايان. هل الدوريات المكثفة ما زالت تحوم حول منزلي؟ هل يُحتمل أن تكون إحدى سيارات المراقبة قد لاحظت مغادرة آن لمنزلي؟ إنه احتمال بعيد لكنه يستأهل المحاولة.

ارتديت ملابس كافية لتضمن الدفاء لي، وانطلقت خارجةً من المنزل. استقبلني نهار رائع. توقّع المذيع درجة حرارة تصل إلى ثلاثين درجة مئوية تحت الصفر. أشارت عقارب الساعة إلى الساعة وخمس دقائق، ولم تقترب الحرارة بعد من هذه الدرجة.

مرّت سيارة تابعة للشرطة في غضون عشر دقائق. مشيت نحو الرصيف ولوّحت باتجاهها. قالوا لي إنهم ما زالوا يمرّون تكراراً من هنا، وإنهم ظلّوا يعملون طيلة أيام الأسبوع، وإنهم لم يشاهدوا أيّ شقراء طويلة تحمل الكثير من الأمتعة. وعدوني أن يسألوا الرجال الذين عملوا في فترات العمل الأخرى. بعدئذٍ عدت إلى الرواق حيث وجدت ما يكفي من الدفاء الذي يسمح للدم بالسريان في العروق.

حضر رايان عند الساعة الثامنة وعشر دقائق. صعدت إلى سيارته، وكانت السيارة عابقة بدخان السجائر.

- "صباح الخير".

- "صباح الخير".

ناولني رايان صورة مينارد التي ظهرت في كتاب التخرج السنوي للجامعة، والتي وصلت عبر الفاكس. بدت الصورة صغيرة ومعتمّة، وقد بهتت ألوانها نتيجة الإرسال. بقي الوجه مع ذلك واضحاً بما يكفي. قلتُ: "يبدو مثل مينارد".

- "ومثل آلاف الرجال ذوي الشعر الأشقر، والنظارات، والتغضّات".

اضطرت إلى موافقته.

- "هل عرفت شيئاً عن صديقك؟"

- "لا".

حركت قدمي. وأنزلت زمام سترتي المقلنسة. تحيرت ماذا أفعل بعيني، وساقبي، وذراعي. شعرت بالارتباك والاضطراب لوجودي مع رايان. لم أثق بقدرتي على إجراء محادثة معه. سألت رايان: "هل أمضيت ليلة صعبة؟"

- "ما هو سبب اهتمامك المفاجئ بأنماط نومي؟"

- "تبدين متعبة".

نظرت إليه، وبداء لي أن الظلال الموجودة تحت عينيه قد تعمقت، وأن ملامح وجهه أصبحت أكثر تورأ. أردت أن أسأله، ماذا جرى لك بحق الجحيم؟ قلت له: "تشغل ذهني أمور كثيرة".

وضع رايان طرف إصبعه على أنفي: "ألستا جميعاً كذلك؟"

وصلنا إلى شرفة ساير بعد مرور عشرين دقيقة. سبق لرايان أن أجرى اتصالاً مع ساير الذي أجاب من الدقة الأولى. ارتدى ذلك المغفل العجوز ثيابه كاملة هذه المرة.

جلس ساير على المقعد المريح نفسه الذي جلس عليه عندما زرته برفقة آن. يا للهوبالونغ العجوز! ركزي أكثر يا برينان... قدّمت رايان، وتركته يجري الحديث.

- "سيد ساير، إننا..."

ابتسم ساير بوجهي: "تكلم بالإنكليزية من أجل السيدة الشابة. أين هي صديقك الجميلة؟"

- "غادرت إلى منزلها".

هزّ ساير رأسه: "صديقك رائعة".

تناول رايان صورة الفاكس من جيبه وناولها إلى ساير: "لن يستغرق هذا طويلاً.

هل هذه هي صورة ستيفن مينارد؟"

- "من؟"

- "ستيفن مينارد. أعني ذلك الرجل الذي شغل أحد محلاتك، وأدار مكتب

رهنيات في عمارتك".

حدّق ساير بصورة الفاكس.

- "قد أبدو لكما أحقق، لكنني في الثانية والثمانين من عمري".
هَبْ واقفاً ثم عبر الغرفة، وشغّل جهاز التلفزيون. تناول الرجل جهازاً للتكبير
موصولاً بواسطة سلك إلى مؤخرة التلفزيون، وضع فيه صورة الفاكس، وضغط على
زر.

رأينا وجه مينارد وقد ملأ الشاشة.

قلت: "يا للروعة!"

- "إنه جهاز فيديو صغير رائع يقوم بتكبير كل شيء، وهكذا أستطيع أن أقرأ كل
شيء تقريباً".

حرك ساير العدسة فوق الصورة عدة مرات، ثم ركّز الصورة على أذن مينارد.
أظهرت الصورة تكبيراً للطرف الأعلى من الأذن، فملأت الشاشة.

انتصب ساير واقفاً: "لا، ليست هذه صورة من تبحثون عنه".

دهشت للثقة التي تكلم بها فسألته: "كيف عرفت؟"

أنزل ساير العدسة المكبرة وتراجع قليلاً، ثم مَدَّ إصبعاً باتجاهي، فسارعت إلى
الوقوف. أشار ساير إلى نتوء غضروفي صغير في الجزء الأعلى من الحافة الخارجية
لأذنه. سألته: "هل هي درينة داروين؟"

أجاب ساير: "يا لك من سيدة ذكية".

وقف رايان يراقبنا، بينما علت وجهه نظرة تشوش.

نقر ساير على أذنه: "لم أعرف أي شخص يمتلك مثل هذا النتوء. استشرت
طبيبي بشأن هذا النتوء، فأخبرني أنها ميزة وراثية، وأعطاني بعض المقالات كي
أقرأها. هل تعرفين كيف اكتسبت هذه الأشياء التافهة اسمها؟"

- "قيل ذات مرة إنها أثر من آثار ربايعات الأرجل".

وثب ساير على أطراف أصابعه وبدا الانشراح عليه.

سأل رايان: "وما علاقة هذا بمينارد".

- "امتلك مينارد أكبر النتوءات الصغيرة واللعينة التي رأيتها في حياتي. مازحته
كثيراً بهذا الشأن، وقلت له ذات يوم إنني أتوقّع أن أراه وهو يرمى أوراق الأشجار
ذات يوم، أو القوارض في القبو. لم يسر كثيراً بممازحاتي هذه".

نهض رايان وقال: "ماذا بشأن الرجل الذي يظهر في الصورة؟"

حمل ساير صورة الفاكس بيده: "لا يمتلك الرجل صاحب الصورة أية نتوءات

ورمية".

- توقف رايان قليلاً عند الباب قائلاً: "أريد أن أطرح عليك سؤالاً أخيراً يا سيدي. هل افترقت أنت ومينارد على ود؟"
- "لا، بحق الجحيم. أقدمت على طرده".
- "لماذا فعلت ذلك؟"
- "سئمت من شكاوى المستأجرين الآخرين بشأنه".
- "أي نوع من الشكاوى؟"
- "تركزت معظم الشكاوى حول زبائنه السيئين، وجاء بعضها الآخر بسبب الضجيج في وقت متأخر من الليل".
- "أي نوع من الضجيج؟"
- "لم أعرف مطلقاً، لكنني سمعت ما يكفي من التشكي. هل أن التشكي هي الكلمة المناسبة؟"
- "نعم".
- "تبدو لي وكأنها اسم سمكة".

أنزلني رايان أمام منزلي، واعتذر لي قائلاً إنه سيكون مشغولاً بمهمات طيلة عطلة نهاية الأسبوع. وعدني أنه سيتصل بي هاتفياً إذا عرف شيئاً جديداً عن مينارد، أو مجموعة البصمات الأخرى، أو حتى عن آن. لم أسأله إن كان برنامج عمله يشمل ليلة السبت. سحفاً لكل ذلك، فمن يهتم؟

لم يحمل لي المجيب الآلي أية رسائل.

أرادت كاتي أن أحضر إلى شارلوت في الثاني والعشرين من هذا الشهر، وهكذا حاولت أن أشغل نفسي بمهمات ينبغي عليّ إنجازها قبل مغادرتي. شغلت نفسي بأغطية السرير، وبالشتول، وبلف الهدايا التي سأحملها إلى مدبرة المنزل، وكذلك إلى التقنيين في المختبرات. ماذا بشأن رايان؟

أجّلت التفكير بهذا الموضوع. شغلت نفسي أيضاً بالمهمات التي لا تحتمل التأجيل. عملت بالغسيل، وبتنظيف مكان الهر، وبالبريد. شغلت جهاز الأسطوانات المدمجة فصدح بموسيقى الميلاد، وترددت أصوات الأجراس، وأصوات ترانيم الملائكة، وأنا أمل أن تضعني هذه الموسيقى في أجواء العيد.

لم يقدني هذا شيئاً. ولم أستطع التفكير إلا بالعظام المستلقية على طاولات مختبري، وبال بصمات الموجودة على طاولتي، وبالمكان الذي يُحتمل أن تتواجد أن فيه.

استسلمت عند حلول الساعة الثالثة وتوجّهت إلى ويلفريد ديروم.

شعرت أنها فترة ما بعد ظهيرة يوم سبت رائعة. بدا المختبر خالياً وساكناً مثل سكون القبر. رأيت على طاولتي ورقة نموذج يُطلب مني فيها إبداء الرأي؛ اختفى أحد الأشخاص الذين يعملون في المصاعد قبل أربعة أشهر، بينما كان ينفذ مهمة صيانة في عمارة تقع في كوت سان لوك، ووُجد جسده المتحلل يوم الخميس في بارك أنغريغنون في لاسال. أظهرت صور الأشعة السينية كسوراً في أماكن عدة. أرادني ببليتييه أن أحلّ وجود الصدمات بعد تنظيف العظام.

وضعت ورقة النموذج جانباً، وتناولت اللائحة التي حضرها كلوديل.

استمرّ مصباح الفلور بإصدار همهمته من فوق، أما في الخارج فقد ظل أنين الرياح يسيطر على حواف النوافذ. تساقطت على الألواح الزجاجية بعض القطع الجليدية التي حملتها الرياح بين الحين والآخر.

بدأت باستعراض الأسماء؛ سيمون بادو: كبيرة في السن. إيزابيل لمييه: أجرت إصلاحات لأسنانها. ماري لوسيل داكأن: سوداء. ميشلين تيبو: صغيرة السن. تاوني ماك جي: صغيرة إلى حد بعيد. سيلين دالايير: كُسرت عظمة الترقوة عندها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها.

توالت الأسماء إلى ما لا نهاية...

تحولت لاستعراض لائحة شاربونيو بعد مضي ساعة. استعرضت أسماء جينييفر كاي، إستر آن بيجوين، إيلين ماسي، أمي فيش، وتيريزا بيريز.

رجعت إلى طاولة مختبري بين حين وآخر كي أعيد فحص بعض العظام مرة أخرى، متمنيةً أن أجد تفصيلاً معيناً لم أنتبه له في السابق، إلا أنني عدت خائبة في كل مرة. انتهيت من كل الأسماء، فعدت إلى اللائحتين لأستعرض الفتيات بحسب الأعمار، ثم استعرضت الطول، ثم تاريخ الاختفاء. أدركت أنني أبحث عن إبرة في كومة قش، لكنني كنت كالمجبرة على ذلك. لم أستطع منع نفسي من الاستمرار في التفنّيش.

سمعت صوت باب يُفتح في نهاية الرواق.

بحثت عن مكان اختفاء الفتيات. ظهرت أسماء مثل تيريبيون، أنجو، غاتينيو، وباكونز فيلدا. قرأت أسماء مثل مقاطعة بيوت، مقاطعة تهامة، ومقاطعة سان ماتو. توقفت عن العمل في الساعة السادسة، وشعرت بإحباط عارم. أمضيت ساعتين ونصف في العمل من دون إنجاز أي شيء.

سمعت صوت وقع أقدام تتردد في القاعة الفارغة. اعتقدت أنها وقع خطوات لامانش. أعرف أن لامانش هو الشخص الوحيد، عداي أنا، الذي يُحتمل حضوره إلى المختبرات في ليلة سبت.

أهنتك يا برينان، لأنك تتمتعين بنفس نوعية الحياة الاجتماعية التي تمتلكها امرأة ستينية، لديها سبعة أحفاد. رجعت إلى اللانحيتين.

ما زال ذلك الشعور الذي يقول إنني أفقد رابطاً ما يلزمي باستمرار. ما هو؟ هل هي علامات الحزوز؟

حملت الجمام السلاث دلائل على ضربات أحدثتها آلة حادة. ظهرت هذه الحزوز في الفتاة التي وضعت في الكفن الجلدي، وكأنها حدثت بعد الوفاة. يختلف الأمر بالنسبة للهيكلين الآخرين، والتي تبين أنها جرت على عظام حية. لاحظت أن جميع هذه الحزوز موجودة في منطقة الأذن. أهي طقوس متعلقة بالموت؟

أوحى نتائج اختبارات الكربون 14 أن الفتاة التي كانت في الكفن الجلدي قد ماتت في سنوات الثمانينيات، أما الفتاتين الأخريين فماتتا في سنوات التسعينيات. ما هي أمكنة ولادة الفتيات يا ترى؟

أوحى نتائج اختبارات نظير السترونشيوم أن فتاة الكفن الجلدي ربما تكون قد ولدت، أو عاشت أولى سنوات طفولتها، في شمال وسط كاليفورنيا، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فيرمونت أو كيبيك. يُحتمل كذلك أن تكون الفتاتان الأخريان قد أمضتا حياتيهما في كيبيك.

يُحتمل ذلك، ويُحتمل أيضاً أنني أركز كثيراً على السترونشيوم، ولعل كاليفورنيا ستظهر وكأنها طريق مسدود.

سمعت أصواتاً أخرى، تبين لي أنها أصوات بشرية.

التحق مينارد بمعهد للمتخرجين في شيكو. تقع شيكو في شمال وسط كاليفورنيا. أعرف أن مينارد هو مستأجر المكان الذي وجدت فيه الفتيات. توافقت فترة استجاره

مع موت فتاتين على الأقل. رأته لويز بايرنت مع الفتيات في مناسبتين، في إحداها كانت الفتاة هاربة، أما في الثانية فكانت غائبة عن الوعي.

هل من الممكن أن تكون الصلة مع كاليفورنيا محض صدفة؟ تحرك حدسي مرة أخرى ثم تراجع. ماذا؟

لم أستطع أن أزحزح هذه الفكرة بعيداً رغم ما بذلته من مجهود. عدت إلى مينارد. تسلّم مينارد ملكية منزل جديده في مونتريال في العام 1988. إن الرجل الذي يعيش هناك الآن ليس مينارد، بالرغم من أنه يستخدم اسمه.

ألقيت قلمي على دفتر سجلاتي: "إذاً، من هو بحق الجحيم؟"

- "لا أعرف".

قفزت من مكاني مجفلة من سماع الصوت. نظرت، وإذ بي أرى رايان واقفاً قرب الباب.

- "لكننا أصبنا شيئاً يتعلّق بهوية صديقه".

الفصل 29

- "تدعى أنيغ بومرليو".
طويت أصابعي إشارة إلى حاجتي لمعرفة المزيد من المعلومات.
- "اختفت هذه الفتاة في العام 1990".
- "كم كانت تبلغ من العمر؟"
- "خمس عشرة سنة".
يستوافق هذا العمر مع معطياتنا. أوحى المرأة التي رأيناها في منزل مينارد أنها في وسط، أو أواخر، العشرينيات من عمرها.
- "من أين أنت؟"
- "إنها من ماسكوش".
- "وماذا حدث لها؟"
- "أبلغت الفتاة ذويها أنها ستمضي عطلة نهاية الأسبوع مع صديقاتها. تبين أن صديقاتها قد لفقن قصة لكي تستفيد منها مع صديقتها الجديد. لم ترجع الفتاة يوم الأحد فبدأ أهلها يبحثون عنها، وقدموا يوم الإثنين بلاغاً عن اختفائها، أي عندما مضت ستون ساعة تقريباً على غيابها".
- "ألم تصل إلى منزل صديقتها؟"
- "وصلت فعلاً. ذهب الاثنان إلى عدة حانات مساء يوم الجمعة، وتشاجرا. خرجت أنيغ غاضبة، وأمضى ذلك الفتى المحظوظ عطلة الأسبوع مع المرشحة الثانية".
- "وهل صدقت الشرطة روايته؟"
- "دعم النادل والسيدة المحظوظة روايته. يظهر أن بومرليو كانت فتاة مضطربة بحيث أنها هربت عدة مرات في السابق. أصرّ الوالدان على أنها خُطفت، لكن رجال الشرطة ظنوا أنها رحلت".

- "وهل تابعت الشرطة قضيتها؟"
- "فعلت ذلك حتى تلاشت دلائل القضية".
- "هل هذا كل شيء؟"
- "ليس تماماً. تلقت عائلة بومرليو بعد ثلاث سنوات مكالمة من أنيغ الصغيرة. أبلغت الفتاة عائلتها أنها بخير، لكنها لم تخبر نويها أي شيء عن مكان وجودها".
- "لا بد أن ذلك شكّل صدمة للعائلة".
- "مضت عدة سنوات قبل أن تتلقى العائلة اتصالاً ثانياً. تكرر نفس الكلام. أبلغت عائلتها أنها على ما يرام، لكنها لم تنطق كلمة واحدة عن مكان سكنها. جاءت آخر مكالمة في العام سبعة وتسعين، وحينها كان الوالد قد توفي، أما الوالدة فكانت تعيش في بومباي سايفير".
- "هل بصمات بومرليو موجودة هنا في ملفات كيبك؟"
- أوما رايان: "تمتلك الشرطة ملفاً عنها مليئاً بأشياء صغيرة مثل، تخريب ممتلكات عامة، وسرقة معروضات. تضمن سجلها أيضاً سرقة سيارة، ولعلها فعلت ذلك بهدف التنزه فقط. سُجّل آخر بند في ملفها قبل أربعة أشهر من اختفائها".
- سيطر عليّ الانزعاج، لأنني واجهت انحرافاً آخر غير متوافق مع المواصفات التي أمتلكها: "ماذا تفعل أنيغ بومرليو عند ستيفن مينارد بحق الله؟"
- "إنه ليس مينارد".
- تناولت قلمي وألقيت به ثانية فوق دفتر ملاحظاتي: "لا تتظاهر بالبطولة أمامي يا رايان. سمّه السيد أكس، أو مسيو أكس. كيف انتهت الفتاة بين يديه؟"
- تناولت القلم ووجهته نحو رايان.
- "لماذا لا نستطيع اكتشاف هوية ذلك التافه؟ ولماذا لا نستطيع كشف ستيفن مينارد الحقيقي؟ ومتى حصل ذلك التبدل في الهوية؟"
- "أترغبين بتناول بعض الطعام؟"
- "ماذا؟"
- "أترغبين بتناول العشاء معي؟"
- "لماذا؟"
- "أريد أن أخبرك عن بعض الأمور".
- "حسناً. أريدك أن تبقى أنت وكلوديل على خط اتصال دائم معي لإبلاغي بكل

جديد. أين كلوديل بحق الجحيم؟"

شرع رايان بالكلام، لكنني قاطعته.

- "تعبت كثيراً من كلوديل، وموقفه المستهتر مني. شاربونيو هو الوحيد الذي يعاملني باحترام".

- "يتميز كلوديل بطريقته الخاصة في التعامل مع الآخرين".

- "هكذا هي القنفذيات أيضاً".

- "تحكمين على كلوديل بقسوة. ما هي القنفذيات بالمناسبة؟"

أطلقت عبارته هذه سيل النقمة عندي.

- "هل أنا من يحكم عليه بقسوة؟ تعين عليّ منذ البداية أن أواجه ذلك النرجسي

المتزمت كي يأخذني على محمل الجد. إنني أفعل ذلك كي يأخذني الجميع على محمل الجد".

فكرت بتحطيم القلم.

- "تبين أن العظام قديمة جداً، واختبار الكربون 14 مكلف جداً. وتبين لنا أن

الفتيات كن مومسات. وتوفيت لويز بايرنت أثناء نومها، لكن ذلك يحدث كثيراً للسيدات المسنات، والجميع يعرف هذه الحقيقة".

- "كنت أشير إلى سيلان لعابها".

قذفت بقلمي باتجاه رايان: "أرأيت؟ إن موقفك المزاجي هذا لا يفيد".

تقدّم رايان ليلمسنني، لكنني تراجعت: "تمب..."

- "آه، نسيت. بالطبع، إنك تحبّني، لكنك تحبّ الكثير من الأشياء غيري. أعرف

أنك تحبّ جينة الماعز، والبيبغاوات، وحوريات الماء".

فتح رايان فمه ليقول شيئاً، لكنني قاطعته.

- "حسناً، أنت تحبّني، لكنك لا تجد متسعاً من الوقت لتكون معي".

تابعت ثورتي، وعبرت عن كل إحباطاتي التي خرجت من فمي باندفاع قوي:

"وجدت فجأة أنك تستطيع تخصيص وقت لدعوتي لتناول العشاء! وتدعوني في ليلة

سبت! صحيح أنني فتاة محظوظة!"

تدفقت الكلمات من فمي كما تندفع المياه من بوابة السد. استخدمت سبابتي لتحديد

الكلمة الأخيرة: "ماذا بشأن مهمات الوظيفة؟ وماذا بشأن... ابنة أختك؟"

ارتد القلم الذي قذفته عن دفتر ملاحظاتي نحو رايان، فمدّ يده ليصدّه.

نهضت واقفةً: "يا إلهي! أنا آسفةٌ جداً. لم أقصد أن أصيبك".
تَهالكت من جديد على مقعدي، وغطيت وجهي براحتي يدي. شعرت أن خديّ
ملتهبان بالحرارة والرطوبة.

- "يا إلهي. ماذا دهاني؟"

شعرت بيد تلامس كتفي.

مسحت العرق عن خديّ، رفعتُ شعري وراء أذنيّ، ثم رفعت رأسي. رأيت
رايان واقفاً يحدثُ بي، وقد امتلأت عيناه الحالمتان بالقلق.

أم أنهما امتلأتا بالشفقة؟ أم بماذا يا ترى؟ قلت له: "أنا آسفة. لست أدري من أين
أتى كل هذا".

- "أعرف أن الجميع واقعون تحت الضغوط".

- "لكن لم يتحول كل واحد منهم إلى الدوتشي".

أحسست بوصول لامانش قبل أن أراه بالفعل. استطاعت قوة إبصاري الخارجية
ترصد حركته، وشممت رائحة دخان غليونه، ورائحة عطره المميزة، ثم سمعت
صوت تتحنج.

التفت أنا ورايان في وقت واحد، ورأينا لامانش واقفاً قرب المدخل.

- "قدرت أنكما تريدان معرفة أن المحقق الجنائي قرّر أن موت لويز بايرنت هو
جناية قتل".

سألت: "هل خنقت؟"

- "أعتقد هذا".

سأل رايان: "هل استلمت نتائج اختبار السموم؟"

- "اكتشفت بعض آثار دواء التنويم، الأميبان في دمها وبولها. تتوافق مستويات
هذه الأدوية مع تناولها لعشرة ميلليغرامات دُست في طعامها قبل ساعات عدة من
موتها".

سأل رايان: "ماذا بشأن التوقيت؟"

- "هل تمكنت من تحديد ما إذا كانت بايرنت قد تناولت دواءها مع الغداء أم مع

العشاء؟

- "تدلّ سجلات الهاتف على أن مكالمات قد أُجريت يوم الجمعة من منزل فيشر
عند الساعة الثالثة والخمس والخمسين دقيقة، وعند الرابعة والأربع عشرة دقيقة من

بعد الظهر. أجريت المكالمة الأولى مع كاهن السيدة بايرنت، أما المكالمة الثانية فقد أجريت مع الصيدلية التي تقع على بعد شارعين من المنزل. أجريت المكالمة الثالثة مع هاتف خليوي، ما زلنا نعمل على معرفة رقمه".

نظرت باتجاه رايان. لم يخبرني أحد عن هذه المعلومات.

- "ذلك يعني أن آخر وجبة لبايرنت كانت العشاء".

قال لامانش: "يحتاج الحساء إلى ثلاث ساعات قبل تفرغته، أما الأمبيان فيحتاج إلى ساعتين. أفترض أن الدواء المساعد على النوم قد ذوّبه أحد ما في فجان الشاي الذي تناولته".

بدأ رايان بإجراء حساباته: "اعتادت بايرنت أن تأكل في حوالي السابعة، كما تقول ابنة أختها. وإذا افترضنا أنها فعلت ذلك يوم الجمعة فسيعني ذلك أنها ظلت حية حتى الساعة العاشرة. وإذا افترضنا أن بايرنت تناولت الأمبيان وقت توجيهها للنوم، فسيوصلنا ذلك إلى تحديد زمن وفاتها عند الساعة الحادية عشرة، أو إلى منتصف الليل. أعتقد أن الوفاة لا بد أن تكون حدثت في ساعات الصباح الأولى ليوم السبت".

قال لامانش: "يتوافق ذلك مع حالة التحلل".

قال لي رايان بعد انصراف لامانش: "ما زال عرضي ساري المفعول".

سألته: "متى علمت كل ما قلته بشأن المكالمات الهاتفية؟"

- "علمت ذلك هذا اليوم. إنها أحد الأمور التي كنت عازماً على إبلاغك بها. هل

تفضلين الذهاب إلى هيرلي؟"

نظرت إلى رايان لوقت طويل جداً، ثم رسمت ابتسامة على شفتي.

- "لكن بشرطٍ واحد".

بسط رايان راحتي يديه.

- "أريد أن أدفع الفاتورة".

قال رايان: "يا للروعة!"

يقع ملهى هيرلي الإيرلندي في شارع كرسنت وخلف شارع القديسة كاترين. تساءلت أثناء قيادتي السيارة عن الخيارات المتاحة أمامي: أولهما، أن أركن السيارة أمام منزلي، وأن أخاطر بالمشي وسط البرد الشديد، أما ثاني الخيارات فهو أن أبحث عن مكان أركن فيه سيارتي قرب الملهى إلى ما لا نهاية.

اخترت أن أركن سيارتي أمام المنزل وأمشي وسط البرد الشديد. بدأت أتساءل

عن صوابية قراري أثناء إسراعي بالمشي في شارع القديسة كاترين.
رأيت رايان عند وصولي جالساً في غرفة تابعة للمهى. شاهدت أمامه على
الطاولة كوباً من الشراب وقد شرب نصفه. طلبت طبق يخنة لحم الحمل، وزجاجة
عصير وطلب رايان فروج سان أمبروا.
اقتربت من رايان بحذر أثناء انتظارنا للطعام. حاول كلانا رواية النكات، التي
جاء بعضها تافهاً.

تحلّق حولنا حشد من الناس. بدا بعضهم سعيداً، بينما بدا بعضهم الآخر يائساً،
واكتفى بعضهم بالشروود. لم أستطع أن أتخيل مشاكلهم وعلاقاتهم المتعددة.
جلس شريكان شابان إلى جانبنا. لاحظت أنهما يكادان يلتصقان ببعضهما. ارتدى
الشاب قبعة حمراء من فراء الوعل، بينما ارتدت الفتاة كنزة مزركشة بألوان عيد
الميلاد.

حدقت فيهما، ورأيت كيف احتكت قبعة فراء الوعل بأعلى الكنزة الميلادية. تلا
ذلك ضحكة أطلقتها الفتاة. بدا لي أنهما سعيدان، ومرتاحان لبعضهما بعضاً.
التقت عينا صاحبة الكنزة الميلادية بعيني. أشحت بنظري على الفور لأجد أمامي
لوحة مثبتة فوق رأس رايان، كُتِبَ عليها: أهلاً وسهلاً. مرحباً بكم. لاحظت أن أحدهم
أقدم على وضع إكليل من غصون الصنوبر فوق الطرف الأعلى من اللوحة.
دارت فتاة حول طاولتنا، ولاحظت أنها تتحرك بحرص بالغ يشاهده المرء عند
الذين يشربون حتى الثمالة، ليجبوا حالتهم عن الآخرين. لفتتني بشرة الفتاة الشاحبة
وضفيرتها السوداء الطويلة.

أخذتني أفكارى إلى آنيغ بومرليو. أين تراها كانت في الخمس عشرة سنة
الماضية؟ ولماذا تتواجد الآن مع الرجل الذي ينتحل اسم مينارد؟
أحضرت النادلة الطعام لكلينا. طلب رايان كوب شراب آخر، بينما طلبت
زجاجة عصير أخرى. تحولت محادثتنا أثناء تناولنا للطعام باتجاه العمل، وهو حقل
آمن لتبادل الحديث مع رايان.

- "ذهب كلوديل إلى فيرمونت".

قلت مندهشة: "هل ذهب بحثاً عن مينارد الحقيقي؟"

أوما رايان بالإيجاب.

- "من أعطاه الفكرة؟"

- "إن كلوديل هو رجل شرطة نشيط".
- "لكنه يعتقد أنني مغفلة".
- "أنا لا أرافق المغفلين".
- إنك لا تراقني. لم أتقوه بهذه العبارة.
- سألته: "أعتقد أن منتحل شخصية مينارد هذا هو الذي قتل لويز بايرنت؟"
- "يبقى ذلك احتمالاً وارداً".
- "إنه احتمال قوي جداً، ألا تعتقد ذلك؟ اتصلت بي بايرنت لتكلمني عن مينارد. مضت أيام قليلة قبل أن يخنقها شخص ما بوسادة".
- لم يعلق رايان.
- "كيف عرف هذا الذي ينتحل شخصية مينارد أن بايرنت اتصلت بي؟"
- "وكيف يتسنى لأي شخص أن يعرف؟"
- لم أملك إجابة عن هذا السؤال.
- "هل تكلمت مع الجار بشأن الجيب؟"
- "إنه بريء".
- "لا أنفك أفكر بشأن ليلة بايرنت الأخيرة. أفكر بأخر الأفكار التي خطرت على ذهنها. فكرت بأخر مشاعرها وأفكارها. أعتقد أنها كانت تعرف؟"
- "لم نلاحظ أية علامات للمقاومة. تعرّضت هذه المرأة للغش في دواء الأميبان".
- "وجد شخص مجنون، ويخلو من المشاعر، طريقه إلى بيت بايرنت في منتصف الليل ليخنقها مستخدماً وسادة شقيقتها. هل تعتقد أنها أحست بضغط على وجهها؟ وهل اشتمت رائحة ملين الأقمشة؟ وهل تذوّقت طعم ريش الوسادة؟ وهل استشعرت الرعب في مرحلة ما؟"
- "لا تفعلي هذا بنفسك يا تمب".
- "إنني أفكر دوماً بأخر أحاسيسها".
- أفكر أيضاً بأحاسيس الفتيات المقتولات، لكنني لم أقل هذه العبارة.
- "هناك شيء لم أخبرك إياه بعد".
- انتظرت رايان ليتابع كلامه.
- "تركت لويز بايرنت ممتلكات تقارب قيمتها النصف مليون دولار، كما أن لديها بوليصة تأمين بربع مليون دولار أخرى".

سألته: "ومن هو المستفيد؟"

- "شقيقتها، روز فيشر".

أوصلني رايان إلى منزلي عند التاسعة والنصف تقريباً. لم يطلب أن يدخل، وأنا لم أطلب منه ذلك.

وجدت المجيب الصوتي ساكناً ومظلماً.

أين أن بحق الجحيم؟

أنهيت الاستحمام، وتنظيف أسناني ووجهي، ثم توجهت إلى السرير. قفز بيردي إلى السرير، وتكور إلى جانبي.

حاولت أن أقرأ، لكن غمرني القلق الشديد. أغلقت الكتاب وأطفأت النور. شعرت بضيق مجهول المصدر. انقلبت إلى الجهة اليسرى، ثم إلى اليمنى.

انتقل بيردي إلى طرف السرير.

لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بحاجة لتناول مشروب. هل هناك من ضير بتناول مقدار صغير من المشروب؟ إنني من الذين لا يسرفون في الشراب.

كورت وسادتي، وانقلبت على ظهري. ينست من قدرتي على النوم، فتناولت جهاز التحكم عن بعد، وشغلت جهاز التلفاز، وسرعان ما وجدت برنامجاً فكاهياً أتفرج عليه.

ما هي الأشياء التي أفقدها يا ترى؟ اختفت أنيغ بومرليو من ماسكوش في العام 1990. كانت الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها في ذلك الوقت. إنها ما تزال حية إلى اليوم، وتعيش في مونتريال. أعرف أن فتاتين من فتيات قبو مطعم البييتزا كانتا في الخامسة عشرة من عمرهما، أما فتاة الكفن الجلدي فكانت أكبر سناً من ذلك. اختفت آنجي روبنسون في العام 1985. قيل إنها تقارب الخامسة عشرة، لكنها لم تظهر، بعكس بومرليو...

تحول الممثلون ليصبحوا دمي متصارعة. تلاشى الحوار والضحكات بحيث لم أعد أسمعها.

كسرت آنجي روبنسون معصمها. وكسرت فتاة الكفن الجلدي معصمها أيضاً، لكن الأعمار لا تتوافق، كما أن طوليهما لا يتوافقان أيضاً.

إذاً، ماذا ينقصني؟

اختفت أنجي روبنسون في شمال وسط كاليفورنيا. لا أستطيع أن أتذكر اسم المكان. هل كان كورنرز؟ أم كورنرز؟ أم كورنيرو؟ هل يقع المكان في مقاطعة بيوت؟ لا. إن شيكو هي في مقاطعة بيوت.

أمضى مينارد سنةً على الأقل في شيكو. تساءلت أيّ مينارد من الشخصين هو الذي أمضى هذه الفترة؟ هل كان مينارد الحقيقي؟
قدّم والد أنجي روبنسون تقريره عن اختفاء ابنته إلى مركز الشريف في مقاطعة تهامة.

نهضت بعد أن رفعت عني أغطية السرير. شغلت جهاز الكمبيوتر ودخلت إلى موقع ياهو. طلبت الحصول على خريطة شمال وسط كاليفورنيا. تقع مقاطعة تهامة إلى الشمال الغربي من مقاطعة بيوت مباشرة. وجدت شيكو، وتقريباً بعدها مباشرة قرية كورنيغ الصغيرة. كبرت منظر تلك المنطقة. ظهرت على الشاشة البلدات الكبيرة، والطرق الثانوية. شاهدت اسم مدينة هاميلتون، وويلو، وأورلاند. نقرت على مكان السهم، ثم تحركت شمالاً.

رد بلوف!

قفزت تلك الفكرة الغامضة التي كمنّت في لوعي لتصبح في طليعة تركيزي، ثم ما لبثت أن تراجع.

رد بلوف!

ماذا؟ فكّري يا برينان. فكّري!

ومضت في ذهني فكرة متناهية الدقة. متى قفز اسم رد بلوف إلى طليعة الأخبار؟ هل حدث ذلك منذ عشر سنوات؟ أم منذ عشرين سنة؟ ولماذا؟ فكّري!

نهضت وأطفأت جهاز التلفاز. رميت جهاز التحكم عن بعد بعيداً، ورحت أذرع غرفتي جيئةً وذهاباً. شعرت بحاجة يائسة إلى الولوج إلى المناطق البعيدة في لوعي. الصمت الذي خيم على شفتي لم يكن ذلك النوع الذي يبعث الراحة في النفس، عندما يكون المرء وحيداً. إنه من نوع الصمت الضاغط. تابعت السير جيئةً وذهاباً مرة بعد أخرى.

رد بلوف! رد بلوف!

ومض أخيراً مسلك عصبي في رأسي، فتجمدت في مكاني. يا إلهي القدير! هل وجدت الإجابة؟

قفزت قفزاً كي أصل إلى جهاز الكمبيوتر. من كانت الضحية وقتها؟
استخدمت مسالك بحث متعددة، أثار معظمها غيظي، وأوصلني بعضها الآخر
إلى أسماء لا حصر لها. وجدت الاسم أخيراً...
أجريت المزيد من البحث. تصفحت أرشيف رد بلوف دايلي نيوز، وتصفحت
أرشيف شيكو إيكزامينر. تراجعت الأصوات الليلية المعتادة، واختفت عن مجال
سمعي، في حين استسلم بيردي للنوم.
جلست بعد مرور عدة ساعات. أحسست بالخدر الممتزج بالرعب بسبب الأشياء
التي كانت تتكشف أمامي.
أدركت، في هذه اللحظة، كل ما يجري.

الفصل 30

انتظرت حتى الساعة السابعة صباحاً قبل الاتصال برايان. لم يتأخر في الإجابة، وبدا لي يقظاً مع أنني أحسست أنه متعب قليلاً.

- "هل أيقظتك؟"

- "كنت سأنهض على أية حال للرد على الهاتف".

- "إنها إحدى دعابتك القديمة يا رايان".

- "تبدين متوترة. ما الأمر؟"

عرضت له نظريتي، وأخبرته عن الأمور التي اكتشفتها خلال بحثي في الشبكات الإلكترونية.

- "عجياً! "

- "لا بد أن نذهب إلى ذلك المنزل يا رايان".

- "إن العمل على قضية مطعم البيئزا ليس من ضمن مهمتي".

- "لكن مقتل لويز بايرنت يقع ضمن مهمتك. يُحتمل أن يكون مينارد، أو من

ينتحل شخصيته، قد أقدم على قتل بايرنت ليمنعها من التحدث إلي".

سمعت صوت إشعال عود ثقاب، ثم سمعت صوت زفير بطيء.

- "أريد أن يسمع كلوديل وشاربونيو هذا. هل ستبقين في المنزل لبعض الوقت؟"

- "سأنتظر".

اتصل بي رايان عند الساعة التاسعة ليبلغني أن الرجال الثلاثة انفقوا على

الاجتماع في منزلي عند الساعة الحادية عشرة.

- "هل وافق كلوديل على المجيء؟"

- "إن كلوديل هو شرطي جيد".

- "إنه يتمتع بسحر شخصية فرسان الليل. سأحضّر القهوة".

أعلم أن كلوديل هو شخص يصعب إقناعه، لذلك أمضيت الساعة التالية بتسليح

نفسى بأكبر قدر ممكن من المعلومات لمواجهته بها.
وصل كلوديل أولاً ولاحظت ملامح عبوسه المتغطرس. أشرت إليه كي يجلس
على الأريكة، وقلت: "صباح الخير".
- "صباح الخير".

خلع كلوديل معطفه فتناولته منه، ثم شدّ كمّي قميصه، وهي من ماركة أرمانى
إلى الأعلى، فانتثى القماش ليُغطي طرفيهما الشديدي البياض، بعدئذٍ جلس كلوديل
ووضع ساقاً فوق ساق.

قلت مقدمة عرضي: "أتشرب القهوة؟"
تعمد كلوديل النظر إلى ساعته: "لا. شكراً".
وصل كل من رايان وشاربونيو في غضون دقائق. ارتدى كل منهما بنطال جينز
وكنزرة. وكان رايان قد عرّج على متجر حلويات في طريقه.
ملأت كوبى قهوة لرايان وشاربونيو، ثم تناولنا الحلوى نحن الثلاثة. حافظ كلوديل
على وضعه المنعزل، ولسان حاله يقول: من الأفضل أن يكون اجتماعنا هذا مفيداً.
بدأ رايان الاجتماع رسمياً. أوما نحو كلوديل قائلاً: "تمب، أطلعي هؤلاء الرجال
على ما أخبرتني إياه. أريدك يا لوك أن تسمعها جيداً".

بدأت بعرض ما عندي: "خرجت كولين ستان، وهي شابة في العشرين من
عمرها، في 19 أيار/مايو من العام 1977، من منزلها في يوجين، أوريغون، قاصدة
ويست وود، كاليفورنيا، واعتمدت طريقة التنقلات المجانية. استفادت كولين من عدة
تنقلات قبل أن تستقل سيارة كامبيرون هووكر وزوجته جان. أوصل الزوجان هووكر
ستان إلى غابة لاسن الوطنية حيث قيّدا يديها، وعصبا عينيها، وكمما فمها، ولفاً
جسدها بالحبال، ثم أخذها إلى منزلهما".

دخل بيردي إلى الغرفة، وبدأ يشمّ زوجين من الأحذية الثقيلة، وزوجاً واحداً من
الموكاسان، ثم اتخذ قراره. غمز شاربونيو من قناة زميله: "هذا الفتى الصغير يحبك يا
لوك".

قفزت من مكاني، وانتزعت الهر من حضن كلوديل: "أسفة".
بدا أن الهر قد انزعج، وعبر عن انزعاجه هذا كأفضل ما تستطيعه الهررة.
تابعت قائلة: "أبقى كامبيرون هووكر كولين في ظلمة كاملة، وأخضعها لحرمان تام
طيلة ثلاثة وعشرين ساعة في اليوم. استمرّ هذا الوضع لمدة سبع سنوات".

قال شاربونييو: "سحقاً لهذا اللعين!" أكملت شرحي: "أقدم هووكر على حبس ستان في مجموعة من الصناديق كان قد صمّمها بنفسه لهذه الغاية. اعتاد أن يخرجها كلما أحبّ ذلك. كان يعلّقها مستخدماً أنابيب خاصة، واعتاد أن يضعها على لوحة خشبية، ثم يجلدها، ويعرّضها للصدمات الكهربائية، ويجوّعها، ويغتصبها، ويرعبها".

انتزع كلوديل شعرة هرّ عن كمّ قميصه، أمّا أنا فاستمرّيت بالشرح: "أطلقت زوجة هووكر سراح ستان في النهاية. اعتقل هووكر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1984. أُدين الرجل في الخريف التالي بجريمة الاختطاف، والاعتصاب، والاعتداء، وعددٍ من التهم الأخرى. وقامت وسائل الإعلام بتغطية هذه القضية بشكل هجومي".

تأوّه كلوديل: "وما هي صلة كل هذا بموضوعنا؟"

- "وقعت محنة كولين ستان في رد بلوف، كاليفورنيا. وتقع رد بلوف على بعد أربعين ميلاً من شيكو".

تناول شاربونييو قطعه الثانية من الحلوى، وقال: "كان ستيفن مينارد طالباً في السنة النهائية في جامعة شيكو في العام 1985".

أومأت بالموافقة. تسلّل بيردي باتجاه الأريكة، ثم قوّس جسده ملامساً ساق كلوديل. وقف الهر على قدميه ووضع قائمته الأماميتين على ركة كلوديل. اعتذرت للمرة الثانية، وانتزعت الهر، ثم وضعت في غرفة نومي، وأقفلت الباب. عندما عدت قال شاربونييو: "لكن هذا المغفل الموجود هنا في مونتريال ليس مينارد".

- "إنني أستخدم هذا الاسم على سبيل الافتراض".

- "إذاً أين هو مينارد الحقيقي؟"

- "لا أعرف. يُحتمل أن يكون قد قُتل على يد ذلك الرجل الذي يعيش في بوان

سان شارل. إنها مهمتك أنت".

قال رايان يحثني على المتابعة: "تابعي".

- "بقيت قضية ستان تتصدّر نشرات الأخبار من خريف العام أربعة وثمانين حتى خريف العام خمسة وثمانين. أحببت الصحافة هذه القضية، وأسّمتها قضية فتاة الصندوق. أطلقت عليها بعد ذلك اسم قضية عبدة الجنس".

نظر كلوديل إلى ساعته، فيما أكملت قائلة: "اختفت في العام 1985 فتاة تدعى أنجي روبنسون، وكانت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها. اختفت الفتاة في كورنينغ، كاليفورنيا. تقع كورنينغ ما بين شيكو و رد بلوف... لديّ ما يكفي من الأسباب التي

تدفعني للاعتقاد أن أحد هياكل فتيات قبو مطعم البيتر الثالث يعود لأنجي روبنسون".
أوقف شاربونيو عملية مضغ قطعة الحلوى في منتصف مسارها في فمه: "أتعنين الفتاة الصغيرة التي وضعت في كفن جلدي؟"
- "أجل".

أسرع كلوديل ليقول: "إنها الفتاة ذات المعصم المكسور، لكنك كنت أكيدة عمري الفتاتين لا يتطابقان".

- "قلت إن مواصفات آنجي روبنسون كانت أصغر وأقصر من أن تتوافق مع مواصفات الهيكل رقم 38428، أما إذا عاشت آنجي لبعض الوقت بعد اختفائها، فإن هذا سيفسر الفروقات الموجودة".

قال رايان: "هل يمكنك أن تشرحي نتائج اختبارات السترونتيوم، والكربون 14 أمام لوك؟"
فعلت ذلك.

- "وهل لك أن تشرحي موضوع المادة التي تغلف الأسنان لمنعها من التسوس؟"
فعلت ذلك.

قال شاربونيو: "يا للعجب. أتعتقدين أن مينارد قلّد ما قرأه في أخبار الصحف، وأنه قد استلهم ذلك المعبته هووكر؟"

- "نعم، لكن هناك المزيد. اختفت آن بومرليو في ماسكوش في العام 1990، عندما كانت بعمر الخامسة عشرة. تمكنا، أنا ورايان، يوم الجمعة من رؤية بومرليو في منزل مينارد".

قال شاربونيو: "يسكن مينارد هنا منذ العام ثمانية وثمانين".
أحنى كلوديل رأسه، وبدا أنه يتكلم من أنفه: "وهكذا، استناداً إلى قضية الفتاة التي وضعت في الصندوق..."

استفزتني سخريّة كلوديل فقلت: "لكن الفتاة تمتلك اسماً، وهو كولين ستان".
توتّر منخرا كلوديل.

- "إذاً، هل تعتقدين أن مينارد احتجز أنيغ بومرليو عنوةً لما يفوق عقداً ونصف من السنين؟ وأن آنجيلا روبنسون، والفتيات الأخريات اللاتي جرى دفنهن في القبو، كانا من أسراه؟"
أومأت بالموافقة.

لم يتكلم أحد ليضع لحظات، لكن كلوديل كسر طوق الصمت: "هل حاولت أنيغ بومرليو الهرب؟"

- "لا".

- "هل أشرت لك بطريقة من الطرق أنها أرادت مغادرة منزل مينارد؟"

- "لم تحمل الفتاة يافطة تقول: ساعدوني. إذا كان هذا ما تقصده".

قوس كلوديل حاجباً ونظر باتجاه راين. قال راين: "بدت بومرليو خائفة جداً".
قلت بدوري: "بل بدت مرتعبة".

سأل شاربونييو: "ماذا فعلت بالضبط؟"

- "اخذت عن الأنظار حالما نظر مينارد باتجاهها. تصرفت كأنها كلبة مقهورة".
قال شاربونييو: "أعتقد أن مينارد يحتفظ بها لتكون عبدة جنسية تحت تصرفه؟"
- "أنا لا أوعي بالدوافع".

صرخ كلوديل: "أفاعي خانعة!"

- "إنني غير ماهرة بأمور الزواحف والبرمائيات أيها التحري. ماذا يعني ذلك بالضبط؟"

رفع كلوديل كتفيه وبسط يديه: "إن أي شخص بالغ سليم، ويتمتع بالقدرة على التصرف، كان سيطلب المساعدة".

قلت مقاطعةً: "لا يوافق علماء النفس على كلامك هذا. يبدو لي أنك غير مطلع على متلازمة ستوكهولم".

رفع كلوديل راحتي يديه باتجاه السماء، فقلت: "إنها عبارة تشير إلى الحد الأقصى من التوتر الذي يعانیه المرء نتيجة ظروف الأسر والتعذيب".

عادت يدا كلوديل إلى حضنه، بينما انخفضت ذقنه، أما أنا فتابعته أقول: "تظهر متلازمة ستوكهولم عند ضحايا الاختطاف، والسجناء، وعند أتباع بعض الفرق الدينية، والرهبان، وحتى عند الشركاء والأولاد الذين يتعرضون للإساءة. يبدو أن الضحايا يستسلمون لأسريهم، أو للذين يعذبونهم، حتى إنهم قد يعبرون عن مشاعر الولع بهم".

قال شاربونييو: "إنها عنوان غامض".

- "أتى اسم هذه المتلازمة من حالة اختطاف حدثت في ستوكهولم، عاصمة السويد في العام 1973. جرت حادثة الاختطاف هذه والتي احتجز فيها ثلاث نساء ورجل واحد لمدة ستة أيام، على يد سجناء سابقين أثناء عملية سطو على مصرف".

وصل المحتجزون إلى حالة اقتنعوا معها أن هؤلاء اللصوص كانوا يحمونهم من رجال الشرطة. وأعلنت إحدى النساء خطوبتها على أحد أسريها، وذلك بعد إطلاق سراح المجموعة، بينما بدأت امرأة أخرى بحملة دفاع عنهم".
قال ريان: "إن أهم ميزة هنا هي التفاعل مع الظروف المهددة بشكل سلبي مطلق".

هزّ شاربونييو رأسه: "علينا أن نقنع بهذا الكلام ونسلم به".

قلت: "يتعدى الأمر هذا الحد. إن الأشخاص المصابين بهذه المتلازمة يترابطون مع أسريهم، حتى إنهم قد يتحدون معهم. يُحتمل أيضاً أن يتصرف هؤلاء الأشخاص بطريقة تُظهر عرفان الجميل، أو حتى المحبة، تجاه هؤلاء".
سأل كلوديل: "تحت أية ظروف تتطور هذه المتلازمة؟"

استخدمت أصابعي لتعداد هذه الظروف: "يوافق علماء النفس على ضرورة توافر أربعة عوامل: العامل الأول، هو أن يشعر الضحية أن حياته مهددة من الأسر، ويؤمن أن هذا الأسر سوف ينفذ تهديده. أما العامل الثاني، فهو أن يُظهر الأسر بعض اللطف تجاه الضحية، وذلك حسب مزاج الشخص الأسر".

تدخل شاربونييو: "كأن يسمح لذلك المسكين في الاستمرار بالحياة".

- "يُحتمل ذلك. ويُحتمل أن يأتي ذلك على شكل فترات استراحة من التعذيب، وفترات قصيرة من الحرية، وإعطاء الضحية وجبة محترمة، والسماح له بالاستحمام".

هزّ شاربونييو رأسه مجدداً: "يا للسماء!"

- "يتمثل العامل الثالث في عزل الضحية كلياً عن مشاهدة أي شخص عدا الأسر. يبقى العامل الرابع، وهو اقتناع الضحية، عن حق أو غير حق، أن جميع طرق الهرب مسدودة أمامه".

لم ينبس شاربونييو ولا كلوديل بأية كلمة.

فأكملت كلامي: "كان كاميرون هووكر متمكناً من هذه اللعبة. أبقى هذا الرجل سستان داخل تابوت وضعه تحت سريره، ولم يكن يخرجها منه إلا لتعذيبها. اعتاد بين الحين والآخر أن يمنحها فترات من الحرية، وأن يسمح لها بالدخول. وسمح لها في بعض الأوقات أن تعمل في الحديقة، وأن تذهب إلى الكنيسة. وصل الأمر بهذا الرجل ذات مرة إلى أن يصطحبها إلى ريفرسايد كي تزور عائلتها".

مرّر شاربونييو يده في شعره، الأمر الذي تسبّب بانسدال غرته: "لماذا لم تنفصل

عنه بكل بساطة".

- "استطاع هووكر إقناع ستان أنه يمتلكها".

قال شاربونيو: "يمتلكها؟"

- "أبرز الرجل لستان وثيقة مزورة، وأخبرها أنه اشتراها من جماعة تدعى الجمعية. أخبرها أيضاً أنها تحت رقابته المستمرة، وأنها إذا حاولت الفرار فسيقوم أعضاء الجمعية بملاحقتها وقتلها، وهي وكل أفراد أسرتها".

رفع شاربونيو يديه: "تبا! أقدم هووكر على تعذيب ستان فأحسّت أنها معزولة بالكامل، وأنها تحتاجه في أدق احتياجاتها، وهكذا انتهت بالاتحاد مع ذلك المعتوه".
قلت له: "فهمت الأمر كما هو. علمت أن إحدى أخطر الشهادات الدفاع قد ركزت على رسالة حب كتبتها ستان إلى هووكر".

بدأ شاربونيو مذهولاً، أما أنا فتابعته قائلة: "احتجرت إيزابيت سمارت من قبل أشخاص مجانيين لمدة تقارب السنة. سمعت هذه الفتاة الباحثين عنها ينادونها، حتى إنها استطاعت في إحدى المرات تمييز صوت عمّها، إلا أنها لم تحاول الهرب أبداً".
قال شاربونيو: "كانت سمارت في الرابعة عشرة من عمرها عندما اختطفت".

سأل رايان: "أتذكرون باتي هيرست؟ أمسكها جيش التحرير السيمبوني واحتجزها داخل خزانه. انتهت هذه الفتاة بالاشتراك مع خاطفيها بسرقة مصرف".
هبط شاربونيو واقفاً على قدميه، وبدأ يذرع الغرفة جينئةً وذهاباً: "كانت تلك قضية سياسية، أما هووكر فلا شك أنه مختل عقلياً. أعتقد أن الناس لا يتجولون في الشوارع كي يختطفوا الفتيات، ويخبئونهن في الخزائن والصناديق".
قلت: "لعل هذه الظاهرة أكثر انتشاراً مما نظن".

توقّف شاربونيو عن المشي، ونظر هو وكلوديل باتجاهي. فقلت: "اعترف جوني جميلسكي في العام 2003، أنه مذنب بجرم احتجاز خمس نساء واعتبارهن عبيدات له. احتجزهن في مستودع إسمنتي أنشأه تحت الباحة الخلفية لمنزله". تحول كلوديل أخيراً إلى التكلّم بالإنكليزية: "يقع المنزل مباشرة تحت طريق سيراكيز، نيويورك".

عاد شاربونيو ليمرّ يده في شعره: "أوه، هل تتذكرون لايك، وأن جي؟"

شيّد ليونارد لايك وتشارلز أن جي، وهما رجلان مريضان مصابان بعقدة كره النساء، غرفة خاصة بالتعذيب ضمن مزرعة منعزلة تقع في مقاطعة كاليفيراس، كاليفورنيا. جرى تصوير بالفيديو لامرأتين، على الأقل، أثناء تعذيب هذين الرجلين

- لهما. استخدمت عبارة سيدات م كعنوان للفيلم. يرمز حرف م هنا إلى كلمة مقتولات.
- امتلاً صوت كلوديل بالاشمئزاز: "وماذا حدث لهذين الأحمقين؟"
- "قُبِضَ على لايك بتهمة السرقة من متجر، ومات منتحراً عن طريق ابتلاع حبتين من السيانيد. واعتُقل أن جي في كالغاري، ثم قاوم محاولات تسليمه للولايات المتحدة لمدة عقدٍ من الزمان. هل هذا صحيح يا دكتورة؟"
- استغرق الأمر ست سنوات من المنازعات القانونية، وفي النهاية أُعيد أن جي إلى كاليفورنيا لمحاكمته. صوتت هيئة المحلفين هناك على تجريمه في العام 1998، بتهمة قتل ثلاث نساء، وسبعة رجال، وطفلين."
- امّحت كل البرودة من صوت كلوديل: "كفى. أعتقدين أن مينارد قد نقل عرضه الشاذ هذا إلى مونتريال؟"
- "أبلغتسي روز فيشر أن لويز بايرنت اتّصلت بي هاتفياً لتخبرني أنها شاهدت مينارد مرتين مع فتيات صغيرات. وتعرفون أننا وجدنا هياكل ثلاث فتيات مدفونات في قبو يقع أسفل المتجر الذي كان يستأجره."
- "هل تعتقدين أن مينارد قد أقدم على نقل أنجي روبنسون من كورنينغ، كاليفورنيا، إلى مونتريال؟"
- "قد يكون نقل أنجي أو جنتها."
- "وهل تقولين إنه خطف أنيغ بومرليو واستعبدها؟"
- "هذا صحيح."
- عبر كلوديل عن مخاوفها حين علّق قائلاً: "ويُحتمل أن يُقدم مينارد على قتل بومرليو إذا عرف أنه مهدّد."
- "نعم."
- تصيّقت عينا كلوديل، ونظر نحو زميله، ثم هبّ واقفاً وهو يقول: "يتعيّن على القاضي أن يضع هذا الاحتمال بحسابه."
- "هل ستحصل على إذن بالتفتيش؟"
- "سأحصل عليه عندما يصل الأمر إلى المحكمة."
- "أريد الذهاب معك إلى بوان سان شارل."
- "لا تفكري في ذلك."
- "لماذا؟"

- "إذا صحَّ كل ما تقولينه فمعنى ذلك أن مينارد هو رجل خطرٍ جداً".
- "إنني فتاة ناضجة".

حدَّق بي كلوديل لفترةٍ طويلةٍ إلى درجةٍ ظننت معها أنه لن يجيب، ثم هزَّ كتفه باتجاه رايان، وقال: "سأطارد راعي البقر هذا لوحدي، ولن يصحبنى أحد".
ذهلتُ لكلامه هذا. ها هو الرجل الجدِّي على الدوام يحاول أن يُلقي نكتة.
جاءت بقية نهار الأحد بمثابة عذاب لي. شعرت، وأنا أفكر بمهماتي الكثيرة بالحزن الممزوج مع خيبة أملٍ شديدة تجاه نفسي. لماذا لم أدرك من قبل احتمال أن تكون العظام عائدة للفتيات المحتجرات؟ ولماذا لم أدرك سبب فشل مواصفاتي بالتوافق مع المواصفات الموجودة في ملفات شرطة مونتريال؟ تساءلت مرةً بعد مرة: هل كان ذلك سيغيّر الأمور؟

استمرت الصور المقلقة بالتوالد في رأسي. تخيلت آنيغ بومرليو بوجهها الأبيض الشاحب وضميرتها السوداء الطويلة. برزت أمامي أيضاً صورة أنجي روبنسون، وهي راقدة في كفنها الجلدي وسط قبرٍ حُفر في قبو.
تخيلت نفسي مع رايان في السيارة، وتذكّرت أن. أين هي آن بحق الجحيم؟ هل يتعيّن عليّ بذل المزيد من الجهود لإيجادها؟ ماذا أفعل؟

جربّت الترانيم الميلادية. أفلحت هذه الترانيم بإدخال بعض السرور إلى قلبي، وكأنها جيش سانتا للإنقاذ. قصدت النادي الرياضي، ومشيت ثلاثة أميال فوق آلة المشي، برفقة الأغاني الرائعة القديمة المسجلة على الأسطوانات المدمجة، والتي دوّت ألعانها في سماعات الأذن التي استخدمتها. سمعت ألعان فرق لوفينغ سيونفول، ودونافان، والماماز والباباز، والسوبريمز.

أصابني القلق وتقلّبت في السرير تلك الليلة، فيما استمرت لازمة لحن بالدوران في ذهني.

الاثنين، الاثنين...

استخرجت في يوم الاثنين قبل الماضي عظام ثلاث فتيات صغيرات السن. وانتزعت في يوم الاثنين الماضي ريشتين من فم لويز بايرنت.
ويُحتمل أن أشارك يوم غد في استكشاف منزل الرعب. لا أستطيع الوثوق في ذلك اليوم...

ارتعدت خوفاً بسبب التفكير بما يمكن أن يحمله لي يوم الاثنين التالي.

الفصل 31

استحصل كلوديل على أمر تفويض من المحكمة عند الساعة التاسعة، وحضر رايان إلى منزلي عند التاسعة والرابع.

ناولني رايان كوباً من القهوة فور صعودي إلى سيارته الجيب. لم يكن الكافيين هو ما أحتاجه، لأنني كنت متوترة إلى درجة تكفي للهجوم على البنتاغون مرة ثانية. شكرته ونزعت قفازي، ثم لففت أصابعي حول كوب الستايروفوم، وعملت على إبطاء دقات قلبي حتى أثناء ارتشافي للقهوة.

مضت خمس دقائق، عمد بعدها رايان إلى إنزال زجاج نافذته قليلاً، وشرع بإشعال سيجارة بلايرز. اعتاد رايان في الماضي أن يسألني إذا كنت أمانع في إشعاله للسيجارة، لكنه لم يفعل ذلك هذه المرة. افترضت أنه يشعر بالتوتر مثلي تماماً. اكتظت الشوارع بما تبقى من الازدحام المعتاد صباح الاثنين. وصلنا إلى بوان بعد مدة، بدت بالنسبة إليّ عقداً من الزمان وعشرين دقيقة.

انعطفنا نحو دي سيباستوبول، فرأيت سيارتي كروزر وسيارة إمبالا من دون لوحات مركنتين على أبعاد متساوية إلى جانب الطريق. لاحظت الأدخنة المنطلقة من عوادم السيارات الثلاث. ركن رايان سيارته إلى جانب أقرب سيارة كروزر، ثم التفت إلي بعد أن أوقف محرك السيارة.

- "إذا وجّه مينارد باتجاهك أي شيء، حتى العبوس، فعليك أن تسرع بالخروج من المنزل. هل تفهمين؟"

- "إننا عازمان على تفتيش المكان، وليس مهاجمته."

- "قد ينقلب الوضع ويتحول إلى أمورٍ غاية في البشاعة."

- "يُتواجد هنا سبعة رجال شرطة يا رايان. إذا لم يُظهر مينارد تعاوناً معنا فبإمكانك اعتقاله."

- "إذا أبدى الرجل أية حركة تهديدية فعليك أن تخرجي على الفور."

أديت له التحية بلباقة.

بدا صوت رايان أكثر صلابة: "اللعة! أنا أتكلم بجدية. إذا طلبتُ منك الخروج فعليك تنفيذ ذلك على الفور".

قلّبت عيني. فامتدّت يد رايان لتدير المحرك مجدداً. وضعت قفازي وقلت: "حسناً. سأطيع الأوامر يا سيدي".

- "لا مكان للعبث هنا. إنه عمل خطر".

خرجت أنا ورايان من سيارة الجيب، وأغلقتنا الأبواب بهدوء.

لاحظت أن الطقس قد انقلب، وأن الهواء مشبع بالرطوبة والبرد الشديد، بينما استقرت الغيوم الرمادية المثقلة على ارتفاع منخفض في السماء. بدأ الكلب بالنباح فور رؤيته لنا. لم نر عدا ذلك أية علامة للحياة في شارع دي سيباستوبول. لم نشاهد صبية يلعبون في الشارع، ولا سيدات البيوت وهنّ يحملن بقالتهن. لم نرَ حتى المسنين المتقاعدین وهم يثرثرون على الشرفات، أو المصاطب.

إنه يوم شتائي نموذجي في مونتريال. يغري هذا الطقس بالبقاء داخل المنزل، أو بالتواجد في عربات المترو، أو في أي مكان تحت سطح الأرض. إنه يغري بالجلوس والتمزّام الهدوء حتى مجيء الربيع. تضخّم صوت نباح الكلب وسط هذا السكون المخيم. انعطفت مع رايان عبر الشارع. خرج الثنائي النشط من سيارة الإمبالا فور اقتربنا منها. ارتدى كلوديل معطفاً من الكشمير ذا لون بني مائل إلى الأصفر، بينما ارتدى شاربونيو سترة فضفاضة، لكنني لم أستطع تخمين تكوينات نسيجها. تبادلنا الإيماءات في ما بيننا.

سأل رايان بالإنكليزية: "ما هي الخطة التي سنتبعتها؟"

بسط كلوديل قدميه، بينما استند شاربونيو على سيارة الإمبالا. أشار كلوديل بإبهامه نحو سيارة الكروزر المركونة في أقصى الشارع: "ستبقى وحدة هنا، بينما أرسل الوحدة الأخرى إلى شارع دي لا كونغركاسيون".

أنزل شاربونيو زمام سترته المقلنسة، ودسَ يديه في جيبيه، ثم حرك بعض القطع النقدية فيهما.

- "سيسيطر ميشال على الباب الخلفي".

زرع صوت جهاز اللاسلكي في جيب شاربونيو الخلفي. تراجع قليلاً وعالج زر جيبيه.

صوّب كلوديل نظرة سريعةً باتجاهي، ثم تحوّل بنظره نحو رايان.

قال رايان: "تعرف برينان ما عليها فعله".

زَمَ كلوديل شفّتيه، لكنه لم يقل شيئاً.

- "سنبرز لمينارد بطاقة التهنئة بعيد الميلاد التي أرسلها القاضي إليه، ثم نامره بالجلوس، وبنصرف بعد ذلك لقلب المكان رأساً على عقب".

وضع شاربونيو يده على عقب مسدسه: "لن أفشل عطّلتني إذا ما قرّر هذا المعتوه أن يشهر مسدسه الشوارزينيغر".

تناول كلوديل جهاز الاستقبال والإرسال من حزامه، ثم زرّر معطفه مجدداً: "هل أنتم جاهزون؟"

أوماً الجميع بالموافقة.

قال كلوديل: "هيا بنا".

كرّر زميله: "هيا بنا".

انطلق شاربونيو بسيارته الإمبالا نحو نهاية شارع دي سيباستوبول. تحدّث إلى سائق السيارة، ثم اختفت سيارة الكروزر وراء المنعطف. عكّس شاربونيو اتجاهه ثم تحرك باتجاه قطري، وعبر الباحة الخالية.

مرّت ثلاثون ثانية، ثم سمعنا صوت شاربونيو من خلال جهاز الاستقبال والإرسال الذي يحمله كلوديل. أبلغنا أنه واقف قرب المدخل الخلفي لمنزل مينارد.

لوح كلوديل بإشارة الانطلاق للفريق الآخر من رجال الشرطة، ثم مشى أمامنا أثناء اجتيازنا الممر المكسو بالجليد. تبعته إلى جانب رايان، بينما تقدّمت سيارة الكروزر إلى جانب الرصيف الموجود خلفنا.

شعرت أثناء تعرّفي في طريقي بنفس مشاعر الخوف الغامضة التي سبق لي وشعرت بها يوم الجمعة. تزايدت مشاعر خوفي، وتعاضمت دقات قلبي كأنها ضربات الطبول.

توقّف كلوديل عند المنعطف، وتحدّث في جهاز إرساله. حدّقت في منزل مينارد، ورحت أتساءل عن حالته أثناء تملك أجداد مينارد الحقيقي، أي عائلة كورنيو، لهذا المنزل. بدا المنزل معتماً جداً ومتقللاً بالخطر. شعرت أنه يصعب على المرء أن يتخيّل مشهد ربة المنزل وهي تقلي الدجاج، فيما أفراد العائلة يشاهدون مباريات البايبول، أو حتى تخيل القطط الصغيرة وهي تلاحق الكرات، في الغرف الكئيبة لهذا المنزل.

أصدر جهاز راديو كلوديل أصوات إرساله. قال شاربونييو إنه في موقعه. خطونا إلى درج المنزل. أدار رايان المقبض النحاسي، فانطلق صوت الجرس زاعقاً مثلما حدث في يوم الجمعة. مرّت دقيقة كاملة من دون أن يحدث أي شيء. أدار رايان المقبض مرة ثانية. خيل إليّ أنني سمعت حركةً ما داخل المنزل. توتّر رايان، وأسدل يده باتجاه مسدس الكلوك الذي يحمله، كما فكّ كلوديل أزرار معطفه.

لم يظهر أي شخص.

أدار رايان مقبض الجرس للمرة الثالثة، ثم خيمّ سكون مطبق على المكان.

دقّ رايان على الباب بيديه، وقال: "افتحوا الباب! الشرطة!"

ما إن شرع رايان برفع قبضته مجدداً حتى مزقت طلقة مسدس كاتم للصوت ستار الصمت. انتشر ضوء أزرق وأبيض حول أطراف ستارة النافذة الموجودة إلى يميني.

انحنى كلّ من كلوديل ورايان وربضا على الأرض في وقت واحد، ثم شهرا أسلحتهما. أمسك رايان بمعصمي وسحبني إلى الأرض.

صرخ كلوديل في جهاز الإرسال الذي يحمله: "ميشال! هل ما زلتَ هناك؟ أكرّر. هل ما زلتَ هناك؟"

عاد صوت شاربونييو بعد ثانيةٍ من خلال الجهاز: "أنا هنا. هل كانت تلك طلقة رصاص؟"

- "انطلقت الرصاصة داخل المنزل؟"

- "ومن يطلق النار؟"

- "لا أعرف. هل لاحظت أي حركة في خلف المنزل؟"

- "ما من حركة هنا."

- "إبقَ في مكانك. سندخل إلى المنزل."

أشار لي رايان كي أراجع: "هيا تحركي!"

اندفعت إلى المكان الذي حدّده لي، فيما هبّ كلوديل ورايان واقفين، وانطلقا يعالجان الباب. استخدمتا أكتافهما في البداية، ثم تحوّلا إلى استخدام أحذيتهما الثقيلة. صمد الباب أمام ضرباتهما.

تحولّ الكلب في البعيد ليعوي بطريقة هستيرية.

ازدادت قوة رفس الرجلين، وتطايرت الشظايا. تناثرت شظايا الورنيش المصفر في الهواء. وصمدت ألواح الباب التي تعودت الصمود في وجه عوامل الطقس. ازدادت الرفسات، وازدادت اللعنات والشتائم. تحول لون وجه كلوديل إلى لون توت العليق، أما جبهة رايان فأصبحت رطبة. أخيراً، رأيت حركة في مكان واجهة البقل. أشار رايان لكلوديل بالتراجع، ثم تهيأ جيداً، ومدّ رجلاً واحدة ثم دفعها بركلة كاراتهيه. أصاب حذاؤه الثقيل هدفه، تراجعت السقطة وتراجعت دفّات الباب منفتحتين إلى الداخل.

توجّه رايان نحوي وقال لاهثاً: "ابقي هنا".

دخل كلوديل ورايان إلى المنزل لاهثين، ورفعنا مسدساتهما إلى مستوى الأنف. تحرك أحدهما إلى الجهة اليسرى، بينما تحرك الآخر إلى الجهة اليمنى. تسلّلت إلى الداخل، وأسندت ظهري على الجدار إلى يمين الباب. بدا الرواق مظلماً وساكناً، وانتشرت رائحة بارود خفيفة.

تقدّم كلوديل ورايان باتجاه الصالة شاهرين مسدساتهما، بينما تحركت عيونهما وجسدهما بحركات متوافقة. تبيّن لهما أن القاعة خالية.

تحركت أنا باتجاه الجانب الآخر للرواق. تأقلمت عيناى مع الظلمة في غضون لحظات. أسرعت لرفع يدي باتجاه فمي.

أنزل كلوديل سلاحه: "أهذا أنت!"

لم ينطق رايان بأية كلمة أثناء خفضه لمرفقه وتوجيهه مسدس الكلوك الذي يحمله باتجاه السقف.

استلقى مينارد على الأريكة نفسها التي استخدمها يوم الجمعة، ومال جسده إلى الجهة اليسرى، بينما استند رأسه بطريقة غريبة على خلفية الأريكة. استلقت يد مينارد اليسرى على مسند الأريكة، أما يده اليمنى فكانت في حضنه. لاحظت أن أصابعه تلفت بترائح حول مسدس سميث أند ويسون من عيار تسعة ميليمترات.

لعل صوت شاربونييو من خلال جهاز الإرسال والاستقبال. أجابه كلوديل على الجهاز. فيما تحركت أنا ورايان، واقتربنا من مينارد.

تبادل كلوديل وشاربونييو كلمات انفعالية. سمعت كلمات: انتحار، الشرطة القضائية، والمحقق الجنائي. لم أستطع استيعاب بقية محادثتهما. أذهلني منظر مينارد المستلقي على الأريكة.

شاهدت الثقب الصغير، الذي كان بحجم قطعة نقدية صغيرة، في جبهته اليمنى. انساب جدول دماء من حافة جبهته البيضاء المتغضنة، فمخرج الرصاص كان جبهة مينارد اليسرى. اختفى معظم ذلك الجزء من الرأس وتناثر على المصباح النحاسي، وعلى قطع الكريستال المتدلية، وعلى ورق الجدران الزهري اللون لتلك الغرفة الكئيبة. تمازجت كتلة دم مرعبة وأجزاء من دماغ مينارد، مع ما تبقى من عظام جمجمته.

شعرت بارتعاش تحت لساني.

تناول رايان مقعد وندسور إلى أبعد مسافة ممكنة عن الجثة، ثم قادني إليه. جلست على المقعد وأحنيت رأسي. سمعت وقع أقدام أفراد الشرطة وهم يدخلون إلى المنزل. سمعت صوت رايان وهو يعطي أوامره الصارمة. سمعت ما قاله شاربونيو، وعلى الأخص كلمة سيارة الإسعاف، واسم بومرليو. سمعت أصوات الأبواب وهي تُفتح على مصاريحها أثناء اندفاع رايان والرجال الآخرين إلى داخل المنزل.

حاولت أن أهرب من الحاضر، فحاولت أن أركز تفكيري على الأشياء التي يتوجب عليّ إنجازها في المستقبل. ركزت على أشياء مثل إعادة تقييم القوائم التي حصلت عليها من شرطة مونتريال، وكذلك إعادة تقديم مواصفات الهياكل العظمية، لكن مع إبقاء تقديرات العمر مفتوحة. يتعين عليّ أيضاً أن أحصل على نماذج من الحمض النووي العائد لعائلة أنجي روبنسون.

لم يُجِدني ذلك نفعاً. لم أستطع التفكير في شيء، وكان انتباهي يعود لبحوم عبر الغرفة. تنقلت عينايا ما بين اليدين، والرجلين الممدوتين، والمسدس. تفحصت الوجه. تأملت تغضنات وجه مينارد التي ظهرت مثل كلى داكنة صغيرة فوق جلده الشاحب. شاهدت عينيه المفتوحتين الناظرتين إلى الفراغ. لم أجد دهشة فيهما، ولا مظاهر الخوف. امتلأنا فقط بنظرة الموت الفارغة.

تحول عقلي إلى ساحة قتال. ارتحت إلى واقع أن مينارد لن يكون قادراً بعد اليوم على إيذاء أي شخص. شعرت بالغضب نتيجة هربه السهل هذا، وشعرت بعد ذلك بالرتاء لحياة تغيرت بخرابة. وشعرت أخيراً بالقلق على آنيغ بومرليو. قلقت كثيراً لأننا لم نمتلك الأجوبة على الألغاز التي بين أيدينا. لم يكن هذا الرجل مينارد. من هو إذًا؟ وأين هو مينارد؟

شعرت بأصابع تمسّد شعري، فنظرت إلى الأعلى.

- "هل أنت بخير؟"

أوماتُ، ووجدت نفسي متأثرة جداً بالرقعة التي ظهرت من ملامح رايان: "هل وجدتم بومرليو؟"

جاء صوت رايان ثقيلًا مثل غطاء تابوت: "المنزل خالٍ. توجد أشياء هنا لعلك توذنين رؤيتها".

تبعته أثناء اجتيازنا لرواق يؤدي إلى غرفة خلفية، ثم نزلنا عبر درج ضيق يؤدي إلى قبو ضعيف الإضاءة. رأيت الجدران الحجرية التي تخلو من النوافذ، والأرضية الإسمنتية، بينما حمل الهواء الرطب رائحة التراب، والغبار، والعفونة الجافة. استطعت أن أرى من حولي الخردة المعتادة التي تتواجد في الأقبية عادة. رأيت حوض غسيل معدني، وبعض أدوات الحدائق، وكدسة من صناديق الكرتون، ثم ماكينة خياطة سنجر.

سمعت أصواتاً، ثم سمعت إلى يميني شتيمة مكبوتة. قادني رايان إلى غرفة ثانية بعد أن مررنا من خلال باب مفتوح. لاحظت أن هذه الغرفة تشبه القبو الخارجي، لكنها أصغر منها، وأنها مضاءة بشكل جيد. لاحظت أيضاً أن جدران هذه الغرفة وسقفها مكسوة بألواح البولي يوريثاين.

شاهدت كلوديل وشاربونيو واقفين إلى جانب لوحة خشبية يُحتمل أنها استُخدمت في الماضي لتكون طاولة عمل. وضع الرجلان قفازات جراحية مصنوعة من اللاتكس. التفت شاربونيو عندما سمعنا ندخل إلى الغرفة. بدا وجهه خمري اللون.

غادر رايان هذه الغرفة كي يفتش القبو مجدداً. أدار شاربونيو يده حول الغرفة: "أوجد ذلك المعنوه مكاناً مميزاً جداً بالفعل هنا، مثل العزل الكامل للصوت، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى".

تتبع عيناى القوس الذي رسمته حركة يد شاربونيو. تدلّت في إحدى الزوايا مجموعتان من الأصفاذ من حلقتين مثبتتين في السقف. شاهدت طاولة بسيطة قرب الجدار المجاور. مشيت نحوها، وأحسست بخدر بارد يسري في أعماقي.

بدت الطاولة متينة التركيب بألواحها الخشبية الرقيقة. لاحظت أن كلابات قد ثبتت في كل زاوية من زوايا هذه الطاولة، ورأيت طوقاً جلدياً مربوطاً بكل كلاب، بالإضافة إلى أربع سلاسل ملتفة إلى جانب الأطواق الجلدية.

قلتُ: "أعتقد أن هذه الطاولة ليست قديمة العهد".

دمدم صوت شاربونييو ممتزجاً بالغضب: "طاولة! إنها رف من الرفوف اللعينة!" مشييت نحو طاولة العمل. نظر كلوديل نحوي، ثم التفت إلى يساره. ولاحظت مدى حرصه على إفراغ وجهه من أية تعابير. وصل الخدر إلى أعماق أعماقي. رأيت سوطاً، وحبلاً مجدولاً، ومقبض لجام، ومجداف جلدي، ثم رأيت أنشودة متعددة العقد في وسطها.

رأيت وريداً ينبض في جبهة شاربونييو، واستطعت أن ألمح الغضب الشديد في عينيه: "هذه هي كل الوسائل الضرورية ليظهر شخص ما لعبده من هو سيده". جاء صوت كلوديل هادئاً: "هدئ من روعك يا ميشال". - "كان هذا المجرم مبدعاً حقيقياً".

لمس شاربونييو شكيمة حصان، ومعصمة شعر، وكمامة غير متقنة الصنع، وضعت كرة في منتصفها. - "تفحص المواد التي كان يطالعتها".

تسبب غضب شاربونييو الشديد بإفراطه في النشاط. تناول مجلة، ثم رماها بعيداً. حملت هذه المجلة مواضيع إيحائية، وتحدثت مقالاتها عن العبودية. تناول شاربونييو شريط فيديو حمل عنوان قصة أو.

وضع شاربونييو شريط الفيديو على الطاولة المخصصة للعمل. دخل رايان في تلك اللحظة، وبان التوتر في عضلات فكّيه نزولاً حتى أعلى صدره. - "وجدتُ شيئاً".

تحركنا جميعاً في وقت واحد وخرجنا من الباب. دخلنا القبو الخارجي، ومشينا حول فرن قديم، ثم دخلنا غرفة تشبه تلك التي خرجنا منها للتو. كانت الرفوف تغطي ثلاثة جدران في الغرفة، وقد تدلّى مصباح كهربائي من سقفها لينيرها.

عبر رايان الغرفة حتى وصل إلى الجدار البعيد، فتبعناه. استطعت أن ألاحظ ألواح البولي يورثاين المشابهة لتلك التي تغلف جدران الغرفة الأخرى. لاحظت أن جانباً من أحد هذه الألواح غير مثبت.

- "هذا الجدار ليس من الحجر، إنه من الخشب الرقائقي". أدخل رايان أطراف أصابعه عامودياً على طول لوح الخشب الرقائقي الموجود خلف الرفوف، والذي أنتزع جانبه قبل وقت قريب. - "توجد ثغرة هنا".

خلع كلوديل أحد قفازيه وقلد حركة رايان، ثم أوماً. أشار رايان إلى الباب الذي دخلنا منه: "لنتحقق من المصابيح الكهربائية".

التفتنا جميعاً. بدا أحد أغطية المفاتيح الكهربائية جديداً ولامعاً، بينما ظهر الغطاء الآخر قذراً ومتشققاً.

- "يضيء المفتاح الأقدم مصباح السقف".

أبقى بقية الكلمات لنفسه.

انتزع كلوديل قفازه الآخر في يده، ثم شرع مع رايان بنزع ألواح البولي يوريثاين.

أسرع شاربونييو بالخروج إلى القبو الخارجي. سمعت أصوات الجلبة وانتزاع الألواح، ثم عاد شاربونييو حاملاً مخللاً صدناً.

استطاع رايان وكلوديل انتزاع صف من الألواح. تمكنت من خلال هذه المساحة أن أرى فتحةً ومفصلتين، لكنني لم ألمح ضوءاً من خلالها.

قدر الرجلان عرض الباب، وهاجما الجهة الأخرى من الرفوف حيث يلتقي لوحا بولي يوريثاين. أسفرت جهودهما عن كشف شق ضيق آخر بين ألواح الخشب الرقيقة.

تقدم شاربونييو إلى الأمام: "دعوني أقوم بالعمل".

تحنى رايان وكلوديل جانباً.

أدخل شاربونييو طرف المخل في الثغرة، ثم حركه". تحرك جزء من الجدار إلى الأمام.

أدخل شاربونييو المخل ثانية، ولمسافة أكبر هذه المرة، ثم حركه.

تحرر فجأة الخشب الرقيق، والقطن، والرفوف.

أمسك شاربونييو رفاً من الرفوف وجذبه بقوة. تراجع الجدار المستعار فانكشفت ثغرة يبلغ طولها خمسة أقدام وعرضها قدمين. وصل ضوء المصباح الكهربائي المتدلي من السقف لمسافة اثنتي عشرة بوصة، بينما ظلت المساحة الباقية من الغرفة مظلمة وسوداء مثل لون الزفت.

اندفعت نحو الباب وضغطت على مفتاح كهربائي، ثم استدرت. ضغطت أسناني على شفتي السفلى بشدة، وأحسست بانكماش في حنجرتي.

الفصل 32

بدأت هذه الغرفة حياتها كمخزن للفواكه، أو مستودع. يقارب عرضها الثماني أقدام، أما طولها فيصل إلى عشر أقدام. تتميز هذه الغرفة بأنها معزولة تماماً عن الأصوات، مثلما هو حال مركز مينارد الصغير للتسليية. وتتبعث منها رائحة الرطوبة والتراب الممزوج بالمواد الكيميائية وشيء من المواد العضوية.

بدا الأثاث مزرياً. هناك مصباح قديم موصول بسلك غير معزول، ومرحاض نَقَّال من تلك المرحاض التي تُستخدم في التخبييم. ظهرت أيضاً منصة خشبية غير متقنة الصنع، بالإضافة إلى غطائين ممزقين.

جلست امرأتان على المنصة الخشبية وأحنتا رأسيهما، بينما ألصقتا ظهريهما بألواح البولي يوريثاين. وقد وُضع في رقبتيهما طوقان جليديان شديداً الإحكام، ولا شيء آخر. بدت بشرة المرأتين بيضاء إلى حد يسبب المرارة، كما ظهرت الظلال التي تحدد أضلاعهما وفقرات عظامهما الداكنة، والتموجة. تدلّت جديلة شعر طويلة من خلف رقبة كل منهما.

أطلق شاربونيو شنيمة مليئة بكامل محتويات معجم من الغضب والكراهية. ارتفع رأس امرأة بينهما. ارتسمت إمارات الإنهاك على ذلك الوجه، وبرزت العينان اللتان تشبهان عيني مخلوق وحشي أجفل وسط الظلام. إنها آنيغ بومرليو. بقيت زميلتها ساكنة ومحنية الرأس، بينما لامست ذراعاها، اللتان تكاد العظام تبرز منهما، ركبتيها الهزيلتين.

استدار كلوديل وأسرع مختفياً في القبو الخارجي. سمعت أصوات الأحذية الثقيلة أثناء عبورها الأرض الإسمنتية قبل إسراعها بالنزول على الدرج. قلت بألطف نبرة أقدر عليها: "كل شيء على ما يرام يا آنيغ".

أغمضت بومرليو عينيها بسبب المفاجأة، أما المرأة الأخرى فاحتضنت ساقها بشدة أكبر، وشدتها نحو صدرها.

- "إننا هنا لمساعدتكما".

تقلت نظرة بومرليو ما بين رايان وشاربونيو. أشرت للرجلين بالتراجع، وتقدّمت وحدي إلى الغرفة.

- "إنهما من رجال التحري".

راقبتني بومرليو وبدت عيناها مثل بركتين سوداوين واسعتين.

- "انتهى الأمر الآن يا أنيغ. انتهى الأمر".

تحركت ببطء ومشيت نحو المنصة الخشبية، ثم وضعت يدي على كتف بومرليو. أجفلت المرأة عندما لمستها.

- "إنه عاجز عن إيذاءك بعد الآن يا أنيغ".

جاء صوت بومرليو منخفضاً وخالياً من الحيوية: "اسمي كيو".

خلعت سترتي ووضعتها على كتفي بومرليو. لم تحاول المرأة أن تثبت السترة في مكانها. بدا أن بومرليو تتطرق بالفرنسية، لكنها قالت بلغة إنكليزية مشددة المقاطع: "أنا كيو، أما هي فتدعى دي".

خلع رايان سترته وناولني إياها. تقدّمت بحذر باتجاه دي، ولمست شعرها بلطف. توقعت المرأة أكثر على نفسها وشدت قبضتي يديها.

عطيت تلك المرأة بستره رايان، ثم قرفصت لأصبح على مستواها. قلت بالفرنسية: "لقد مات، ولن يستطيع إيذاءك بعد الآن".

أدارت المرأة رأسها من جهة إلى أخرى كي تتجنب رؤية وجهي وسماع صوتي. لم أضغط عليها أكثر، لأنني أدركت أنه سيتوفّر لي الوقت الكافي للتحدث معها في ما بعد.

قلت بصوت أجش: "سأبقى معك ولن أتركك".

مسدت قدمها، ثم نهضت وتراجعت.

بقي شاربونيو في الغرفة بينما تراجعت إلى القبو الخارجي، وتبعني رايان. لم أستطع الوثوق بعواطفني التي تخونني في بعض الأحيان. إنها الحقيقة! شعرت أن عقلي مشلول نتيجة الصدمة والألم للذين عانت منهما هاتان المرأتان. شعرت بتوتر شديد في أحشائي بسبب كراهيتي لذلك الوحش الذي تسبّب بكل هذه الآلام لهاتين المرأتين.

سألني رايان: "هل أنت بخير؟"

خفت من شرّ قادم، وشعرت أنني منهارة. شرعت بقول كذبة بأهدأ صوت أقدر

عليه: "نعم".

كُنْتُ نِراعيّ كي أستطيع إخفاء الارتجاف الذي اجتاحت صدري، وانتظرت. سمعت من البعيد، وبعد مدة بدت دهرأ، أصوات صفارات سيارات الشرطة والإسعاف، وهي تكسر الصمت المخيم. وما لبثت أن فرضت أصواتها المدوية على المكان. سمعت أصوات الأحذية الثقيلة في الطابق العلوي قبل نزول الرجال على الدرج.

ارتعبت بومرليو عندما شاهدت رجال الإسعاف. قفزت قفزاً مندفعة نحو المرحاض. حشرت نفسها في الزاوية، وأبقت ذراعها ممدودتين أمامها. لم تغلح جهود رجال الإسعاف، ولا جهودي أنا، في تهدئتها. ازدادت مقاومتها لنا مع بلذنا لجهود أكبر لطمأنتها. اضطررنا في النهاية لاستخدام القوة.

بقيت المرأة الأخرى على وضعها الجنيني، حتى عندما وُضعت في الحاملة، وغُطيت، قبل إخراجها من الغرفة.

رافقت سيارة الإسعاف مع رايان حتى وصولها إلى مستشفى مونتريال العام، أما كلوديل وشاربونيو فقد بقيا لاستقبال لمانش وعربة المحقق الجنائي، وكذلك للإشراف على تقنيي التحقيقات القضائية أثناء عملهم في المنزل. أشعل رايان سيجارة أثناء قيادته السيارة، بينما انشغلت بمشاهدة مناظر المدينة التي تمرّ أمامي من خلال زجاج نافذة السيارة.

في صالة الانتظار في قسم الطوارئ، راح رايان يذرع المكان جيئةً وذهاباً، بينما اكتفيت أنا بالجلوس. انتشرت حولنا أصوات السعال الناتجة عن الالتهابات الشعبية، والعيول الناتج عن المغص، ونحيب المنهكين، بالإضافة إلى الأحاديث القلقة. انصرف الدكتور فيل إلى توبيخ زوجين بقيا من دون ممارسة الجنس لسنوات طويلة. كان رايان يجلس بقربي بين حين وآخر، فنتبادل أثناء ذلك بعض التعليقات الهامسة.

- "هاتان المرأتان لا تعرفان شيئاً حتى اسميهما".

- "قد تكونان خائفتين من استخدامهما".

- "يبدو أنهما جائعتين".

- "نعم".

- "يبدو دي بحالة أسوأ من الأخرى".

- "أعتقد أنها الأصغر سنًا".

- "لم أرَ وجهها على الإطلاق".

- "يا للسافل!"

- "إنه سافل حقًا".

بدأ جهاز هاتف رايان بالاهتزاز بعد مرور ساعة على وجودنا في المستشفى. هبّ رايان خارجاً من الغرفة، لكنه عاد بعد دقائق قليلة.

- "كان كلوديل هو المتصل. قال إن ذلك السافل قد صورَ أشرطة فيديو بيتية".
أوماتُ وأنا في حالة من تبدّل الإحساس.

- "عليّ أن أتصل بشاربونيو عندما يغادر هذا المكان".

دخلتُ من خلال الأبواب المنزلفة امرأة ذات شعر أجدد، وذلك بعد مرور عشرين دقيقة، وتوجّهت إلى قسم الطوارئ. ارتدت هذه المرأة معطف مختبر أبيض اللون، وحملت بيديها لوحتي كتابة، بالإضافة إلى أحد الأكياس البلاستيكية التي تُستخدم لحفظ ممتلكات المرضى.

هبت امرأة بدينة سوداء، ذات ثديين ضخمين، تحمل طفلاً حديث الولادة وهو يبكي بين يديها، واقفة على قدميها عند دخول الطبيبة. أشارت الطبيبة لتلك الأم بالرجوع إلى مقعدها بعد أن تطلّعت بالرضيع، ثم تلفّظت بكلمات قليلة. حملت المرأة طفلها على كتفها، راحت تربيّت على ظهره.

أشارت لنا الطبيبة بالدخول وسط مظاهر المعاناة البشرية. تبعتنا عشرات العيون، وبدأ بعضها مرتعباً، فيما كان بعضها الآخر غاضباً، لكنها كانت كلها مليئة بالتوتر.

واجهت الطبيبة عائقاً جديداً تمثّل هذه المرة برجل قوي البنية، يده ملفوفة بمنشفة. طمأنت الطبيبة الرجل كما فعلت مع المرأة سابقاً.

نهضتُ، وكذلك فعل رايان. بدت الطبيبة متعبة، وبدت عيناها محتقنتين بالدم:
"أنا الطبيبة فيلدمان، وأنا أعالج المرأتين اللتين أدخلتا قبل وقت قصير".

أجرى رايان التعريفات المناسبة.

- "الأكبر سنًا..."

قاطعتها: "تدعى أنيغ بومرليو".

كتبت الطبيبة فيلدمان ملاحظة في أعلى سجلها، وقالت: "تعاني الأنسة بومرليو

من جروح بسيطة، وهي تبدو بحالٍ جيدةٍ عدا ذلك. تبدو رنتاها بحالة جيدة، أما صور الأشعة السينية العائدة لها فهي طبيعية. إنني أنتظر فقط نتائج فحوصات الدم. أعتزم أن أخضعها للاختبارات المسحية عندما يأتي دورها، وذلك للمزيد من الاطمئنان".

سألت: "هل بدأت بالكلام؟"

قالت باقتضاب: "لا. يتعين عليّ فحص المثات الذين ينتظرون في الخارج".

سأل رايان: "هل وجدت عندها علامات على اعتداءات جنسية؟"

- "لا، لكن الحال غير ذلك عند الفتاة الأصغر".

قلت متدخلةً: "الفتاة الأصغر؟"

وضعت فيلدمان الورقة التي كانت في الأسفل فوق ورقة بومرليو: "هل لديك

اسماً لها؟"

اكتفيت أنا ورايان بهزّ رأسينا، فعادت تقول: "أستطيع القول إن الصغرى تبلغ الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة، من عمرها. يُحتمل أن أكون قد قلّلت في تقدير عمرها مع أنها نحيلة. استخدم أحدهم هذه الفتاة لتكون كيس تمرين للملاكمة لمدة طويلة جداً".

شعرت بالحرارة الشديدة تجتاح دماغي، فيما قلبت فيلدمان الورقة، وبدأت تقرأ من ملاحظاتها: "هناك جروح قديمة وجديدة. تعاني الفتاة من كسور لم تشف تماماً في عظام زندها الأيسر، بالإضافة إلى كسور في عدة أضلاع. توجد ندوب حول أماكنها الحساسة، وحروق في ثدييها وأطرافها، نتجت عن نوع من..."

حاولت الحفاظ على الهدوء في صوتي، وعلى الاتزان في وجهي عندما قاطعتها:

"مكواة للتجعيد؟"

أعادت الدكتورة الصفحات إلى مكانها في اللوحة: "هذا ممكن".

سألت: "هل حالتها الذهنية سليمة؟"

نقلت الطبية نظرها ما بين رايان وبينني وأجابت: "إنها تعاني نوعاً من الانفصام في الشخصية، كما أنها ليست سريعة الاستجابة. تعلمون أنني لست طبيبة نفسية، لكن هذه الفتاة ليست في حالة ذهنية سليمة مطلقاً".

سأل رايان: "أين هما الآن؟"

- "إنهما في الطريق إلى الطابق العلوي".

ظهر ممرض من خلال الأبواب المنزلفة. لوح الرجل بجدولٍ ما إن شاهد

الطبيبة فيلدمان، فلوّحت باتجاهه بدورها.

سأل رايان: "متى يصبح بإمكاننا التحدث معهما؟"

رفع الممرض يديه الاثنتين، فأشارت له كي ينتظر: "لست متأكّدة بعد. ماذا بشأن إجراءات الأمان؟ أَيْحتمل أن يأتي والد مهووس، أو زوج سابق، ليقترح المكان مطالباً باستعادة ممتلكاته؟"

- "أقدم المهووس في قضيتنا هذه على تفجير رأسه".

- "يا للأسف".

أعطيت بطاقتي لفيلدمان، وكذلك فعل رايان. وضعت الطبيبة البطاقتين في جيبها، ثم رفعت الكيس وقالت: "سأتصل بكما. إليكما أغراضهما".

استطعت أن ألاحظ قطعتين معدنيتين تبرزان من خلال كيس البلاستيك.

التقيت أنا ورايان بشاربونيو في محل يبيع الأطعمة المعلّبة يدعى شوارتز، يقع في جادة سان لوران. شعرت أنني فاقدة الشهية، لكن رايان أصرّ على أن نتناولنا للطعام سيشخذ أذهاننا.

قدّمتنا ثلاث طلبات متماثلة هي عبارة عن شطائر اللحم المدخّن، ولحم يحتوي على القليل من الدهن، وكذلك بعض المخللات، والمقالي، وصودا الكرز من نوع كوت. تبادلنا آخر المعلومات المستجدة أثناء تناولنا الطعام.

- "رفع الدكتور لامانش البصمات من جثة الرجل الذي نعرف أنه ليس مينارد. تبين أنها نفس البصمات التي رُفعت من فتّاحة الرسائل. ويقوم لوك الآن بالاتصال ببلاد الفواكه والمكسرات".

سأل رايان: "منذ متى أرسلت البصمات إلى النظام المعلوماتي في كاليفورنيا؟"

تناول شاربونيو قضمَةً من شطيرته، ثم مسح بعض الخردل من زاوية فمه: "أرسلت يوم الجمعة الفائت، وإذا أصبنا شيئاً من النتائج التي ستظهر في كاليفورنيا فسوف يقوم لوك ببيت البصمات في كامل أنحاء كندا، وبقية أنحاء الولايات المتحدة".

أبلغ رايان شاربونيو بما اكتشفته فيلدمان. تناول شاربونيو قطعة من المخللات وقال: "أعتقد أن هذا الرجل كان سادياً معتوهاً، لقد التقط هذا الرجل صوراً لأوقاته المرحّة لإبقاء الإثارة في مخيلته".

انتهى شاربونيو من تناول قطعة المخلّل، ثم رفع رأسه وشرب الصودا الباقية في الكوب: "تبدو اللقطات في دفاتره نوعاً من نماذج أخذت من مجموعة صور إباحية.

حاول ذلك السافل المريض أن يجدد حياته وينعشها عن طريق فنّه".
لاحظت أن صوتي جاء غريباً عني حين قلت: "هل وجدتم صوراً عائدة للفتاة دي؟"
أوماً بشدة: "لقطة مباشرة وجيدة واحدة للوجه. عمّ لوك هذه الصورة في كندا، وكذلك فعل وراء الحدود الجنوبية".
سأل رايان: "أين وجدتم شرائط الفيديو المنزلي؟"
- "وجدناها مع الأشرطة الإباحية".
- "هل هي معك الآن؟"
أوماً شاربونييو.
- "هل هي في مكتبك أم في مكتبنا؟"
لفّ شاربونييو منديله الورقي وقذفه نحو صحنه: "تعطلّ جهاز الفيديو العائد لوحدتنا مرة ثانية".

قلت: "يوجد جهاز فيديو في غرفة الاجتماعات عندنا".
تناول رايان الفاتورة: "هيا بنا".
أرجع شاربونييو كرسيه إلى الخلف: "هيا لنمرح قليلاً".
بقيت شطيرتي فوق صحنى دون أن تمسّ.

اكتشفت أن الأمر أسوأ مما تخيلت. شاهدت فتيات معلقات من أذرعهن. رُبطت الفتيات بالكامل ابتداءً من معاصمهن حتى كواحلهن. رأيتهن في وضع النسر الذي يفرد جناحيه، ولاحظت أنهن مستسلمات، بينما بقيت رؤوسهن مغطاة على الدوام.
شاهدنا بصمت، أنا ورايان وشاربونييو. سمعنا شاربونييو يتحنح ويحرك قدميه، ويغيّر من أوضاع يديه بين حين وآخر. كان رايان يهمّ بإشعال سيجارة بين حين وآخر، ثم يتذكّر أنه من غير المسموح له بالتدخين، فكان يكتفي بالطرق على الطاولة.
ظهر اهتزاز في بعض أجزاء الأشرطة، وكأنها التقطت بكاميرا محمولة باليد، بينما كانت لقطات أخرى ثابتة، ولعلها التقطت من كاميرا مثبتة على حامل خشبي ثلاثي القوائم، أو من موقع ثابت آخر.
أعطيت الأشرطة أرقاماً من الواحد حتى الستة. دخل كلوديل عندما كدنا ننتهي من مشاهدة معظم الفيلم الأول، فالتفتت ثلاثة رؤوس نحوه.

بدا وجه كلوديل وكأنه مطلي بالكلس: "تاووني ماك جي".
ضغطت على زر الإيقاف المؤقت في الجهاز، وسألت: "أتعني دي؟"
لمحت إيماءة مقتضبة منه: "أبلغ والداها أنها فُقدت في العام تسعة وتسعين".
سأل رايان: "أين؟"

- "مانيوافي".

دفع كلوديل بورقة فاكس على الطاولة. نظر شاربونيو إليها لبعض الوقت ثم ناولها لرايان، الذي ناولني إياها بدوره.

شعرت بوخز في رأسي. نظرت إلى وجه طفلة مستديرة الخدين، ذات شعرٍ ملفوفٍ على شكل جدائل، وعينين متلهفتين، وفضوليتين، كأنهما تبحثان دوماً عن شيء ما.

آه! لكانت أُمي تسمِّي مثل هذه الطفلة شخصاً فذاً، مثلما سمّنتي أنا، ومثلما سمّيتُ أنا كاتي.

تفحصت المواصفات. اختفت تاووني ماك جي عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها. بلعت ريقِي وقلت: "هل أنت متأكد من أنها دي؟"

دفع كلوديل ورقة فاكس ثانية عبر الطاولة. تناولتها، فوجدت عليها الاستعلام الذي وزّعه. رأيت صورة وجه هو نسخة من تلك التي رأيتها لتوي. بدت لفتاة أكبر سناً، وأنحف، مع تعابير توحى بفقدان الأمل.

لا.. هذا الوصف ليس صحيحاً. لم يحمل وجه تاووني ماك جي أي تعبير على الإطلاق. بدا صوتي ممتزجاً بغضبٍ شديد عندما سألته: "هل حصلتم على معلومات بشأن ذلك السافل الذي عذبها؟"

- "إنني أعمل بهذا الشأن".

- "هل اتّصلت بعائلة ماك جي؟"

- "يهتمّ مركز شرطة مانيوافي بهذا الأمر".

تصاعدت طبقتي الصوتية مع كل سؤال أطرحة: "أين ستيفن مينارد بحق الجحيم؟ هل مينارد متورط بهذا؟ هل يُحتمل أن يكون مينارد وهذا الرجل قد شكّلا معاً فريقاً للمصارعة؟ هل وجد فريق التحقيقات القضائية بصمات أخرى في المنزل؟"

مال كلوديل برأسه إلى الخلف، وأرسل نظرة على مستوى أنفه. هبّ شاربونيو واقفاً: "أنا سأتابع قضية مينارد".

ضغطت على زر تشغيل جهاز الفيديو عند انصرافهما، وجهدت للمحافظة على اتزاني. مرّت عشرون دقيقة على بداية مشاهدتنا للشريط الثاني، ثم رنّ جهاز الهاتف. قال عامل الهاتف إن الطبيبة فيلدمان تريد التحدث معنا. تلفّظت بالاسم لرايان أثناء انتظاري بدء المكالمة.

- "دكتورة برينان".

- "بيني فيلدمان من مستشفى مونتريال العام".

- "كيف حالهما؟"

- "استيقظت الفتاة بحالة هستيرية. لم تسمح لأي شخص بلمسها، وهي تقول إن شخصاً ما يعتزم قتلها".

- "هل تتكلم الإنكليزية أم الفرنسية؟"

- "تكلمت بالإنكليزية، وظلّت تسأل عن المرأة التي كانت في المنزل".

- "هل سألت عن أنيغ بومرليو؟"

- "لا. إن بومرليو موجودة على السرير المجاور. أعتقد أنها تسأل عنك. إنها تسأل أحياناً عن المرأة التي ترافق رجل شرطة. وتساءل في أحيان أخرى عن المرأة التي ترتدي سترة. لا أحب أن أخذرها قبل أن يراها طبيب نفسي..."

- "أنا آتية على الفور".

- "سأنتظر قبل إجراء التخدير".

- "عرفنا اسمها على أية حال. تدعى تاوني ماك جي، ويعرف والداها بأمر العثور عليها".

أثناء ذهابنا استخدم رايان الإشارات الضوئية وصفارة الإنذار. وصلنا إلى المستشفى في غضون اثنتي عشرة دقيقة. وجدنا الطبيبة فيلدمان في قسم الطوارئ؛ صعدنا معاً إلى الطابق الرابع. ألقيت نظرة على الغرفة من خلال بابها المفتوح قبل دخولها. بدالي أن ضحايا مينارد قد تبادلنا الأدوار.

استلقت أنيغ بومرليو على سريرها، فيما جلست تاوني ماك جي منتصبية الظهر. بدا وجهها متورداً ورطباً، ونظراتها غير مستقرة. فتحت تاوني أصابعها وأطبقتها على الغطاء المحشور تحت ذقنها. دخلت إلى الغرفة بينما ظل رايان وفيلدمان ينتظران في القاعة.

- "صباح الخير أنيغ".

أدارت بومرليو وجهها، وبدت نظراتها فاترة بينما ماتت كل مشاعرهما فأصبحت
مثل قطعة خشبية متحجرة. أحنّت ماك جي رأسها. انحسر رداؤها عنها، فأنكشف
كتفها الذي يخلو من العضلات تقريباً.

- "كل شيء على ما يرام يا تاوني. ستتحسن الأمور قريباً".

اقتربت من سريرها، فرفعت ماك جي رأسها إلى الخلف. برزت الغضاريف
مثل الأشواك من حنجرتها البيضاء اللون بشكل مرعب.

- "ستكونين بخير".

فتحت ماك جي فمها الذي انطلقت تنهيدة منه، فتحرّكت تلك الأشواك بطريقة
غريبة. تقدّمت لأعيد وضع رداؤها على كتفها: "أنا هنا".

انحنى رأس ماك جي على نحو سريع، وتمسكت أصابعها بالغطاء بشدة أكبر.
لاحظت أن أظافرها قد امتلأت بذرات التراب.

- "لا يستطيع أحد أن يؤذيك الآن".

التفت الرأس، الذي يشبه رأس لعبة مكسورة، نحو بومرليو. اكتفت بومرليو
بمراقبتنا بعينين غير مكترثتين كالزجاج. عادت ماك جي للنظر باتجاهي، وأبعدت
الغطاء عنها، ثم بدأت بتمزيق أنبوب المصل الملصق في يديها.

- "يجب أن أخرج من هنا!"

وضعت يدي فوق يديها: "أنت بأمان هنا".

جمدت ماك جي في مكانها، فقلت محاولةً تهدئتها: "سيساعدك الأطباء".

- "لا! لا!"

- "ستكونين أنت وأنيج بخير".

- "خذي معك!"

- "لا أستطيع أن أفعل ذلك يا تاوني".

حرّرت ماك جي يدها ثم تمسكت بالشريط محاولةً انتزاعه. غدت أنفاسها
متقطعة، وانهمرت الدموع على خديها.

أمسكت بمعصمها، فحاولت أن تفلت من يدي وقاومتي. لاحظت بأسها الممتزج
مع قوتها التي فاجأتني كثيراً. سرعان ما هرعت فيلدمان إلى الغرفة، وتبعتها
مرمضة. أمسكت ماك جي بذراعي، وتوسّلت إليّ بعينين واسعتين: "خذي معك!"

خذي معك!"

أومات فيلدمان، فأعطتها الممرضة حقنةً.

- "أرجوك! أرجوك! خذيني معك!"

رفعت فيلدمان أصابع مارك جي عن ذراعي بلطف وأبعدتني عن السرير.

تراجعت وأنا أرتجف. ماذا أستطيع أن أفعل؟

شعرت بالعجز وعدم القدرة على فعل أي شيء نافع لها. تناولت بطاقة من

حقيبتَي الصغيرة، ودوّنت رقم هاتفَي الخليوي، ثم وضعت البطاقة على الطاولة

المجاورة للسرير.

وقفت عدة لحظات في الرواق. أحسست بتوتر في فكيّ ويديّ، وأصغيت إلى

توسلات مارك جي أثناء استسلامها لمفعول المخدر.

تمنّيت في ما بعد، وعندما كنت أتذكّر تلك اللحظة، تمنّيت من الله لو أنني لبّيت

طلب تاوني. تمنّيت من الله لو أنني أصغيت وفهمت ما تقوله تلك الفتاة.

الفصل 33

عانيت من ليلة أرقٍ أخرى، استيقظت فيها مرة بعد مرة، وكنت في كل مرة أحاول أن أتذكر بصعوبة ما بقي من أحلامي.

رن جرس المنبه. تأوّهت ونظرت بعينين نصف مغمضتين نحو أرقام الساعة التي أشارت إلى الخامسة والرابع. لماذا ضبطت المنبه على الساعة الخامسة والرابع؟ ضغطت على الزر براحة يدي، لكن الموسيقى استمرت. بدأت أسترجع وعيي ببطء.

إنني لم أضبط المنبه. وما سمعته لم يكن صوت المنبه.

أقيت للحاف بعيداً عني، وهرعت لأتناول حقيبة يدي. راحت يدي تبحث فيها: تفحصت نظارتي الشمسيّتين، ومحفظتي الصغيرة، ومساحيق التجميل، ودفتر شيكاتي، ومفكرتي.

- "اللعة!"

شعرت بالإحباط، فقلبت محتوياتها على السرير وأمسكت هاتفي الخليوي من كومة الأغراض.

توقفت الموسيقى. أعلمتني الشاشة الرقمية أنني لم أرد على مكالمة واحدة. من هو الشخص الذي يتصل بي عند الساعة الخامسة صباحاً؟ هل هي كاتي؟ تسارعت نبضات قلبي. ضغطت على زر لائحة الأرقام، فظهر رقم هاتف آن الخليوي. يا إلهي!

ضغطت زر الخيارات، ثم زر أرسل.

- "إننا آسفون. إن الطرف الذي تتصلون به لا يستطيع..."

إنها نفس الرسالة التي أتلقاها منذ يوم الجمعة. ضغطت على زر الإيقاف ورجعت إلى اللوحة الرئيسية. ظهر تاريخ اليوم، وأشارت أرقام الساعة إلى 5:14:44 صباحاً.

أنتت المكالمة من هاتف أن الخليوي، لكن هاتفها لم يكن في حالة تشغيل. ماذا يعني كل هذا؟ هل أتصلت أن بي، ثم أقلت هاتفها؟ هل فرغت بطارية هاتفها؟ هل ابتعدت أن عن مجال الاتصالات؟

تنقلت مجدداً بين الخيارات، ثم اخترت أرسل رسالة، طبعت كلمتي أتصلي بي، ونقرت على زر أرسل. نقرت رقماً آخر. أجبني طوم بعد الدقة الرابعة، لكن صوته بدا مترنحاً. قال لي إن أن ليست في المنزل، وإنه لم يسمع أي شيء منها، وكذلك الحال مع الأصدقاء الذين أتصل بهم.

رميت الهاتف على وسادتي. اعتدت ليلاً أن أضع الهاتف على الطاولة الموجودة قرب سريرتي، لكن التوتّر الذي عانيت منه نتيجة الأحداث تسبّب في كسر هذا الروتين. لقد تركت ذلك الجهاز اللعين في محفظتي. إن غلطة واحدة تجعلك تدفع ثمنها غالياً.

استبعدت العودة للنوم من حساباتي. استحممت، وأطعمت بيردي، ثم غادرت باتجاه المختبر.

دخل رايان إلى مكنتي بعد الثامنة بقليل.

- "فاز كلوديل في مراهنته".

نظرت إلى الأعلى، فتابع يقول: "تبيّن أن البصمات التي أخذت من ستيفن مينارد المزيف تعود لشخص تافه يدعى نيل ويسلي كاتس".

- "ومن يكون هذا الشخص؟"

- "إنه متشرد ومجرم. صدم هذا الرجل شخصاً متجولاً ذات يوم، وهذا يفسّر وجود بصماته في النظام. أرسل لنا مركز كاليفورنيا سجله هذا بالفاكس".

- "هل يتابع كلوديل الموضوع؟"

- "إنه مصمم على معرفة كل مرحاض لمسّه هذا المتسكع".

أشرت بقلم الرصاص إلى لائحة الأشخاص المفقودين التي أعدها كلوديل: "ألقي نظرة على هذه".

استدار رايان إلى ذلك الجانب من الطاولة القريب مني.

- "أشرت على الأسماء المحتملة".

تفحص رايان الأسماء التي دققت بها. شكّلت هذه الأسماء معظم القائمة.

- "استبعدت من هنّ من غير البيض".

- "واستبعدت المتقدّمات في السن، أو الطويلات جداً، عند اختطافهن".
نظر إليّ رايان.

وجّهت يدي نحو الهياكل العظمية الموجودة في مختبري: "أعرف. لا أستطيع
تحديد مجال المجموعة كثيراً من دون تحديد الحدود الدنيا للعمر والطول. يُحتمل أن
تكون الفتيات قد أمضين سنوات في الأسر قبل وفاتهن".

حدث هذا مع أنجيلا روبنسون، وأنيج بومرليو، وتاوني ماك جي.
- "استخرجت عيّنات من "أنجي روبنسون" لإجراء اختبار الحمض النووي
عليها".

- "هل هي الفتاة الملفوفة في الكفن الجلدي؟"

أومأت قائلة: "أنا متأكّدة أنها هي ذاتها".

- "أعتقد أنك مصيبة في هذا".

- "يحاول مكتب المحقق الجنائي الاتصال بعائلة روبنسون. سنحتاج إلى أحد
أقاربها من جهة أمها لإجراء مقارنات الميتوكوندريا".

استرخيت في مقعدي قبل أن أقول: "اتّصلت آن بي هذا الصباح".

انفرجت ملامح رايان عن ابتسامة واسعة: "عظيم!"

- "لا. ليس الأمر كذلك".

تلاشت ابتسامته عندما شرحت له ما حدث.

- "اتّصلت بشركات سيارات الأجرة. إنهم يراجعون سجلاتهم ليتحقّقوا ما إذا
كانت إحدى سياراتهم قد توجّهت إلى مكان سكنك يوم الجمعة. أتريدون أن أتّصل
بوكالات تأجير السيارات أيضاً؟"

قلتُ: "أعتقد أن الوقت قد حان".

- "مرّت أربعة أيام فقط".

- "نعم".

تردّد رايان عندما بدأ يقول: "إذا... حدث لها أي شيء سنكون أول من يعرف".

- "نعم".

انطلق هاتف رايان الخليوي بالرنين. تفحصت الشاشة وعبس، ثم وجّهت نحو
إحدى أكثر ابتساماته صبيانية.

- "آسف..."

- "أعرف. يتعين عليّ أن أتقبل الأمر".
- أسرع رايمان بالخروج، وما لبث هاتف مكتبي أن انطلق بالرنين. أتى أمين المكتبة حاملاً معه صحفاً ومجلات تتعلق بموضوع السادية الجنسية، ومتلازمة ستوكهولم التي كنت قد طلبتها منه.
- وصل كلوديل وكنت قد بدأت بقراءة مقالة في مجلة العلوم الشرعية.
- "يدعى الرجل القتيل نيل ويسلي كاتس".
- أشرت له بالجلوس على كرسي قبالة طاولتي، وقلت له بالفرنسية: "اجلس من فضلك".
- زَمَ كلوديل زاويتي فمه وجلس.
- "وُلِدَ كاتس في ستوكتون، كاليفورنيا، في العام 1963. إنها نفس القصة المثيرة للشفقة، منزل متفسخ، ووالدة كحولية".
- راح كلوديل يتكلم بالإنكليزية. ماذا يعني ذلك يا ترى؟
- "ترك كاتس مدرسته الثانوية في العام تسعة وسبعين، والتحق بعصابة لصوص لمدة من الزمن. أمضى مدة من الزمن في سجن سوليداد بتهمة تتعلق بالمخدرات".
- "هل التحق بوظائف معينة؟"
- "بقي مدة يقبب شطائر اللحم المقلي، وعمل في حانة، كما عمل في مصنع لإطارات النوافذ. وأحمل لك نبأ ساراً ستحبه. أحبّ ذلك المنحرف الصغير الاهتمام بالأشياء النادرة الممنوعة".
- أصغيت من دون مقاطعة، فتابع كلوديل: "خضع كاتس لعدة مساءلات بتهم تلصص".
- "لا يفاجئني هذا".
- "لم يجد رجال الشرطة ما يكفي من الدلائل لتجريمه".
- "إن التلصص هو خطوة أولى معتادة بالنسبة للمتوحشين الجنسيين".
- "اتهمته خادمة مسنة بقتل كلبها. لم تجد الشرطة مجدداً أي برهان، ولذلك لم توجه التهم إليه".
- "أين حدث هذا؟"
- "حدث ذلك في يوبا سيتي، في كاليفورنيا".

- صدمني الاسم مثل طعنة في صدري.
- "تقع يوبا سيتي إلى الجنوب من طريق شيكو".
- ارتسم شيء يشبه الابتسامة على شفّتي كلوديل: "ورد بلوف".
- "متى كان كاتس هناك؟"
- "تواجد هناك في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. اختفى الرجل عن الأنظار في أواسط الثمانينيات".
- "ألا يُفترض به مراجعة الضابط المسؤول عن إطلاق سراحه المشروط، أو ما يشبه ذلك".
- "أصبح حراً بالنسبة للولاية في العام أربعة وثمانين".
- غادر كلوديل ليبحث عن لامانش، أما أنا فعدت إلى قراءاتي. عرّج عليّ الرئيس أثناء جولتي الثانية على المواد التي أحضرها لي أمين المكتبة.
- "هل كان يوم أمس يوماً حافلاً يا تمبراناس؟"
- "كان أشبه بالكرنفال. هل تحدّثتَ مع كلوديل؟"
- "أعطيته لتوي معلومات أولية عن كاتس".
- "هل من مفاجآت؟"
- زَمّ لامانش شفّتيه وحرك أصابعه. قصد من إشارته هذه: ربما نعم، وربما لا.
- "ماذا؟"
- "لم أجد أي أثر للبارود في يديه".
- "ألم تكن يدها منتفختين؟"
- "هذا ما حصل".
- "ألا يُفترض أن يتواجد البارود في حالة إطلاقه للنار؟"
- "نعم".
- "وكيف نفسّر عدم وجود أثر للبارود؟"
- رفع لامانش كتفاً وحاجبين.
- زاد شاربونيو من لائحة الأشخاص الذين زاروني صباحاً. قال من دون مقدمات:
- "عرف مينارد وكاتس بعضهما بعضاً".
- "أحقاً؟"
- "استطعت الوصول إلى أحد أساتذة مينارد السابقين في جامعة كاليفورنيا -

شيكو. ما زال الرجل يدرّس منذ أن قام ترومان بإعادة تجديد البيت الأبيض وزخرفته، لكن ذاكرته ممتازة. أوصلني إلى واحدة من أقدم صديقات مينارد. إنها امرأة تدعى كارلا غرينبرغ".

لم أستطع تتكّر هذا الاسم.

- "تعمل غرينبرغ من ضمن هيئة التدريس التابعة لكلية صغيرة في بنسلفانيا. قالت إنها واعدت مينارد أثناء دراستهما في السنة الأولى في معهد للدراسات العليا، وذلك قبل أن تغادر إلى بيليز. لم يتوظّف مينارد في موقع التدقيق، أو في أي مشروع آخر، وهكذا بقي في شيكو ذلك الصيف. عادت غرينبرغ لتجد أن مينارد يمضي معظم وقته مع شاب يسكن في يوبا سيتي".

- "كاتس؟"

- "إنه رجلنا الذي نبحث عنه".

- "وكيف ارتبط كاتس مع مينارد؟"

- "إنهما يشبهان بعضهما بعضاً".

- "أيعقل ذلك؟"

رفع شاربونيو يده: "أنا لا ألق هذه القصة يا دكتورة. تقول غرينبرغ إن كثيرين واطبوا على التحدث أمام مينارد عن مسترهن يعمل في يوبا سيتي يشبهه تماماً. اعتاد الطلاب التردد على متجر ذلك الرجل لأنه ليس متشدداً جداً بالنسبة للقوانين المتعلقة بالآثار القديمة. أعتقد أنك فهمت قصدي".

- "وماذا بعد؟"

- "ذهب مينارد ليستطلع الأمر ثم أصبح الرجلان صديقين حميمين، أو على الأقل هذه هي قصة مينارد بحسب غرينبرغ".

- "تبدو لي هذه القصة غير معقولة".

- "أرسلت لي غرينبرغ هذه المعلومات بالبريد الإلكتروني".

أعطاني شاربونيو صورة ملونة مطبوعة على ورقة كمبيوتر. أظهرت الصورة، التي أخذت في رصيف بحري، ثلاثة أشخاص يقفون وأذرعهم متلاصقة ببعضها.

وقفت المرأة في الوسط، وقد بدت في الصورة عضلاتها، وشعرها البني المسترسل، وعيناها الواسعتان. بدا الرجلان اللذان أحاطا بها مثل مسند بالنسبة إليها. ظهر الرجلان طويلين ونحيلين، وظهر في الصورة شعرهما الأحمر والأشعث،

بالإضافة إلى النمش الذي يملأ وجهيهما.

- "غير معقول!"

- "تقول غرينبرغ إن ميتارد بدأ يمضي أوقاتاً أقل في شيكو، إلى أن ترك برنامج دراسته أخيراً. وتضيف المرأة أنها انشغلت بتحضير أطروحتها ذلك الخريف إلى درجة أنها لم تفكر به كثيراً".

- "ألم تجد أحداً في يوبا سيتي يتذكر كاتس؟"

- "وجدت زوجين مسنين. إنهما ما زالوا يعيشان في نفس القاطرة المجاورة لتلك التي استأجرها كاتس".

دعني أحمّن: "كان شاباً وسيم الطلعة، وهادئاً، ويجب أن ينفرد بنفسه".

- "أصبّت".

استعاد شاربونيوي مني صورة غرينبرغ وتفحصها مثلما ينظر المرء إلى قذارة في مرجة خضراء.

- "أعستزم أنا ولوك التجول في فيرمونت، لنعرض الصورة على الناس، فربما استطاع أحدهم استرجاع بعض الذكريات منها".

سارعت إلى الاتصال بهاتف آن الخليوي بعد مغادرة شاربونيوي، فتلقّيت ذات الإجابة: "أسفون. إن الجهة...".

حاولت أن أتابع العمل في المجلات والصحف التي أحضرها لي أمين المكتبة، ومنها المجلة البريطانية للطب النفسي، وعلوم السلوكيات والقانون، والطب والقانون، ونشرة الأكاديمية الأميركية للعلوم والقانون. لم أستفد شيئاً من قراءاتي، وبقي ذهني شاردًا. اتّصلت بأن مجدداً. لكن هاتفها ما يزال مغلقاً.

اتّصلت بطوم، فقال إنه لم يتلقَ أي شيء من زوجته. اتّصلت أيضاً بأشقاء آن الذين يعيشون في منطقة الميسيسيبي. قالوا إن آن ليست عندهم، ولم تتصل بهم. أجبرت نفسي على العودة إلى كدسة مجلاتي.

ركّزت إحدى المقالات على ليونارد لايك، وتشارلز أن جي، وهما النابغتان اللذان شيّدا مستودعات تحت الأرض من أجل تجميع فتيات كن بمثابة عيدات جنسيات لهما.

جادل محامو أن جي أن موكلهم كان متفرجاً لا أكثر، أي أنه كان شخصية معتمدة على غيره ينتظر من يقوده. وقال محامي الدفاع إن زوجة لايك السابقة هي

الطرف المؤثر فعلاً.

إنك يا تشارلي كنت ضحية، تماماً مثلما كانت كارلا هومولكا الصغيرة. في العام 1991، وُجِدت ليزلي ماهافي التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها، مقطعة الأوصال ومدفونة في الإسمنت في بحيرة تقع في أونتااريو. ظهرت في السنة التالية كريستين فرنش، والتي كانت في الخامسة عشرة من عمرها، عارية ومدفونة في حفرة. تعرّضت الفتاتان للتعذيب والاعتصاب والقتل.

قُبض على بول برناردو وزوجته كارلا هومولكا، بعد ذلك. أطلقت الصحافة على ذلك الشاب وزوجته الشقراء الجميلة اسم القاتلين كين وباربي.

سُمح لهومولكا أن تعترف بأنها مذنبه بتهمة القتل غير المتعمد، وذلك مقابل تقديم شهادتها ضد زوجها السابق. أُدين برناردو بتهمة القتل المتعمد، وبالقيام باعتداءات جنسية متتالية، والاحتجاز عن طريق القوة، والاختطاف، وإيقاع الإهانة بالجسد البشري.

أقدمت عائلة برناردو على تصوير حفلاتها الماجنة، تماماً مثلما فعل لايك وأن جي. بيّنت الشرائط أخيراً لقطات أبرزت العريس والعروس يقومون بالتعذيب والجريمة بنفس الحماسة، لكن كارلا أقدمت على اقتطاع المشاهد التي تظهرها.

رنّ هاتفني في الوقت الذي كنت أوشك فيه على الانتقال إلى المقالة التالية. بدا رايان وكأنه يتكلم من أورانوس: "اختفتا".

- "من الذي اختفى؟"

- "أنبيغ بومرليو وتاوني ماك جي".

الفصل 34

- "كيف أمكنهما المغادرة؟"
- "أنت الممرضة النهارية لتفقدهما، فوجدت السريرين خاليين."
- "ألم يكن هناك من حارس؟"
- "أبلغنا فيلدمان أن الحراسة ليست ضرورية."
- "هل سمح لهما المستشفى بالمغادرة؟"
- "لا".
- "هل كانتا لوحدهما؟"
- "لم يرها أحد وهما تغادران."
- بدا صوتي عالياً جداً: "هل استقبلتا زواراً، مثل أحد أفراد عائلتيهما؟"
- "إننا ما زلنا نبحث عن أقرباء بومرليو. وعلمنا أن شقيقة ماك جي قد سافرت من ألبرتا الليلة الماضية. إنها تدعى ساندر، ولا أعرف اسم عائلة زوجها. إنها في طريقها من مانيواكي بصحبة والدتها."
- أحسست بسريان الأدرينالين في شراييني.
- "أُيعقل أن يكون مينارد قد فعل ذلك؟"
- "عممت أوصافه في البلاد. لم يتمكن أي شخص من رؤية شخص يشبهه."
- "بدت تاووني ماك جي هستيرية البارحة. هل يقولون في المستشفى إنها غادرت هكذا بكل بساطة برفقة بومرليو؟"
- "تعتقد رئيسة الممرضات أنهما تسللنا في وقت تغيير فرق العمل، أو أثناء الليل."
- "لكنهما لا تمتلكان ثياباً!"
- "فقد معطفان، وزوجان من الأحذية من غرفة الموظفين. وفقد أيضاً مبلغ سبعة عشر دولاراً من صندوق المقهى."

- "ما هو المكان الذي قد تقصده امرأتان مضطربتان، ولا تمتلكان بيوتاً؟"
- "اهدني قليلاً".

أغمضت عيني، وأجبرت الأدرينالين على التراجع إلى مصادره المتنوعة.
- "يمكن للمرأتين أن تقصدا أيّ مكان. يُعتبر مستشفى مونتريال العام شبكة معقدة من الأنفاق والممرات، وتُعتبر الطبقة السفلى من المستشفى نوعاً من مآهات القرون الوسطى. إنني في المستشفى الآن. إذا لم نجد المرأتين داخل المستشفى، فعندها سنطوق المنطقة".

- "وماذا سيحدث بعد ذلك؟"
- "عندما يصل أفراد عائلة ماك جي سأسألهم إن كانت تاوني تعرف أي شخص في مونتريال".

- "يا إلهي! فقدت هذه المرأة المسكينة ابنتها، ولعلها اعتقدت أنها ماتت، ثم تلقّت معلومات تقول إن ابنتها ما زالت على قيد الحياة. هل علينا الآن أن نقول لهذه المرأة إن ابنتها قد فُقدت مجدداً؟"

بدا صوت راين صلباً كالقولاذ: "سوف نجدها".

قلت: "سأتصل بماوى النساء المسنّات".

- "يجدر بك أن تحاولي".

وصلنا إلى حائط مسدود. لم يرَ أحدٌ، أو يستقبل، امرأتين بالمواصفات التي قدّمتهما.

عدت إلى بحثي، لكن الأمر بدا أسوأ مما كان من قبل. لم أستطع الجلوس، ولم أستطع القراءة. أحسست بداخلي ما يكفي من القوة لتفجير صخرة غرانيت.

اختُطفَت هذه النساء قبل سنوات عدة. اختُطفَت أنجيلا روبنسون في العام 1985، وآنيغ بومرليو في العام 1990، أما تاوني ماك جي فيعود تاريخ اختطافها إلى العام 1999. ولقي الرجل الذي اختطفهن مصرعه. إذاً، لماذا أشعر بإحساس متصاعد بالرعب؟

هل أفسدنا الأمر؟ هل كان كاتس المختطف الوحيد؟ هل ستيفن مينارد شريك نيل ويسلي كاتس في لعبته الحقيرة، أم أن الأمر على العكس من ذلك؟ هل ما زال مينارد حراً طليقاً؟ هل وقعت بومرليو وماك جي مجدداً بين يدي مينارد؟ هل أخرجهما عنوةً من المستشفى، أم أن المرأتين قد غادرتا عن طيب خاطر بسبب وقوعهما تحت

سحره؟ هل أقدم كاتس على قتل مينارد؟ متى حصل ذلك؟ ولماذا؟
يُفترض أن تكون يدا كاتس قد حملتا آثار البارود، لكن لامنش لم يجد أي أثر
له. هل الأمر على العكس من ذلك؟ هل مينارد هو من قتل كاتس؟
تذكّرتُ توسلات ماك جي لأخرجها من المستشفى. هل استطاعت ماك جي إقناع
بومرليو بالمغادرة؟ هل غادرتا هكذا، وبكل بساطة؟ هل أخافتهما البيئة غير المعتادة
بالنسبة إليهما إلى حد الهروب؟ ولكن، الهرب إلى أين؟ لماذا ينتابني هذا الشعور
العميق بأن ماك جي وبومرليو هما في خطر داهم؟ وأنه كان باستطاعتي أن أنقذهما
لو كنت ذكية بما يكفي لأدرك الأمور؟ لماذا لم يتصل رايان؟

تمكّنت من استخراج كل التفاصيل الممكنة من العظام، وتفحصتُ قوائم شرطة
مونتريال مرة بعد مرة. ماذا باستطاعتي أن أفعل غير هذا؟ تذكّرتُ شرائط الفيديو.
تراجعتُ عن طاولتي وأسرت عبر القاعة ثم فتحت قاعة الاجتماعات. بقيت
الأشرطة في مكانها حيث تركناها أنا ورايان الليلة الفائتة. ضغطتُ على زر شغل
وشاهدت مشهداً بعد آخر لفتيات مقنّعات. بدت أجسادهن شديدة البياض إلى حد مؤذٍ.
شاهدت كل مشهد مرة بعد أخرى وبالحركة البطيئة، فتمكنت بذلك من تمييز ما
ظننته ثلاث ضحايا. تمتلك إحداهن تدينين كبيرين. وتمتلك الأخرى شامةً إلى يسار
سرتها. بدت إحداهن أطول بالنسبة للأشياء الموجودة على خلفية الصور. لم يتغيّر
المكان، مع أن نِسب الصور زادت وتقلصت. رأيت سوطاً، ومنخساً كهربائياً،
وقارورة زجاجية. ظهر كاتس بين وقت وآخر وهو يقوم بتعذيب، أو بتهديد ضحية ما،
أو أخرى.

شعرت بالاشمزاز وبالمرض. يُفترض أن تتشغل هذه الفتيات بالدراسة،
وبالوقوع في الحب، وبانتقاء الأواني المنزلية، بدل أن يعلّقن بمعاصمهن في قبو يفوح
برائحة نتنة. إننا في كندا، ولسنا في ترانسلفانيا في القرن السادس. لم يسبق لي أن
شعرت بمثل هذا الغضب العارم إلا نادراً.

كوني موضوعية يا برينان. ابحثي عن متواطئين، وعن الدوافع.
بدأت مجدداً بمشاهدة الشريط الذي يحمل الرقم 1. حضّرتُ لائحة بأنماط
التعذيب عند ظهورها. ظهرت النساء بالتتابع. ظهرت المرأة الأطول من بين الثلاث
في النصف الأول من الشريط الأول. وظهرت المرأة ذات التدينين الكبيرين في
المشاهد الباقية من الشريط، واستمرت بالظهور في الشريط الذي يحمل الرقم 2.
استبدلت المرأة ذات التدينين الكبيرين في الشريط الذي يحمل الرقم 3، بالمرأة ذات

النمش الكثير.

لم تتضمّن الأشرطة أصواتاً، ولاحظت أن المشاهد تبدأ وتنتهي على نحو مفاجئ. بدت بعض المشاهد مستقرة، أي أنها التُقّطت بألة تصوير وُضعت في مكان ثابت. بدت مشاهد أخرى بحالة اهتزاز، أي أنها التُقّطت بواسطة آلة تصوير غير ثابتة في مكان واحد.

أدركت شيئاً على نحو مفاجئ؛ هل كاتس هو الذي يظهر في المشهد الذي يضمّ لقطات مهتزة؟ إذا كان الأمر كذلك، فمن هو الشخص الذي يقوم بالتصوير؟ مرّت علي ثلاث ساعات تقريباً وأنا منهمكة بمشاهدة الأشرطة إلى أن مرّ المشهد الذي كنت أبحث عنه. شغلت آلة التصوير، وعبرت الغرفة بحركة متمايلة. ظهرت فتاة مستلقية على طاولة كاتس وهي مقيدة المعصمين والكاحلين بقيود جلدية. وضع أحدهم خلفها مرآة مستطيلة الشكل، يبلغ عرضها التقريبي اثنتي عشرة بوصة، وطولها حوالي الأربع والعشرين بوصة.

ظهر كاتس في ذلك المشهد وقد أدار ظهره لآلة التصوير.

أحسست بوخز خفيف في رأسي. نهضت واقفة، وضغطت على زر إرجاع، ثم ضغطت على زر شغل. استطعت أن أرى في منتصف حركة العدسة شكلاً ضبابياً عكسته المرآة. هل هو مينارد؟ أرجعت الشريط مجدداً، وأعدت تشغيله إلى الأمام بالحركة البطيئة، ثم جمّدت المشهد.

تهاوت آمالي بالكامل.

- "اللعة!"

بدت صورة المرآة محببة ومحجوبة جزئياً، إلا أنني استطعت تمييز الوجه الذي يركّز على عدسة التصوير عبر الغرفة: إنها أنيغ بومرليو! تردّد صوتي بمرارة في أنحاء الغرفة الخالية: "يا لك من ماهر أيها اللعين المهورس. إنك تجبر إحدى الضحايا على التصوير بينما تعذب ضحية أخرى". حاولت أن أشاهد بعض المشاهد الأخرى، لكنني لم أستطع الجلوس بسكون. واضطبت على النهوض وتفحص هاتف مكتبي، والتحديق بالرواق، كأنني طفل يحبو. عدت إلى مكتبي بعد عشرين دقيقة، ملأني خلالها شعور بالغثيان والغضب والقلق. بدأت بقراءة مقالة عن متلازمة ستوكهولم، لكن الصور التي لا أريد تذكرها منعتني من التركيز على الصفحة التي أطلعها. تخيلت أنيغ بومرليو وهي تعدو في

منزل نيل كاتس، وتخيلت تاووني ماك جي وهي تتوسل لإخراجها من المستشفى. وتخيلت كولين ستان وهي ترقد في تابوت تحت سرير. فكّرت بهن جميعاً وهن محتجزات في ظلمة رهيبية، ومصعوقات من الخوف، وعاريات، ووحيديات. أقدم كاميرون هووكر على تعليق كولين ستان وتمديدتها، ثم جلدتها بسوط، وأكمل ذلك بتعريضها لصدمات بواسطة الأسلاك الكهربائية حتى امتلأ جسدها بالبيثور. سيطر نيل كاتس على ضحاياه مستخدماً طرقاً متماثلة، واستخدم عزل ضحاياه عن الإحساس بالمحيط، والترهيب، والألم كي يسحقها.

حاولت أن أتخيّل المحنة التي تحمّلتها أولئك النسوة. هل أجبرهن كاتس على الاستلقاء في الظلمة من دون أن يسمعن شيئاً غير أصوات أنفاسهن؟ أو لربما أصوات دقات قلوبهن؟ هل ميّزن ما بين الليل والنهار؟ هل شعرن بالرعب مع كل صوت ينطلق من قفل الباب؟ هل استسلمن لليأس؟ هل تبخّرت ذكريات حياتهن الماضية مع مرور الأيام مثلما يتبخّر الضباب مع نسيمات الصباح؟

تصلّب شيء في داخلي، لكنني أجبرت نفسي على التركيز. بدأت بأخذ ملاحظات أثناء قراءتي كما فعلت أثناء مشاهدتي لأشرطة الفيديو. تراقصت خيالات العبودية في ذهني وامتزجت مع مشاهد التوتر الجنسي المضاعف نتيجة تقييد الحركة. تصوّرت الماسوشية السادية حيث يتلذذ المرء بإنزال العذاب بالآخرين وبنفسه أيضاً، واستخلاص الإثارة الجنسية عن طريق إنزال الألم بالآخرين أو تلقّي هذا الألم. يستخلص ذلك الشخص المهووس اللذة من أقصى الحدود المرضية، والاختطاف، والسجن، وفرض الاستعباد على الآخرين.

لم أنس متلازمة ستوكهولم.

بدأت برسم حدود هذه العملية، وأضفت نقاطاً عليها أثناء تنقلي من مقالة إلى

أخرى.

النقطة الأولى: احتجاز الضحية ثم عزلها. تقييد الضحية ثم تعريتها، وإذلالها،

وإهانتها.

النقطة الثانية: استخدام الاعتداءات الجسدية أو الجنسية، إلى حدّ اقتناع الضحية

أنها ضعيفة.

النقطة الثالثة: حرمان الضحية من أنماط العيش اليومية المعتادة، وإيقاع الضحية

محتجزة في الظلام الدائم أو تحت الأضواء الدائمة. استخدام ربطات الأعين،

والصناديق، والأقنعة.

النقطة الرابعة: إلغاء خصوصية الضحية. وإبقاء نشاطات الضحية البيولوجية، مثل التغوط، والتبول، والحيض، تحت نظر الشخص الذي يقوم بالاحتجاز.

النقطة الخامسة: التحكم وتقليص كميات الطعام والماء المقدمة للضحية، وكذلك تطوير اعتماد الضحية على الشخص المحتجز.

اتصل بي رايان هاتفياً عند الساعة الثالثة. قال لي إنهم فتشوا كل بوصة في المستشفى، ولم يظهر أي أثر للمرأتين هناك.

عدت إلى بحثي.

النقطة السادسة: فرض عقوبات لا تتوقعها الضحية، وحرمان الضحية من الحصول على تقسيرات، أو تبريرات، لما يحصل.

النقطة السابعة: فرض طلب الإذن. إجبار الضحية على طلب الإذن لتناول الطعام، والتحدث، والوقوف، وأشياء أخرى.

النقطة الثامنة: فرض نمط مستمر من الإساءات الجنسية والجسدية. تقتنع الضحية هنا باستمرارية قدرها.

النقطة التاسعة: العزلة المستمرة. يصبح الشخص المحتجز هنا مرجع الضحية الوحيد للاتصال بالعالم الخارجي والحصول على المعلومات.

اتصل بي رايان مجدداً عند الساعة الرابعة.

- "حضرت السيدة ماك جي وساندررا".
- "هل تكلمت معهما؟"
- "نعم".
- "كيف تلقنا الأمر؟"
- "بدأت الوالدة مذهولة، أما الابنة فهي غاضبة جداً".
- "أين هما الآن؟"
- "أنزلتهما في فندق دلتا".
- "هل تعرف تاووني أحداً في مونتريال؟"
- "تقول ساندررا إن صديقة تاووني الحميمة الموجودة في مانيواكي لها أقارب في إحدى ضواحي الجزيرة الغربية. إنني أتتحقق من هذا الأمر في هذه الأثناء".
- خطرت فكرة في ذهني.
- "تعرف ماك جي، وبومرليو، أن كاتس قد مات. يُحتمل أن يكون منزله هو

المكان الذي تشعران فيه بالأمان".

- "تمتلكين أفكاراً عظيمة يا برينان، لكن هذا لن يجدي نفعاً. تحققت من المكان ووجدته فارغاً. سأتصل بك إذا اسكجّد أمر ما".

عدت إلى مجلاتي.

النقطة العاشرة: توجيه تهديدات لأفراد عائلة الضحية وأقاربها.

النقطة الحادية عشرة: توجيه التهديد بنقل الضحية إلى محتجزٍ أكثر وحشية.

النقطة الثانية عشرة: تساهل غير متوقع. تُمنح الضحية امتيازات لا تتوقعها، كإعطائها بعض الهدايا، ومنحها فترات من الحرية.

النقطة الثالثة عشرة: يظهر المحتجز بصورة غير متوقعة. وتفتتح الضحية أن

المحتجز يعلم بكل شيء.

رنّ هاتفني الخليوي عند الساعة السادسة والنصف.

تسبّب الصوت الذي سمعته بهبوط في قلبي، من ذلك النوع الذي تشعر به عند

ركوبك في القاطرة الأفوانية.

سمعت صوتاً أنثوياً ولغة إنكليزيةً مشددة المقاطع: "تريد دي أن تراك".

- "آنيغ؟"

- "إنها بحاجة للمساعدة".

حاولت الحفاظ على هدوء صوتي: "أنا مسرورة لأنك أتصلت بي. إننا قلقون

عليكما".

- "لم ترغب دي بالبقاء في ذلك المستشفى".

- "هل أنتما بخير؟"

- "قد تقدم دي على أذية نفسها".

- "أين أنتما؟"

- "إننا في المنزل".

ما هو المكان الذي تعتبره بومرليو منزلها؟ هل هو ماسكوش؟ أم بوان سان

شارل؟

- "هل أنتما بأمان؟"

- "تريد دي أن تراك".

تناولت قلماً وقلت: "قولي لي أين هو المنزل".

- "إنه في دي سيباستوبول".
أجبت بسرعة: "لكننا بحثنا عنكما في ذلك المنزل".
خيم سكون مطبق. يا لغبائي! يا لغبائي!
قلتُ لها: "إننا قلقون بشأنكما".
- "تعالى لوحدك".
- "سآتي مع التحري رايان".
- "لا!"
- "بإمكانك الوثوق برايان. إنه رجل لطيف".
أنتِ إجابتها قاطعة: "لا أريد رجالاً هنا".
- "أنا في طريقي إليك".
بدأت بنقر رقم هاتف رايان، ثم توقفت.

الفصل 35

قطعت الاتصال، ثم عدت لأشغل جهاز هاتفي، بينما بدأ عقلي بطرح ملايين الاحتمالات. ماذا لو اتصلت برايان هاتفياً؟ أو بكلوديل؟ أو بشاربونيو؟ أو بفيلدمان؟ أردت الحصول على مساعدة ما. ماذا لو هرعت إلى دي سيباستوبول؟ تحتاج هاتين المرأتين إلى من ينقذهما.

طلبت بومرليو مني أن آتي لوحدي، كما طلبت عدم حضور الرجال معي. ويقول مطالعاتي إن هذا الموقف هو موقف منطقي. عانت بومرليو وماك جي من عدة سنين من التعرض للإساءات على أيدي الذكور. تصارعت العواطف في داخلي. تصارع الغضب، والاشمئزاز، والتعاطف، وإلحاح الموقف.

أعتقد أن رجال التحري الثلاثة سيغضبون مني إذا توجّهت إلى ذلك المكان لوحدي. يستطيع رايان أن ينتظرني في الخارج. بدأت مجدداً بنقر أرقام هاتف رايان، ومجدداً توقفت. ماذا لو أصرّ رايان على مرافقتي إلى داخل المنزل؟

أعتقد أن ماك جي وبومرليو قد وجدنا ملاذاً آمناً لهما في ذلك المنزل، ولعل وجود رايان سيدفع بهما إلى الاختفاء مجدداً. فكرت أن وجوده قد يمزق ثقتهم بي، أو لربما لم تكن المرأتان هناك، بل تعترمان إعطائي تعليمات جديدة عند وصولي بمفردي إلى هناك. وإذا طوقت الشرطة ذلك الحي فلربما ذلك يفسد كل شيء.

سمعت في ذهني توصلات ماك جي المرتعبة، وأحسست بقبضتها على ذراعي، كما رأيت نظرة اليأس في عينيها.

احتلت أفكارني مشاعر الذنب ولوم الذات. فشلت في تهدئة ماك جي عندما كنت في المستشفى، وإذا كنت نجحت بشيء ما فقد نجحت بزيادة ذعرها. ماذا لو تسبّب وجود رايان بإرعابها مجدداً؟

نهضت واقفةً، وتناولت سترتي من حمالتها. سأنزل هذه المرة عند طلبها، فأنا مدينة لها بذلك، وفي الواقع أنا مدينة لهما.

أوقفتني فكرة جديدة طرأت على ذهني، ماذا لو لم تكن ماك جي وبومرليو وحدهما؟ ماذا لو كانتا تعملان تحت إمرة مينارد؟ ماذا لو كانت المكالمة مجرد مصيدة لي؟ هل سيجرؤ مينارد على إيذائي؟ ولم لا؟ ينتظر هذا الرجل السجن المؤبد، بالإضافة إلى أنه رجل منحرف وخطير.

اللعنة! اللعنة! اللعنة!

من هو الرجل الذي يتعين عليّ الاتصال به.

لو اتّصلت برايان فسيتصرّف بشكل أبوي، لكنني لا أستطيع أن أواجه هذا الوضع بمفردي. استبعدتُ كلياً الاتصال بكلوديل. تزايدت نبضات قلبي. حاولت الاتصال بشاربونيو، ليكون أحد ما على معرفة بالمكان الذي أقصده. أعلمني صوت أليّ أن رقم المشترك الذي أطلبه غير متوفر حالياً، ثم قطع الاتصال على الفور.

نظرت إلى ساعتني. أشارت عقارب الساعة إلى السادسة والاثنتين والأربعين دقيقة. اتّصلت بمركز شرطة مونتريال وتركت رسالة لشاربونيو. افترضت أن شاربونيو موجود في فيرمونت مع كلوديل، لكنهما على الأقل سيعرفان المكان الذي قصده.

أحاطني الصمت، وجالت في ذهني احتمالات أخرى. ماذا لو أقدمت ماك جي على إيذاء نفسها؟ ماذا لو كان مينارد يناور ليضيفني إلى مجموعة لهوه؟ ماذا لو كان مينارد يناور لوضع رصاصة في رأسي؟

انشغلت بتفحص كل وجه من وجوه ذلك المشهد البشع، إلى أن رنّ هاتفني الجوّال في يدي. ارتعشتُ وكأني تعرّضت لحريقٍ ما. طار الجهاز من يدي ووقع على الأرض، ثم اختفى تحت طاولتي. انحنيت على قوائمي الأربع، وزحفت على البلاط، ثم ضغطت زر التشغيل، وسرعان ما تلقّيت صدمةً أخرى.

اندفعت أن بتقديم اعتذاراتها غير المترابطة، ومن دون مقدمات. اجتاحتني حالة من الارتياح والاستياء في الوقت نفسه، وانضمت إلى الصراع الكبير الدائر في رأسي.

قاطعتها على الفور: "أين أنت؟"

أسأبت أن فهم دلالات صوتي المرتعبة، فقالت: "لا ألومك على مشاركتي العدائية تجاهي يا تمب. أعترف أن سلوكي تعدي الأنانية، لكن حاولي أن تفهمي...". مرّت الثواني بسرعة، وهي الثواني التي تحتاجها ماك جي لتجرح معصمها.

قلت بصوت أقوى: "أين أنت؟"

- "أنا آسفة جداً يا تمب..."

- "أين أنت؟"

- "أنا عند راهبات العناية الإلهية".

بدأ صوت آن يأخذ مجالاً صغيراً في دماغي. وبدأت أستعيد صفاء تفكيري.

- "هل يقع الدير على زاوية شارعِي سان كاترين وفولهام؟"

- "نعم".

تتواجد آن على مسافة تستغرق خمس دقائق لقطعها من مكاني. فكّرت أن آن

هي امرأة، واتخذت قراراً سريعاً.

- "أحتاج إلى مساعدتك".

- "أنا مستعدة لأي شيء تطالبه مني".

- "سامرّ لاصطحابك".

- "متى؟"

- "الآن".

- "ساكون في الخارج".

قطعت نصف المسافة التي تفصلني عن سيارتي مشياً، وركضت في نصفها

الثاني. تزايدت ضربات قلبي بوتيرة ماراتونية. هل أنا على وشك اقتراح خطأ

باصطحابي آن؟ هل هي مستنزفة عاطفياً؟ أتراني أذفب بها وسط المخاطر؟ قرّرت أن

أخبر آن كل شيء، ثم أترك لها أن تتخذ قرارها.

خيّم برد قارس على المدينة، وحملت الرياح رطوبة شديدة، فيما زحفت الغيوم

على علو منخفض ببطء شديد، كأنها لم تتخذ قرارها بعد بإنزال المطر أو الثلج.

وقفت آن خارج الدير القديم وهي ترتعش من البرد، وظهرت أمّعتها مكومة عند

قدميها. ملأ المشاة الأرصفة والشوارع ومشوا مجهدين. انعكست أضواء السيارات

وأضواء الميلاد على الزجاج الأمامي لسيارتي، فانتهزت الفرصة لأطلع آن على

ملخص للمعلومات التي تجمّعت عندي أثناء غيابها. أصغت إليّ من دون مقاطعة،

وبان التوتر في قسماّت وجهها، ثم انشغلت أصابعها باللهو بأطراف وشاحها غير

المشدود.

مرّت دقيقة كاملة قبل انتهائي، وكنت متأكّدة في نهايتها أنها ستطلب مني

يصلها إلى المنزل.

- "أنا مستعدة للدخول في أكثر الميادين قذارةً في العالم."
- "لا تقولي هذا يا آن".

التفتت نحوي: "أثناء تفكيري بعدم تحمل المسؤوليات التي يفرضها الله، كانت هذه الفتيات يعشن في كوابيس حقيقية. ما هذه الهورمونات المجنونة التي تدفع بذلك المهووس إلى إنزال الأذى بفتيات صغيرات؟"

- "لا تشعرني أنك مضطرة للذهاب معي. سأعذرك إن لم ترغبني بمشاركتي".

- "لا تفكري في ذلك يا عزيزتي. أريد المشاركة في هذه العملية القذرة".

أجبتها بلهجة تشبه لهجة رايان: "هذا هو بالضبط الشيء الذي لن تقومي به. هل تحملين هاتفك الخليوي معك".

ربتت أن على حقيبة كتفها: "تعطلت تلك الخردة عندما حاولت أن أتصل بك هاتفياً هذا الصباح، لكنني أحضرت علبة "مايس".

أشرت إلى محفظتي: "تناولي هاتفني منها".

فعلت أن ما طلبته منها عندما انعطفتُ إلى شارع دي سيباستوبول.

ركنتُ سيارتي مقابل الإسطبل، وقبل أن أطفئ أضواءها تحرك ذلك الكلب الهجين، وتسلل عبر الباحة. لاحظت أن عينيه تومضان وهو يشق طريقه.

تخصّصت مع أن الشارع بطوله. شاهدنا إلى يميننا ضوءاً كهربائياً وحيداً يلقي بنوره على أبواب الإسطبل. وبدت إلى يسارنا باحات السكك الحديدية مظلمة وفارغة. أقفلت باب جهة السائق في سيارتي، وهمست: "ابقي في السيارة".

- "لا، مطلقاً".

- "نعم".

- "لا".

قلت بما يشبه الفحيح: "نعم".

سمعت ما يشبه الأزيز عندما أحكمت أن ذراعيها على صدرها، والتفتت بعيداً. استطعت بمساعدة ضوء الإسطبل أن أرى أسنانها العلوية تضغط على شفثها السفلى.

أمسكت بيد أن، واصطنعت لنفسي ابتسامة فاشلة. قلت بما يشبه الهمس: "أحتاج إلى مساعدتك يا آن، لكنني أريد أن تساعديني من بعيد. بقيت هاتان المرأتان معزولتين لسنوات عديدة. إن العالم يربعهما. إنهما لا تعرفانك".

تمتت آن: "ولا تعرفانك أنت أيضاً".

- "طلبنا مساعدتي".

- "ماذا لو كان ذلك المعتوه مینارد في الداخل؟"

- "یوجد جهاز هاتف في المنزل. أتصلي برایان إذا لم أتصل بك، أو أؤشر لك خلال عشر دقائق. ستجدین أن رقمه موجود على لائحة الاتصالات السريعة".

- "ماذا لو لم یرد رایان؟"

- "أتصلي بالرقم 911".

أسرع الكلب باتجاه السياج ما إن رأي أنرجل من السيارة. تبني أثناء سيری بمحاذاة الشارع. نهض الكلب وزمجر عندما وصل إلى نهاية المنطقة المسيجة. اختار الكلب أن لا ینیح لأسباب تعود له.

امتلاً هواء الليل برائحة الخيول، ومياه النهر، بالإضافة إلى الثلج الذي یوشك على الهطول. سمعت صوت سلك من فوقی، واصطدام الغصون العارية ببعضها، واحداً تلو آخر.

سمعت صوت حفيف أشياء معدنية على بعضها فاندفعتُ باتجاه المدخل المسقوف لآخر بيت في مجموعة البيوت. شعرت أنني سأجمد من البرد أثناء وقوفي في الظلال. جهدت لأسمع أي صوت بشري، لكنني لم أسمع شيئاً.

خرجت من مخبأي واسترقتُ النظر باتجاه زاوية الشارع. رأيت زجاجة بنية اللون على الطريق. أوحت لي خلية غير عقلانية من خلايا دماغي إنها من ماركة بودوايزر. تحركت الزجاجة بفعل عصفه ریح، وتدرجت على الحصى والجليد.

غطيت كفتي، ودفعت زجاجة البود جانباً، ثم أسرعت في سيری. حرصت على عدم التعثر والتسبب بالتواء كاحل من كاحلي. بدت الأشجار والجنبات كأنها تغير أشكالها وأحجامها أثناء اهتزازها في الظلمة المحيطة بي.

استدرتُ حول المنعطف. بدأ المنزل مظلماً وساكناً، ولم تلح أية نقطة ضوء من داخله. تقدمتُ نحو باحة المدخل، وأدرت مقبض الجرس، ثم انتظرت. أدرت المقبض مجدداً، وتهيأت كي أركض متراجعةً إذا ما اضطرت لذلك.

تحرك القفل مع السلسلة الحديدية. وانفج الباب قليلاً. تقدمت إلى الأمام، وانساب الأدرينالين في شراييني. شعرت كأنني جندي داخل المعركة. رأيت وجهاً ترتسم عليه إمارات الموت، وشاهدت عينين واسعتين، فشعرت بأنفاسي تتسارع.

- "أنا الدكتورّة برينان يا أنيغ".

شملتني بومرليو بنظرة تجاوزت كتفي.

- "جئتُ لوحدي".

تراجعت بومرليو إلى الخلف، واندفع الباب متراجعاً إلى الوراء. دخلت إلى المنزل. دُهِشت لأن الهواء ما زال مليئاً برائحة كرات العث والغفونة.

أغلقت بومرليو الباب وأحكمت إقفاله. لاحظت أنها ترتدي بنطال جينز أسود اللون، وكنزة زرقاء داكنة.

سألتها: "هل تاووني بخير؟"

استدارت بومرليو ببطء معهود مع أشباه الموتى، وتراقصت سلسلة الباب مثل بندول الساعة.

صحّحت تعبيرتي: "هل دي بخير؟"

أجابت أنيغ بصوت هامس أجش: "إنها مرتعبة".

أنزلت زمام سترتي المقلنسة: "هل تسمحين؟"

استدارت بومرليو من حولي أثناء انشغالي بنزع سترتي. عندما استدارت المرأة نحو القاعة، علّقت السترة على مقبض الباب، وأدرت المزلاج ليكون في وضع يسمح بفتح الباب.

قادتني بومرليو نحو الرواق الذي عمّده كاتس بدماعه، فتبعته. لاحظت أن أريكة كاتس قد غطّيت وحُشرت قرب طاولة المكتب، وأن مصباحاً نحاسياً واحداً ينيّر الغرفة بضوئه الأصفر الشاحب.

جلست تاووني ماك جي على أحد المقاعد المزودة بمساند للأذرع. رفعت تلك المرأة ركبتيها إلى الأعلى، وخفضت رأسها، أي أنها كانت في نفس الوضع الذي رأيتها عليه في زيارتها. غطّت تاووني جسمها بالغطاء ذاته الذي تمسكت به في ذلك اليوم.

- "تاووني؟"

لم تتحرك.

- "تاووني؟"

انقبض جسدها الضعيف.

تقدّمت خطوة إلى الأمام، لكنني بقيت يقظة لأقل إشارة تدل على وجود شخص

ثالث. بقي المنزل ساكناً بشكل مخيف.

- "أنا الدكتورة برينان يا تاووني".

أجفلت ماك جي فوكزت طرف الطاولة. تمايلت بلورات المصباح فتراقصت النقاط الصفراء على شعرها. جثوت، ووضعت يداً على قدمها، فانقبضت عضلاتها.

- "ستكونين بخير".

لم تتحرك.

أردت لمس يدها. شعرت أصابعي بشيء صلبٍ ومتعرجٍ من خلال الصوف. في تلك اللحظة بالذات سمعت طرقة قوية على الباب كسرت الصمت المخيم على المنزل. تلوّى جسد ماك جي، أما بومرليو فوقفّت جامدة في مكانها، وسرعان ما انفتح الباب الأمامي قليلاً، ثم سمعت صوتاً عبر الرواق. نادى آن: "مرحباً!" زمت بومرليو شفيتها، وقالت هامسة: "لقد كذبت عليّ".

ظهرت آن في القاعة قبل أن أتمكن من الإجابة. رأيتها تحمل هاتفها الخليوي بيد، ومفاتيح سيارتي باليد الأخرى.

نهضت واقفة: "ماذا تفعلين هنا؟"

نقلت أن نظرها ما بيني وبين بومرليو، وبين ذلك الشكل المتكوم خلفي: "تلقيت اتصالاً. ظننت أنك مهتمة بمعرفة مضمونه".

انزعجت إلى حدٍ يتعدى التهذيب: "ألم يكن بوسع الخبر أن ينتظر؟" أيقنت أن أنها ارتكبت خطأ كبيراً. سعت لإصلاح الأمور، فقدّمت نحوّي، ورفعت الهاتف الخليوي: "ترك شاربونيو رسالة في مركز شرطة مونتريال، فأسرعت عاملة الهاتف للاتصال بهاتفك الخليوي".

لاحظت تراجع بومرليو نحو الظلمة في طرف القاعة.

تعلّقت عينا أن بعيني طالبة الصفح، وتابعت: "مات ستيفن مينارد منذ سنوات عدة، وكاتس هو الذي قتله".

ارتفع صوت من الشكل المتكوم من خلفي، واستطعت سماع نصف تأوه، ونصف نشيج. تمتت أن قائلة وهي تسرع نحو الرواق: "أنا أسفة. ظننت أنك تودين أن تعرفي. سأعود إلى السيارة".

جثمت ووضعت يداً على قدم ماك جي. رفعت ماك جي ظهرها المقوس. انحسر الغطاء وبان وجهها الذي ظهر مثل قمر شتائي شاحب. لاحظت شفيتها المرتعشتين.

- "إنك بأمان يا تاوني. أنت وآنيج بأمان".

رفعت ماك جي أحد كتفيها، وسقط الغطاء منكوماً في حضنها.

رأيت حبلاً ملفوفاً على معصميهما، ولم أفهم المشهد الذي تراه عيناى. ما هذا

الحبل؟ ولماذا استخدام الحبل؟ هل هي مربوطة؟

سمعت صوت الباب الأمامي وهو يفتح، فرفعت نظري. امتلأت عينا ماك جي

بالرعب. تبعت اتجاه نظرتها. تركّزت نظراتها على ظهر بومرليو المتراجع. توقفت

رئتي عن العمل، وتوقفت قلبي عن النبض. أحسست بالدم يكاد يتفجر بوجهي. تذكرت

الرعب الذي شاهدته في المستشفى. تذكرت الوجه الموجود وراء آلة تصوير الفيديو.

تذكرت الأيدي الخالية من آثار البارود. تذكرت هومولكا، الزوجة التي شاركت زوجها

في إجرامه بكل طبيعة خاطر... وأدركت ما الذي يحدث!

نهضت واقفة على قدمي. رأيت بومرليو وهي تسرع إلى آخر القاعة كأن سلكاً

ساخناً قد ضربها. سمعت فرقة مرعبة، ثم سمعت صوت ارتطام ما. ركضت نحو

الرواق، فوجدت الباب مفتوحاً.

شاهدت آن راقدة هناك قرب الباب، وجهها نحو الأسفل، وساقاها منبسطة فوق

مشمع الأرضية. حدقت في العتمة. لم أر أثراً يدل على بومرليو.

- "آني!"

جثمت لكي أتحمس رقبة آن بحثاً عن نبضات القلب، لكن يبدو أنني تأخرت

جداً، لأنني سمعت حركة ورائي. مال الباب إلى الداخل بحدة، فارتطم بكعب حذاء آن.

تفجر ضوء داخل رأسي قبل أن أتمكن من الاستدارة، ووقعت في ظلمة دامسة.

الفصل 36

مرّت لحظات، أو هكذا خيل إليّ، فشعرت أن دماغي يضغط على جمجمتي في سعيه اليائس لإيجاد مجالٍ أكبر له. فتحت عينيّ وحركت رأسي. مرّت أمام بصري جسيمات زجاج متكسر. أغمضتُ عينيّ وحاولت إجراء تقييم للوضع.

أحسست بحريق في صدري. كنت مستلقية على جنبي الأيسر وكتفي اليسرى. بلغت ريقبي، وحاولت أن أنهض. وجدت أن ذراعيّ وساقيّ لا تعمل، وأدركت أنها موجودة تحتي وخلفي.

عاد إليّ وعيي ببطء. لم أشعر بيديّ، ولا بقدميّ، لكنني كنت بحاجة للتحرك. شددتُ من عزيمتي، وحاولت أن أنهض على ركبتيّ مجدداً. اجتاحني الغثيان، وتقيأت. حاولت أن أتحرّك إلى الورااء كي أبتعد عن هذه الفوضى، فاستخدمت كاحليّ ووركبيّ. تسبّب مجهودي هذا بالتقيؤ مرة بعد أخرى، حتى لم يعد في معدتي شيء غير إفرازات الصفراء.

استنقيت للحظة وأنا أتفكّر بعمق، وبحثتُ عن تفسيرات في عقلي. أين أنا؟ وكم مضى عليّ من الوقت في هذا المكان؟ أدرت رأسي بحذر شديد، وكادت وخزة الألم تتسبّب بإطلاقي لصرخة.

صرخت بي خلية عصبية فكريّ! حاولت أن أفكّر، لكن أفكارني رفضت أن تتحوّل إلى صور مفهومة. ركّزي على اللحظة الراهنة!

استخدمني حاسة الشم!

هل أشتّم رائحة العفن، أم رائحة الملابس الرثة، أم الخشب، أم شيئاً آخر؟ هل هذه رائحة منظف كيميائيّ؟ هل هي رائحة الكاز؟
تلمّسي!

أحسست بألياف خشنة تلامس خديّ، وبحبيبات داخل فمي، وبغبار داخل أنفيّ. هل هي سجادة؟ ما هذا الصوت الذي أسمعُه؟ هل هو صوت الريح وهي تحرك غصناً

فيضرب لوح زجاج، أم أنه صوت صريرٍ وتنفسٍ من داخل المنزل؟
استطعت أن أسمع نبضات قلبي في أذني. سمعت وقع أقدام مكتومة، لعله صوت
معدن يطرق معدناً فارغاً.
استطعت أن أسمع من البعيد صوت شخص يتحرك. هل هذا الصوت هو في
الغرفة الأخرى؟

فتحت عيني مجدداً، فوجدت نفسي مستلقية على سجادة وسخة جداً. تمكنت من
رؤية قائمة كرسي خشبية محفورة، وقماش مقعدٍ توتّي اللون، بالإضافة إلى غطاء
ممزق.

أدركت أين أنا! إنني في رواق كاتس، لكن المصباح غير مضاء الآن. أغلق
الباب، فأحدث صوتاً مدويًا، ثم ساد السكون.

رأيت أمامي مقعداً مزوداً بمسند للذراع. سمعت صوت إغلاق الباب مجدداً، لكن
على مسافة أبعد من خلفي. انشغل دماغي باستيعاب المعلومات بسرعة انزياح
القارات. هل استخدم أحدهم مدخلاً خفياً؟ هل استخدم مدخل المطبخ؟ مطبخ كاتس.
حاولت أن أتذكر تصميم البناء من زيارتي الماضية. تذكرت أنه ما من وجود لمدخل
في المطبخ. أمسكت أنفاسي، وأصغيت. لم أسمع أي صوت في المنزل. راح الدم
يضخ في رأسي. سمعت دقة قلبي، تلتها اثنتا عشرة دقة، ثم ألف دقة.

سمعت صوت انغلاق الباب الخلفي مجدداً. اقتربت مني خطوات متسارعة.
أغلقت عيني واستلقيت بسكون، وشعرت بالنيران تشتعل في كل عضلة من عضلاتي.
سمعت صوتاً يشبه صوت الخنزير، ثم سمعت صوت تساقط قطرات لسائل. ملأت
الرائحة حواسي كلها. تمسكت أصابعي بوثاقي.

إنها رائحة البنزين!

انفتحت أذني مجدداً، فاستطعت تمييز شكلين: رأيت تاو ني ماك جي مقيدةً في
كرسي ذي مسندين، ورأيت آنيغ بومرليو وهي تبلل الغرفة بالسائل الذي تسكبه من
صفيحة كبيرة.

صعقني الخوف، وقضى بذلك على القليل من التفكير السليم الذي تدبرته حتى
الآن. ماذا أفعل الآن؟ هل أتحدث مع بومرليو؟ هل أتحدث مع ماك جي؟ هل أتظاهر
بالموت؟

أطبقت أذني، واستمعت إلى الصوت السائل للموت المرعب.
مرت ثوانٍ عدة قبل أن أسمع القرعقة مجدداً، وصوت خطوات متراجعة، ثم

صوت انغلاق الباب بقوة. فتحت عيني. رأيت علبة قهوة فارغة قرب الباب. هل ذهبت بومرليو لإحضار المزيد من البنزين؟ إلى أين ذهبت؟ هل ذهبت إلى كوخ خارج المنزل؟ كم استغرقت جولتها السابقة؟ هل استغرقت دقيقة، أم اثنتين؟

انحصر تركيز دماغي على فكرة واحدة: اخرجني من هنا!

خطرت على بالي عدة صور: آن، بومرليو، والحبل الذي يحيط بمعصمي تاوني ماك جي. هل ماك جي مشدودة الوثاق؟ هل قدمها مربوطتان أيضاً؟ حركت كاحلي، لكنني لم أشعر بشيء. شعرت ببصيص أمل.

- "تاوني".

خيم الصمت.

- "تاوني".

هل هناك حركة في الكرسي؟

رفعت رأسي. أدركت أن الغرفة أصبحت مستنقعة معتماً، وبدا الأثاث بأشكال متعددة في الظلمة المخيمة.

- "تنوي كيو إحراق المنزل. يتعين علينا الخروج من هنا".

هل سمعت صوت تنفس عميق؟

- "أعرف ماذا فعلت كيو بك".

انغلق الباب الخلفي. سمعت وقع أقدام تسرع نحونا، فأخفضت رأسي.

شاهدت من خلال عيني نصف المغمضتين بومرليو تدخل، وهي تحمل علبة جديدة. سكبت السائل على طاولة المكتب والأريكة. قذفت بالعلبة على الأرض عندما أفرغتها. ركضت بعد ذلك لتجلب علبة أخرى.

- "لا يعرف أحد بوجودنا هنا يا تاوني".

تسبب السكون في جعل الغرفة تبدو أكثر قتامة، وأكثر رعباً.

- "لن يأتي أحد لنجدتنا. يتعين علينا مساعدة أنفسنا".

لم أتلق أي استجابة.

- "إذا زحفت مقتربة منك هل تستطيعين فكّ وثاقي؟"

ساد الصمت.

- "هل تقدرين على المشي؟"

بدا كأنني أتحدث مع شخص ميت. كافحت بيأس مع الحبال التي تلفني، جهدت

وحركت نفسي حتى شعرت أن جلدي قد تمزق، ومع ذلك ظلّت عقد الحبال صامدة.

انغلق الباب الخلفي مجدداً، فاسترخيتُ، وأغمضتُ عيني.

عادت بومرليو بالمزيد من الوقود السريع الاشتعال.

يا إلهي! أين هي أن يا ترى؟ لم أجد لها أي أثر في هذه الغرفة. تساءلتُ إن كان بمقدوري إخراج آن وماك جي من المنزل. هل سنموت قبل أن يتمكن فريق الطوارئ من الاستجابة لنا؟

هل من الأفضل أن أتحدّث مع بومرليو؟ هل أستطيع الإتيان بحجة، أو طرح فكرة، من شأنها تأمين بعض الوقت الإضافي لنا؟ هل سيحدث هذا فرقاً؟ فتشّث الشرطة المكان سابقاً ووجدته خالياً. لم أخبر رايان أنني سأتي إلى هنا، فهل سيتبلّغ شاربونيو رسالتي؟

تدافعت الدموع في عيني. جهدت للخلاص من قيودي، والنهوض بحرية ثانية، والقبض على بومرليو، وإغلاق مركز تعذيب البشر هذا. استلقيت على الأرض وانتظرت. اشتدّت رائحة البنزين كثيراً. تذوّقت الصفراء في فمي، وشعرت بتشنجات تحت لساني.

سمعت صوت علبة أخرى ترطم بالأرض. وشاهدت أقدام بومرليو قرب الزاوية. لم يُغلق الباب الخلفي هذه المرة.

تتبّعت وقع الأقدام التي وصلت إلى الرواق، ثم وصلت إلى الغرفة الخلفية.

همست بصوت خافت: "يتعيّن علينا أن نتحرّك يا تاوني!"

بدا أن لا فائدة من ندائي هذا. أيقنت أنني مضطرة إلى التصرف بمفردي.

قوّست ظهري، وجهدت بكل طاقتي كي أحرّر كاحلي من معصمي. صمدت العقد، وكدت أصرخ من فرط الألم والإحباط.

تردّد صوت تحرّك بومرليو مجدداً في الصالة، ثم تلاشى عند وصولها إلى الغرفة المجاورة. وصلت خطواتها بعد لحظات قليلة إلى الرواق.

استلقيت على الأرض.

بدأ الوقت بالنفاد.

توقّفت الخطوات قبل إسراعها باتجاه الكرسي المزود بمسند. سمعت صوتاً يشبه المواء، ويقترّب من صوت الهرة أكثر من الصوت البشري، ثم ما لبثت الخطوات أن انحرفت باتجاهي.

- "إِذَا، أَرَى أَنْ فَارْتِي قَدْ اسْتَيْقَظْنَا!"

إن بقائي بوضع سلبي كان شيئاً بلا معنى. استجمعت قوتي التي أنتني من الأدرينالين، وتدرجت منقلبةً على ركبتي، ثم نظرت إلى الأعلى.

بدت بومرليو مثل تمثال من الأبنوس وسط هذه الظلمة البائسة. رأيتها مثل شبح يحمل علبة قهوة. فاحت رائحة البنزين في أرجاء الغرفة.

اجتاحني الخوف من أقصى عصبٍ في جسمي إلى أقصى عصبٍ في النهاية الأخرى منه. هل أطلب العطف؟ هل أتملّق؟ هل أتهم؟ أم هل أستجدي؟

تساءلتُ إن كانت آن قد استطاعت الخروج بطريقة ما: "أين هي صديقتي؟"

تلقيت نظرة خبيثة من بومرليو: "لم تستطع الصمود. فشلت في اجتياز المرأة".

صرخت فيها ببأس: "لم يقتل كاتس تلك الفتيات. أنت من قام بالقتل".

تقدّمت بومرليو مني، ولاحظت أن وميضاً رمادياً يضيء وجهها، فقالت بصوت

أجش: "قتل؟ ما هي اللذة في ذلك؟"

- "أنت عدّبت وجوّعت تلك الفتيات".

- "فشلت الفتيات في اجتياز مرآتي".

- "آنجي روبنسون".

أحسست، أكثر مما شاهدت، التوتر الذي سيطر على بومرليو. تابعت محاولتي:

"قولي لي لماذا فعلت ذلك".

قالت بنشوة: "أتريدين الصدق، أم تمنياتي؟"

- "ماذا فعلت بصديقتي؟"

- "أتريدين أن أقول الصدق، أم تمنياتي؟"

يا إلهي القدير! إن هذه المرأة تستمتع بهذا!

- "أنت أقدمت على تعذيب تاووني".

ارتسمت ابتسامة بدائية على شفّتها: "كانت مجرد آليس أخرى في بلاد

العجائب".

- "أقدمت على قتل فتيات صغيرات".

- "تصمد بعضهن، بينما تنهار أخريات".

- "أعطني أسماءهن".

- "لماذا؟"

- "تمتلك عائلتهن الحق بمعرفة ما جرى لهن".
- "فلتذهب عائلتهن إلى الجحيم، وأنتِ لن تستطيعي إخبار عائلتهن أيتها الحمقاء! لن تستطيعي قول أي شيء لأي شخص".
قلتُ بنبرة مستعطفة: "بحث أهلك عنك لمدة طويلة".
أجابت بمرارة: "لم يبذلوا ما يكفي من الجهود".
قلتُ كاذبةً: "إنهم مشتاقون إليك. يريدونك أن تعود إليهم".
- "لا أنوي العودة".
- "هناك أشخاص مستعدون لمساعدتك".
- "تحطمت المرأة الآن".
ومضت صورة في ذهني. شاهدت شفتي، والصور المهشمة، والمرايا المحطمة.
قالت بصوت يشبه الغناء: "تعجز كل خيول ملك الموت، وكل رجال ملك الموت، عن إرجاع الهالكين إلى الحياة".
- "ماذا حدث لأنجي روبنسون؟"
- "إنها مجرد فتاة ضائعة أخرى".
- "هل ضاعت؟ أم تحطمت؟"
- "إنها تحت الكثير من التراب".
احملها على الاستمرار بالكلام!
- "متى ماتت أنجي؟"
- "ماتت قبل وصولي".
- "أعرف ماذا حدث يا أنيغ. إنني أفهم ماذا حدث. أنزل كاتس بك الأذى، ثم حملك على إنزال الأذى بالآخرين".
- "من هو كاتس؟"
- "مينارد. قتل كاتس مينارد ثم استخدم اسمه".
انطلق الهواء من شفيتها: "مينارد... كاتس... إنهما هاويان".
- "كان شريراً. عذبك، وعذب أنجي روبنسون. اضطررت إلى مجاراته لإرضائه".
أشارت إلى صدرها بإصبعها: "لم أشرك في اللعبة. أنا حكمت، وأنا كنت الملكة".

كيو هي ملكة الكويت في ورق اللعب.

- "فعلت ذلك اضطراراً لكي تبقى على قيد الحياة".

- "أنت لا تفهمين الوضع. أنا همي الملكة، ولست الطريدة".

استمرّي بمجاراتها.

- "أعرف هذا. أنت القوية هنا يا أنيغ. أنتِ أطلقت النار على كاتس".

- "تحول ليصبح جباناً".

- "وخنقت لويز بايرنت كذلك".

- "منحتها قتلاً رحيماً".

استدعى عدم اكرائها الوقح هذا غضباً يائساً ووحشياً من جهتي. عجزت فجأة عن السيطرة على نفسي. تخليت، من دون قصدٍ مني، عن محاولاتي إقامة حوارٍ معها، فحاولت النهوض وتحركت. امتلأ وجهي بحبيبات العرق، فتدحرجت على طول ظهري.

- "أنتِ عاهرةٌ وقاسية القلب!"

ضحكت بومرليو، ونهضت على أطراف أصابعها بطريقة إيقاعية، ثم انحنت على عقبها مثلما يفعل طفل مليء بالحماسة، وانتظرتني حتى تراخيت في جلستي بينما كنت أتأوه من شدة إنهاكي.

قلت لاهتةً: "سيجذبك رجال الشرطة، ولن تتمكني من الهرب".

وضعت بومرليو إصبعاً تحت ياققتها التي تحيط بعنقها. ارتسمت ابتسامة حقودة على ذلك الوجه الشاحب الذي يشبه وجوه الأموات. انطلقت تقول بطريقة تشبه الإنشاد: "انتشلت ثلاثة أجساد من تحت الرماد، لكن الحمد لله، وبفضله، نجت ضحية واحدة من أسنة النيران".

فتحت بومرليو غطاء العلبة، وسكبت البنزين على ثيابي. شعرت أن معدتي قد تحركت من مكانها، وأن قلبي طار إلى حنجرتي.

اهدئي! ابقي هادئة

رمت بومرليو العلبة على الأرض، ثم توجّهت نحو الرواق. سمعتها أثناء عبورها الصالة، ثم وهي تتحرك نحو المطبخ، وبعد ذلك عندما دخلت إلى غرفة النوم الخلفية. دخلت بعد ذلك إلى الغرفة التي تقع إلى جوارنا. لاحظت أنها توقفت قليلاً في كل غرفة. انتقلت أفكارني نحو أن. شعرت بأسفٍ شديد تجاه آني. شعرت أنني آسفة

جداً، وغبية جداً. اقترفت خطأً كان يجدر بي أن لا أقترفه بإقحامها في هذه القضية.
انتشرت رائحة حادة ملأت هواء المنزل. يا إلهي التقدير!
صرخت: "أركضي يا تاوني! أسرعي بالخروج!"
تلويت في مكاني، وشعرت أن صدري يحترق، واخترق الألم رأسي.
عادت بومرليو بعد دقائق قليلة. لاحظت أن وجهها ينطق... بأي شيء يا ترى؟
بالابتهاج؟ أم بالحيور؟
صرخت بأعلى صوتي: "سيّصل الجيران بالرقم 911، ولهذا لن تتمكنّي من
الفرار بعيداً".

- "سّموتين عندها مختنقة من الدخان".
أشعلت بومرليو عود ثقاب، وقبعت تراقب اللهب الضئيل وهو يحدث صوتاً
خافتاً قبل أن يتزايد.
- "أراك في كاندي لاند".
نفضت معصمها.
سمعت فرقةً صاخبة، وشعرت بالحرارة ورائتي، ثم رأيت الغرفة تتراقص في
الضوء البرتقالي المضطرب.

الفصل 37

ضمُرْتُ ومضة اللهب بعد تفجّرِها الأولي، لكن الدخان الأسود الخانق بدأ يملأ الغرفة.

لم أستطع النهوض على قَدَمي. شدتني الحبال التي تشدّ وثاقي إلى الخلف، ووجدت أن كاحليّ مربوطان مع معصميّ. تحرّكت كي أستند على ركبتيّ. شعرت بحريق في عينيّ، وبحنجرتي تكاد تتسلخ من الداخل. بدأت الحرارة بالتزايد، وأخذ جسدي بالارتعاش. لن تنطفئ هذه النار من تلقاء نفسها. يتعيّن عليّ الخروج وإلاّ سأموت. تراقصت في مخيلتي مشاهد عظام كلسية بيضاء في موقدة حطب. وترأى لي هيكل عظمي متفحم في قبو محترق، وجسدان متفحمان في طائرة سيسنا محترقة.

صرخت بصوت عالٍ: "تشجعي يا برينان. فكّري!" أخذت عدة أنفاس قصيرة، سعلت، وكرّرت صلاتي. صرخت ثانية: "فكّري!" شعرت بجيشانٍ في معدتي. بلعت ريقِي، وتكلّمت ثانيةً بصوت عالٍ، وهذه المرة وجّهت كلامي إلى تاوني.

- "تاوني! هل تسمعيني؟"

أزّت النيران من خلفي وفرقت. لم أرَ سوى الدخان الكثيف من ناحية تاوني. صرخت مجدداً: "تاوني!"

تلوّيت على جنبي، وجربّت الزحف مستخدمةً روكي وركبتيّ. انزلقت عبر السجادة، وتسبّبت كل اندفاعة بألم في كتفي، وباحتكاك وجهي بها. سمعت زعيقاً تصاعد من الكرسي المزود بمسندٍ بينما كنت في اندفاعتي الثالثة. جمدت في مكاني، وانتصبت كل شعرة من شعرات رقبتي وذراعيّ.

- "تاوني!"

استمرّ العويل، بنغمة عالية الطبقة. يا إلهي! هل تحترق؟

صرختُ: "أتستطيعين التكلم يا تاوني؟"

بدأ العويل بالتلاشي ليحل السعال محلّه. وجّهت حديثي إلى نفسي أكثر مما وجّهته إلى تاوني: "أصمدي أينها المكافحة، أنا آتية".

ارتطم جسدي بالكروسي بعد ثلاث اندفاعات. أحسست بطبقة كثيفة من البنزين والغبار تنتشر على جلدي. قلت لاهثة بأعلى صوتي: "غطّي فمك، وانزلي إلى الأرض، إن كنت تستطيعين".

تزايد السعال بوتيرة هستيرية.

دفعت الكروسي إلى الأعلى مستخدمةً كتفي، ثم تراجعتُ إلى الخلف مستندةً على ركبتيّ، وجربّت أن أهزّ الكروسي مرة بعد أخرى.

صرختُ: "تاوني! انبطحي. الآن!"

سمعت جلبةً ورائي. رأيتُ جداراً غطته أسنة اللهب التي اندفعت نحو السقف، ثم انغمرت الغرفة بالضوء البرتقالي الداكن.

شعرت بحركة من حولي. نزلت تاوني مرتطمةً بالأرض بركبتيها، وتكوّمت على أطرافها قبل أن تنهار متكوّمةً إلى جانبي. شعرت بعوامل الغثيان، والألم، والخوف تسيطر عليّ، وبالكاد استطعت التنفس، وبالكاد استطعت التفكير. شرع دماغي برسم صورٍ لم أرها بالفعل.

تدلّى حبل من طوق يُستخدم للكلاب من رقبة تاوني، ولاحظت أن رجليها ويديها غير مقيدة! استدرتُ نحوها، وسعلتُ: "تاوني، عليك أن تساعدينني. تستطيعين أن تنقذيننا نحن الاثنين يا تاوني. تستطيعين أن تنقذيننا نحن الاثنين".

انكشيت تلك الكتلة البشرية أكثر فأكثر.

فكّري يا برينان، فكّري! هل تمكّنت النيران المنتشرة من إنزال أذية أكبر بها؟ هل استطاع ذلك الأمر الصارخ أن يؤثر بها أكثر من الأمر الصادر إليها بلطف؟ هل هي مبرمجة لتلقّي الأوامر؟

صرختُ بها: "فكّي قيودي يا تاوني!"

اندفعت تلك الرقبة الهزيلة.

- "الآن يا تاوني، الآن!"

استدارت تاوني نحوي. التقت عيوننا وحلّت الشفقة مكان قراري بزيادة تصلبي تجاهها.

- "ستذهبين إلى منزلك يا حبيبتي. ستذهبين إلى مانيواكي، وإلى والدتك".
أحسست بالنيران تجتاح صدري. سعلت بطريقة هستيرية.
قلت بصوت مختنق: "ستذهبين إلى ساندر".
ومض شيء ما في عينيها الغائرتين.
كررت قولي: "ستذهبين إلى ساندر".
تراخى وجه تاوني، وكان ذلك قد حصل بسبب عودة عالم ظنَّته انتهى إلى الحياة
في عقلها. فتحت فمها، وارتعشت شفتاها، قبل أن يرتسم عليهما شكل الحرف O.
كررت مجدداً: "إلى ساندر".
استدارت تاوني من دون أن تنبس ببنت شفة، وزحفت تحت الدخان، ثم أتجهت
نحو آخر المنزل.

حاولت الإمساك بها، لكن الحبال منعتني. قلت بصوت متكسر: "تاوني!"
استمررت بالسعال حتى آلمني بطني، وكدت أن أتذوق طعم الدم في فمي. انتهت
السنوبة والتفت لأنظر نحو الجهة التي قصدتها تاوني. لم أر شيئاً غير الدخان الأسود
الكثيف. شعرت بهبوط في قلبي. ها أنني تركت لأموت وحيدة.
يا إلهي القدير! هل أنا لوحدي بالفعل؟ هل ماتت آن وانتهت؟ ناديت بأعلى
صوتي: "تاوني! أرجوك".
لا جواب.

بدأت أتلوى وأتقلب كما فعلت من قبل. أصابني الانهيار نتيجة الإرهاق كما
حدث معي من قبل، وسقطت على السجادة المتسخة. شعرت أن جلدي منسلخ، بينما
كانت رئتاي تعانيان.
بدأت الغرفة تتلاشى بالنسبة إلي. فكرت، وأنا بحالة تشبه حالة من تلقى تنويماً
مغناطيسياً: "سأموت. سأموت. سأموت".

سمعت بعد ذلك صوت كشط وقرع عنيفين. بدا الصوت كأنه ناتج عن فتح
أدراج ثم إغلاقها بقوة ثانية. مرّت لحظات قليلة قبل أن أتبين شكلاً داكناً يتقدّم وسط
الدخان باتجاهي.

ومض جلد تاوني مثلما يلتمع المرمر. غطت فمها بيدي، وتمسكت بالأخرى بأداة
مفلطحة وطويلة.

ماذا؟

تحركت بعصبية. التمتع نصل سكين بفعل ضوء النيران. سكين!
بدت مفاصل يد تاوني بيضاء وخالية من الدم. حدثت للحظة بيدها، وكأنها
تحاول التفكير بجدوى وجود السكين معها. انحنت تاوني وقبّلتني حتى لامس وجهي
السجادة. شعرت بأنفاسها على رقبتني، وبتقلها على ظهري.
يا إلهي! ستقدم هذه المرأة على طعني. ما تزال كيو تتحكم بها. انتظرت طعنة
نصل السكين في ظهري، لكنني شعرت بدلاً من ذلك بضغط على معصمي، وسمعت
صوت نشر. انكبّت تاوني على قطع وثاقي! جهدت كي أرفع رأسي لأتنفس.
- "أسرع يا تاوني، أسرع!"

دفعت الحبال نحو الخارج بينما أخذت تاوني تقطع الحبال بحركة دؤوبة. شعرت
بخدر في ذراعي، ثم أحسست بانحسار ضغط الحبال عني شيئاً فشيئاً.
انطلقت يداي بحرية مبتعدتين عن بعضهما بعد فترة حسبتهما دهرأ. دفعت برجلي
نزولاً ثم انقلبت على ظهري. اخترق الألم عمودي الفقري، ثم عبر كتفي ووركي.
شعرت بوجود غشاوة أمام عيني. قلت وأنا ألهث: "أعطني السكين".
رأيت جسد تاوني كأنه أصبح جسدين، ثم سيطرت علي نوبة سعال جعلتني
أترجع. أمسكت بالسكين ثم أسقطتها. شبكت يدي وحركتهما، ثم ضربتهما بالأرض.
فعلت ذلك مرة أخرى حتى أصبحت قادرة على الإمساك بمقبض السكين.
استغرق تحرير كاحلي بضع لحظات أخرى. حاولت أن أنهض فتعثرت، وقبعت
تاوني إلى جانبي مطوّقة العنق وهي تسعل.

بحثت بيد واحدة عن وسادة. نجحت بتمزيق غطاء الوسادة الخارجي إلى نصفين
بعد محاولتين مني. تحولت هذه القطعة إلى كمامتين. وضعت إحداها فوق أنف تاوني
وفمها، ثم أخذت راحة يدها وجعلتها تضغط عليها. ووضعت الأخرى على وجهي.
اخترقت أصابع قدمي وخزة جليدية. اندفعت لأقف ودفعت إحدى ركبتي قدماً.
حركت إحدى يدي. قدّمت ركبة أخرى، وأيقنت أن أطرافي تعمل جيداً. أمسكت ذراع
تاوني وسحبتهما. زحفنا معاً على قوائم ثلاث من الرواق باتجاه مدخل المنزل حيث
كانت ألسنة اللهب أخف قليلاً.

تلاعبت نسائم الليل الباردة بمنخري بعد أن ابتعدنا مسافة ست أقدام. انحنيت
قليلاً، واندفعت ببأس نحو الرواق. فتحت الباب، فتعثرت بسترتي المقلنسة. دفعتهما
جانباً، ثم اندفعت إلى الخارج، وسرت في المشى بينما كنت أجر تاوني خلفي.

امتلاً هواء الليل برائحة منعشة من الجليد والخيول والحياة. بردت الرياح وجهي المتصبب عرقاً، وعلقت بعض حبيبات الجليد على خدي، وما لبثت أن انزلت عن كنفِي ووجهي.

مسحت الدموع عن عيني، ثم نظرت نحو تاوني. رأيت أنها شبه عارية وهي تجلس على الجليد، وقد انخرطت بالبكاء راحت ترتجف كما يفعل طفل مرتعب.

حدقت إلى المنزل الموجود خلفي. تدافع الدخان من بعض النوافذ، وتصاعد بشكل عمود من الباب الأمامي الذي فتح منذ وقت قريب. تزايدت ألسنة اللهب وتسارعت بفعل الهواء المندفِع إلى داخل المنزل. لم أجد أية دلائل أخرى على الكابوس الدائر داخل هذا المنزل.

تجمد صدري وسط تنهده. أصغيت جيداً... لم أسمع صوت صفارات الإنذار. لم يتوجه أحد باتجاهنا! ذلك يعني أن لم تتصل بأحد! ولم يفعل هذا أي شخص آخر بالطبع. ارتفعت يدي إلى فمي.

أن! أيعقل أن تكون على قيد الحياة؟ تحدثت كيو عن ثلاثة أجساد غارقة في الرماد. هل أن ما تزال في الداخل؟

اندفعت إلى مدخل المنزل، تناولت سترتي وأسرعت عائداً، وجئمت لأتمكّن من تغطية تاوني. تساقطت حبيبات الثلج على السترة وارتدت عنها.

- "هل رأيت امرأة أخرى في المنزل؟"

استمرت تاوني في نحيبها وارتجافها.

أمسكتها من كتفيها وكررت سؤالها، فأومأت تاوني بالإيجاب.

- "أين؟"

ارتعشت الكتفان النحيلتان. صرخت بها: "أين؟"

- "على الأرض."

- "في أية غرفة؟"

نظرت نحوي، لكنها لم تتكلم.

- "في أية غرفة يا تاوني. في أية غرفة؟"

هزتها وكررت سؤالها. رأيت وجهها ملطخاً بالرماد، وقد امتلأ شعرها بحبيبات

العرق: "إنها في الخلف... القبو... أنا لا أعرف."

وقفت دون حراك وترددت. صفعت أنفي رائحة الحريق الحادة، بينما تزايد حجم

الوميض البرتقالي اللون.

لم تجد آن الوقت الكافي للاتصال برقم النجدة 911! يتعين عليّ أن أعود لأبحث عنها! لكنني كنت مبللة بالبزيرين.

فككت حذائي بأصابع مرتجفة وخلعته. نزعنا ملابسني عني وبقيت بملابسي الداخلية، ثم دسست قدمي ثانية في الحذاء. بلّلتُ غطاء الوسادة بالثلج وانطلقت عائدة إلى المنزل، بينما اعتصرت رأسي دوامة من الألم. قرفصت بعد أن دخلت من خلال الباب المفتوح، ثم مشيت بهذا الوضع من خلال الدخان.

اتجهت متعثرة نحو الكرسي ذي المسند. تناولت غطاء تاووني، وغطيتُ كتفي، ثم شققت طريقي نحو الجهة الخلفية من المنزل. حاولت مجدداً أن أتذكر تصميم القاعة الخلفية. نجح دماغني المعذب هذه المرة برسم تصميم لهذا القسم من المنزل. يقع المطبخ إلى اليسار، وتقع الصالة إلى اليمين، بينما يتواجد مكتب، أو غرفة نوم، وراءها. يبدأ الدرج المؤدي إلى القبو من غرفة النوم التي تقع أمامي مباشرة.

امتألاً للمر بالدخان مع أن أسنة اللهب لم تصل إليه. تحسّست طريقي على غير هدى، وشعرت بألم شديد في صدري وحنجرتي. ضجّت أوتار ركبتني من الألم، وارتطم مرفقي أو ساقي بعدة أشياء بين حين وآخر. تابعت طريقي متخبطة بعد أن مددت يدي، أما يدي الأخرى فوضعتها على فمي. اتّجهت أفكاري نحو آن فقط. اصطدمت يدي الممدودة بشيء صلب. انقلبت معدتي، وتذوّقتُ طعم الصفراء في فمي.

وضعت راحة يدي على الباب فوجدته ساخناً. تحرّكت راحة يدي إلى الأعلى فوجدت الباب أكثر سخونة.

يا إلهي! لا!

لمست مقبض الباب، فوجدته حاراً جداً. أدّرت المقبض، وفتحت الباب قليلاً. رأيت أسنة اللهب تتلوى من السرير وتلفّ حول الستائر الموجودة في آخر الغرفة. رأيت شكلاً ما وسط الظلال المتراقصة.

فتحت الباب على مداه.

- "آن!"

لم يتحرّك ذلك الشكل.

- "آني!"

لا حركة.

وضعت قطعة القماش جانباً، وزحفت باتجاه أن، ثم نزع الغطاء عن كتفي وطويته عدة طيات ووضعتني إلى جانبها.

تفجّر الألم في رأسي عندما جلست. أجبرت موجات الألم على التراجع إلى خلفيّة قعر جمجمتي. حشدت ما تبقى لي من احتياطات بدأت بالنضوب، وقلبت أن فوق الغطاء، ثم غطيتها به. انفتح الغطاء فدمسته ما بين جسد أن وبين الأرض. تحسّست بيدي طرف الغطاء، وربطت زاوية منه على كل يد من يدي، ثم بدأت بالانسحاب من الغرفة، وبعد ذلك من الصالة.

شعرت أن أن تزن ألف رطل. حاولت أن أطمئنّها من خلال كمامتي. لم أخصّص وقتاً كي أتفحص نبضات قلبها. هل ما زالت على قيد الحياة؟ أرجوك، يا إلهي!

جهدت بجرّ عربيّ المرتجلة، ونجحت بالتقدم بوصات قليلة مع كل اندفاع. شعرت بتصلب شديد في ذراعيّ وساقيّ. استمرّيت بالسحب مرة بعد أخرى. رحّت أسعل وسط لهائي المستمر، ويئست كل خلية من خلايا جسدي من الحصول على نصيبها من الهواء. أجملت عندما انفجر، أو ارتطم شيء ما في المنزل. تراجعت إلى الرواق، وأدرت رأسي يمنة ويساراً لأحصل على تقييم سريع للوضع. استطعت أن أرى من خلال الدخان المنتشر ألسنة اللهب وقد أحاطت بالجدران. لاحظت أن ممراً ضيقاً في الوسط لم تحاصره النيران بعد.

انعطفت باتجاه القاعة الأمامية بعد وقت خلته طال لساعات عدة. شعرت بحريق في عينيّ، وبحريق آخر في صدري، وبحريق ثالث في معدتي. استندت بيدي على إطار الباب. انحنيت وتقيأت المزيد من الصفراء. أردت أن أجلس على الأرض وأتكور على نفسي، ثم أستغرق بالنوم.

هدأت معدتي قليلاً، فأعدت إمساك الغطاء. ارتعشت ذراعي ورجلاي وترنّحت إلى الخلف أثناء سحبي الغطاء بكل قوتي اليائسة.

تحوّل الرواق إلى جحيم. وزحفت ألسنة اللهب على الأثاث الخشبي، والتهمت طاولة المكتب، ثم أحاطت بالأريكة. فرقع أثاث المكتب قاذفاً بعض الكسرات نتيجة الاحتراق، وانتشرت الشذرات والشرارات باتجاه الصالة الأمامية والرواق. تخطّيت حدود الوعي، وتخطّيت حدود التفكير. أدركت فقط أنه يجدر بي أن أستمرّ بالسحب،

وأن أترجع لمسافة قدم أو قدمين، وأعود السحب ثانية.
بقيت مسافة خمس ياردات ورائي تفصلني عن المدخل الأمامي للمنزل.. ثلاث
ياردات.. ياردين..

انشغل عقلي بترديد صلاة تحث جسدي على عدم الفشل. حثته الصلاة على
اجتياز الرواق. وحثته على اجتياز عتبة الباب. وحثته على الوصول إلى الباحة
الأمامية.

تهالكت على الأرض عندما تأكّدت من أن رجليّ أن أصبحنا خارج المدخل، ثم
وضعت أطراف أصابعي فوق حنجرتها. لم ألاحظ نبضاً محسوساً.
- "ستكونين بخير يا صديقتي الحميمة".

حامت نقاط سوداء خلف أجفاني. تساقطت حبيبات الثلج على ظهري، وأحسست
بالأرض الجليدية تضغط على ركبتيّ.

انتشرت حولي معزوفة ضجيج متنافرة النغمات. جهدت لتحليلها، ثم سمعت
نشيجاً. هل يصدر النشيج عن آن؟ أم عن كاتي؟

سمعت صوت ألسنة اللهب في تمايلها وقذفها للشذرات المحترقة. مرّت لحظات
ثقيلة، وسمعت أصواتاً.

هل هي أصوات المطر المنهمر على نبتة المغنولية؟ لا. فأنا الآن في مونتريال،
وفي دي سيياستوبول. رأيت الثلج الذي يغطي عربات سكك الحديد في الباحة. أي
باحة هذه؟

سمعت دممة محركات بعيدة. سمعت صوت أبواق سيارات مكتومة، وسمعت
عويل الذئاب الشمالية في صحرائها البعيدة.

إنها ليست أصوات الذئاب، إنها أصوات صفارات الإنذار.
تجمّدت النقاط الصغيرة لتصبح نقاطاً سوداء وصلبة.

الفصل 38

إنسي مع الذين يقولون إنه ينبغي على المرء أن يتجنب المستشفيات، ذلك أن الناس يموتون هناك.

نهضت من سريري بعد مضي عشر ساعات على وصولي إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. وضعت الرداء الذي أعطاني إياه شاربونيو في منزل كاتس الليلة الفائتة، ثم غادرت المستشفى العام.

كيف غادرت المستشفى؟ مشيتُ على قدمي. تسلّلت كما فعلت ماك جي وبومرليو.

كتبت رسالة وداعية إلى الذين قدّموا إليّ الإسعافات اللازمة، أعفيتهم فيها من كل مسؤولية، وهو الأمر الذي لم تفعله ماك جي ولا بومرليو. بدت الكتابة بالنسبة إلي مهمة صعبة بسبب وجود أربطة ومراهم حول يديّ الاثنتين.

أقلنتي سيارة أجرة، وأوصلتني إلى منزلي في غضون عشر دقائق. اتّصل بي رايان هاتفياً في غضون عشرين دقيقة: "هل أنت مجنونة؟"

- "أنا أعاني من حروق قليلة ومن صدمة بسيطة. أعتقد أن الكنديين الذين يقصدون المناطق الجنوبية يتعرّضون أحياناً إلى ضربات شمس أخطر بكثير."

- "تحتاجين للراحة في المستشفى."

- "سانام بطريقة أفضل هنا."

- "هل سعت شريكك للخروج من المستشفى، مثلك؟"

ألتمتني الابتسامة التي لاحت على وجهي مثلما تفعل الشطية: "تعاني أن من بعض الارتجاج، لذلك تبدو فكرة هروبها غير واردة."

- "أعتقد أن آن تتمتع بالدماغ الذي يمتلكه الناجحون."

- "ستخرج غداً من المستشفى. وسنسافر جواً إلى شارلوت يوم الجمعة."

- "ستسافران إلى المكان الذي يُعتبر الشتاء فيه مناسبة مزعجة عابرة."

- "لا يستخدمون القفزات هناك، ولا حتى الرفوش".
- "هل تلت بالفعل مقطوعة فلتدخلي إلى ذلك الدير؟"
- "أرادت أن أن تسفرد بنفسها. سعت وراء الأشياء الأوفر لها، وقدم لها الدير غرضاً نظيفة، ووجبات محترمة، والانفراد بالذات الذي يحلم به المرء".
- رجعت بذاكرتي إلى الورا. تذكرت حبيبات الجليد فوق بطني، والنيران. تذكرت شاربونيو وهو يصدر أوامره، وكلوديل أثناء تغطيته لي بشيء دافئ وناعم.
- سألتُ رايان: "هل من أخبار جديدة عن بومرليو".
- "لن تستطيع الابتعاد كثيراً".
- "قد تكون في أونتااريو الآن، أو حتى ما وراء الحدود".
- "وجدنا دراجة قديمة في كوخ كاتس. أعتقد أنها كانت وسيلة تنقلها الأساسية".
- "كيف تقدر تمكّنها من نقل ماك جي من المستشفى العام إلى ذلك المنزل في بوان؟"
- "هناك احتمالات كثيرة؛ إما بسيارة أجرة، أو بالباص، أو بالمترو، أو بالتنقل المجاني".
- "أين هي ماك جي الآن؟"
- "عادت إلى المستشفى العام".
- "ماذا يحصل الآن في دي سيباستوبول؟"
- "وجد رجال مكتب التحقيقات جداراً مستعاراً ثانياً في القبو".
- "يبدو أن هذا المكان هو الذي أخفت فيه بومرليو ماك جي خلال حملة التفتيش عنهما".
- "يُحتمل هذا. وجدنا هناك جهاز الكمبيوتر المحمول الذي تستخدمه آن، وآلة التصوير العائدة لها".
- "أعتقد أن بومرليو هي التي اقتحمت منزلي وخرّبته".
- "يبدو الأمر كذلك. يُحتمل أن يكون كاتس قد ساعدها".
- "هل فعلاً ذلك لإخافتني، ومنعي من متابعة قضية القبو؟"
- "أظن ذلك. يُحتمل أنها رأّت جهاز الكمبيوتر المحمول وآلة التصوير أثناء تسلّها إلى شقتك، واعتقدتُ أنهما يعودان إليك، ويُحتمل أن تكون قد ظنّنت أنهما يحتويان على أدلة تتعلّق بالهياكل العظمية. سنُخبرنا روايتها عندما نقبض عليها".

- "كيف عرفتُ مكان إقامتي؟"
- "لم يعد مكان سكنك أو عمالك سريراً بفضل الصحافة. امتلكت بومرليو تلك الدرجة، وأعتقد أنها انتظرتك خارج، ويلفريد ديروم، وتبعتك إلى العمارة التي تسكنين فيها، ثم انتظرت لتعرف أية شقة تضيء أنوارها."
- "أعتقد أن بومرليو مصابة برهاب المرايا."
- "بل إن الأمر يتعدى ذلك بكثير."
- "إنها شديدة الاحتيال نظراً للطريقة التي ضللتنا بها."
- "وضعت طوقاً، وشريطاً، ولعبت دور الضحية."
- "صدقتها أنا يا رايان. كدت أبكي عندما رأيتها في تلك الزنزانة."
- "إننا معرضون جميعاً لهذا النوع من الاحتيال. هل استلمتِ باقة الزهور؟"
التقتُ باتجاه طاولة السفارة. بدت الباقة بحجم لارامي في ولاية وايومينغ.
- "إنها جميلة. سأطلب من مصلحة مياه كيبك خط مياه ثانٍ لأسقيها."
شعرت أن قوتي تتناقص، وأظن أن رايان لاحظ مدى التعب الذي أعانيه من صوتي.

- "يعتزم كلوديل وشاربونيو إخبارك بالكثير عندما تتحسن حالتك. أريدك الآن أن تأكلي شيئاً، وأن تقفلي الهاتف، وتسرعني إلى المطبخ لتتناولي مشروباً مدهناً."
فعلت ما قاله بالضبط، ونمت حتى الظهر.
بدا استيقاظي بمثابة الوصول إلى خط نهاية سباق رياضي. شعرت بانزعاش ونشاط كبيرين. وشعرت أنني مشبعة بحيوية عظيمة تمنحني القدرة للسير على وجه الماء. استمر هذا الشعور إلى أن تطلعت بالمرآة.
بدا وجهي مليئاً بالبثور، ورأيت شعري محروقاً، أما ما تبقى من حاجبي ورموشي فبدت مثل مسامير صغيرة ومتجعدة.
ساعدني الاستحمام على تحسين وضعي قليلاً، لكن مساحيق التجميل أفادتني بنسبة أقل. رحلتُ أتساءل عن ردة فعل كاتي عندما تراني يوم الجمعة، وتخيلت كلوديل بأناقته المفرطة، وتجاعيده الواضحة.
- "يا للفضاعة!"

توجهت إلى مركز شرطة مونتريال بعد أن أعدت ربط يدي. قلت لموظفة الاستقبال: "أريد مقابلة العريف في التحري شاربونيو، أو كلوديل، من فضلك".

بقي وجه موظفة الاستقبال خالياً من أية تعابير عندما تحدّثت إلي باللغة الإنكليزية: "هل كانت ليلة حافلة؟"
- "كانت مثيرةً حقاً".

تخيّلت نفسي أجول في السماء. يا للعظمة! انتشر الخبر. سينشغل زملائي الذكور من رجال الشرطة بيوم مثير.

نزل شاربونيو ليسهل مروري من خلال الإجراءات الأمنية. سألتني عن وضعي، ثم تقدّمتني حتى وصلنا إلى غرفة فريق عمله، وأبقى أنظاره في خط مستقيم.
دخلت الغرفة وسط الصفير والتصفيق. تناول العريف في التحري آلان تيبو كيساً من طاولة مكتبه، ونهض، ثم تقدّم نحوي. بدا لي أنه ينتمي إلى ذلك النوع من الرجال الشجعان في فيلم من إنتاج ديزني. أعرف أنه إذا احتاجت الفرقة إلى مهرج فسيُنتخب تيبو ليلعب هذا الدور، ذلك لأنني أعرف أنه يتمتّع بحس الفكاهة: "لسنا في الولايات الجنوبية يا دكتورة، فالطقس بارد جداً هنا في مونتريال. جمعنا مبلغاً من المال واشترينا لك بعض الثياب المناسبة".

قدّم إلي تيبو الكيس بجديّة ظاهرة. احتوى الكيس على كنزة زرقاء، أما الكلمات المكتوبة عليها فكانت باللون أحمر الساطع:

لا شيء أسوأ من الطقس السيئ، سوى الملابس غير الملائمة.

- مثل اسكتلندي قديم

ظهر تحت هذا المثل رسم امرأة صنعت رجل ثلج وسط عاصفة ثلجية. بدا لون شعر المرأة برتقالياً، أما لون بشرتها فكان زهرياً. ارتدى رجل الثلج قبعة، أما المرأة فاكتفت بانتعال حذاء مستدق الكعب، وبارتداء حمالة صدر، ولباس داخلي.

قلّبت عيني، ووضعت الكنزة في الكيس مجدداً. توجّهت مع شاربونيو نحو كلوديل، وشققنا طريقنا بين الطاولات، وسالل النفايات، والأرجل الممدودة.

سمعت صوتاً من ورائي: "سيطالك كلوديل بدفع ثمن المعطف. ربّني الأمر مع النقيب ليضعه في خانة لوازم العمل".

سأل تيبو: "هل سيعطيك جلد النمر حافزاً ليوم الثلاثاء يا دكتورة؟"

أجابته صوت آخر: "سمعت أن يوم الأربعاء مخصص للسيرك".

وجّهت ما بقي من حاجبي نحو شاربونيو.

بدأ بالتكلم، لكن تيبو قاطعه: "لا تقلقي يا دكتورة. يمتلك كلوديل مجموعة كاملة من الكلاب الصغيرة ذات الوجوه الضاحكة. إنه يعرف كيف يبقى جزءاً منه ضاحكاً بينما يسيطر الامتعاض على ما تبقى منه".

نهض كلوديل بعد أن تناول ملفاً من حافظة المستندات الواردة، وأسرعنا نحن الثلاثة بالتوجه إلى غرفة المقابلات.

جاء صوتي بارداً إلى درجة تمكنه من الحفاظ على المتلجات جامدة على مدى أسبوع كامل: "أرى أن ملابسي الداخلية دخلت في القضية أيضاً".

قال كلوديل: "لا يمكن إخفاء هذه الأمور".

- "أحقاً؟"

أضاف شاربونيو: "لسنا المسؤولين عن هذا يا دكتورة. صدقاً".

صدقت كلامه بطريقة ما. رتبنا الكراسي حول طاولة قديمة قدمتها الحكومة.

قال كلوديل: "أعتقد أنك بحالة أفضل".

سبق لكلوديل أن ضحى بمعطفه الكشمير ليدفئني: "نعم. أشكرك على سماحك لي

باستخدام معطفك".

أوما كلوديل، ومرّت لحظة من الصمت.

سألت: "هل مات مينارد؟"

أوما كلوديل مجدداً.

- "كيف يمكنك التأكد من هذا؟"

فتح كلوديل ملفه، ثم دفع صورة فوق سطح الطاولة: "اكتشفنا هذه الصورة في

بيت مينارد في فيرمونت".

بدا أن الصورة المطبوعة على زاوية الورقة ذات اللونين الأسود والأبيض، هي

من إنتاج منزلي، أي مثل الصور التي يُنتجها الهواء. بقيت الصورة واضحة بالرغم

من أنها باهتة قليلاً. ظهر في هذه الصورة رجل طويل ونحيل في قبر ضحل، وبدت

الركبتان في حالة انثناء، واليدان مربوطتين مع الكاحلين. بقي وجه مينارد مميزاً

بالرغم من بعض التشويهات نتيجة الموت.

قلبت الصورة على قفاها. كتب أحدهم الحرفان: س. م. بالإضافة إلى التاريخ

.85/9/26

- "هل أقدم كاتس على قتل مينارد في كاليفورنيا في شهر أيلول/سبتمبر من

العام 1985؟ وهل احتفظ بصورة عن الجنة؟"

قال كلوديل: "يعتزم مدير الشرطة القيام ببعض الحفريات بجانب مقطورة كاتس القديمة".

قلت بدوري: "اختفت أنجيلا روبنسون في تشرين الأول/أكتوبر من العام خمسة وثمانين. ويقول الجيران إن مينارد عاد إلى فيرمونت في شهر كانون الثاني/يناير التالي".

أسند شاربونييو مرفقيه على الطاولة وانحنى قليلاً: "لكنه لم يكن مينارد. أعتقد أن كاتس فكر بتنظيم عرض الرعب الخاص به عن طريق تقليد ما قرأه في تغطية وسائل الإعلام لقضية كاميرون هووكر - كولين ستان. تابع ذلك المهووس ما يجري من يوبا سيتي، الموجودة إلى يمين الطريق الآتية من رد بلوف. وتابعت الصحافة تقديم تفاصيل متتابعة عن فتاة الصندوق".

قال كلوديل مقاطعاً: "حصل ذلك في وقت كان فيه كاتس يتقرب من مينارد. لم يشأ كاتس أن يكرّر غلطة هووكر عندما بقي قرب مسرح جريمة الخطف، وهكذا اعتبر أن مزرعة مينارد هي المكان الأمثل لتنفيذ خيالاته. أقدم كاتس على قتل مينارد، ثم قبع منتظراً فريسته".

قلت: "أتعني أنجي روبنسون؟"

تابع كلوديل: "خطف كاتس روبنسون ونقلها إلى فيرمونت، وما إن أصبح هناك حتى استغلّ واقع شبهه مع مينارد".

قلت: "أرسل شعره في ضفائر، وأطلق لحيته، ثم ابتعد قدر مستطاعه عن سكان المنطقة".

أشّر شاربونييو بإصبعه في الهواء ثم استرخى في مقعده: "أصبحت".

سألت: "لماذا غادر فيرمونت؟"

قال كلوديل مقترحاً: "لعل كاتس أصبح عصبياً. وأعتقد أن عدداً ولو قليلاً من الجيران كانوا يعرفون مينارد بالفعل، ولعل أنجي ماتت".

- "عاشت أنجي، وفقاً لتقديراتي، حتى قاربت عمر الثامنة عشرة. يوصلنا هذا التاريخ إلى سنة 1988، وهي السنة التي قُتل فيها الجد والجدة كورنيو".

قال شاربونييو مندهشاً: "نعم، سنتحقق من تلك المسألة".

قال كلوديل: "لعل كاتس أحب فكرة البلاد التي لا يطبق فيها حكم الإعدام".

افتترض الرجل أن وجوده ما وراء الحدود يجعل تتبعه أمراً صعباً، ولعله افترض أن أحداً في مونتريال لا يعرف مينارد. جمع الرجل أغراضه وتوجه شمالاً لسبب لا نعرفه".

قلت: "رحل مع أنجي، أو مع جثتها".

قال شاربونييو: "خدع ذلك المحتال أقرباء مينارد بشخصيته المنتحلة، فتظاهر أنه فرنسي وأصبح ستيفان مينارد، واستأجر محلاً من عند ساير، وفتح متجرأ مثل ذلك الذي امتلكه في يوبا سيتي".

قلت: "فتح متجراً لهواة التجميع".

- "كان ذلك اللعين المنحرف هاوياً للتجميع بكل معنى الكلمة".

دفع كلوديل صورةً أخرى فوق الطاولة.

عرف مكتب التحقيقات الجنائية الصورة بوصفها صورة تتعلق بمسرح الجريمة. بدا أن موضوع الصورة الرئيسي كان لوحة خشبية مغطاة باللباد. وضعت فوق اللوحة ثلاث آذان بشرية، اثنتان منها مكتملتين، ولم تكن الثالثة مكتملة. بدا أن هذه الآذان ممطوطة ومثبتة بدبابيس، مثلما يفعل البعض بالحشرات. توترت معدتي لرؤيتها.

قال شاربونييو: "أقدم ذلك المنحرف المريض والحقير على تجميع الأعضاء البشرية لضحاياه".

تذكرت علامات الحزوز الموجودة على الجماجم الموجودة في مختبري.

- "لعل بومرليو هي صاحبة فكرة أخذ التذكارات".

- "أحقاً؟"

أشّرت نحو الأذن المجترأة: "اقتطعت أذن أنجي روبنسون بعد وقت طويل من وفاتها، أي عندما أصبحت العظام أكثر جفافاً، وبدلنا هذا على أن كاتس لم يفعل هذا في البداية. أعتقد أن الآذان الأخرى قد اقتطعت قبل أن تبدأ العظام بالجفاف".

- "أستطيعين تحديد ذلك من علامات الحزوز؟"

أومأت، وبلعت ريقِي.

- "فصلت تسع سنوات ما بين خطف بومرليو وخطف ماك جي. أعتقد أنه أثناء

تلك المدة جرى تبدل في ميزان السلطة ما بين المختطف والمختطفة".

مرّر شاربونييو يده على شعره: "أي أن متلازمة ستوكهولم قد عكست".

قلت: "احتجزت باتي هيرست في خزانة لمدة وصلت إلى ثمانية أسابيع، أما

كولين ستان فاحتُجزت في صندوق لمدة سبع سنوات. اختُطفَت آنيغ بومرليو في العام 1990، أي عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها".

ساد الصمت، وتأمّلنا في الضرر اللامحدود المحتمل الذي يحدث في تلك المدة من الوقت.

تكلّم كلوديل أولاً: "عُذِّبت بومرليو، ثم حاولت أن تسترضي كاتس، ويُحتمل أن تكون قد اقترحت عليه الحصول على ضحية أخرى".

تدخل شاربونييو: "لعل فكرة الحصول على ضحية جديدة كانت من كاتس، ربما أصابه الطمع، فقرّر توسيع مجموعته. رأَت بومرليو في تلك القادمة الجديدة وسيلة لتعزير الحلقة: إذا أنزلت الإساءة بماك جي فإنها سترضي كاتس. استطاعت أن تتصرّف كما يحلو لها في النهاية".

قلتُ: "أصبحت المتحكّم بها هي المتحكّمة، أو أننا نستطيع القول إن بومرليو وكاتس قد اتّحداً سوية".

استطردتُ بالتفكير أن هذا هو ما حدث مع هومولكا وبرناردو. تابعتُ بالتذكير: "اتخذ كاتس أسيرتين إضافيتين ما بين بومرليو وماك جي. أستطيع أن أقول إنهما لم تغادرا منطقتهما، وذلك حسب تحليل نظير السترونشيوم".

تقلّصت عضلات فكّي كلوديل ثم انبسطت: "سنتمكّن من تحديد هويتهم. تستطيعين التأكّد من ذلك".

انحنى شاربونييو مجدداً نحو الطاولة: "لديّ سؤال لك يا دكتورة. إن كانت أنجي روبنسون هي أول أسيرات كاتس، لماذا إذاً كانت عظامها هي الوحيدة التي ظهرت عليها تلك المادة التي تسيل من جثث المتوفين حديثاً؟"

سبق لي أن وجّهت ذلك السؤال إلى نفسي.

- "يقوم حامض التتيك الموجود في الجلد بدور المادة الحافظة. ويُحتمل أن تكون أنجي قد ذُفنت بدايةً في مكان آخر أكثر رطوبة من قبو مطعم البييترا".

وجّه شاربونييو ذهنه باتجاه كلوديل: "إننا نظن ذلك أيضاً. نعتقد أن الفتاة توفيت في فيرمونت فدفنها كاتس هناك، ثم عاد لاحقاً نحو الجثة. عجزنا مع ذلك عن تفسير السبب الذي جعل كاتس ينشغل بذلك. نعتقد أن ما أخبرتنا إياه عن الأذن هو أمر أساسي في القصة".

- "عاد كاتس ليحصل على الأذن فقط، لكنه انتهى أخيراً إلى إحضار الجثة إلى

مونتريال. لماذا؟"

- "لعله شعر بأمان أكثر عندما وضعها تحت قدميه."
- "أعطى ساير المتجر لكابتس في العام ثمانية وتسعين. وإذا كان قد سبق له الحفر ونقل أنجي روبنسون في المرة الأولى، فلماذا إذاً تركها مع الاثنتين الباقيتين في تلك العمارة؟"

هزّ شاربونيو كتفيه: "بدأ كاتس هوايته الشريرة منذ أن اختطف روبنسون في العام خمسة وثمانين، ولعله بدأ يشعر وكأنه قوة لا تقهر، وعدا عن ذلك، أين كان بإمكانه دفن الجثث؟ لا شك في أنه عجز عن حفر القبور في فناء آل كورنيو الأمامي."

قلت بمرارة: "استخدم القبو لأمر غير هذه."

مرّت لحظة من الصمت عندما أخذنا نفكر بالأمر. كسرت فترة الصمت هذه.

- "برأيكما من هو الشخص الذي رأته لويز بايرنت؟"

قال شاربونيو: "لعلها رأت بومرليو، ولعلها رأت أيضاً إحدى الفتيات الأخريات. يُحتمل أن يكون كاتس قد احتفظ بفتياته تحت متجر رهنياته، وذلك أثناء تحضيره لعربة الاستقبال في البوان."

قلت: "اعترفت بومرليو أنها هي التي قتلت بايرنت."

- "لا أشك في أنها متورطة بهذه القضية. وجد رجال مكتب التحقيقات الجنائية عنوان روز فيشر في قبو سيباستوبول. أعتقد أن جريمة قتل بايرنت قد تمت بتحريض من كاتس. ويُحتمل أنه أبلغ بومرليو أن تلك السيدة العجوز قد رأته مع أسيراته في متجر الرهنيات. أعتقد أنهم ظلّوا يراقبون بايرنت، وعندما اكتشفت الجثث اعتقد الاثنان أنه ينبغي عليهما التحرك قبل أن تتحرك هي."

هزّ شاربونيو رأسه وتابع: "إنه أمر يدعو للسخرية، أليس كذلك؟ حاول إخفاء كل شيء في قبو دي سيباستوبول، وهذه هي الأشياء الوحيدة التي نجت من النيران."
قال كلوديل: "لربما يفسّر هذا عدم وجود صديقك هناك في الأسفل. أعتقد أن بومرليو خطّطت في البداية لجر السيدة تورنيب إلى القبو ثم غيرت رأيها، خشية ألا تمتدّ النيران إلى القبو."

شعرت أن يديّ أصبحتا بشكل قبضتين: "أو لعلها تعبت، وتركتها لهذا السبب."
تطلّع إليّ كلوديل مواجهاً عينيّ مباشرة: "كنتِ على حق بشأن الأزرار. لا أشك

في أنها سقطت من كاتس أثناء وجوده في قيو مطعم البيترز. أعتقد أن لا علاقة لهذه الأزرار بالجثث".

لم أشعر بارتياح نتيجة كوني على حق، بل شعرت بحزن موجه. شعرت كذلك بالإرهاق. وبدأت قوتي بالانحلال مثل الجزء الأعلى من جورب قديم. أرخيت يدي وشبكت أصابعي. بقي من المهم بالنسبة لي الحصول على إجابة واحدة.

- "متى عرفتم أنني توجهت إلى دي سيباستوبول؟"

قال شاربونييو: "استلمت رسالتك عندما كنت في طريق عودتي من فيرمونت. علمنا أن مينارد قد توفي من تلك الصورة، وعرفنا أن كاتس قتله. علمنا أيضاً أن بومرليو وماك جي هما على قيد الحياة. علمنا أيضاً أن كاتس قد مات. توجهت أنا ولوك إلى المركز مباشرة، فوجدنا التقرير الذي ورد فيه أن بصمات بومرليو موجودة على المسدس الذي استخدمه كاتس لقتل نفسه".

قلت مخمئة: "لم تكن بصمات كاتس على ذلك المسدس".

- "قال الدكتور لامانش أن يدي كاتس كانتا خاليتين من أية آثار. تذكرنا بعد ذلك الأشياء التي أخبرتنا إياها والمتعلقة بعملية غسل الدماغ، ثم ربطنا ما بين المعطين. توجهنا على الفور إلى دي سيباستوبول وراهنّا على وصولنا إلى هناك قبل أن تجدي بومرليو وتتورطي في متاعب كبيرة".

- "شكراً لكما".

ابتسم شاربونييو ابتسامة عريضة: "هذا هو واجبنا أيتها السيدة".

تطلعت نحو كلوديل قائلة: "شكراً لك أيها التحري. أنا آسفة فعلاً بشأن معطفك".

أوما كلوديل: "أبديتِ قدراً عظيماً من سعة الحيلة والشجاعة".

- "شكراً لكما مرة ثانية. أقدم شكري لكليكما".

وقفنا جميعاً، ومشيت نحو الباب.

- "لكثورة برينان".

نظرت مجدداً نحو كلوديل، فرأيت زاويتي فمه تنفرجان عن شيء يشبه ابتسامة عريضة: "لم أكن من المعجبين بك من قبل، لكنني اكتسبت بسببك تقديراً جديداً لجد النمر".

الفصل 39

لم أكد أستيقظ حتى اتصل بي رايان ليلة الأربعاء. رجعت إلى عالم النوم بعد أن تمتعت عدة مقاطع: "مم" و"آه... ها".

لم أتذكر أي شيء حتى تسللت أشعة الشمس من خلال نافذتي. نظرت باتجاه الساعة التي أشارت عقاربها إلى العاشرة والنصف، ثم رأيت وجه بيردي على بعد بوصات قليلة من وجهي، وسرعان ما انطلق الجرس بالسقسقة.

تناولت رداء الحمام، ثم توجهت متعثرة نحو لوحة الأمن. شاهدت من خلال الشاشة رايان مرتدياً قبعة الميلاد. لاحظت أنها تحمل كلمتي بابا نويل مطرزين على فرائها.

مسدت شعري بيدي، وابتسمت ابتسامة تشبه تلك التي ترسم على الوجوه السعيدة لخدم كلوديل. شاهدت على الشاشة أيضاً انفتاح الباب الخارجي، ودخول امرأة شابة إلى الرواق. شاهدت أيضاً جدائل لولبية سوداء اللون. بدت الشابة طويلة، ولاحظت قرطبيها اللذين أخذوا شكل طارتين.

رأيت رايان وهو يعانق تلك المرأة التي لازمته. جذبت هذه المرأة قبعة الميلاد التي يرتديها.

جمدت يدي في منتصف طريقها نحو الزر، وتقوضت ابتسامتي؛ إنها ملكة الغواني!

شعرت أن جبلاً من الجليد قد سقط على صدري.

استدارت ملكة الغواني، ورأيت جلدها الذي يميل إلى لون القهوة بالحليب. بدت من تعابيرها كأنها تنتمي إلى مكان آخر مثل تكريت أو كابول. إنها تنتمي إلى أي مكان آخر غير الرواق. ابتسم رايان وعانقها مجدداً. تلوت المرأة، وحررت نفسها، ثم ناولته قبعته.

يا إله السموات! هل ينوي هذا الحقيير المغرور إجراء تعارف بيننا؟

ألقيت نظرة على صورتي في مرآة الحائط. بدت ملابسي زرية المظهر، وبدا وجهي متغضناً قليلاً، أما شعري فكان أشبه بحيوان يعيش على العوالق.

ضغطت الزر قائلة: "حسناً أيها الأحمق، أحضرها إلى هنا".
رأيت رايان وحده عندما فتحت الباب. بدا الرواق خالياً وراءه. خبأ إذاً مراهقته
الإنيقة. حسناً، هذا أفضل.

بادرته بصوت جليدي: "نعم؟"

ابتسم رايان وتفحصني صعوداً ونزولاً.

- "هل تستضيفين دي كابريو؟"

لم أبتسم.

تفحص رايان وجهي.

- "هناك شيء محير في الحواجب. إننا لا ننتبه لها إلا عندما نتخذ شكلاً مائلاً".

اقترب رايان ليلمس جبھتي، فتراجعت. تابع يقول: "أو عندما نفقدها تماماً".

- "هل قدمت إلى هنا لتنتقد حاجبي؟"

- "عن أية حواجب تتحدثين؟"

لم يترافق كلامه هذا مع أية ابتسامة. كتف ذراعيه قائلاً: "أود أن نتحدث".

- "ليس الوقت مناسباً للحديث".

- "تبدين جميلة".

أجبرت نفسي على عدم تقديم رد سريع يتضمّن كلمتي: فتاة ومغفلة.

- "ومثيرة".

انثنى حاجبي الغائبان.

- "ونار كامنة".

تحول انحناء الحاجبين إلى عبوس كامل.

- "هل أستطيع أن أعود ثانية بعد عشر دقائق، إذا وعدتك بعدم إطلاق نكات

نارية؟ أعتقد أن هذا وقت أكثر من كافٍ لتجعلي نفسك جميلة".

بدأت بالتعبير عن رفضي.

قاطعني بصدق أخاذ: "أرجوك".

انبعثت انفعالاتي، فحولتها إلى يوم غد.

- "بالتأكيد يا رايان. لم لا؟"

بدأت بالإجراءات الضرورية: القهوة، ارتداء الجينز والكنزة، ثم تنظيف الأسنان،
وإبدال الضمادات. انتقلت إلى تسريح شعري، ووضع بعض مساحيق التجميل على

وجهي. سحقاً لكل ذلك!

انطلق الجرس مجدداً بترديد صوت السسقة بعد خمس عشرة دقيقة.
فتحت الباب، ورأيتها إلى جانبه، فجمدت في مكاني. تسمرت نظرات عيني
رايان بعيني: "أريد أن تتعرفي بليلي".
قلت: "لا تفعل هذا بي يا رايان".
- "إنها ابنتي".

انفجرت شفاتي، بينما راح عقلي يحلل معنى كلماته.

- "ليلي، هذه هي تمب".

غيرت ليلي وضعية وقوفها، وتمتت: "مرحباً".

- "أنا مسرورة بالتعرف عليك يا ليلي".

أهي ابنته؟ يا إلهي! وجهت نظرة تساؤلية نحو رايان.

- "تعيش ليلي في هاليفاكس".

استدرت مجدداً نحو ليلي.

- "نوبا سكوتيا؟"

إنها تعيش في نوبا سكوتيا أيتها المغفلة، بالطبع في نوبا سكوتيا.

- "نعم".

تأملت ليلي شعري المجعد، والبثور التي انتشرت على وجهي، لكنها لم تضيف
شيئاً آخر.

قال رايان: "حضرت ليلي إلى مونتريال في اليوم الثالث من هذا الشهر".

إنه اليوم الذي قدمت فيه شهادتي في قضية بيتيت.

- "انشغلنا، أنا وليلي، بالتعرف على بعضنا على مدى الشهور القليلة الماضية".

هزت ليلي إحدى كتفيها، وانشغلت بتسوية رباط حقيبتها.

- "أشعر أنه يتعين على النساء المهمات في حياتي أن يتعرفن على بعضهن".

هل قال النساء المهمات في حياته؟

بدا صوتي كأنه صادر عن قاموس تقليدي: "من دواعي سروري يا ليلي".

انتقلت نظرة ليلي نحو رايان الذي أوماً بصورة عفوية.

- "أنا آسفة بشأن المكالمة الهاتفية. ما كان يجدر بي أن أصفك بالمغفلة".

أدركت أن المرأة التي تكلمت معي من منزل رايان يوم الخميس الماضي كانت

ليلي.

ابتسمتُ: "أنفهم هذا، لأن مقاسمك والدك ليست بالأمر السهل".

هزّت ليلي كتفها مرة أخرى، ثم التفتت نحو رايان: "هل أستطيع المغادرة الآن؟"

أوما رايان: "أدريك المفاتيح؟"

تفحصت ليلي حقيبتها، واستدارت، ثم مشت إلى آخر الرواق. تراجعت قليلاً، وفتحت الباب على مصراعيه: "أدخل أيها الوالد".

تبعني رايان إلى غرفة المعيشة، وخلص سترته، ثم جلس على الأريكة.

استرخيتُ على كرسي بمسندين: "إنه أمر محرج".

قال رايان: "نعم، إنه كذلك".

- "لم أكن أعرف أن لديك ابنة".

- "ولا أنا، حتى شهر آب/أغسطس".

تذكرت رحلته المفاجئة من شارلوت إلى هاليفاكس.

- "لم تكن المشكلة مع ابنة أختك".

- "بدأت المشكلة مع ابنة أختي. توجهت جواً إلى نوناف سكوتيا بعد أن علمت بأمر الجرعة المفرطة التي تناولتها، وذلك لمساعدة شقيقتي على حمل دانييل للانضمام إلى برنامج إصلاح. تبين لي أن إحدى مساعدات الممرضة هي امرأة سبق لي أن عرفتُها في سنواتي الأولى من دراستي الجامعية".

- "أي عندما كانت تدرس في سان فرانسيس خافيير؟"

هزّ رايان رأسه علامة النفي: "أنا كنت أدرس، لا هي. التقيتها أثناء إحدى جولاتي التي اعتدت القيام بها في أولى سنتين من دراستي في سان فرانسيس خافيير. رافقتني لوشيا في إحدى جولاتي، وكانت عضواً في فريق من الشابات المشاكسات. أطلقت الشابات على فريقهن اسم راهبات الحب المنفتح المقدسات".

وضعتُ قدمي تحت مقعدي.

- "تعرفين القصة. انتهت جولتي المتهورة بجرح في شرياني، وبإقامة في المستشفى، بالإضافة إلى اكتسابي لنظرة جديدة بالنسبة لتجربتي في الجامعة. ذهبنا، أنا ولوشيا، كل في طريقه الخاص. رأيتها مرة واحدة، ولربما كان ذلك بعد سنة واحدة من تخرجي عندما عدت إلى نوناف سكوتيا لزيارة أقاربي هناك... انتهيت، أنا ولوشيا، بتجربة مقدسة أخيرة. عدت بعد ذلك إلى مونتريال، وعادت لوشيا إلى منزلها في جزر الباهاما، ثم فُقدَ واحدنا أثرَ الآخر".

قلت مخمئة: "إذا ليلي هي ابنة لوشيا".

أوماً موافقاً.

- "ألم تخبرك لوشيا أنها حامل؟"

- "خافت أن أجبرها بطريقة أو بأخرى على البقاء في كندا."

- "هل تزوجت؟"

- "تزوجت في أباكوس، لكن الزواج انهار عندما أصبحت ليلي في سن الثانية

عشرة. نقلت لوشيا مكان سكنها مع ليلي إلى هاليفاكس."

دخل بيردي وحك جسمه بساقي. انحنيت لاشعورياً وحككت رأسه.

- "ولماذا أخبرتك الآن؟"

- "بدأت ليلي بالاستفسار عن والدها الحقيقي. وبدأت ببعض المغامرات مثلما

فعلت دانييل. وعندما ظهرت أنا..."

فتح رايان يديه.

- "لكنك لم تتوقع ظهور ليلي في مونتريال؟"

- "فتحت بابي ورأيته فجأة. استخدمت تلك الساذجة الصغيرة للتنقلات

المجانية."

لمسني بيردي مجدداً. مسدته ثانيةً. ماذا كان شعوري عندها؟ هل شعرت بارتياح

كبير لأن تلك الغانية اللعوب لم تكن إحدى مغامرات رايان العاطفية؟ أم أنني شعرت

بخيبة الأمل لأنه لم يخبرني بسرّه قبل الآن؟

- "لماذا لم تخبرني عن هذا الأمر؟"

ابتسم رايان: "كانت علاقتنا متوترة في الآونة الأخيرة. أعتقد أنني الملام في

هذا، لأنني كنت أعاني من ضغط شديد مؤخراً، مثل ظهور ليلي في حياتي، والعملية

البوليسية."

مدّ رايان يده إلى جيب قميصه، ثم تذكر الحظر الذي أفرضه على التدخين في

منزلي، فأنزل يده إلى حضنه.

- "يرجع السبب الأساسي لإخفاء هذا الأمر إلى أنني كنت بحاجة إلى التأكد

أكثر."

- "هل طلبت الحصول على برهانٍ على أبوتك لها؟"

أوماً رايان.

- "وكيف استجابت ليلي لهذا الطلب؟"

- "جُنّ جنونها في بادئ الأمر، وبدأت بإثارة المتاعب".
تذكّرت عودة رايان إلى التدخين، وتذكّرت نظراته القلقة. أدركت أن رايان قد خضع مؤخراً لضغوط أكبر مما تعرّضت له أنا.
- "حصلتُ على نتائج اختبارات الحمض النووي في الأسبوع الماضي".
انتظرت.
- "إن ليلى هي ابنتي فعلاً".
- "هذا رائع جداً يا رايان".
- "إنه كذلك بالفعل، لكن هذه الفتاة متطلبة جداً، وأنا لا خبرة لديّ بشأن الأبوة وتربية الأبناء".
- "وماذا حققت حتى الآن؟"
- "كانت لوشيا صريحة مع ليلى. أعلم أن ليلى تحبّ والدتها وستستمرّ بالعيش معها، وإذا ما قرّرت في يوم من الأيام أنها تريد العيش مع والدها فساكون مستعداً لذلك. يتعلّق الأمر بها في النهاية".
مشيت نحو الأريكة وجلست إلى جانب رايان. نظر باتجاهي، وبدت عيناه طفوليتين. أمسكت بيده.
- "ستكون والداً رائعاً".
- "سأحتاج إلى الكثير من المساعدة".
- "ستحصل عليها يا راعي البقر".
لامست وجه رايان بوجهي، وأحسست بشعيرات ذقنه على خدي.
عانقني رايان للحظة، ثم أبعدني عنه قليلاً، ونهض قائلاً: "ابقِي هنا".
انتظرت من غير أن أتأكّد ممّا يحصل. فُتِح الباب الأمامي ومرّت الثواني. أغلق الباب وسمعت جلبةً تبعها صوت جرس يدق.
عاود رايان الظهور مرتدياً قبعة الميلاد، وحاملاً بيده قفصاً كبيراً. رأيت ببغاءً يتأرجح داخل القفص.
وضع رايان القفص على طاولتي الصغيرة ثم جلس إلى جانبي على الأريكة ووضع ذراعه حول كفتي. استمرّ الببغاء بالتطلع نحونا أثناء تأرجحه جيئةً وذهاباً.
قال رايان: "ميلاد مجيد. تعرّف يا تشارلي على تمب"
توقّف الطائر عن تأرجحه. تأمّلتني تشارلي بعينه اليسرى أولاً، ثم بعينه اليمنى

بعد ذلك.

- "لا أستطيع الاهتمام بطائر، لأنني أكون خارج المنزل معظم الوقت".
قفز تشارلي من أرجوحته نحو طبق بزوره. نهض بيردي من وسط الغرفة
ورفع ذيله عالياً، ثم ركز نظره على الببغاء.

وجه راين كلامه إلى الهر: "أريدك يا بيردي، أن تتعرف على تشارلي".
مشى بيردي ببطء فوق السجادة، وبدا لي أنه نمر صغير يمضي في جولته
الصباحية. وضع الهر مخالفه الأمامية على الطاولة الصغيرة، ورفع جسمه باتجاه
القفص، بينما لم يتحرك من ذيله سوى طرفه.

رفع تشارلي رأسه، ومد رأسه نحو بيردي، ثم أعاد التركيز على تناول بزوره.
- "إنه جميل فعلاً يا راين".

بدا الطائر جميلاً حقاً. بدا رأسه أصفر اللون، أما جسمه فكان رمادياً.
قفز بيردي إلى سطح الطاولة، ووضع مخالفه بشكل مربع، وجلس ثم راح يحدق
بالببغاء.

- "إنها فكرة جميلة يا راين، لكنها غير مجدية".
بدا خد الطائر أرجوانياً.

تركز بيردي في وضعه الذي يشبه وضع أبو الهول. لف مخالفه إلى الورا،
وظل ينظر نحو الطائر. بدا ريش أجنحة الطائر مخططاً باللون الأبيض.
بدأ بيردي بالفرقة، فنظرت إليه مدهوشة.

قال راين: "يبدو أن بيردي يحبه".

- "لا أستطيع التواصل جواً مع هرّ وطائر".
- "لدي خطة".

تطلعت باتجاه راين.

- "تعال، لتعيشي معي".

- "ماذا تقول؟"

- "تعال اسكني معي".

أحسست بما يشبه الصدمة. لم تخطر فكرة المساكنة على بالي إطلاقاً. هل أريد
فعلاً أن أعيش مع راين؟

نعم.. لا.. ليس لدي أية فكرة. حاولت أن أفكر بجواب مناسب. أعتقد أن كلمة

لربما تفتقر لأسلوبٍ ما، بينما تبدو كلمة لا شبه نهائية.
لم يبذل رايان المزيد من الضغط.
- "أقدم لك الخطة البديلة، والتي هي الرعاية المشتركة. أقصد أنني سأعتني
بتشارلي عندما تكونين خارج المدينة".
نظرت نحو البيغاء. بدا لي جميلاً حقاً. ويبدو أن بيرد قد أحبه.
مددت يدي قائلة: "موافقة".
تصافحت مع رايان دلالة على عقد الاتفاق.
- "تبقى الخطة الأولى على الطاولة في هذا الوقت".
هل سأعيش مع رايان؟ فكرت أنه لربما كان ذلك احتمالاً وارداً. أعتقد أن ذلك
هو مجرد احتمال.

قررت في ذلك المساء أن أزور مكتبي. أمضيت ساعة فيه قبل أن يرن جرس
الهاتف.

- "دكتورة بريان؟"
- "نعم".
- "أنا باميلا ليندال. أنا الطبيبة النفسانية المكلفة من قبل هيئة الخدمات
الاجتماعية بالتأكد من أن تاووني ماك جي تحصل على التقييم والرعاية اللازمين لها.
هل تتفضلين بالبقاء في مكتبك لمدة خمس وأربعين دقيقة أخرى؟"
- "نعم".
- "أرغب بالقيام بزيارة قصيرة إلى مكتبك. هل تتفضلين بالطلب من موظفي
الأمن أن يسمحوا لي بالمرور؟"
- "بالتأكيد".

تمنيت لو أنني رفضت طلبها ما إن انتهت المكالمة. أعرف أنه يتعين عليّ
الاعتراف بأهمية تقديم كل المعلومات المتوافرة إلى هيئات الرعاية، لكنني أعرف
أيضاً أنني لا أحب تذكر، أو رواية كل الإهانات، أو الشرور، التي شاهدها بنفسى.
فكرت بمكالمة الطبيبة ليندال والطلب منها عدم القدوم، ثم تغلب عليّ الشعور
بالواجب، فأسرعت بالاتصال بموظفي الأمن، وبدأت بتحضير لائحة ذهنية بالأشياء
التي يمكنني إبلاغها لها.

سمعت دقة على بابي بعد خمس وأربعين دقيقة.

- "ادخل".

دخلت الغرفة فتاة نحيلة ذات شعر داكن، وترتدي معطفاً وقبعة بنّي اللون، وتبعثها امرأة أكبر منها ترتدي ثوباً صوفياً، لكنها لا تعتمر قبعة. مرت فترة تشوش واضطراب، ثم توضّحت الأمور.

اقتربت الفتاة واستدارت حول طاولتي. مددت يديّ الاثنتين، وقلت للفتاة: "مرحباً يا تاوني".

تراجعت تاوني قليلاً إلى الوراء، لكنها لم ترفع ذراعيها.

شبكت يديّ أمامي وقلت: "أنا سعيدة جداً لرؤيتك. أردت أن أشرك لإيقاظك حياتي".

لم أتلّق أيّ استجابة في البداية، ثم سمعتها تقول: "أنت أنقذت حياتي".

تردّدت الفتاة قليلاً، ثم قالت ببطء: "أنا طلبت إجراء هذه الزيارة لأنني أردت أن تريني. أردت أن ترني أنني كائن بشري، ولست كائناً موضوعاً في قفص".

تقدّمت نحوها، لكنها ثبتت في مكانها هذه المرة. عانقتها وقربت رأسي من رأسها. غمرني شعور بالتعاطف مع النساء الصغيرات في السن في كل مكان، واللواتي يلاقين الحب أو الإساءة، كما شعرت بتعاطف غريب مع تاوني وكاتي وكل امرأة صغيرة في السن إلى درجة أنني شرعت بالبكاء. لم تبك تاوني، لكنها لم تحاول الابتعاد عني.

تركتها وتراجعت قليلاً إلى الوراء، لكنني أمسكت بيديها.

- "لم أفكر بك أبداً إلا كإنسانة يا تاوني، وهذه هي حال الأشخاص الذين

يساعدونك الآن. إنني متأكدة من أن عائلتك تريد بشدة أن تعود إليهم".

نظرت نحوي، وأسدت ذراعيها إلى جانبيها، ثم ترجعت إلى الوراء.

- "وداعاً يا دكتورة برينان".

بدا وجهها خالياً من التعابير، لكن العمق الذي لاحظته في عينيها اختلف عن تلك النظرة الشاردة التي لازمتها في الأيام السابقة.

- "وداعاً يا تاوني. أنا سعيدة جداً لأنك جئت لزيارتي".

ابتسمت الدكتورة ليندال باتجاهي، ثم غادرت المرأتان مكنتي.

عدت لأسترخي على مقعدي. شعرت أنني مرهقة لكنني كنت في حالة معنوية

مرتفعة.

الفصل 40

أُتت فترة الأعياد، ورحلت. أشرقت الشمس وغربت على مدى شتاء كامل من أيام الاثنين.

وجد المحققون مفكرة في قبو دي سيباستوبول. وُجِدَت هذه المفكرة في واحد من عشرات الصناديق التي عُثِرَ عليها هناك. تضمّنت المفكرة أسماء كثيرة ومن بينها، أنجيلا روبنسون، وكمبرلي هاملتون، وأنيج بومرليو، وماري جويل باستيان، ومانون فيوليت، وتاوني ماك جي.

تعرف المحققون على الهيكل العظمي الذي يحمل الرقم 38427، على أنه يعود لماري جويل باستيان، وهي فتاة متحدرة من مستعمرة أكاديا الفرنسية، أي أنها من بوكستوش، الواقعة في برونزويك الجديدة. سُجِّلَت الفتاة في سجل المفقودين في ربيع العام 1994. ضاع ملفها مع مرور السنوات، وشُطِبَ اسمها من قائمة الأشخاص المفقودين. أوحى تقديراتي التي توصلت إليها والمتعلقة بالعمر والطول أن ماري جويل قد توفيت بعد وقت قصير من أسرها.

تعرف المحققون على الفتاة التي وُضعت في صندوق الدكتور إنرجي، وقالوا إنها تدعى مانون فيوليت، وهي فتاة كانت في الخامسة عشر من عمرها ومن سكان مونتريال. اختفت الفتاة في خريف العام 1994 بعد مرور ستة أشهر على اختفاء ماري جويل باستيان. أوحى عمر عظام مانون وطولها أنها عاشت في الأسر لعدة سنوات.

عادت عظام أنجي روبنسون، وماري جويل باستيان، ومانون فيوليت، إلى عائلاتهم بحلول شهر آذار/مارس. جرى دفن عظام كل فتاة من الفتيات وسط احتفال هادئ.

لم يعثر المحققون أبداً على كمبرلي هاملتون.

انخرطت آن وطوم تيد في دورة استشارية سريعة. تدرّبت آن على لعبة الغولف، أما طوم فاشترى كتاباً حول البستنة. زرع الاثنان عدداً لا يحصى من نباتات

الأزاليا.

لم أتصل بتاوني ماك جي ثانية، لكنني علمت أنها خضعت لبرنامج علاجي مكثف داخل مركز طبي. علمت كذلك أنها انتقلت إلى منزلها في مانيواكي. أعرف أن طريق علاجها كانت طويلة، لكن الأطباء كانوا متفائلين بشأنها. عممت دائرة الشرطة صورة أنيغ بومرليو عبر القارة بكاملها. أعرف أن دائرة شرطة مونتريال، وشرطة كيبيك، قد تلقنا عشرات الإخباريات عن مشاهدات لبومرليو في أمكنة شيربروك، وألباني، وتامبا، وتندر باي.

ويستمرّ البحث...

عن أنيغ بومرليو.

وعن كمبرلي هاملتون.

وعن كل الفتيات المفقودات.

من الملفات العديدة للدكتورة كاتي رايس

لا أستطيع، لأسباب قانونية مناقشة أية قضايا حقيقية من تلك التي ساهمت بالإيحاء إليّ بقصة: الاثنين الأسود، لكنني أستطيع مع ذلك مشاركتكم ببعض التجارب التي ساهمت في وضع حبكة هذه الرواية.

ساد طقس مشمس يشجع على ارتداء الملابس الخفيفة في ذلك الأسبوع من أيلول/سبتمبر. بدا أنها فترة من الجفاف قبل قدوم الفترة الباردة التي تستمرّ تسعة أشهر.

خصّصتُ يوم الرابع عشر من أيلول/سبتمبر من أجل التجول في الجبل، وممارسة لعبة كرة المضرب، أو ركوب الدراجة الهوائية في الطريق المحاذي لقناة لاشين. لم أمارس كل هذه الرياضات لأنني تلقّيت اتصالاً هاتفياً يدعوني للحضور إلى المختبرات.

انتظرتني عندما وصلت قضية طلب إبداء رأي في الأنثروبولوجيا، ووضعت فوق طاولتي. تناولت الاستمارة وتفحصت كل المعلومات الواردة فيها.

تشتمل الاستمارة على الرقم المعطى من المختبرات، ورقم المشرحة، ورقم الحادث عند الشرطة، واسم ضابط التحقيق، واسم المحقق الجنائي، واسم الطبيب الأخصائي في الأمراض. تتضمن الاستمارة أيضاً وصفاً للعينات، ويشمل ذلك بقايا أجزاء العظام. ويشمل الرأي المتخصص: التحليل البيولوجي، وطريقة حدوث الوفاة، والمدة التي مضت على الوفاة.

تطلّعت على المغلفات السمراء الثلاثة والمختومة بشريط أحمر مخصص للأدلة.
حسناً!

يقول ملخص الحقائق المعروفة إن الحادث بدأ في مرحاض احتياطي في مطعم يبيع شرائح البييتزا. تعطلت دورة المياه في ذلك المطعم، فأسرع المالك بطلب

المساعدة. بدأ العمل على الأنابيب، لكن السمكري لاحظ باباً خفياً وراء خزانة ذات أدراج.

ذُهل ذلك السمكري الفضولي، وراح يمعن النظر ويستطلع المكان، ثم بدأ بالنزول إلى الأسفل. زاد ذهول ذلك الرجل عندما سطع ضوء مصباحه وانعكس على عظمة نصف مطمورة. صعد الرجل إلى الأعلى وأعلم مالك المطعم بالأمر، ثم انكبّ الاثنان على دراسة المراجع المحلية. وجدا مقالة في L'Anatomie pour les Artistes أكدت لهما أن ما عثرا عليه في القبو ليس إلا عظمة فخذٍ بشرية.

اتّصل الرجلان بالشرطة التي فتّشت القبو وعثرت فيه على زجاجة، وقطعة عملة، وعلى دزینتین من العظام البشرية. أرسلت العظام إلى المشرحة، ثم قام المحقق الجنائي بالاتصال بمختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي. ألقى الأخصائي بعلم الأمراض نظرة واحدة على العظام، ثم رحلت لأكتشف انهيار مشاريع نهاري.

شغلني التصنيف والتحليل لعدة ساعات. استطعت في النهاية ترتيب وجود ثلاثة أفراد على طاولتي: فتاة بالغة كانت في مقتبل عمرها الذي تراوح ما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، وامرأة بالغة أخرى في منتصف عمرها، وامرأة أكبر سناً تعاني من حالة متقدمة من التهاب المفاصل. لاحظت أن الفتاة الأصغر سناً من بينهن عانت من ضربة بألة حادة على الرأس، والفك، وفي منطقة العجز، وكذلك في عظمي الفخذ والساق.

استدعيت رجال التحري الذين أخبروني أن الزجاجة حديثة العهد، لكن قطعة العملة قديمة وترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر. لم يستطع رجال التحري إثبات وجود علاقة ما بين قطعة العملة والهيكل العظمية. طلبت منهم العودة إلى القبو لأنني احتجت العثور على المزيد من العظام.

مرّ أسبوع.

تلقيت أخباراً سيئة من رجال التحري الذين أبدوا عدم إقامة مقبرة في الماضي في قطعة الأرض الموجودة تحت عمارة مطعم البيترز. تلقيت أخباراً أسوأ. أبلغ رجال التحري عن احتمال ارتباط أحد شاغلي المتاجر في العمارة مع عصابة إجرامية قبل نحو أربعين عاماً.

كررت طلبي مجدداً لمزيد من البحث، واقترحت عليهم أن أرافق الفريق للعمل في القبو. مرّ أسبوع آخر مجدداً. ثم مرّ أسبوعان.

لماذا التردد في العودة إلى القبو؟

واجهت الرجال بهذا السؤال فتلقّيت جواباً موحداً منهم.

الجرذان!

عقدت تسوية مع الرجال. تعالوا نثبت أن الوفيات قد حدثت في غضون خمسين سنة مضت، ثم نمضي بعد ذلك كي ننبش القبو بكامله ولتذهب تلك القوارض إلى الجحيم.

تركزت تحليلاتي بعد ذلك على تحديد الفترة التي مضت على الوفاة. اكتشفت أن كل عظمة، وكل كسرة، من العظام كانت جافة وخالية من الرائحة، أو من أثر اللحم. وجدت بصيصاً من الأمل في تقنية واحدة فقط.

شرحت طريقة استخدام الكربون 14 الصناعي المشع في تحديد المدة التي انقضت على وفاة شخص ما، وذلك بمقابلتها مع مواد عضوية حديثة. وافق مكتب التحقيقات الجنائية على دفع مصاريف ذلك الاختبار. أخذت عينات من هيكلين عظميين وأرسلتها إلى مختبرات شركة بيتا للتحليل، والتي تشتمل على مختبر لتحديد عمر الكربون المشع. يقع مركز هذه الشركة في ميامي، فلوريدا. تلقينا النتيجة التي انتظرناها بعد مرور أسبوع واحد.

أتضح لنا أمر واحد بالرغم من تعقد نتائج الاختبار. توفي ضحايا مطعم البييتزا قبل سنة 1955.

لم تبرز حاجة إلى انحناء إسدال الستار في راتوس، راتوس، ولربما كان علينا أن نعطي بعض الدروس للمنقبين عن الآثار.

ما زلت أفكر ملياً بتلك العظام مع أن الملف قد أقفل منذ مدة. تأثرت كثيراً عندما فكرت بالفتيات الرافقات في قبور مجهولة، في قبو مجهول، بينما يستمر الأحياء بالعمل فوقهن بطابق واحد.

أعطني علبة بيبيسي من فضلك، وقطعة نقانق بالبهارات مع جبنه لآخذها معي.

ماذا كانت الفتيات لتقلن في ذلك؟

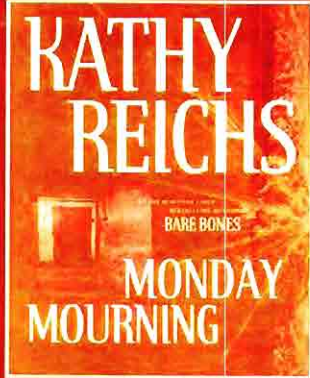
المؤلفة في سطور

كاتي رايكس هي عالمة شرعية بعلوم الإنسان. تعمل في مكتب رئيس المحققين الطبيين في ولاية كارولينا الشمالية، وهي تعمل كذلك في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبك. تعمل المؤلفة من ضمن فريق يبلغ عدده ستين شخصاً من المحققين الجنائيين المجازين من قبل المجلس الأميركي لعلوم الإنسان الشرعية. عملت المؤلفة من ضمن اللجنة العليا لمجلس إدارة الأكاديمية الأميركية للعلوم الشرعية. الدكتورة رايكس، وهي من مواطني مدينة شيكاغو حيث تسلمت درجة دكتوراه من جامعة نورث ويسترن، تدرّس مادة علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في جامعة كارولينا الشمالية الواقعة في مدينة شارلوت. إنها تقسّم وقتها حالياً ما بين مدينتي شارلوت ومونتريال، كما أنها كثيراً ما تُستدعى لتقديم شهادتها كخبيرة في المحاكمات الجنائية. جلبت رواية الدكتورة رايكس الأولى: إنه ميت. الشهرة لها عندما وُضعت على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في جريدة نيويورك تايمز، وكذلك عندما نالت الرواية جائزة إيليس عام 1997 عن أفضل أول رواية. تتابعت رواياتها: ميت النهار، قرارات قاتلة، الرحلة القاتلة، أسرار خطرة، وعظام جرداء، وكلها احتلت مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في جريدة نيويورك تايمز. تُعتبر رواية الاثنين الأسود سابع رواية تجسد شخصية تمبرانيس برينان.

رواية جنائية مثيرة أخرى تجسد شخصية تمبرنس برينان من كاتي رايكس عالمة الأثروبولوجيا المعروفة عالمياً، وهي المؤلفة التي تربعت مؤلفاتها طويلاً على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً لجريدة نيويورك تايمز...

تعمل تمبرنس برينان بصفتها خبيرة الأثروبولوجيا القضائية لولاية كارولينا الشمالية، وفي كوبيك. أتت تمبرنس من مدينة شارلوت إلى مونترال في الأيام القارسة التي يتميز بها شهر كانون الأول / ديسمبر، وذلك لتقديم شهادتها كخبيرة في محاكمة جنائية.

يُفترض بتمبرنس مراجعة مدوناتها، لكنها تجد نفسها بدلاً من ذلك في قبو مطعم بيتزا. وجدت نفسها وسط البرد القارس والجرذان الزاحفة. لم يكن الأمر مسلياً، وعلى الأخص بعد أن اكتشفت بقايا عظام ثلاث نساء. كيف وصلت هذه العظام إلى القبو؟ ومتى حدثت وفاتهن؟



يعتقد كلوديل، وهو رجل التحري الجنائي الذي لم يكن من المعجبين بتمبرنس، أن العظام قديمة العهد، ولذلك فلا شأن له بهذه القضية. وجد صاحب مطعم البيتزا ثلاثة أزرار في القبو إلى جانب الهياكل العظمية، ويعود تاريخها للقرن التاسع عشر. اعتبر كلوديل هذه الأزرار بمثابة دليل على قدم عهد العظام.

بقي شيء واحد بلا تفسير. تتفحص تمبرنس العظام في مختبرها وتستنتج عمرها التقريبي باستخدام تقنية الكربون 14. كما دلت الفحوصات التي أجرتها على طبقة ميناء أسنان الهياكل على مكان ولادة النساء. وإذا تبين أنها محقة فسيجد كلوديل ثلاث قضايا بين يديه، وعندها سيكون مجبراً على الاهتمام بها.

يتصرف رجل التحري رايان في هذه الأثناء بطريقة غريبة. ما هو سر تلك المكالمات الهاتفية الغامضة التي يجريها في غرفة أخرى، ولماذا يختفي فجأة في الوقت نفسه الذي تتعزز فيه آمال تمبرنس في أن يكون جزءاً ثابتاً من حياتها؟ يبدو أن ليالي موحشة كثيرة تنتظرها وهرها «بيردى».

تحاول تمب إيجاد حلول لمشاكلها في حياتها الخاصة والمهنية على السواء، لكنها تجد نفسها منزلة نحو شبكة عميقة من أعمال الشر، والتي يبدو أنه لا خلاص لها من شركها. اختفت النساء إلى الأبد... ولعل دور تمبرنس قد جاء الآن.

تُعتبر «الإثنين الأسود» قمة الروايات التي ظهرت حتى الآن في التشويق، بما تتضمنه من تفاصيل العلوم الشرعية المبتكرة على يد مؤلفتها الفاتحة الشهيرة والموهبة، والتي تقول عنها صحيفة نيويورك نيوزداي إنها «الشيء الحقيقي».

تعمل كاتي رايكس بصفتها عالمة أثنوبولوجيا في مكتب رئيس المحققين الشرعيين في ولاية كارولينا الشمالية، وتعمل كذلك في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في ولاية كوبيك. إنها واحدة من فريق يضم ستين شخصاً فقط من علماء أثنوبولوجيا الشرعية في مقاطعة كوبيك وهم مجازون من المجلس الأمريكي لعلوم الإنسان الشرعية. تدرّس الدكتورة رايكس مادة الأثنوبولوجيا في جامعة كارولينا الشمالية الواقعة في مدينة شارلوت، وهي من مواطني مدينة شيكاغو حيث تسلمت درجة دكتوراة فلسفة من جامعة نورث ويسترن. تقسم الدكتورة رايكس وقتها الآن ما بين مدينة شارلوت ومدينة مونترال. تُعتبر رواية «الإثنين الأسود» السابعة من مجموعة الروايات التي تجسد شخصية تمبرنس برينان. جلبت رواية «ديجا نيد» الشهرة للمؤلفة عندما وضعت من ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، وهي الرواية التي نالت جائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. موقع المؤلف على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.



مكتبة مجبولى

Madbouly Bookshop

6 ميدان طاعت حور - القاهرة
هاتف: 5796421 فاكس: 5729854
info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون

Scientific Publications
www.asp.com.lb www.aspbooks.com

من - 13 5574 شوارب 2050 1102 بيروت - لبنان
هاتف 8 785107 (+961-1) فاكس 11 786230 (+961-1)
البريد الإلكتروني asp@asp.com.lb

www.neelwafurat.com

نيل وفرات. كوم

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت